


الموج الساحر

محمد عاطف البرقوقي

الموْج السَّاحِر

اقرأ ٦١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦١ — ديسمبر سنة ١٩٤٧



١

سحر

إن من البيان لسحرا

قيل فى الأمثال إن من البيان لسحراً ، أى أن من فصاحة اللسان وعذوبة البيان ما يؤثر على النفوس فيسحرها ، ويتغلغل إلى العقول فيسلبها ، وللبيان القدرة على أن يطلى الباطل بثوب الحقيقة ، وأن يجرد الحقيقة فتبدو كالباطل . وكم من محام قدير تمكن ببيانه من أن يبرئ متهماً أو يتهم بريئاً ، وكم من خطيب مفوه أو قائد أديب تمكن من أن يسلب عقول سامعيه فيشيع الحماس فى نفوسهم لتنفيذ فكرته ، ويقودهم إلى ما يهوى ويريد ، حتى يمكنه أن يحفزهم إلى اقتحام الأخطار والاندفاع إلى المهالك فتهون نفوسهم فى سبيل تحقيق رغباته . وقد قال بعض الشعراء يصف خطيباً مصقعاً :

علیم بأسرار الكلام وقاهــر
لكل خطيب ، يغلب الحقّ باطله

إن من البيان لسحرا مثل قاله النبي « صلى الله عليه وسلم » .
وأصل هذا المثل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمرو بن الأهتم، أخبرني عن الزبرقان قال :
« مطاع في أدانيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره » .
قال الزبرقان :
« والله يا رسول الله لقد علم عني أكثر من هذا ولكن حسدني
قال عمرو بن الأهتم :
أما والله يا رسول الله إنه لزَمِن المروءة ، ضيق العَطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال .
وكأنما دهش النبي صلى الله عليه وسلم من تناقض الرأيين من المديح في الكلام الأول إلى الذم في الكلام الثاني فقال ابن الأهتم :
« ما كذبتُ في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكني سخطت عليه فقلت أقبح ما فيه ولم أكذب » فقال النبي « صلعم » إن من البيان لسحرا . . .

وإن من العلم لسحرا

حقيقة إن من البيان لسحرا ، فإن الأدب يستهوي النفوس ، ويطرب الأفئدة ، ويرقق الأحاسيس ، ويهز المشاعر ، ويحلق

بالإنسان فى عالم الخيال . وإذا كان للأدب هذا التأثير فى العصور القديمة والوسطى — بينما العلم بدأ فى عصر النهضة ، يحبو كالأطفال ، وقد أصبح فى عصرنا الحديث جباراً عاتياً — فقد أصبحت للعلم الصدارة دون الأدب ، حتى أصبح عصرنا بحق عصر العلوم ، وإن سمى بأسماء أخرى فهى إلى العلوم تمُتّ . . .

فإن سمى عصر السرعة أو عصر الكهربا أو عصر الآلات أو عصر اللاسلكى أو عصر الذرة . فهى جميعاً تعتمد فى مخترعاتها على العلوم ، وأصبحت آثار العلوم بادية للجميع .

كانت العربات فى العصور القديمة تجرها الخيل ، فأصبحت فى عصرنا بدونها ، فلو بعث رجل من رجالات الماضى لشَدِهَ وتعجب ، من عربات تسير بدون خيل ، وآلات تنطق وتغنى ، وقاطرات تنهب الأرض نهباً ، وطائرات ترتفع فى الجو ، وغواصات تختفى تحت سطح الماء ، ومنازل وشوارع تضاء فى لحظة وتطفأ فى لحظة ، وأسلاك تنقل الكلام ، ولاسلكى يصل إلى كل بيت ودار ، ويغمر كل ميدان ومطار ، ويمكن بواسطته أن يتصل شخص فى الأرض بمن فى السماء من طائرات وبمن على سطح الأرض من قاطرات وسيارات . وأصبحت الحروب الحديثة لا تكسب بالأدب وفصاحة اللسان فحسب ، بل

تطورت الحروب مع العلوم . فلم تصبح حرب درع وسيف ولا حرب طعن ونزال ، بل حرب علم ومفاجئات علمية ، ولم تعد أصلح الأمم للبقاء أكثرها جنداً وأعزها نفراً . وأمنعها حصناً ، وأبعدها منالا ، فكم من بلد منيع بجباله العالية ، وحصونه الطبيعية ، قهره العلم بطائراته التى تحلق فوق الجبال ، وقاذفاته التى تدك أمنع الحصون ، وأساليبه وأدواته وغازاته السامة التى تميت أكبر عدد من الجند .

وهو العلم الذى يحدد مكان الغواصة وسط البحار فيحدد مكانها وعمقها فيلقون بقنبلة الأعماق ، فإذا بالغواصة تصاب ويرتفع منها زيت إلى سطح البحار . وكان هتلر يرسل طائراته إلى لندن بالمئات ، فكشف الإنجليز الرادار الذى يعرف الطائرات قبل أن تصل إلى إنجلترا ويعرف مواضعها واتجاهاتها . وفوجئ هتلر بإصابة أكثر طائراته فى كل غارة بعد أن كانت تعود بأجمعها . فهذا هو السحر . الذى بدل الأمن خوفاً ، والانتصار هزيمة . وهكذا كانت هذه الحرب الأخيرة حرب علم حتى ختمت فى نهايتها بأقوى انتصار للعلم ألا وهو القنبلة الذرية التى تفنى مدناً بأكملها ، وجعلت اليابان العاتية تركع على ركبتيها تطلب التسليم والخضوع بمجرد إلقاء القنبلة الذرية عليها ،

فاختراع القنبلة الذرية أنهى هذه الحرب العالمية الثانية فى لحظات ، فكان أثرها أكثر من السحر فى النفوس .

فراسة العالم

وإذا كان هذا هو التأثير السحرى للعلم على المدنية والدول ، فإن العالم نفسه ، أو رجل العلم ، له سحره وأهميته ، وله قدره ، ومنزلته ، فان كان يشتغل بالفلك فإنه يتنبأ عن علم بميعاد الكسوف والخسوف ، وينتظر الناس هذا الميعاد فتصدق نبوءته .

وإن كان يشتغل بتتبع الجرائم ، فإنه يستخدم العلم فى معرفة المتهم وإثبات التهمة عليه بما لا يدع مجالا لأى شك أو مناقشة .

ويمكن أن يلتقط العالم آثار البصمات وآثار الأقدام بطرق علمية مهما دقت تلك الآثار وكانت خفيفة ، ويمكنه أن يحلل الدم الملوث فى ملابس القاتل ، فإن ادعى أنه دم دجاجة ، أو غير ذلك من الادعاءات أثبت بطرق علمية أنه دم إنسان ، واستنبط كثيراً من خواص هذا الإنسان .

ويمكن إثبات نسبة الطفل إلى أمه الحقيقية إن اختلفت سيدتان على الطفل ، فيثبت بما لا يدع مجالا للشك علاقة دم الطفل ودم الأم .

ويمكن بالعلم أن نعرف الإمضاءات والخطوط المزورة ، بل ويمكن باستخدام ميكرسكوب معرفة أشياء كثيرة ، فمثلا إذا أعطى العالم شعرة فإنه يمكنه أن يثبت بالمطياف إن كانت هذه الشعرة لإنسان أو حيوان ، وإن كانت قد سقطت سقطة طبيعية أو مقصوصة أو مقطوعة ، بل يمكنه أن يعرف من أى أجزاء جسم الإنسان ، بل وجنسية صاحبها .

ويمكن بوساطة الميكرسكوب اختبار الرصاص ومعرفة البندقية التى أطلقها ، وإن كان يمكن للشخص العادى من رجال الجيش أن يعرف نوع الرصاصة ومقياس البندقية ، ولكن بالعلم يمكن معرفة البندقية وتحديدها ودقائق ماسورتها .

بل أصبح العالم يقيس الغضب والرضا ، بعد أن كانت تعرف بالفراسة ، وكم تخطئ الحواس والفراسة .

وإن كان العالم طبيباً ، فلم يعد الطبيب الحديث يعتمد على سمعه وضربات يده ، بل أصبح يعتمد على القياس والتجربة والتحليل ، من بول وبراز ودم وبصاق وأشعة ، وكم فتح العلم للطبيب سبلا وأجهزة جديدة ، تعينه على دقة التشخيص والعلاج الناجع .

وكم أفاد العلم فى الزراعة : فى زيادة المحصول وتنويعه ، بل والتحكم فيه ، وفى ميعاد المحصول وكميته ونوعه وتنويعه ، إذ

كثيراً ما يستخدم الكهربا مثلا فى زراعة بعض الخضر فى غير أوانها الطبيعى ، فتشع على النبات من حرارتها وضوئها القدر اللازم لإنمائه ، وكذلك تستخدم الكهربا فى تدفئة البيض المعد لفقس الكتاكيت ، بل كم أنتج العلم آلات جديدة وطرقاً جديدة للزراعة ، وهكذا إن كان العالم صانعاً أو تاجراً أو مدنياً أو مفكراً ، كان العلم من أهم أسباب قدرته وتفكيره ومنطقه المتزن المبنى على التجربة والمشاهدة والاستنباط حتى أصبح العلماء فى عصرنا الحديث هم أكثر الحكام اتزاناً وإنتاجاً ، وأصوب اتجاهاً وأعدل حكماً .

وهكذا نجد فراسة العالم قد تغلغلت فى شتى نواحى الحياة ، وأصبحت فراسته دقيقة صحيحة ، لا يعتورها الخطأ من أى جانب ولا يأتيها الشك من أى ناحية .

التنبؤ بالمستقبل

معرفة المستقبل مما يستهوى النفوس ، ويهز أوتار القلوب ويرفع درجة الشوق إلى أقصاه ، فقد طبعت النفوس على حب الاستطلاع ، والميل إلى معرفة الغيب ، والتلهف إلى كشف ستار المستتر ، والعمل على استجلاء الغامض ، والجرى وراء استيضاح المجهول .

وهذا الطبع نشأ مع الإنسان منذ نشأته ، ولذلك انتشر بين الناس منذ أقدم العصور من يمتهن التنبؤ بالمستقبل ، وعرف من بينهم أقلهم درجة وهم الدجالون . ثم ظهر المنجمون . وعلم الفلك ومعرفة النجوم من العلوم القديمة ، وعرف القدماء بعض الكواكب السيارة مثل عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ، وشاهدوا علاقة بعض الظواهر الطبيعية وتغير الصحة والمزاج بتغير الفصول وتغير أوجه القمر ، وحركات النجوم .

ولجهل الناس فى العصور القديمة بالقوى المحركة لهذه النجوم ظنوا أن لكل كوكب إلهاً يسيطر عليه ويحركه ، ومع تقدم العلم ترك العلماء هذا الظن ، ولكن بقى أثره مع جمهرة من الناس الذين لا يزالون يعتقدون فى تحكم هذه الأجرام فى الأرزاق والمستقبل وإيقاع النفور ، وهذا هو التنجيم الذى قيل فيه بحق : « كذب المنجمون ولو صدقوا » ، أى أنه إذا جاء تنبؤهم حقيقة واقعة ، فإن ذلك من سبيل الصدفة . وإلى الآن نجد من يتنبأ بالمستقبل ، خاصة من السيدات وذلك بفتح الفنجان وورق اللعب (الكتشينة) ، والمندل ، ثم يرتفع هذا قليلا إلى فحص الكف . وتجد هؤلاء المتنبئين أقرب الناس إلى القلوب ، وألصقهم بالنفوس ، حتى نفوس الرجال والعلماء والساسة ، وهناك من القادة فى التاريخ من كان يرتاح إلى الاستماع إلى

هؤلاء . فهى غريزة فى جميع الطبقات منذ أقدم العصور .

المشاهدة عند العرب

واشتهر العرب بالفراسة وشدة الذكاء ، حتى كان يحكم الواحد منهم على الشخص وخلقه ومستقبله من مشاهدة شكله ومعارف وجهه ، ففى كتبهم يقولون إن عظم الجبين يدل على البله ، وعرضه يدل على قلة العقل ، وصغره على لطف الحركة ، والعين إذا كانت صغيرة دلت على سوء دخلة وخبث شمائل ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها دليل فطنة وحسن خلق ومروءة ، والناتئة على اختلاط عقل ، والطائرة على حدة ، والتى يطول تحديقها على قحة وحمق ، والتى تكسر طرفها على خفة وطيش .

والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان ، وهكذا ، وهذا من مشاهدة عدة حالات واستنباط الحقائق منها .

وكان من علوم العرب التى ورثوها وأجادوها اقتفاء الأثر ، ويعرفون من الأثر شخصية السائر واتجاهه وخلقه ، وهى من الفراسة المبنية على المشاهدة والاستنباط .

قصة البعير الضائع

ومن قصص العرب المشهورة فى اقتفاء الأثر ومعرفة صفات السائر قصة بعير فقده صاحبه وعرف صفاته أربعة إخوة كانوا سائرين فى الصحراء ، ووصفوه لصاحبه حتى اعتقد أنهم سارقوه ، وقد وصفوه بأنه أعور وأزور وأبتر وشرود ، أما أنه أعور فلأن أحدهم شاهد أنه كان يرعى جانباً ويترك جانباً ، وحكموا أنه أزور لأن أحدهم شاهد إحدى يديه ثابتة والثانية فاسدة ، وحكموا أنه أبتر لاجتماع بعره ، ولو كان زبالا لمصع به ، وقالوا إنه شرود لأنه يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه .

التنبؤ بالمستقبل فى العلوم

قد ذكرت أن الكهانة باطلة والتنجيم كذب . يصدق أحياناً عن طريق الصدفة ، وأن فراسة الأشخاص محدودة تختلف باختلاف الأشخاص ، فهذه قصة البعير والإخوة الأربعة ، كانت فراسة كل شخص مخالفة لفراسة الآخر ، بل إن فراسة الشخص الواحد تختلف باختلاف مزاجه بل باختلاف صحته ومرضه ، وباختلاف راحته وتعبه وشبابه وكهولته ، فإن الحواس

تضعف مع السن ، بل إن الحواس فى أعز نشاطها وشباب صاحبها لتعجز عن الإدراك الكلى ، فالعين لا ترى بعض الأشياء إلا بآلات المنظار إذا بعدت الأجسام ، وبالمجهر إذا دقت الأشياء ، وفى كلا الحالين فإن الأجسام موجودة ولا تراها العين المجردة ؛ وإذا ضعف الشخص قل مدى نظره ونقص مدى إبصاره . ومن هنا تقهقرت حواس الكهانة والتنجيم وكل ناحية من نواحى معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل ، وتقدمت العلوم فأصبح لها الصدارة والثقة واليقين فى معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل ، وذلك فى حدود وسائلها .

فالعلم يتنبأ بالجو فى المد والجزر والكسوف والخسوف ، وتقع الحوادث فى التواريخ المحددة التى يتنبأ بها العالم .

والعلم قد وزن الأرض ، وعرف تركيب الشمس ودرجة حرارتها ، وقدر أبعاد النجوم وأقدارها ، ووزن الذرة وتركيبها وطاقتها ، وكل هذا مع أنه لم يضع الأرض على كفة ميزان ، ولم يصل إلى الشمس أو النجوم ، ولكنها استنتاجات العلوم المبنية على التجربة والمشاهدة ، ثم استنباط الحقائق الثابتة ، كما استنبط الإخوة أوصاف البعير من آثاره ومشاهداته .

وقد تنبأ العالم الإنجليزى مكسوبل سنة ١٨٧٣ باللاسلكى

وموجاته وخصائصها ، وقد حقق العالم الألمانى هرتز سنة ١٨٨٧ – سنة ١٨٨٨ تلك النبؤة ، وأوجد موجات اللاسلكى عملياً ، ودرس خصائصها ، فوجد صفاتها منطبقة على الأوصاف التى تنبأ بها مكسوبل .

وقد تنبأ علماء الفلك النظريون بوجود كواكب سيارة لم تكن معروفة ، فهب العمليون للبحث والتنقيب حتى كشفوا كواكب سيارة مثل أورانوس ، ونبتون ، وبلوتو » . وقد كشف هذا الكوكب الأخير سنة ١٩٣٠ .

وتنبأ العالم اليهودى الألمانى الأصل إينشتين بالطاقة الذرية ، وأرسل خطاباً سرياً إلى الرئيس روزفلت رئيس الولايات المتحدة يخبره بهذا التنبؤ وينصح له بالعمل على تحقيقه ، وفى أكتوبر سنة ١٩٤١ اقترح الرئيس روزفلت إمكان تنسيق هذه الجهود بصورة مفيدة ، وفى يوم ١٦ يولية سنة ١٩٤٠ أجريت تجربة القنبلة فى بعض المناطق الصحراوية فى ولاية « نيومكسيكو » فأفلحت التجربة وألقيت أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، فكانت قنبلة السلام التى أنهت الحرب بعدها مباشرة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة تثبت مدى صحة التنبؤ فى العلوم ، ودقة تحقيقه ، اكتفى بالإشارة إليها .

٢

الأمواج جميعاً

وقبل أن نتكلم عن الموج الساحر ، نذكر كلمة عامة عن الأمواج . وهناك من الأمواج المعروفة : أمواج الماء وأمواج الصوت والضوء ، والحرارة ، وموجات الأشعة السينية ، والأشعة الكونية ، وموجات اللاسلكى .

وإن أمواج المياه لتبعث فى النفوس سروراً وبهجة ، وتشرح الصدر ، وتهدئ الأعصاب ، وتبعث الشوق ، كأن الأمواج جياد تتسابق فى ميادين البحار فتثير فى النفوس سروراً وحماسة وكلنا يذهب إلى مصايف البحر فيشاهد البحر وأمواجه ، ويسير بجوار النيل العزيز فيلاحظ أمواجه ، تهتز جزيئات الماء بين انخفاض وارتفاع ، فتكون قمة وقاعاً ، وعند ما تصل القمة إلى السفينة ترتفع ، وتنخفض مع القاع ، وبتوالى القمة والقاع تتأرجح السفينة بين ارتفاع وانخفاض .

ولو درست موجات الماء لعرفت أن الماء لا ينتقل كلية ، بل

إن جزيئاته ترتفع وتنخفض ، وبتوالى ارتفاع كل جزء وانخفاضه يظهر للأنسان تكون الموجات ، أى أنه إذا تنقلت الموجات على سطح الماء فإنما الماء نفسه لا ينتقل مع الموجات ، بل إن الماء يرتفع وينخفض فقط ، ولا يسرى مع الموجات ، وعليك أن تحكم بذلك لو جئت بحوض ، وألقيت عليه عدة قطع من الفلين ، وهززت الماء بلوح من الخشب من أحد طرفيه فتلاحظ تكون الموجات على سطح الماء وانتشار هذه الموجات من أحد طرفى الحوض إلى طرفه الآخر ، ولكن الفلين لا ينتقل ، بل يرتفع وينخفض فحسب .

أمواج الصوت

للصوت موجات ، فإذا نادى مناد انتشرت موجات صوته فى الهواء ، فتهتز جزيئات الهواء جيئة وذهاباً مسافات قصيرة . فى حين أن الموجات نفسها تنتشر فى نفس الاتجاه فى خطوط مستقيمة لمسافات بعيدة . ولانتشارها فى كل جهة فإن موجات الصوت تكوّن حول مصدر الصوت كرات موجية ، وتجد نتيجة إحداث الصوت منطقة بها جزيئات من الهواء متقاربة تسمى تضاغطاً ، ومنطقة جزيئاتها متباعدة تسمى تخلخلا ، ومن مجموعة التضاغطات والتخلخلات تتكون الأصوات ، ولو سقطت موجات

الصوت على طبلة الأذن لاهتزت الطبلة ، فتتحرك إلى الداخل بفعل التضاغط وتتحرك إلى الخارج بفعل التخلخل ، وحركة الطبلة إلى الداخل والخارج مرة واحدة تسمى ذبذبة كاملة ، وعدد الذبذبات فى الثانية يسمى تردداً ، وتردد أصوات النساء فى المعتاد كبير ، أى أن عدد ذبذباته فى الثانية أكبر من مثيله فى أصوات الرجال . ولذلك يقال إن صوت النساء فى المعتاد حاد وصوت الرجال فى المعتاد غليظ .

والسلم الموسيقى نغماته هى : دو — رى — مى — فا — صول — لا — سى — دو .

ولكل نغمة تردد ، وتردد « دو » الوسطى هو ٢٥٦ مرة فى الثانية

الموسيقى والضوضاء

الأصوات إما موسيقية ترتاح لسماعها الأذن ، أو جلبة لا تسر السامعين ، فإنه يطيب للإنسان أن يصغى إلى الموسيقى عند ما تنبعث من الحاكى مثلا أو تذاع من محطات الإذاعة أو تصدر من مغن وآلات موسيقية ، ولكن يزعجه صوت الرعد وقصف المدافع ودوى القنابل .

ومن الغريب أن الأصوات بنوعيها « الموسيقى والجلبة » تحدث

من اهتزاز الأجسام المحـــدثة لها سواء أكانت من جزيئات الهواء أو من أوتار الآلات والأجراس وغيرها ، ولكن الفرق بين النوعين أن الجلبة فى المعتاد تحدث فجأة ولمدة قصيرة جداً . فدوى قنبلة مثلا تعتبر جلبة لحدوثها فجأة ولقصر المدة التى يحدث فيها الصوت ، والصوت الحادث من سقوط الحجارة إلى الأرض من ارتفاع مناسب يعتبر جلبة أيضاً ، كأصوات تهدم المنازل وتصفيقة باليد فجائية تعتبر جلبة ، ولكن بعض هذه الأصوات المعتبر من الجلبة يمكن تنظيمه بحيث يصدر صوتاً موسيقياً ، فمثلا يمكن تنظيم عدة تصفيقات وإحداث صوت موسيقى منها تسر لسماعه الأذن ، كذلك يمكن إعداد قطع من الحجارة الصغيرة ذات الأحجام المختلفة المناسبة وإسقاطها على مائدة من الخشب أن تحدث صوتاً موسيقياً كما يحدث من سقوط قطرات الماء المختلفة الأحجام من صنبور ماء على سطح ماء ، إذ يحدث كثيراً أن ينتج عنها صوت موسيقى ، وكذلك الحال فى الصوت الناتج من إخراج سداد قارورة يعتبر جلبة ، ولكن إذا أعدت جملة قارورات مختلفة الأحجام يمكن إخراج سداداتها بانتظام ، وأن نحصل منها على صوت موسيقى جميل الوقع على الأذن .

موجات الضوء

وللضوء موجات ، فإن الشمس ترسل بأشعتها الضوئية إلى الأرض فتبدد بموجاتها الظلمات ، وتنشر النور والضياء ، وتبعث معها الدفء والصحة والعافية ، وقد أثبت العالم الإنجليزى نيوتن الذى ولد سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ أن أشعة الشمس تتكون من ألوان الطيف وهى « الأحمر — البرتقالى — الأصفر — الأخضر — الأزرق — النيلى — البنفسجى » . وكان لنيوتن رأى فى نظرية الضوء إذ قال إن الأشعة عبارة عن دقائق صغيرة ، فسر بذلك انعكاس الضوء وانكساره ولكنه لم يفلح إلى نهاية الشوط مما جعل العلماء يفترضون النظرية الموجبة للضوء ، فحققت كل الظواهر ، وجاءت تفسيراتها متفقة مع التجربة تماماً ، أو ما يقرب من التمام .

فموجات الضوء موجات مستعرضة مثل موجات المياه ، لها تردد وطول موجة وتنتشر فى الأثير بسرعة معروفة ، هى أكبر سرعة معروفة فى الحياة ، وهى سرعة موجات اللاسلكى أيضاً .

ولكى نتبين عظمة سرعة الضوء نقول : إن المسافة بين الشمس والأرض تبلغ نحو ٩٣ مليون ميل ، وأشعة الشمس تصل إلى الأرض فى ثمانى دقائق وتسع عشرة ثانية ، فى حين أن هذه

المسافة لو حاول أن يقطعها قطار سريع سرعته ٦٠ ميلا فى الساعة لاستغرق فى قطعها ١٧٥ عاماً ، ذلك إذا استمر على سرعته هذه ليل نهار بدون توقف .

واختلاف الألوان فى الموجات الضوئية ناتج من اختلاف طول الموجة ، فموجة اللون الأحمر أطول من موجة اللون الأصفر والأزرق ، وأقصر الموجات الضوئية المنظورة هى لون البنفسجى ، إذ أن طول اللون الأحمر يبلغ $\frac{١}{٣٣,٠٠٠}$ من البوصة ، وطول الموجة البنفسجية يبلغ $\frac{١}{٦٤,٠٠٠}$ من البوصة .

موجات غير منظورة

أشعة الشمس إذا نفذت خلال منشور زجاجى تحللت إلى ألوان الطيف . وهى ذات الموجات التى تؤثر على العين ، ولكن هناك أشعة أخرى لا تؤثر على العين — تصل مع أشعة الشمس ، وهى أشعة حرارية تسمى الأشعة ما دون الحمراء ، وتقع بجوار الأشعة الحمراء . وهناك أشعة فى الطرف الآخر من الطيف وتسمى أشعة ما فوق البنفسجى ، ولها تأثيرات كيماوية معروفة ، وتفيد أجسام الأطفال الضعاف ، وأكثر ما تكون بجوار البحار ومن هنا كانت فائدة التعرض لأشعة الشمس بجوار شواطئ البحار ، فها هى موجات موجودة ولا تدركها العين إما لقصر

موجاتها عما يثير العين ، أو لطول موجاتها عن الحد الذى يثير العين .

الأشعة السينية العجيبة

وهناك أشعة غير منظورة متعددة الأنواع ، ولها مختلف الصفات ، ومن هذه الأشعة غير المنظورة ، تلك الأشعة العجيبة الغريبة التى سميت بالأشعة السينية أول اختراعها لغرابتها ، وقد كشفها العالم الألمانى رنتجن (١٨٤٥ – ١٩٢٣) وكان رئيس معهد الطبيعة فى معهد فورزبرج Wurzburg وكان يجرى سنة ١٨٩٥ تجارب عن التفريغ الكهربى خلال الغازات المخلخلة وذلك مثل الأنابيب المتألقة المعلقة على دور السينما والمحلات التجارية ، فتسرى فيها ما يسمى بأشعة المهبط ، وما هى إلا كهارب أو دقائق صغيرة مشحونة بالكهربا السالبة ، وأدرك رونتجن أن أشعة المهبط هذه عند ما تصطدم بجدران الأنبوبة ، أو بأى عائق يوضع بداخلها ، ينبعث من موقع أشعة المهبط على الجدار أو العائق أشعة من نوع آخر ، لا ترى ولكنها سببت وميض بعض الأجسام التى كانت بجوار الأنبوبة .

وقد أكب رونتجن على دراسة هذه أشعة ووصل إلى حقائق كثيرة متعددة عنها ، وأهم صفاتها أنها موجات مستعرضة

مثل أشعة الضوء إلا أنها أقصر فى طول موجتها ولقصرها تستطيع أن تخترق الأجسام التى لا يمكن للأشعة الضوئية اختراقها ، منها ما يمكنها أن تخترق لوحاً من الحديد سمكه قدم واحدة ، وبناء على هذه الخاصية استخدمت الأشعة السينية فى علم الطب والجراحة لتصوير بعض أجزاء جسم الإنسان ، لمعرفة مواضع كسر العظام والأجسام الغريبة فيه كرصاصة بندقية ، أو دبوس معدنى ابتلعه طفل . وهناك فرع فى الطب يعتمد فى أساسه على التصوير بالأشعة السينية لمعرفة أمراض الكلى والمرارة وأمراض الصدر والمعدة . فمثلا فى مرض السل يترك بعض الجروح أو الندبات فى الرئتين . فيمكن بتصوير رئتى المريض كشف وجود هذه الجروح فتساعد الطبيب على دقة التشخيص ، وفى بعض حالات أمراض المعدة يعطى المريض جرعة بسموت (على شكل حبوب أو فى لبن) والبسموت معتم للأشعة السينية ، فبتصوير المعدة عدة مرات يمكن اقتفاء أثر البسموت عند مروره فى أجزاء المعدة . وبذلك يمكن عادة تشخيص أمراض كثيرة ، ومعرفة حالات مثل ورم بعض الأجزاء أو وجود حصوة فى المرارة أو الحالب .

أشعة النشاط الإشعاعى

وبعد كشف الأشعة السينية بعام ، كشف العالم الفرنسى بكرل Becquerel (١٨٥٢ — ١٩٠٨) ظاهرة جديدة هى ما تسمى الآن ظاهرة النشاط الإشعاعى إذ وجد أن معدن اليورانيوم — الذى تصنع منه حديثاً القنبلة الذرية — يبعث بأشعة مختلفة أثرت على لوح فوتوغرافى وملفوف بورقة معتمة سوداء كما تؤثر الأشعة السينية ، ولهذه الأشعة المنبعثة من اليورانيوم قدرة على اختراق الأجسام المعتمة والتأثير على اللوح الفوتوغرافى .

وقد واصل بكرل أبحاثه عن هذه الأشعة ، وبعد بكرل بعدة أشهر تصدت للموضوع السيدة مارى كيورى ، وكانت أستاذة علم الطبيعة فى باريس ، وبعد جهود طويلة ، استخلصت مادة جديدة هى الراديوم ، ومعروف مدى خدماته الطبية ، ومدى ارتفاع ثمنه .

وواصل العالم الإنجليزى رثرفورد بحث هذه الأشعة المنبعثة من تلك المواد فوجد أنها على ثلاثة أنواع سميت بالحروف ألف ،

وباء ، وجيم ، وأن دقائق ألف وباء ليست موجات بل دقائق
أما الأشعة الجيمية فهى من الناحية الطبيعية موجات مثل موجات
الضوء ، والأشعة السينية ، وهى لذلك فى نفاذها خلال الموا
أكثر من نفاذ الأشعة السينية .

٣

الأشعة الكونية

وهى أشعة كشفها العلماء ، ووجدوا أنها تنبعث من الطبقات العليا من الكون ، وقد ظن أحد العلماء وهو العالم النمساوى هس Hess أنها تصدر من الشمس ، ولكنه سرعان ما رأى استحالة هذا الرأى ، حيث أثبت العلماء بتجاربهم أنها تصل إلينا ليلا ونهاراً على حد سواء ، وأنها تأتى إلينا من جميع الجهات ، ولذلك أطلقوا عليها بحق اسم « الأشعة الكونية » .

إن هذه الأشعة تتساقط على أرضنا فى كل لحظة ، فتخترق كل شىء حتى أجسامنا تنفذ فيها من الرأس إلى القدم ، دون أن تؤثر فيه بأى ضرر ظاهر.

وطاقة هذه الأشعة هائلة ، إنها تستطيع أن تخترق طبقات الجو وتصل إلينا نشيطة لدرجة تستطيع معها أن تنفذ بعد ذلك خلال نحو ١٥٠٠ قدم من الماء ، أو ما يوازى ٤٠ قدماً من الرصاص . فى حين أن مليمتراً من الرصاص يعتبر معتماً تماماً

للأشعة السينية المتوسطة ، وأن الأشعة الجيمية يحجبها لوح من الرصاص سمكه نحو سنتيمترين .

تساؤل

فما هى هذه الأشعة الكونية ؟ ومن أين تأتى إلينا ؟ وما فائدتها ؟ . والإجابات التامة عن هذه الأسئلة غير مستوفاة تماماً ، فلا تزال الأبحاث الخاصة بها جارية ، ولكن العلماء قد توصلوا إلى حقائق هامة مفيدة ، ساعدت فى حل كثير من رموز الحياة وتركيب الذرة وطاقتها .

وهل يمكن استخدام هذه الطاقة الهائلة للاستفادة منها فى علاج جسم الإنسان أوفى التأثير على بويضة الإخصاب والتسلط على الجنس ؟ إن طاقتها كبيرة لم يستطع الإنسان أن يصل إلى مثلها باستخدام الأشعة السينية أو الجيمية .

فاذا كان الإنسان قد استخدم الأشعة السينية أو الجيمية فى العلاج والصناعات فهل يستطيع أن يستخدم الأشعة الكونية التى طاقتها تفوق طاقة الأشعة السينية أو الجيمية بأضعاف المرات ؟

لعلنا نصل عن قريب إلى استغلال طاقة هذه الأشعة الكونية كما توصلنا إلى استغلال الطاقة الذرية .

كيف كشفت !

كان العلماء فى صدد البحث عن المواد ذات النشاط الإشعاعى وخواصها ، وكانوا يستخدمون لذلك جهازاً يعرف باسم « الكشاف الكهربى » ، وهو جهاز يعرف به وجود الشحنات الكهربية ونوعها من حيث أنها موجبة أو سالبة .

والمعروف أن الكشاف الكهربى إذا شحن بالكهربا ، فإن له ورقتين تنفرجان ، فاذا ما وضع بالقرب من مادة ذات نشاط إشعاعى فان انفراج الورقتين يقل بل ينعدم إذا كان تأثيرها قوياً .

وقد قام عالم سويسرى سنة ١٩١١ واسمه « جوكل » بتجربة جديدة ، إذ وضع كشافاً كهربياً فى بالون ارتفع حتى وصل إلى ٤٥٠٠ متر ، ولشد ما دهش عند ما وجد أن الكشاف الكهربى يفرغ شحنته فى الطبقات العليا أكثر من تفريغها بالقرب من سطح الأرض ، والمعروف أن الكشاف يفرغ شحنته بالقرب من الأرض بتأثير الأشعة الجيمية المنبعثة من المواد ذات النشاط الإشعاعى الموجودة فى الطبقة الخارجية للأرض ، فلما وجد « جوكل » أن فى الارتفاعات الكبيرة يزداد تفريغ الكشاف بدلا من أن يقل بسبب الابتعاد عن

الأرض . اتجه تفكيره إلى أنه لا بد أن تكون هناك أشعة مصدرها طبقات الجو العليا ، وقدرتها تفوق الأشعة الجيمية .

وقد تصدى لدراسة هذه الأشعة عدد كبير من العلماء منهم العالم النمساوى هس ، والعالم الألمانى كولهرستر Kolhurster ، والعالم الأمريكى مليكان ، والعالم الأمريكى كومتون Kompton

ومن تجاربهم الأولى أنهم أطلقوا بالونات وصلت إلى ارتفاعات تزيد على ١٥٫٥٠٠ متر ، بل إلى نحو ثلاثين كيلومتراً ، وانتهوا إلى القطع بوجود أشعة جديدة مصدرها الطبقات العليا من الكون واستنتجوا من هذه الصور حقائق كثيرة مفيدة .

وساروا معها إلى أعماق البحار ، فوصلت إلى عمق ٣٠٠ قدم تحت سطح البحر بتجربة مليكان ، وفيما بعد تحسين الأجهزة وحساسيتها أدركوا أنها تصل إلى ١٥٠٠ قدم من الماء أو ما يوازى ٤٠ قدماً من الرصاص .

وهناك تجارب حديثة استخدموا فيها الصاروخ مثل ذلك النوع الذى استخدمه الألمان فى ضرب لندن فى الحرب العالمية الأخيرة ، وهذا الصاروخ كان يسمى ف٢ V_2 ، ومثل هذا الصاروخ وصل فى ارتفاعه اطبقات الجو إلى ما لم تصل إليه البالونات ، فقد وصل إلى ٣٥٠٫٠٠٠ قدم .

وقد قام بهذه التجارب معمل الطبيعة التطبيقية الخاص

بجون هوبكنز John Hopkins بأمريكا ، وقد استخدموا الصاروخ ف $_٢$ ، مزوداً بأجهزة علمية خاصة بالأشعة الكونية وتسجيل شدتها فى تلك المناطق المرتفعة من الجو.

وقد صرح الدكتور فان ألين العالم الطبيعى فى معمل جون هوبكنز أن تجارب الصاروخ ف $_٢$ تبين أن شدة الأشعة الكونية فى طبقات الجو العليا تبلغ ٣٠٠ مرة من شدتها على سطح الأرض ، وأنها تزداد فى الشدة إلى نحو ٢٠٠ر٠٠٠ قدم ، ثم تستمر فى الزيادة ولكن بمعدل أقل إلى الارتفاعات التى وصلت إليها الأجهزة .

أما الأشعة الكونية الثانوية فقد وصلت إلى أقصى شدتها عند ارتفاع يبلغ نحو ١٠٠ر٠٠٠ قدم ثم تقل فجأة بعد ذلك .

تصادم فى الآراء

اصطدم العالمان الأمريكيان مليكان وكومبتون فى أواخر سنة ١٩٣٢ بسبب طبيعة هذه الأشعة الكونية . أهى موجات أم جزيئات مادية ؟ . وكل عالم منهما له مكانته وأهميته ومركزه وتجاربه وكل منهما يحمل جائزة نوبل .

ويرى كومبتون أنها مكونة من جزيئات مادية ، مثل الكهارب ، ومن تجاربه التى تؤيد هذا الرأى ، أنه قام بقياس شدة الأشعة الكونية فى العالم أجمع عند سطح البحر ، فوجد أن شدتها تقل

عند خط الاستواء ، وتزداد بازدياد خطوط العرض نحو الشمال أو الجنوب .

فهذه التجربة تؤيد أن فى الأشعة كهارب سالبة ، إذ أن الكهرب المتحرك بسرعة يعتبر كتيار كهربى ، ومعلوم أن التيار الكهربى له مجال مغنطيسى ويتأثر بالمجالات المغنطيسية ، فزيادة شدة الأشعة الكونية نحو القطبين المغنطيسيين للأرض دلالة على وجود كهارب سالبة فى الأشعة .

وقد قام العلماء بقياس شدة الأشعة الكونية بالنسبة إلى الارتفاع وبالنسبة إلى خطوط العرض ، ولكن العلماء لم يصلوا إلى ارتفاع أعلى من طبقات الجو العليا الذى يمتد فوق سطح الأرض إلى أكثر من عشرات الأميال ، ومن هنا كان التضارب فى الآراء والنظريات ، إذ ليس فى الاستطاعة إجراء تجارب أعلى من هذا الارتفاع لتأييد أحد الآراء .

وقد رأوا أن الأشعة الكونية الابتدائية تأتى إلينا من الفراغ البعيد الذى يعلو طبقات الجو العليا ، وأنها عند ما تصطدم بجزيئات الهواء فى تلك الطبقات تتحول إلى أشعة كونية ثانوية أضعف من الابتدائية ، والأشعة الثانوية تصطدم مرة أخرى وثالثة ورابعة وهكذا حتى تصل إلى سطح الأرض ، وهذه

الأشعة الثانوية التى تصل إلى الأرض أقل من الابتدائية فى قدرتها ، وشدة نفاذها .

وهذه الأشعة الكونية الثانوية هى التى قسناها ودرسناها ، وعلمنا أنها تتكون من جزيئات مادية سريعة جداً ، ومن موجات كهربية مغنطيسية ، مثل الأشعة السينية والأشعة الجيمية (*) ، إلا أنها أقصر منها طولا ، وأكثر نفاذاً .

فهل طبيعة الأشعة الابتدائية مثل طبيعة الأشعة الكونية الثانوية التى تصل إلينا على سطح الأرض ، هذا ما لم يستطع العلماء الوصول إليه إلى الآن .

ولا يزال العلماء يجدون فى أبحاثهم الخاصة بهذه الأشعة ، وإن من أهم أسباب نشاطهم فى الأبحاث الخاصة بها أن طاقة هذه الأشعة تبلغ ملايين المرات من طاقة انفلاق الذرة .

أمواج الأثير

موجات الضوء والحرارة والأشعة السينية والجيمية والكونية وموجات اللاسلكى كلها موجات أثيرية ، ويظن البعض أن أمواج الأثير إنما هى موجات اللاسلكى فقط ، مع أن أمواج الأثير كثيرة ، وأطلق عليها ذلك الاسم لأن جميع الموجات تحتاج إلى وسط تنتشر فيه ، فموجات المياه تنتشر على سطح الماء ، وموجات الصوت تنتشر فى الهواء والأجسام المادية ، أما موجات

الضوء وأمواج الأثير جميعاً ، فهى تنتشر فى الفراغ ، ولا يميل علماء الطبيعة إلى افتراض الفراغ التام من كل أثر أو وسط ، ولذلك اخترعوا وسطاً لمثل هذه الموجات وسموه أثيراً .

تغير صفات الأمواج مع طولها

والمتأمل فى الجدول التالى يجد أن هذه الموجات الأثيرية جميعاً تتغير صفاتها بتغير طول موجتها ، فهذه أشعة قصيرة تنفذ إلى مدى بعيد فى الأجسام ، ولا تؤثر على العين ، وتلك أشعة أطول منها قليلا ، وهى لذلك أقل نفاذاً فى المواد ، ولا تعرف إلا بآثارها على اللوح الفوتوغرافى . وهناك أشعة أطول من الأخيرة ، وتصل مع أشعة الشمس ، ولكنها لا ترى ، وتؤثر على جلد جسم الإنسان ، ولها فوائد طبية متعددة . وهناك الأشعة الضوئية تثير حاسة الإبصار ، ويختلف لونها باختلاف طولها . وهناك الأشعة الحرارية ودون الحمراء تستخدم فى التصوير فى الظلام وتصوير المدن من فوق السحب .

وفيما يلى كشف الموجات الأثيرية بأجمعها ، ولهذا الجدول أهميته :

جدول أنواع الأمواج الأثيرية المختلفة

اسم الموجة	طول الموجة	الكاشف لها
الأشعة الكونية	٠٠٠٠٠٠٠٠٠و٠٦٦ من المليمتر	الكاشف الكهربى
الأشعة السينية والجيمية	نحو ٠٠٠٠٠و٠٢ من المليمتر	اللوح الفوتوغرافى
الأشعة فوق البنفسجية	من ٠٠٠٠٠٠و٠٢ إلى ٠٠٠٠و٠٣٥ من المليمتر	اللوح الفوتوغرافى
الأشعة الضوئية وهى من الحمراء إلى البنفسجية	من ٠٠٠و٠٤ إلى ٠٠٠و٠٧٢ من المليمتر	العين
أشعة دون الحمراء	من ٠٠١و٠ إلى ١و٠ من المليمتر	أجهزة قياس الحرارة
أشعة اللاسلكى	من ٦٠ سنتيمتر إلى ٠٠٠و٢٠ متر	الصمامات أو البلورات

وهناك موجات اللاسلكى ، ولا تدرك إلا بجهاز الراديو ، وتختلف صفاتها باختلاف أطوالها . وها هنا أمواج العصر الحديث وهى ما سميته بالموج الساحر ؛ ولا عجب إن سمينا عصرنا الحديث عصر الأمواج .

٤

الموج الساحر

موج لا يعوقه عائق

إنه موج لا يرى ويفعل الأعاجيب ، إنه موج لا يرى مثل « طاقية الإخفاء » فى أقاصيص ألف ليلة وليلة ، من استعان بها خفى عن الأنظار واستطاع أن يفعل كل ما يشتهى ويريد ، ولا عجب فخيال قدامى الأدباء حققه أحدث العلماء .

موج ينتشر بسرعة البرق ، يقطع العالم فى أقل من سُبع ثانية ، أى يلف العالم فيما بين غمضة عين وانتباهتها ، لا يعوقه عائق ولا يمنعه مانع ، لا تعوقه جبال عالية ، ولا وديان منخفضة ، ولا أرض صعبة ، ولا أسلاك شائكة ، ولا قوائم صلبة ، ولا حواجز مصطنعة ، ولا حصون ضخمة ، ولا منازل منيعة . وفى الحروب يتسلل فى دول الأعداء والدول المحايدة ، لا تمنعه قوانين دولية مانعة . ويخترق الدول المحايدة دون أن تثير حرباً ودون أن يلقى احتجاجاً ، يستمع إلى آثاره العالم والجاهل ،

ويستوى لديه المتقن للقراءة والأمى ، ويتساوى لديه الأعمى والبصير ، والأبكم والأصم ، والصحيح والعليل .

يصل إلى البيوت وهى مقفلة ، بل يدخل الدور بدون إذن أو استئذان ويلحق بالقاطرات وهى مسرعة ، والسيارات وهى متحركة ، والطائرات وهى فى كبد السماء ، لا توجد سرعة تدانيه ، بل كل متحرك يقع تحت يديه ، لا يكل ولا يتعب ، ولذلك وصل إلى ما لم يصل إليه شىء من قبل ولا من بعد ، وصل إلى القمر ، وهو أعظم ما يحلم به إنسان ، فكلنا نحب القمر . . . « والقمر يحب ذلك الموج الساحر دون سواه ...» وهنا جواب الشعراء عن تساؤلهم : « والقمر يحب مين ؟ . »

ألاعيبه وميادينه

تنبأ العالم الإسكتلندى جيمس كلارك مكسويل بذلك الموج العجيب سنة١٨٧٣ ، وذلك البحث الذى عمل فيه نبوءته رد الضوء إلى أصل من الكهربية والمغنطيسية ، وهى نتيجة استنبطها من معادلاته الرياضية ، وقد حقق العالم الألمانى هرتز نبوءة مكسويل كاملة غير منقوصة ، وذلك فى سنة ١٨٨٧ المتداخلة فى سنة ١٨٨٨ ، وقد أثارت تجاربه وتحقيقاته إعجاب العلماء ، واستخدم

هذه الموجات الجديدة العالم الإيطالى ماركونى فى التلغراف اللاسلكى ونجح فى ذلك سنة ١٨٩٤ .

وهكذا كان ماركونى صاحب العصا السحرية ، أدهش العالم بعصاه الجديدة التى أرسلت ذلك الموج الساحر فعبرت المحيط الإطلنطيق ؛ وكان ذلك أول مرة يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، وكانت لحظة فرح لم يعادله فرح ؛ وأصاب ماركونى أفخر نجاح فى حياته ، بل فى حياة العلماء .

هذا الموج الجديد تعهده العلماء بالرعاية والعناية ، فأصبح كما فى عصرنا الحالى يفعل الأعاجيب ، فامتد من التلغراف اللاسلكى بنقل الإشارات ، ثم ترعرع ونجح فى التليفون اللاسلكى بنقل الكلمات ، ثم تطور إلى نقل الأغانى والموسيقى فى الإذاعات ، وانتقلت ميادينه من البر لا تعوقه صحراء ، إلى البحر يلاحق السفن على سطح الماء ، ثم إلى الجو فى كبد السماء .

يسير صاحب السيارة وسط الطريق الموحش ، فيجد من ذلك الموج أنساً بدل الوحشة . وتطير الطيارة فينقطع بها كل أسباب الصلات بالأرض ومن فيها إلا من آثار ذلك الموج الغريب ، يهدى طائرها ويرشده خلال السحب ووسط السماء . والبواخر وسط البحار يتصل فيها الناس بالبر غير المنظور بوساطة التليفون

اللاسلكى ، وتسأل عن مكانها إن ضلت . وتطلب النجدة لركابها إن أصيبت بسوء .

وها هو اللاسلكى ينقل الصور على متن الأثير . وأمكن أن يستمع الناس إلى جهاز الراديو . بل أن يشاهدوا صور الممثلين ، والمذيعات والمتكلمين ، بل أصبح فى الاستطاعة أن يشاهد الناس ويسمعوا فى وقت واحد مناظر تتويج الملوك وحفلات الملاكمة وسباق الخيل والزوارق ، وحفلات كرة القدم والتنس ومناظر حدائق الحيوانات وهم فى أثناء كل ذلك فى بيوتهم لايقرصهم برد ولايتساقط عليهم مطر ولا يقيد حريتهم غرباء أو جمهور .

خواص الموج

ينتشر ذلك الموج بأكبر سرعة معروفة فى الحياة وهى سرعة ٣٠٠٫٠٠٠ كيلو متر فى الثانية ، مع أن أسرع قطار لا تزيد سرعته عن كيلومترين فى الدقيقة ، أى جزء صغير من الكيلومتر فى الثانية ، وتبلغ سرعة الموج نحو مليون مرة من سرعة الصوت فى الهواء ومن سرعة أكبر طائرة فى السماء .

وإذا اتبعت موجات اللاسلكى من محطة إذاعة أو من أى جهاز وجدتها انتشرت فى جميع الجهات ، وهى تسير مسافات طويلة

جداً دون أن تضعف أو تكل كموجات الصوت، فهذه تسمعها تسير من أحد جوانب الغرفة إلى الجانب الآخر ، أو من غرفة إلى أخرى ، أو من منزل إلى منزل ، أو من شارع إلى شارع . أما موجات اللاسلكي فيمكنها أن تسير من بلد إلى بلد ، بل ومن قطر إلى قطر . ومن قارة إلى قارة ؛ بل إلى أكثر من ذلك وأبعد . وقد عملت تجارب كانت فيها ترسل الإشارة اللاسلكية فتعود إلى مرسلها ثانية وثالثة . أى تلف حول العالم مرة واثنتين وثلاثاً ، فكان يسمع إشارته ثلاث مرات متتالية ، وكل ذلك فى أقل من ثانية .

وذلك الموج ينعكس كما تنعكس الموجات الأخرى ، فموجات الصوت تنعكس . وما صدى الصوت إلا نتيجة اصطدام موجات الصوت ببناء مرتفع أو تل عال وانعكاسها إلينا ثانياً . وموجات الضوء تنعكس من السطوح اللامعة والمرايا . وما ظهور صور لنا إذا وقفنا أمام مرآة إلا نتيجة انعكاس موجات الضوء .

موجات اللاسلكى تنعكس كما تنعكس زميلاتها . وقد استخدم انعكاسها لمعرفة الطائرات المعادية البعيدة . فإذا ما أرسلت موجات اللاسلكى فى الفضاء المتسع ووصلت ثانية عرفنا من تلك الموجات المنعكسة بعد الطائرة وموضعها من الفضاء ؛ وفى أعلى طبقات الجو مرايا لاسلكية كلما وصلت إليها

الموجات من الأرض انعكست ثانياً من تلك المرآة اللاسلكية ؛ وهناك طبقة تسمى طبقة هيفيسايد ، وهى طبقة على ارتفاع نحو ٦٠ ميلا من سطح الأرض ، وهناك مرآة أخرى أعلى من الأولى وتسمى طبقة أبلتن Appleton وهى على ارتفاع ١٤٠ ميلا ؛ وهناك مرايا أخرى أعلى من هاتين الطبقتين . ومن الغريب أن هذه الطبقات يتغير ارتفاعها فى الليل عنه فى النهار ، ولذا كانت الإذاعة أحسن ليلا منها فى النهار .

وتختلف موجات اللاسلكى فى الطول ، فمنها ما طولها قصير ، ومنها المتوسطة ، ومنها الطويلة ، تختلف أطوالها من عدة سنتيمترات إلى عدة آلاف من الأمتار .

وكما أن الأمواج الأثيرية تختلف فى صفاتها باختلاف الأطوال فكذلك موجات اللاسلكى تختلف خواصها باختلاف طولها ، فمنها ما يستخدم لنقل الصور والتليفزيون ، ومنها ما يستخدم فى أغراض أخرى مختلفة . وفيما يلى جدول بالموجات اللاسلكية المختلفة الأطوال وصفاتها ، كما أن أطوال العصا السحرية تختلف ، ولكل عصا سحرها .

لكل طول سحره

والموجات الطويلة تستطيع أن تسير فوق الأرض مسافات

طويلة دون أن تضعف ، فهى تقطع مسافات أطول مما تستطيعه الموجات القصيرة إذا سارت فوق الأرض ، فيمكننا أن نشبه الموجات الطويلة بالرجل الطويل يمكنه أن يسير مسافات طويلة على الأرض دون أن يتعب ، فى حين أن الولد الصغير إذا سار على الأرض لا يستطيع أن يستمر مسافات طويلة ؛ ومن هنا كانت الموجات الطويلة تستخدم فى الأقطار المتسعة مثل روسيا والبرازيل والبلاد المترامية الأطراف التى يهمها أن تمر الموجات بالقرب من الأرض على جميع المنازل فيسمعها الجميع .

اسم الموجة	طولها بالمتر	ملاحظات
الموجات الطويلة	من ٣٠٠٠ متر إلى ٥٠,٠٠٠ متر	تستخدمها روسيا والبرازيل ومحطة رجبي بانجلترا
الموجات المتوسطة	من ٢٠٠ متر إلى ٣٠٠٠ متر	للاذاعة اللاسلكية
الموجات دون المتوسطة	من ٥٠ متراً إلى ٢٠٠ متر	للسفن والأغراض الحربية
الموجات القصيرة	من ١٠ أمتار إلى ٥٠ متراً	للاذاعات البعيدة
الموجات دون القصيرة	من متر واحد إلى ١٠ أمتار	للتلفزيون
الموجات الميكروية	أقل من متر	لتجارب العلماء ، وفى نواحى طبية ، وفى الرادار

أما الموجات القصيرة فهى تسير على الأرض مسافات قصيرة ، إذ لا يخفى أن الأرض كلها جبال وتلال ووديان ومدن وقرى وصحارى وحقول وأنهر وبحار ، والأرض والبحار والأشجار وغيرها تمتص جزءاً من طاقة الموجات اللاسلكية التى تمر عليها فتضعف كلما زادت المسافة ، وكلما قصر طول الموجة زاد امتصاص الأرض لطاقتها ، ومن هنا كانت الموجات القصيرة لا تستطيع أن تحافظ على طاقتها فى المسافات الطويلة على سطح الأرض ، ومن هنا أيضاً كانت الموجات القصيرة مخصصة للتلفزيون لا تستطيع أن تسير على الأرض مسافات طويلة ؛ وإذا كانت الموجات القصيرة تضعف من السير على الأرض فإنها لا تضعف إذا وجهت إلى الفضاء أو إلى الأثير ، وهذا الأثير لا يكاد يمتص شيئاً من طاقتها فهى تسير فيه دون أن تكل أو تضعف . وتعلم أن الموجات اللاسلكية تنعكس ، فالموجات الطويلة والموجات المتوسطة تنعكس من طبقة هيفيسايد ؛ أما الموجات القصيرة فانها تنفذ من طبقة هيفيسايد وتنعكس من طبقة أبلتن الأعلى منها .

ولا يخفى أن الموجات التى تنعكس من الطبقة الأعلى تصل إلى الأرض ثانية على مسافة أبعد مما لو انعكست من الطبقة المنخفضة ، ولذلك فان الموجات تصل بوساطة الانعكاس إلى

مسافات أبعد مما تصل إليه الموجات الطويلة أو المتوسطة بطريق الانعكاس أيضاً .

من أجل هذا استخدمت الموجات القصيرة من إنجلترا موجهة إلى مستعمراتها فى أمريكا وأفريقيا وأستراليا ، فتصل الموجات سليمة بعد الانعكاس . وفى مصر تستخدم الموجة القصيرة فى المساء لتصل إلى الأقطار الشقيقة كسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والحجاز والسودان وطرابلس ومراكش وأوربا وأمريكا ، أما موجتها المتوسطة المستخدمة فى النهار وجزء من المساء فانها تصل إلى أسوان ضعيفة لولا محطة تقويها فى أسيوط فتجعلها تصل قوية إلى أسوان .

والموجات دون القصيرة تنفذ من المرايا اللاسلكية فى الطبقات العليا من الجو ، ولذلك تخترق تلك الطبقات إلى أعلى ارتفاع ، وهذه تستخدم لأعمال الرادار فى تحديد مواضع الطائرات المرتفعة فى الجو .

٥

وسط البحار

كانت الملاحة البحرية من قديم الزمان موضع اهتمام الدول والممالك ، فهذه مصر تحدها البحار من جانبين هامين ، وقد كان لها أسطول عظيم ، وهذه بريطانيا العظمى كانت ترسل سفنها إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فتقضى بدل الأيام أشهراً وسط البحار والمحيطات ، وهذه البرتغال أرسلت كرستوف كولومبس ليكتشف العالم الجديد فيقضى الأيام تلو الأيام ، وهم فى وحشة البحر ، وفى عزلة عن العالم حتى كاد يمل رجاله ، ويدخل اليأس قلوبهم ، وحتى الآن فى عصر السرعة فإن البواخر تقضى الأيام الطوال فى السفر البحرى ، فلا يجد الركاب فيما حولهم إلا زرقة الماء وقبة السماء . وقبل اللاسلكى كان للأسفار البحرية وحشة لانقطاع الباخرة أو المركب عن العالم ، وكم اصطدمت مراكب بجبال الجليد فغرقت بمن فيها من رجال وما فيها من أموال ولا منقذ أو مغيث إلا فى الأحوال

النادرة التي يقع فيها نظرها على باخرة أخرى قريبة .

إدخال اللاسلكي في البواخر

كان الهول الذي يلاقيه رجال البحر في أسفارهم حرياً بأن يجعلهم يستخدمون كل وسيلة تخفف من ويلاتهم وتقلل من وحشتهم ، فما ذاع نبأ موجات اللاسلكي حتى استخدموه منذ سنة ١٨٩٧ ، وبنيت المحطات اللاسلكية الخاصة بهداية السفن في جميع سواحل العالم ، وجهزت كل البواخر بأجهزة الإرسال والاستقبال ، حتى إذا ألقيت نظرة الآن على إحدى الموانى الشهيرة في العالم كالإسكندرية أو ليفربول أو غيرهما وجدت العدد الغفير من البواخر تعلوها جميعاً ساريات وأسلاك الهوائي ، وفي كل باخرة كابينة خاصة بأجهزة اللاسلكي تكون عادة وسط الباخرة وبين ساريتي الهوائي على سطحها .

عند ما تكون الباخرة في محنة ترسل نداء الاستغاثة ، فيضغط عامل اللاسلكي على المفتاح ليعمل ثلاث شرط ثم ثلاث نقط ثم ثلاث شرط ، فيلتقط هذه الإشارة جميع البواخر القريبة والبعيدة ، فتحدد موضع الباخرة المنكوبة وتوجه سيرها نحوها فتنقذها وتخلص ركابها من الغرق .

ولعل أول حادثة إنقاذ بواسطة اللاسلكي هي حادثة الباخرة تايتانك التي حدثت يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٠٩ عند ما اصطدمت

الباخرة بالقرب من فلوريدا وبدأت تغرق ، فأسرع عامل اللاسلكى بإذاعة نداء الاستغاثة ، فأسرعت إليه البواخر الأخرى للإنقاذ ، وأفلحت فى إنقاذ جميع الركاب ما عدا ستة أشخاص فقط ، وتلتها حوادث تاريخية كثيرة من هذا النوع أنقذت فيها أرواح كثيرة بفضل الموج الساحر .

استشارات الأطباء الإخصائيين

وهناك فوائد أخرى للاسلكى فى البحار ، فقد يحدث كثيراً أن تخلو السفينة من طبيب إخصائى ، وهنا فضل آخر للاسلكى ، فقد حدث مرة أن تهشمت دفة الباخرة من فرقعة الغلاية فى سفينة بضائع كانت تمخر عباب المحيط الإطلنطيق ، ولم يكن بها طبيب طبعاً ، وقد أرسل القبطان رسالة لاسلكية فالتقطتها الباخرة « برنجاريه » التى غيرت طريقها لتقابل السفينة ، وأخذت المهندس وأسرعت به نحو الشاطئ ، وفى أثناء طريقها أرسلت رسالة لاسلكية إلى أحد المستشفيات البحرية القريبة ليعد نفسه ويرسل عربة الإسعاف بمجرد وصولها ، وهكذا خفف اللاسلكى آلام المهندس .

والآن فى إنجلترا وأمريكا عدد كبير من المحطات اللاسلكية

التي تستقبل عدداً كبيراً من الاستعلامات الطبية ، وهذه بدورها ترسلها إلى الأطباء الإخصائيين .

هداية السفن باللاسلكي

والسفن والبواخر وسط البحار فى حاجة كبيرة إلى الهداية ومعرفة الاتجاه الذى تسير فيه ، بل فى حاجة إلى تحديد موضعها بالدقة ؛ وقديماً كانوا يعرفون الاتجاه بالطرق الفلكية ، بالشمس مثلا بالنهار ، والنجم القطبي فى الليل ؛ وسارت الأمور فى الملاحة البحرية على هذا المنوال حتى جاء القرن الرابع عشر وعرفت خواص المغنطيسية واستعملت البوصلة أو بيت الإبرة ، كما كان يسميها العرب ، فى هداية السفن ومعرفة الاتجاه ؛ ولكن الإبرة المغنطيسية المعلقة لا تتجه تماماً نحو الشمال والجنوب الجغرافيين ، بل تجدها تنحرف قليلا عن هذا الاتجاه بزاوية تعرف بزاوية الانحراف ، وهذه الزاوية تختلف من مكان إلى مكان ؛ وللبوصلة عيوب أخرى إذ أنها تتأثر بالمواد المغنطيسية مثل الحديد المصنوعة منه الباخرة .

وكانوا قديماً يحددون موضع الباخرة بمعرفة خط الطول وخط العرض من موضع الباخرة ، أما خط الطول فيعرف من مقارنة زمن جرينتش مع الزمن المحلى فى الباخرة ، فاذا كان زمن

. جرينتش ١٠ صباحاً وزمن الباخرة ١١ صباحاً كانت الباخرة فى خط طول ١٥ إذ أن كل خمس عشرة درجة شرقاً تكون الساعة مقدمة بقدر ساعة ، ولذلك فاننا فى مصر على خط طول ٣٠ فنكون متقدمين على جرينتش بمقدار ساعتين ، وفى كل باخرة ساعة دقيقة هى فى الواقع كرونومتر دقيق فى الغاية ، وكانوا يضبطونها على زمن جرينتش عند مرورهم على كل ميناء ، والزمن المحلى فى الباخرة يعرف من موضع الشمس نهاراً والنجوم ليلا ، واستعمال بعض الأجهزة كالسدس ، وبذلك يعرفون خط العرض أيضاً . ومن معرفة خط الطول والعرض يحددون موضع الباخرة .

هذه هى الطرق التى كانوا يستعملونها قبل اللاسلكى لمعرفة الاتجاه وتحديد الموضع ، وهى طرق لها عيوب فنية بجانب أنه فى حالة الجو المعتم لا يتمكن البحارة من رصد النجوم أو الشمس ؛ وفى حالة الضباب أيضاً تعرض البواخر للمصادمات ، وقد بنيت على الشواطئ الفنارات ترسل ضوءها إلى البحار فى الليل لتهتدى به السفن ، ولكن أثرها محدود .

فلنتأمل هذه الصعوبات جميعاً ولنر كيف أن اللاسلكى قد تغلب عليها وبددها جميعاً ، فقد بنيت محطات لاسلكية عند شواطئ البحار ترسل موجات اللاسلكى إلى السفن والبواخر ، وفى

كل باخرة مستقبِل لاسلكى ، وله هوائى من النوع الإطارى ، أى على شكل إطار ، وهذا النوع من الهوائى إذا كان مستواه متجهاً نحو محطة إنجلترا مثلا كان الصوت الذى يسمعه عامل اللاسلكى أشد ما يمكن ، وإذا أُدير عن هذا الاتجاه ضَعُفَ الصوت ، فها هى طريقة بسيطة أدت إلى معرفة الاتجاه ، بل لتحديد الموضع تماماً ، لأن الباخرة إذا عرفت اتجاهها بالنسبة إلى ثلاث محطات إذاعة فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا مثلا تمكنت من تحديد موضعها تماماً وبالدقة وبأسرع ما يمكن ؛ ويمكننا أن نعتبر الهوائى الإطارى وملحقاته بالنسبة للسفينة كأنه بوصلة اللاسلكى ، وتسمى أيضاً معينة الاتجاه اللاسلكية ، وهذه البوصلة اللاسلكية لا تعين الاتجاه فحسب بل تحدد الموضع الجغرافى تماماً وتحدد الموضع بالنسبة للبواخر الأخرى فتتلافى مصادمتها فى الضباب الكثيف ، هذا وإذا كان الفنار المقام على الشواطئ هو الهادى للسفن فى الجو الصحو فان بوصلة اللاسلكى تعد الفنار الذى يهتدى به فى جميع ظروف الجو المختلفة إذ أن موجات اللاسلكى تخترق الجو المعتم والغيم ، فى حين أن موجات الضوء تعجز عن ذلك لمسافات بعيدة .

صحافة وإذاعة وسط البحار

وأخيراً وبعد سنة ١٩٢٦ أصبحت البواخر على اتصال دائم مع العالم ، فتتلقى الأخبار والحوادث يومياً ؛ وتصدر الباخرة الكبيرة الآن جريدة يومية لركابها تحتوى على أهم أنباء العالم . هذا وأصبحت للباخرة أجهزة استقبال لاسلكى ، فيستمع الركاب إلى الموسيقى ؛ وفى بعض البواخر الكبيرة يمكن لأى راكب أن يتصل تليفونياً باللاسلكى من وسط البحر بمقر عمله أو منزله ، حتى إن بعض كبار الناس يتلقون تلغرافات التهنئة قبل أن يصلوا إلى البر .

وبذلك جعل اللاسلكى من وحشة البحار أنساً ، ومن انقطاعها اتصالا ، ومن خطرها أمناً ، ومن فزعها اطمئناناً .

٦

فى الطيران

لعل أعجب عجائب هذا العصر هى تلك الطيارة التى تطير بدون قائد ، أى بدون يد بشرية تحركها ، فهى من ذاتها تتحرك وتدور ذات اليمين وذات اليسار وترتفع إلى أعلى أو تنخفض إلى أسفل وتقطع المسافات والأميال وليس فيها إنسان . . . حقاً إنها حقيقة أغرب من الخيال .

وقد أفلحت التجارب الأولى لهذه الطائرة ؛ وفى الحرب العالمية الثانية استخدمت فى توجيه القذائف ؛ وبعد استقرار السلم سوف يتطور الطيران بدون قائد ونتمكن من استغلال مثل هذه الطائرة فى نقل البضائع والبريد إلى أبعد البلاد والقارات حتى إذا حدثت فاجعة للطائرة لا تخسر الأرواح البريئة والأنفس الغالية .

الطيران والحرب العظمى الأولى

وهذه العجيبة يمتد سرها إلى أسرار الموج الساحر أى إلى أسرار اللاسلكى ، وكم لذلك من أسرار وغرائب سوف تتبين للعالم نتيجة أبحاث العلماء وتشجيع الحكومات والهيئات ، فان الحاجة تفتق الحيلة ، وفى الحرب العظمى قد نشط اللاسلكى ونشط الطيران ، وكلاهما للحروب وسيلتان مهمتان ، وقد كان أول استعمال اللاسلكى فى الطيران سنة ١٩١٥ أى فى أثناء الحرب الكبرى الأولى ، فأدى اللاسلكى بذلك خدمات جليلة .

الطيران وتعيينه الاتجاهات اللاسلكية

وفى الحرب العظمى الأولى عرف العلماء أهميـــة الطيران واللاسلكى فى الحروب ، فبنيت محطات لاسلكية لهذه الطائرات ، وأصبح فى كثير من الطائرات أجهزة لاسلكية للإرسال والاستقبال ، فالمركب الهوائية ر.٣٤ فى أثناء رحلتها الشهيرة سنة ١٩١٩ من إنجلترا إلى نيويورك كانت دائمة الاتصال باللاسلكى من المحطات اللاسلكية الأرضية ومع البواخر ؛ وعند ما اقتربت الباخرة من الشاطئ الأمريكى تغير الجو ، وشعر قبطانها بسوء النذير ، فاستعان باللاسلكى ، وطلب إلى المدمرات

سرعة المجيء إليها ونقلها إلى الشاطئ إذ أن البنزين كاد يفرغ ، وقد احتاجت مرة طائرة من طائرات زبلن الألمانية إلى معرفة مكانها بالضبط ، وكانت تحتاج إلى هذه المعرفة من وقت لآخر ، وفى كل مرة كانت ترسل فيها هذه الطائرة استعلاماتها اللاسلكية كانت المحطات البريطانية تلتقط موجاتها اللاسلكية ، فعرفت منها اتجاه هجومها ، وأرسلت وراءها من الطائرات ما أوقف هجومها ودمرها فى الوقت المناسب . وأهم جزء فى الطائرة محطة اللاسلكى وهى الجزء المعروف الان باسم معينة الاتجاه اللاسلكية ، وهو عبارة عن هوائى إطارى أى شكل إطار ، وهذا الهوائى من شأنه أن يستقبل موجات اللاسلكى على أحسن حال وينتج أشد صوت عند ما يكون مستواه متجها نحو مكان الإرسال . فاذا أدير عن هذا الوضع فان الصوت الذى يسمعه عامل اللاسلكى فى المحطة أو فى الطائرة يضعف حتى يكاد يتلاشى إذا كان مستوى الهوائى عمودياً على الموجات ، ومن هذه الخاصية يعرف موضع الطائرات ويمكن تدميرها وإعاقتها أو معاكستها فى الوقت المناسب .

سكك حديد فى الجو

وبعد الحرب العظمى أصبح اللاسلكى شأن يذكر فى توجيه

الطائرات إلى الاتجاهات الصحيحة ، وأصبح للملاحة الجوية خطوط دائمة ، فهناك مثلا خط جوى ما بين لندن وباريس ، وآخر بين لندن والقاهرة ، وثالث بين لندن والهند . . . وهكذا . وفى هذه الخطوط الجوية لا بد أن تكون الطائرة والطائر فى أمان من الضلال والأخطار ، والسبيلُ الوحيدة إلى ذلك هى باستخدام ذلك الموج الساحر الذى يمكنه أن يخترق السحب والضباب لأى بعد كبير ، فتوثق الصلة بين الطائرة ومركز قيادتها ، ولذلك بنيت محطات لاسلكية خاصة بالطيران فى كثير من المطارات فى جميع أنحاء العالم .

ويمكن أن يوجه الطائر فى الطريق المرسوم ، وذلك لأن عامل اللاسلكى فى الطائرة يمكن أن يسمع طنيناً مستمراً كما يسمع علامة « مورس » فى حرف S (أى يسمع شُرَطاً مستمرة) ما دامت الطيارة فى الطريق المعبد لها ، فإذا انحنى إلى إحدى ناحيتى الطريق تلاشى هذا الصوت ونبهته المحطة إلى ذلك بإشارات لاسلكية أيضاً .

وهناك طرق أخرى لهداية الطائرة ، فإنه يمكن الطائر أن يستغنى عن السماعة ، وما عليه إلا أن ينظر إلى لوحة أمامه حتى يمكن ترجمة موجات اللاسلكى إلى ضوئه ، فاذا كان سائراً فى الطريق الصحيح لاحظ خطين طويلين مضيئين ومن طول

واحد، وإذا انحرف عن هذا الطريق قصر أحد الخطين عن الآخر وعليه أن يعود إلى الاتجاه الصحيح الذى يجد فيه الخطين من طولين متساويين . ومن ذلك نرى أن الخطوط الجوية أصبحت مرسومة دقيقة لا يمكن للطائر أن يحيد عنها كما لو كان يقود قاطرة تسير على قضبان السكك الحديدية .

استعلامات هامة للطائر

ومن مزايا اللاسلكى للطيران ، أن الطائر يمكن أن يتصل فى أثناء رحلته بأى محطة لاسلكية ويستعلم منها عن أية معلومات تهمه فى رحلته ، ومن هذه المعلومات سرعة الريح ، ليس بالقرب من الأرض فحسب بل سرعتها عند الارتفاعات المختلفة ، والريح الشديدة تعوق سرعة الطائرة ، ولذلك فان الطيار يمكن أن يختار الارتفاع المناسب حيث سرعة الريح ملائمة .

ومن هذه الاستعلامات أيضاً ارتفاع السحب . ويعرف بذلك أقل السحب انخفاضاً وأقربها إلى الأرض . ومعرفة ارتفاع السحب للطيار من الأهمية بمكان ، إذ المعتاد الآن أن الطيار بمجرد بدء رحلته يرتفع فى الجو حتى يخترق السحب فيطير فى الجو الصحو المشمس ، ويستمر فى رحلته حتى قرب نهايتها ، وعندئذ لا بد له من معرفة ارتفاعه عن الأرض ، وارتفاع أقرب

السحب إلى الأرض حتى يخترقها ويصبح فى جو المطار فيتمكن من رؤيته عند الهبوط .

وهناك استعلامات هامة أخرى ، وبها يمكن أن يطلب الاستعانة وقت الحاجة ، وأن يستعلم عن مكانه عند الضلال ، ويمكن أن يتلافى التصادم مع أية طائرة أخرى قريبة منه لا يمكنه أن يراها فى الجو الملبد بالغيوم والضباب الكثيف ، والطريقة الوحيدة إلى ذلك جميعاً هى موجات اللاسلكى التى ترسلها الطيارات فتعرف مواضعها بالنسبة إلى بعضها وبالنسبة إلى العالم .

إذاعة من طائرة

لعل أقرب مثال بل أسعد مثال لبيان الاتصال بين الطائرة والمحطة اللاسلكية هو مثال الطائرة المصرية التى حلقت فى جو القاهرة مساء الزفاف الملكى السعيد ، وبها أجهزتها اللاسلكية المعتادة وأمامها عامل اللاسلكى ، وهو أحد مهندسى اللاسلكى بشركة مصر للطيران ، وجلس فى المقدمة أحد مذيعى محطة الحكومة المصرية للإذاعة اللاسلكية ، وأخذت الطائرات تجوب أنحاء جو القاهرة والمذيع يوجه وصفه إلى بوق أشبه بميكرفون التليفون ، وهذا البوق يتصل بأجهزة الإرسال بالطائرة ،

فتطلق موجات اللاسلكى من الطائرة إلى محطة ألماظه اللاسلكية ، وهذه الموجات تعدل حسب الكلام المحمول إليها ، وتلتقطها محطة ألماظة ، ويمكنها الاستماع إلى هذا الوصف الشائق ، ولكن حيث أنه يراد إذاعة هذا الوصف على المستمعين جميعاً ، فإن محطة ألماظه عندئذ توصل بمحطة الإذاعة المصرية بسلكين من أسلاك التلغراف العادية ويتصلان مباشرة باحدى غرف المراقبة فى محطة الإذاعة المصرية بشارع علوى ، وبذا يحمل الصوت على متن موجات اللاسلكى بين الطائرة ومحطة ألماظة ، ويحمل فى أسلاك التلغراف من محطة ألماظة إلى محطة الإذاعة فتذاع من هناك إلى جميع النواحى فيسمعها المستمعون ويتتبعها المتشوقون . هذا مثال يبين أن الطائرة يمكنها أن تتصل بالمحطة اللاسلكية بوساطة موجات اللاسلكى على صورة تلغراف لاسلكى أو تلفون لاسلكى .

الطيران بدون قائد

إلى هنا قد بينا تدرج الطيران وأثر اللاسلكى فى هذا التقدم حتى أصبحت موجات اللاسلكى ترسم الطريق للطائر فلا تجعله يميل عن الطريق القويم ، فهل يمكن بهذه الموجات أن تهدى الطائرة دون حاجة إلى الطائر أو القائد ؟ .

هذا هو السؤال الذى كان يتردد فى نفوس العلماء الحربيين ، ولا شك أنه يحقق حفظ الأنفس الكثيرة من الموت احتراقاً أو سقوطاً من أعلى الارتفاعات . ولعل أول تفكير فى هذا الموضوع قد حدث فى أثناء الحرب العظمى الأولى . فإن حاجة الدول إلى الانتصار السريع تفتق الحيلة لأغرب الاختراعات ، ولكنها محاولة فشلت عندئذ لحاجتها إلى الوقت الطويل فى البحث والدراسة ، والوقت من ذهب ، خاصة فى الحروب .

وبعد الحرب أفلح الأميريكيون فى تنفيذ الفكرة ، فمن محطة خاصة سرية قامت طائرة وارتفعت فى الجو بدون قائد ، وصارت تتحرك ذات اليمين وذات اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف ، وكل ذلك بدون قائد بداخلها ، وإنما حسب إرادة شخص يبعد عنها عدة أميال مقره على الأرض والطائرة فى السماء وشتان ما بينهما .

والفكرة الأساسية فى الطيران بدون قائد مبنية على أن موجات اللاسلكى هى الواسطة بين الأرض والطائرة ، وهذه الموجات ترسل من مقر المحطة التى على الأرض وتسمى محطة المراقبة وتوجه إلى الطائرة التى يوضع فيها عدة أجهزة لاسلكية دقيقة ، كل جهاز منها له عمل خاص ، فاذا تأثر الجهاز بموجات اللاسلكى ذات الطول المناسب يتكون فيه تيار كهربى لا ينتج الغناء أو

الصوت على العموم ، كما فى أجهزة الراديو العادية ، بل ينتج الحركة ، إذ تتصل أجهزة اللاسلكى بعدة محركات ، فهنا محرك يوجه دفة الطائرة نحو اليمين أو اليسار ، وهنا آخر يرفع الطائرة أو يخفضها . وهكذا تطير الطائرة بوساطة عدد من الإشارات اللاسلكية المرسلة من محطة المراقبة ، ويمكنها أن ترتفع أو تنخفض وتتجه نحو اليمين أو اليسار كما لو كان قائدها بداخلها .

ومن طريف ما يحكى فى هذا الصدد أن طارت مثل هذه الطائرة الذاتية مرة وصارت تبتعد عن محطة المراقبة حتى ضعف تأثرها بموجات اللاسلكى المرسلة إليها فاستمرت الطائرة تسير وتسير — ولو لم ينفذ بنزينها لاستمرت — ولكن بعد أن فرغ بنزينها سقطت على الأرض ثم أحدثت فرقعة هائلة ، فالتف حولها الناس لينقذوا الطيار ، ولكن بحثهم عنه كان دون جدوى .

وقد كانت هناك صعوبات فى توجيه الطائرة الذاتية ، منها أن مدى النظر محدود ، فالمراقب فى غرفة المراقبة عند ما تختفى عنه الطائرة يعجز عن أن يوجه إشاراته فى الاتجاه الصحيح ، ولذلك حاول الأمريكيون التغلب على هذه الصعوبة ببناء عدة محطات مراقبة على طول الطريق المرغوب توجيه الطائرة على طوله .

والطائرة أيضاً ترسل موجات لاسلكية فتصل إلى محطات المراقبة الأرضية فيعرف المراقب بوساطة البوصلة اللاسلكية اتجاه

الطائرة ، حتى ولو كانت بعيدة عن مدى بصره ، فيوجهها الاتجاه الذى يرغبه ، ويمكن بعد ثانية مثلا أن يختبر الاتجاه الجديد للطائرة فيدرك إن كانت قد استقبلت إشاراته ، بل يمكن لأى مراقب فى أى محطة أخرى أن يعرف موضع هذه الطائرة ، فبالتعاون بين محطات المراقبة يمكنهم توجيه الطائرة لأى بعد ولو طال .

٧

فى التلفزيون

إن حب الاستطلاع غريزة من غرائز الإنسان وكثيراً ما نشاهده ينظر خلال ثقب الباب ليشاهد ما يحدث بداخله ، أو يطل من نافذة منزله ليشاهد المناظر فى الطرقات المجاورة ، بل إننا نراه يقطع أطول المسافات ليحيي مليكاً محبوباً وليستمتع بموكبه الجميل أو ليشاهد قائداً منتصراً أو ليتفرج على مباراة فى كرة القدم أو سباق للسيارات أو الزوارق .

بل إن إقبال الناس على ارتياد دور السينما نتيجة من نتائج غريزتهم للمشاهدة والرؤية — فما الحوادث فى السينما إلا صورة طبق الأصل لحوادث الحياة .

فإذا كان هذا هو شأن حب الاستطلاع مع الإنسان فلا غرو أن كان الإنسان يعمل منذ أقدم الأزمان على تقريب الرؤية البعيدة ، وذهب بالناس الخيال كل مذهب فاستنبطوا فى قصص ألف ليلة وليلة تلك العين السحرية التى إذا نظر

إليها الإنسان رأى ما اشتهى من المناظر والمشاهدات .

وهذا الحلم الجميل ، حلم الرؤية عن بُعد حققه العلم ونفذه الموج الساحر ، فى اختراع التلفزيون .

التلفزيون

إن كلمة تلفزيون معناها الحرفى « الرؤية عن بعد » فان كلمة « تلى Tele » معناها بعيد ، وكلمة « فيزيون Vision » معناها رؤية ، والكلمة الأولى وهى كلمة « تلى » ظهرت فى مخترعات كثيرة منها تلفون وتلغراف ، ومعناها فى الجميع واحد ، فالتلفون الصوت البعيد ، والتلغراف الرسم البعيد ، وتلفزيون الرؤية البعيدة .

وقد ظهرت هذه الكلمة أول مرة فى مقال فى جريدة إنجليزية فى ديسمبر سنة ١٩٠٩ ، وقد عبر صاحب المقال عن رغبة الإنسان فى مشاهدة المناظر البعيدة قريبة منه على شكل صور تعبر عن الحوادث التى يرغب فى تتبعها ، وكذلك ظهرت فى هذه المقالة كلمة تليفوت Telephot أو الصور البعيدة ، ولكن كلمة تلفزيون نجحت واستعملت منذ هذا التاريخ ؛ وللكلمات حظوظ مثل بنى الإنسان ، بعضها ينجح وينتصر ، وبعضها يستعبد ويموت .

وقد نجح الموج الساحر فى نقل الكلمات والأغانى والأصوات ، فرغب العلماء فى الخطوة الثانية وهى استخدام الموج الساحر لنقل صور الأشخاص والمناظر والمرئيات ؛ وقد نجح العلماء فى ذلك ، فصار الموج الساحر ينقل الصور ويحملها على متن الأثير بسرعة اللاسلكى ، تلك السرعة الهائلة التى تلف العالم فى أقل من سبع ثانية ، فلا تكاد الحوادث تقع حتى تصل مناظرها مصورة فى المنازل ودور السينما والسفن فيشاهد الناس فى أعلى أجهزة الراديو صور تلك المرئيات ، فمن ممثلات جميلات أو مذيعات ظريفات أو ملوك وزعماء أو قادة وخطباء أو حوادث سباق السيارات والزوارق أو مناظر مباريات كرة القدم والمصارعة والملاكمة ، وهكذا نجح الموج الساحر فى تحقيق حلم الإنسان وفى إرضاء غريزته ، فلا تكاد الحوادث تجرى حتى يشاهدها الإنسان فى نفس اللحظة تقريباً مصغرة صورها على لوحات تعلو أجهزة الراديو ، فيرى الصور أمامه ويسمع الأصوات نفسها كأنه ينظر إلى الحوادث فى ميدان أصغر ؛ فيا للموج الساحر من قدرة . ويا له من ساحر حقاً .

أساس التلفزيون

إن لكل شىء أساساً يبنى عليه ، فأساس القاطرة قوة

البخار ، وأساس التلفون هو جهاز تحويل الأصوات إلى تيارات كهربية مثل جهاز الميكروفون ، وأساس التصوير الشمسى هو كشف العلاقة بين بعض المواد الكيماوية والضوء ، فاللوح أو شريط التصوير عبارة عن زجاج سيليلوز مغطى بمواد كيماوية ، والصورة عبارة عن أسنان بيضاء وشعر أسود ، وبقية الأجزاء الخاصة بالصورة عبارة عن أضواء مختلفة الشدة بين البياض الشديد والسواد الحالك ، فاللوح الفوتوغرافى يتأثر بتأثيرات مختلفة بالأضواء المختلفة . فكأننا استطعنا تحويل الصورة إلى رموز كيماوية يمكن تثبيتها وإظهارها بطريقة كيماوية أيضاً .

وإن أساس التلفزيون هو ذلك الكشف الهام الذى يربط بين الضوء والكهربا فيحول صورة الشخص إلى تيارات كهربية فالأسنان البيضاء يعبر عنها تيار كهربى شديد ، والشعر الأسود يعبر عنه تيار كهربى ضعيف ، وبقية الأجزاء الخاصة بصورة الجسم المراد تلفزته يعبر عنه بتيارات مناسبة لشدة الاستضاءة الخاصة به ، وهذا الجهاز هو المسمى (الخلية الضوئية الكهربية أو العين الكهربية) . وهذا الجهاز يشبه الصمام المستعمل فى أجهزة الراديو ، وله تطبيقات كثيرة فى الحرب الحديثة وفى السلم الحديث ، فهو يستخدم لضبط اللصوص الذين يدخلون المنازل والمصارف ، وفى إحصاء الطرود ، وفى حماية العمال

من أن تهبط الآلات على أيديهم ، وفى نقل الصور باللاسلكى .
وفى ناحية التلفزيون تستعمل فى الإرسال كجهاز لتحويل التغيرات الضوئية المنعكسة من الشخص أو الجسم المراد تلفزته إلى تغيرات كهربية فكأن هذا الجهاز يقابل الميكرفون فى حالة الإذاعة اللاسلكية للصوت ، والميكرفون كما تعلم هو الجهاز الذى يحول الأصوات الحادثة أمامه إلى تغيرات كهربية ، وهذه الخلية قد كشفت سنة ١٨٨٨ .

ولكن من قبل كشف هذه الخلية بسنوات حدث كشف هام بطريق الصدفة وذلك أنه فى سنة ١٨٧٣ عند ما كان أحد عمال التلغراف الإيرلنديين يقوم بتجاربه فى اختبار المقاومات الكهربية العالية ، وكان يستخدم لذلك مادة السيلنيوم — لاحظ أنه إذا سقطت أشعة الضوء على هذه المادة تغيرت المقاومة ، وإذا تغيرت المقاومة تغير التيار الكهربى ، وهذه الخاصية الهامة هى أساس التلفزيون فإنها أوجدت علاقة بين الضوء والتيار الكهربى ، ولم تكن موجودة من قبل . وبعد تحسينات متعددة صنعت الخلية الضوئية الكهربية الحديثة بدلا من مادة السيلنيوم التى وجدت لها عدة عيوب .

بمجرد أن كشف عن خاصية السيلنيوم التى تبنى العلاقة الهامة بين الضوء والتيار الكهربى انغمس العلماء فى نقل الصور بالأسلاك أولا ، وقد حاول ذلك نفس العامل الذى كشف خاصية السيلنيوم وأراد نقل الصورة مرة واحدة .

وجاء من بعده العالم الأمريكى كارى ، وذلك سنة ١٨٧٦ فى بلدة بوستن ، وقد نجح فى نقل الصور بالأسلاك لأول مرة ، ولكن الصور كانت غامضة وعبارة عن ظلال ؛ وغموضها يرجع إلى ضعف التيار الكهربى الناتج من خلية السيلنيوم وعدم وجود الصمامات الكهربية المكبرة إذ أنها كانت لم تكشف بعد فى ذلك التاريخ .

وكان أهم كشف للعالم كارى أنه قسم الصورة إلى عدة أقسام صغيرة وحاول أن يرسل صور جميع أقسام الصورة فى وقت واحد خلال عدد من الأسلاك — وبقيت فكرة تقسيم الصورة معمولا بها فى التلفزيون الحديث .

وجاء من بعده العالم الفرنسى ليبلانك سنة ١٨٨٠ ، حيث اقترح تعديل فكرة كارى ، فأقر فكرة تقسيم الصورة إلى أقسام ، ولكن رأى إرسال هذه الأقسام على التتابع بدلا من

إرسالها دفعة واحدة ، وفكرة التتابع السريع معمول به إلى الآن .

وفى سنة ١٨٨٤ وفق العالم الإيرلندى بول نبكو Paul Nipkow إلى اختراع قرص التفرس ، وهو قرص مثقوب عدة ثقوب يمكنه نقل صورة كل قسم من أقسام الصورة على حدة وبالتتابع وبسرعة ، وبقى استخدام هذا الجهاز إلى سنة ١٩٣٠ واستخدم بدلا منه أنبوبة أشعة المهبط التى أنشأها العالم الإنجليزى سير وليم كروكس سنة ١٨٧٨ ، وفى سنة ١٩٢٣ نجح العالم الأمريكى جنكنز فى وشنطن ، إذ أرسل صورة غير واضحة تشمل اللونين الأبيض والأسود بالراديو ، وقد استخدم فى ذلك قرص نبكو ، وكانت صورة الرئيس هاردنج ، نقلها لمسافة ١٣٠ ميلا ، ومن بعدها أرسلت صور رؤساء وزارات إنجلترا وأمريكا .

ولكن الصور لم تكن إلا خيال الظل ، أى كانت ظلالا دون تحديد الملامح .

وإلى هنا تجمعت المخترعات ومهدت السبيل للعالم الإنجليزى بيرد الذى يعتبر المخترع الحقيقى للتلفزيون ، فاذا كان للاسلكى مقدمات مهدت لماركونى نجاحه فكذلك كان للتلفزيون مقدمات منها خليه السيلنيوم ، وتقسيم الصورة ، وإرسال أجزائها على التتابع أولا بالأسلاك ثم نقلها باللاسلكى ولكنها صور كخيال الظل .

مخترع التلفزيون

وكما يشار إلى ماركونى عند اختراع اللاسلكى فكذلك عند ما يذكر التلفزيون يشار إلى مخترعه العالم الإنجليزى جون لوچى بيرد John Logie Baird الذى ولد سنة ١٨٨٨ وهو يعيش إلى الآن فيبلغ من العمر الآن ٥٩ سنة ، وظهرت عليه منذ نعومة أظفاره مهارة فى فك الآلات وتركيبها ، وكانت من أحب الآلات إليه السيارات ، يفك أجزاءها ويصلحها ويعيد تركيبها ؛ ومن بعد ذلك تلقى أصول العلوم فى جامعة جلاسجو ، وعقبها انتظم عاملا فى مصنع للسيارات ثم تركه واشتغل فى شركة كهربية ، فكأن الطبيعة كانت تعده لعمله العظيم وتمهد له لنجاح فيه فأصبح ماهراً فى الناحيتين الميكانيكية والكهربية ؛ ولما قامت الحرب الكبرى الماضية قدم نفسه للتطوع فى أعمال الجيش ولكن الفحص الطبى قرر ضعف صحته ، ورفض قبوله فى أعمال الجيش ، فرجع إلى شركته الكهربية ليواصل العمل فيها ، ولما زاد اعتلال صحته استقال منها وعاد إلى بيته ليقتل الوقت فى البحث العلمى وراء التلفزيون ؛ وقد كان يشغل بال عدد من العلماء فى إنجلترا وأمريكا وألمانيا وفرنسا ، واستأجر بيرد غرفة فوق دكان فى بلدة هايستنجز ، وأكب على البحث

والتجربة فلم تنقض ستة أشهر حتى وفق إلى جهاز غير معقد ينقل الأشباح ، فيرى الناظر إلى الجهاز المستقبل فلا يحدد شكل الجسم الموضوع أمام المرسل ، فدعا أصدقاءه لمشاهدة هذه النتيجة التى سرلها أيما سرور ، ولكنه علم أن أحد علماء أمريكا واسمه جنكنز Jenkins وفق إلى هذه النتيجة أيضاً سنة ١٩٢٢ من قبله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه واصل الجهاد ليصل إلى التلفزيون الحقيقى ، ولم تنقض تسعة أشهر أخرى حتى كان يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٢٦ فأعلن بيرد أمام أعضاء المعهد الملكى بلندن نجاحه فى التلفزيون الحقيقى ، وبين لهم بالتجربة إمكان إرسال الصور الحقيقية بين غرفتين بالتلفزيون فوضع أمام المرسل وجه دمية (عروس) فشاهدها الأعضاء أمام المستقبل فى الغرفة الأخرى تتحرك ، وملامح وجهها ظاهرة واضحة ، ثم كرر التجربة لشخص حى جلس أمام جهاز الإرسال وصار يحرك يديه ويشرب السيجارة ، فشاهد الأعضاء فى ناحية الاستقبال حركات يديه ودخان سيجارته ، وبذلك نجح بيرد فى تحقيق آمال صباه ونال فخر مخترع التلفزيون فى يناير سنة ١٩٢٦ .

تقدم التلفزيون

عقب نجاح بيرد بدأ هو نفسه وبدأ معه العلماء في بحث طرق تحسين التلفزيون ، أما هو فقد خطا خطوات واسعة نحو التقدم ؛ وأول ما عابوه على طريقته اضطراره لاستعمال أشعة ضوئية قوية على الجسم المراد تلفزته ، ولكن بالبحث العلمي تمكن من إرسال صورة جسم موضوع فى غرفة مظلمة ، واستعمل لذلك أشعة ما دون الحمراء ، وفى سنة ١٩٢٨ نجح التلفزيون فى إرسال الصور بالضوء الطبيعى العادى ؛ وفى أغسطس من نفس السنة نجح فى إرسال الصور بالألوان الطبيعية ؛ وفى ٣١ مارس سنة ١٩٣٠ نجحت محطة الإذاعة فى إنجلترا ، وهى المعروفة باسم B.B.C. فى إرسال الأصوات والمرئيات معاً ؛ وفى ٨ مايو سنة ١٩٣١ نقلوا بالتلفزيون صور سباق الخيل المعروف بسباق دربى الشهير ؛ وفى ٦ أبريل سنة ١٩٣٣ استخدمت أنبوبة أشعة المهبط فى استقبال الصور ، فجعلتها أوضح وأظهر .

بل استخدمت أنبوبة أشعة المهبط بعد ذلك فى الإرسال والاستقبال معاً ، وفى ناحية الإرسال أدخلوا عليها تعديلا بسيطاً فى تركيبه ، عظيماً فى نتائجه ، وهو لوح الميكا عليه آلاف

من الخلايا الضوئية الكهربية تسقط عليها صورة المرئى ثم تسلط عليها بالتتابع أشعة المهبط . فنجحت هذه الفكرة وأصبح التفرس ، أو مسح الصورة ، يتم بواسطة هذه الأنبوبة المعدلة التى تسمى الان أيكونوسكوب Iconoscope وذلك بدلا من الطرق الميكانيكية التى منها قرص نبكو.

وأنبوبة أشعة المهبط فى ناحية الاستقبال تجد لها قاعدة من الزجاج الذى يومض أى يضىء عند سقوط الأشعة المعبرة عن الصورة وهذه القاعدة هى التى يستقبل عليها الصورة . وتسمى فى حالة الاستقبال .

موج قصير

إن الموج الساحر الذى نجح فى نقل الصور والتلفزة باللاسلكى إنما هو موج قصير ، وقد دعت إلى ذلك الضرورات الفنية المتعددة ، ومن عيوب هذا الموج القصير أنه يتعب إذا سار على الأرض فلا يكاد يسرى نحو ٦٠ ميلا حتى تكون الأرض قد امتصته جميعاً فلا تبقى على شىء منه إطلاقاً ، وإذا وجه نحو السماء كموجات اللاسلكى المخصصة للإذاعة لا ينعكس كما تنعكس موجات الإذاعة ، فهذا لسوء الحظ الذى جعل موجات التلفزيون لا تزيد على مدى ٦٠ ميلا من محطة التلفزة ، ولذلك

يحاول العلماء التغلب على هذه الصعوبة باستخدام محطة مرتفعة للتلفزة حتى تسرى مدى طويلا دون أن تمتصها الأرض .

وإن طول الموجات المستخدمة للتلفزة هو نحو ٧ أمتار أو ٦ أمتار أو ٥ أمتار ، وآخر ما وصلت إليه هو مدى ٦٠ ميلا ، ولذلك لجأ العلماء فى التغلب على هذه الصعوبة إلى استخدام محطات للتقوية ، فبعد كل ٤٠ ميلا تقريباً محطة لاستقبال موجات التلفزة وتقويتها وإذاعتها من جديد ، لتستقبلها أجهزة جديدة فى مناطق جديدة ، حتى إذا ضعفت ثانية استقبلتها محطة ثانية لتقويتها من جديد ، وهكذا تصبح محطات التقوية للتلفزيون أشبه شىء بشبكات الكهربا المنتشرة فى القطر ، كل شبكة لها منطقة خاصة ، وهكذا تغلب العلماء على هذه الصعوبة بهذه الطريقة ؛ ولعلهم يوفقون إلى اختراعات أخرى يتغلبون بها على هذه الصعوبة بغير طريقة التكرار ، أى تكرار بناء محطات تقوية كل عدة أميال .

٨

فى الحروب

ما كاد الموج الساحر يظهر للملأ حتى اتجهت إليه الأنظار وامتدت إليه الأيدى ، كل ينشده فى ميدانه ، ويطلبه لينتفع به فى أغراضه ؛ فاستخدمه رجال الحربية منذ أول نشأته ، فوجدوا فيه وسيلة فعالة نشيطة لا تعبأ بالقنابل أو المفرقعات ولا تعوق موجاته تلال أو جبال ، ولا يمنعها ضباب أو سحاب أو تراب ، كما أنه عند ما استخدم مع الطيارات الحربية أمكن أن يكون الطائر على اتصال دائم بمركز القيادة ، فيقف على تطورات الحرب أولا بأول بأسرع وسيلة ، ويعرف أسرار العدو ويرسلها إلى من يهمهم الأمر فى أسرع وقت ، وقد أمكن تحطيم كثير من الطائرات والمدمرات والقذائف بذلك الموج الساحر ، وبذلك أدى هذا الموج للحروب ووسائل الحرب أجل الخدمات .

أول استخدام الموج فى الحروب

وأول مرة استخدم فيها اللاسلكى فى الحروب كان فى حرب جنوب أفريقيا سنة ١٩٠٢ ، وكان اللاسلكى عندئذ فى أول نشأته ، استخدمت أجهزته الأولية التى استعملها السير أوليفر لودج فى أكسفورد سنة ١٨٩٤ ، وقد استعان رجال الحرب عندئذ بأعمدة الأشجار المرتفعة ومدوا فيها أسلاك الهوائى ، ولم تكن الفائدة من اللاسلكى فى هذه الحرب عظيمة ، ولا غرو فقد كان اللاسلكى لا يزال فى المهد صبيا ، ثم استخدم من بعد ذلك فى حرب روسيا واليابان سنة ١٩٠٤ ، ثم فى حرب تركيا وإيطاليا فى طرابلس سنة ١٩١١ ، ثم فى حرب البلقان سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ .

فى الحرب العظمى الأولى

وفى أغسطس سنة ١٩١٤ أعلن الإنجليز الحرب على الألمان ، تلك الحرب العظمى التى خاضت غمارها دول أوربا وأمريكا ، ودامت أربع سنوات ، إذ عقدت الهدنة يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وقد ظهر أثر استخدام أمواج اللاسلكى فى تلك الحروب منذ البداية ، إذ أرسل الألمان من بلادهم إشارات لاسلكية إلى

بواخرهم الراسية فى موانى الحلفاء لتغادرها بسرعة ، وقد تم ذلك فعلا فى أسرع وقت ، ولجأت البواخر إلى شواطئ حلفاء ألمانيا ، فنجحت البواخر بفضل الموج الساحر ، وكما ظهر أثره فى البداية أفاد فى النهاية .

فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ أرسلت المحطة اللاسلكية فى برج إيفل بباريس رسالة لاسلكية إلى قواد جيوش الحلفاء تنبئهم فيها بنبأ الهدنة ووقف القتال ، وبذلك أوقف اللاسلكى الحرب والقتال فى الميادين المختلفة فى لحظة واحدة .

وفيما بين البداية والنهاية لعب اللاسلكى أدواراً هامة فى الحرب العظمى ، وذلك فى ميادين القتال المختلفة البرية والبحرية والجوية وعند بدء الحرب حاولت روسيا مهاجمة بروسيا الشرقية من ناحيتيها الشرقية والجنوبية ، وفى كل ناحية جيش كبير تحت قيادة قائد عظيم أحدهما رينكامف على رأس الجيش من الناحية الشرقية ، والآخر سمسونوف على رأس الجيش من الناحية الجنوبية ، ووجد الألمان أنفسهم فى مركز حرج للغاية ، إذ كان عددهم أقل بكثير من الجيش الروسى ، وأمام ذلك كادوا يقررون التراجع لولا أن قيضت لهم الظروف اللاسلكى فأنقذهم ، وذلك أنهم تمكنوا من أن يلتقطوا رسالة لاسلكية بعث بها رينكامف إلى زميله سمسونوف ، أدرك الألمان فيها نوايا الأول وتقريره الهجوم على مهل

نحو قلعة كونيجسبرج فى الناحية الغربية من ألمانيا بدلا من الاتجاه نحو الجنوب للتعاون مع سمسونوف ، وأمام ذلك انتهز الألمان هذه الفرصة السانحة وقرروا مهاجمة جيش سمسونوف وانتصروا فى معركة تاننبرج الشهيرة سنة ١٩١٤ .

هذا المثال يدل على أن الموج الساحر ليس خيراً صرفاً غير مشوب بالأضرار المستخدمة ، فانه إن لم يتقن استعماله انقلب من فرصة إلى غصة ، فها هى الرسالات اللاسلكية يمكن العدو أن يلتقطها ويعرف ما تحمله من أسرار ، وقد لجأ الحربيون فيما بعد إلى استعمال الرموز الشفرية حتى يخفى مغزى الرسالة على العدو ، ولكن مع ذلك يمكن العدو أن يعرف اتجاه مرسل الإشارة اللاسلكية عند التقاطها ، ويمكنه بذلك أن يبعث إليه ما يلحق به الضرر ، ومن أمثلة ذلك أن طائرة ألمانية من نوع زبلن كانت ترسل الإشارات اللاسلكية تباعاً إلى مقر القيادة الألمانية تطلب منها تحديد موضعها ، وذلك عند ما اشتد الغيم وتكاثفت السحب ، وكانت المحطات البريطانية تلتقط موجتها اللاسلكية ، فعرفت منها اتجاه هجومها ودمرتها فى الوقت المناسب .

في موقعة بحرية

وفى الموقعة البحرية « جوتلاند » استفاد البريطانيون من التقاط الإشارات اللاسلكية التى كانت ترسلها القيادة الألمانية فى ولهلمسهافن ، وعرفوا منها أن الأسطول الألمانى يتحرك على طول نهر « جيد » يقصد البحر ، وهنا تحرك الأسطول البريطانى لملاقاة الأسطول الألمانى فى المكان المناسب ، فلاقاه فى جوتلاند ، ووقعت تلك المعركة التاريخية وتم الانتصار فيها للإنجليز فى ٣١ مايو سنة ١٩١٦ .

إنقاذ

وكم للاسلكى من آثار جمة لمستخدميه ، فهناك مواقف وظروف لا يمكن الجيش أن يتصل فيها بمركز قيادته دون وسيلة اللاسلكى ، وقد حدث فى الحرب العظمى فى معركة « لومس » ، التى وقعت فى سبتمبر سنة ١٩١٠ بين الإنجليز والألمان ، أن الجيش الإنجليزى بعد أن استولى على تلك البلدة وجد الضغط عليه شديداً من الجيش الألمانى ، إذ كان القتال بين الجيشين سجالا ، وكاد الإنجليز يقررون الانسحاب من البلدة تلافياً لهذا الضغط الشديد لولا استخدامهم أمواج اللاسلكى ،

واتصالهم بالقيادة التى أرسلت لهم الرد باللاسلكى أيضاً تطلب من جيشها أن يصمد للجيش الألمانى ويثبت فى المدينة حتى يأتيه المدد والمعونة — وهكذا انتصر الإنجليز فى هذه المعركة بسبب استخدام الموج الساحر .

بين حربين عظيمتين

وبعد الحرب العظمى الأولى وقعت حروب دولية كما حدث بين إيطاليا والحبشة سنة ١٩٣٧ ، وبين اليابان والصين سنة ١٩٣٨ لعب فيها الموج الساحر الدور الأول فى انتصار الدول التى تتقن استخدامه .

فى الحرب العظمى الثانية

وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا ، فأضرمت نار حرب عالمية اشتد أوراها واشتبكت فيها دول العالم أجمع قديمه وجديده ، قاصيه ودانيه . إذ أعلنت أمريكا الحرب على اليابان يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ . فأصبح العالم بأجمعه كأنه ميدان واحد فسيح تنتقل الحرب فيه من قطر إلى قطر . كأنها تنتقل من شارع إلى شارع ، وتجتاح الدولة فى أيام بعد أن كانت تقاوم سنوات ، ونشطت عقول العلماء تتفنن فى

الاختراع والابتكار ، وعملوا على تحسين المخترعات المعروفة ليصلوا بها إلى الكمال ، فقد تطور الطيران فى هذه الحرب عن الحرب الماضية ، حتى يمكن أن يقال إن هذه الحرب هى حرب الطائرات ، وانتقلت الميادين من الأرض إلى السماء ، ولجأوا إلى اللاسلكى ومخترعاته فحسنوها وأتقنوها لدرجة يمكن القول معها إن الحرب الحديثة هى حرب الجبهات الأربع : الأرض والبحر والجو والأثير بعد أن كانت الحروب الماضية هى حرب الميادين الثلاثة . الأرض والبحر والجو . وقبل اختراع الطيران كانت الحروب قاصرة على ميدانين اثنين : ميدان الأرض وميدان البحر .

الجبهة الرابعة

وجبهة الأثير تميزت بها هذه الحرب الحديثة لأول مرة فى تاريخ الحروب ، وقد اهتمت بها الدول أى اهتمام ، ولا غرابة أن نجد فى كل دولة وزارة للدعاية ، ولا دهشة أن تلجأ بعض الدول إلى اعدام من يستمع إلى إذاعة خارجية ؛ وإن محطات الإذاعة فى برلين أو لندن كانت تذيع الدعايات بمختلف اللغات ، حتى لقد بلغت إحدى وثلاثين لغة من محطة الإذاعة الواحدة ، وإذا كانت الحكومات تفرض الرقابة الشديدة على

الصحف والكتب والمجلات خلال الحرب ، فانها لا تستطيع أن تمنع انتشار الإذاعات اللاسلكية المعادية فى بلادها ، فان الدعاية اللاسلكية تنتشر بين الموسيقى والأغانى والأنباء والأخبار والمعلومات مما تجذب السمع وتقرب الآذان إلى أجهزة الاستقبال ، وكل ما تستطيعه الحكومة لمنع استماع الإذاعات المعادية هى أن تنشر موجات لاسلكية من طول نفس الموجة المعادية لتعاكسها وتحدث أصواتاً مزعجة لا يستطيع المستمع فى الغالب أن يصبر على أذاها فى الأذن .

قنابل العقول

وهذه الإذاعات اللاسلكية والدعايات الأثيرية ، يمكن أن نسميها قنابل العقول ، فكما أن القنابل المادية تدك الحصون ، وتهدم المبانى وتمهد الطرق ، فكذلك هذه الدعاية الأثيرية تنشر الإشاعات المغرضة ، وتثير الشكوك بين الجيوش وقوادها ، وتهدم الثقة بين الشعوب وحكوماتها ، وتبدل الأحوال من عزيمة إلى هزيمة ، ومن طمأنينة إلى فزع وهلع ، وتحول العقيدة من ثقة بالنصر إلى عقيدة بالخذلان ، فتعمل هذه على تراخ فى الإقدام فتتقهقر الجيوش وتستسلم الأساطيل .

٩
من أسرار الحرب الحديثة

سحر الرادار

الرادار من الأسلحة السرية التى استخدمها الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولم يبوحوا بشىء من سره إلا بعد انتهاء هذه الحرب . هذا السلاح السرى كان سبباً من أسباب انتصار الحلفاء ، وكان العامل الأول الذى قلب كفة الحرب من انتصار للألمان إلى هزيمتهم ، ومن هزيمة للحلفاء إلى انتصارهم فى النهاية ، وذلك بفضل الرادار أولا والقنبلة الذرية ثانياً .

فقد بدأت الحرب العظمى الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وسار الألمان من نصر إلى نصر حتى هزموا بولندا وبلجيكا ولوكسمبرج وفرنسا فى أسابيع محدودة . وبدأوا الغارات الجوية على الجزر البريطانية من سنة ١٩٤٠ ، فكانت الطائرات الألمانية تعد بالآلاف ، وكانت إنجلترا تتظاهر بحوزتها لعدد من الطائرات ، ولكن الحقيقة التى عرفت فيما بعد أنها أخذت على غرة

من ناحية حرب الطائرات ، فكانت الطائرات الألمانية تغير على لندن بالمئات ، فتدك دورها وتهدم منازلها دكاً فظيعاً ، وثبت الشعب الإنجليزى لهذه المصائب ثباتاً عجيباً ، ولكن الرادار كان له الدور الأول فى القضاء على هذه الغارات الألمانية ، وذلك بفضل سحره فى تحديد اتجاه الطائرات المغيرة ومواضعها ولوكانت على بعد مئات الأميال ، أوكانت وسط الضباب وفى الظلام ، فكانت تعود الطائرات الألمانية بخسارة جسيمة وذلك لكشف سرها ، فتمكن الرادار من طرد الطائرات الألمانية التى تشن الغارات على الجزر البريطانية تلافياً للخسارة فى خيرة الطيارين وفقد الطائرات ، فبذلك رجح الرادار كفة الإنجليز على الألمان ، وتمكن الإنجليز من إنتاج الطائرات الحربية فى كندا وأمريكا ، وجهزت طائراتها الجديدة بجهاز الرادار ، فمنع التصادم بينها فى الظلام أو فى الضباب ، ومنع تصادم الطائرات وحوادثها عند الهبوط فى مطاراتها ، واستطاعت الطائرات أن تكشف الغواصات فى البحار ، فقضى الإنجليز على حرب الغواصات الألمانية أو قللوا أثرها .

وبالرادار استطاع الحلفاء مقاومة القنابل الطائرة وكشف الصواريخ الألمانية واتقاء شرها ، فكان الرادار للإنجليز كالسحر أو أشد أثراً .

فوائد الرادار

للرادار فوائد عظيمة ، ومزايا لا تقدر بثمن فى الحرب والسلم فهو :

١ — يحدد اتجاه الطائرات البعيدة على بعد مئات الأميال فينجح فيما يفشل فيه النظر والأنوار الكاشفة وغيرها من الطرق المعروفة من قبل .

٢ — يحدد مواضع الطائرات بدقة تامة وبما لا يختلف إلا عدة ياردات ، وفى المعتاد يكون الخطأ ٢٥ ياردة فى أية مسافة .

٣ — يكشف مواضع الغواصات عند ما تكون فوق سطح البحار .

٤ — يكشف مواضع السفن الحربية التى تبعد مئات الأميال

٥ — يمنع التصادم بين الطائرات وسط الضباب أو المطر أو الدخان .

٦ — تستطيع السفن بوساطته أن تمنع تصادمها بجبال الجليد أو السفن الأخرى فى الأجواء المعتمة أو الضباب .

٧ — يمنع حوادث الطائرات عند هبوطها فى المطارات أو اصطدامها بالجبال ، وقد كانت هذه الحوادث كثيرة قبل كشف الرادار ، وانعدمت تقريباً بعد كشفه فهو يبين للطائرات قرب

اتصالها بالأرض قبل أن تصطدم بها .

٨ — يبين للطائر ارتفاعه عن الأرض .

٩ — واسطة الاتصال بالقمر والنجوم وفتح باب جديد لمعرفة معلومات جديدة عنها .

١٠ — التفريق بين طائرات العدو وطائرات الأصدقاء ، وهذه أعجب العجائب ، ولكن طريقته بسيطة ، فى كل طائرة من طائرات الأصدقاء جهاز لاسلكى خاص يتأثر بموجات اللاسلكى الخاصة بالحلفاء ، وترتد منه موجة مماثلة يعرفون منها أن الطائرة صديقة .

١١ — استخدم المصريون الرادار للكشف عن الحشيش المخبأ فى بطون الجمال بدلا من ذبحها والكشف عنه بطريقة مباشرة نعرض الجمال البريئة للذبح ، وفى المعتاد يوضع الحشيش فى أسطوانات فى بطن الجمل ، وقد وجد أن الرادار وموجاته يحدث صفيراً فى الجمل الذى بداخل جوفه حشيش فيحجز لذلك ، وتنجو الجمال الحاوية بطونها من الحشيش .

فى الحرب العالمية الثانية

قد استخدم العلماء أجهزة علمية لكشف مواضع العدو ، ولمعرفة مقدار قرب طائراته ، ولكنها كانت قبل الرادار غير

دقيقة تماماً وعاجزة عند ما تكون المدافع أو الطائرات بعيدة بعداً يزيد على العشرة الأميال ، ومن هذه الأجهزة الأنوار الكاشفة وكاشفات أزيز الطائرات بالأبواق الصوتية والميكروفونات ، أما الأنوار الكاشفة فان شدتها بالغة ما بلغت تضعف مع بعد المسافة وتشتتها ذرات الضباب وتضعفها السحب ومداها ضعيف .

وأما كاشفات أزيز الطائرات المبنية على علم الصوت فلا يسمع بالأذن المجردة إلا على مسافات غير بعيدة ، فاذا استخدمت الأبواق أو الميكروفونات فان المدى يزداد عشرات الأميال على أكثر تقدير ، وأين هذا المدى من ذلك الذى يمتد به الرادار إلى مئات الأميال لا عشراتها . هذا بجانب عيوب أجهزة الصوت وعدم دقتها والتهويش على أزيز الطائرات من أصوات غريبة مثل الأصوات المتعددة الحادثة فى المدن من أصوات سيارات ومصانع ونداءات وقاطرات وغير ذلك من أصوات تعاكس دقة الاستماع إلى أصوات أزيز الطائرات .

أول استخدام الرادار فى الحرب العالمية الثانية

فى الواقع لم يأت الرادار نتيجة الحرب الأخيرة ولكن بدئ فى أبحاثه من قبل بعدة سنوات ، ولكنه أتقن خلالها ، وقد كان علماء الطبيعة يشتغلون فى أبحاث انعكاس موجات اللاسلكى

ومنهم العالم الإنجليزى أبلتن Appletôn وقد كان هذا العالم يشتغل فى معمل كفندش بجامعة كمبردج ، وقد أجرى تجارب فى مدينة أكسفورد ، وكشف أبلتن الطبقة التى ترتفع عن الأرض بنحو ١٢٠ ميلا وتعتبر مرآة لموجات اللاسلكى . وسميت طبقة أبلتن تكريماً لأبحاثه التى وفق فيها إلى كشف كثير من الظواهر اللاسلكية مثل الخفوت ومنطقة الخمود ، ومرة أطلق موجات اللاسلكى نحو السماء فلاحظ أن الموج المنعكس وصل فى وقت أقصر مما كان ينتظر ، وتساءل وبحث فوجد أن السبب إنما يرجع إلى وجود طائرة فوق مطار كرويدون Croydon مرت فى طريق الموجات فعكستها فوصلت إليه قبل الانتظار .

ومنذ هذا الحادث قد اهتم البريطانيون بهذا البحث واستخدام موجات اللاسلكى فى تحديد مواضع الطائرات .

ثم اهتم الأمريكيون بهذا البحث أيضاً فى الوقت نفسه ، ولذا كان أول تسجيل لاستخدام الرادار للطائرات سنة ١٩٢٩ . وأنشأت إنجلترا منذ ١٣ مايو سنة ١٩٣٥ على سواحلها القريبة من ألمانيا خمس محطات للرادار ، ثم زادتها إلى عشرين سنة ١٩٣٨ . فلما قامت الحرب وأغارت ألمانيا بطائراتها على إنجلترا ساعد هذا الجهاز على معرفة كل غارة قبل وقوعها بفترة كافية ، واستطاع الإنجليز به أن يوجهوا كل طائراتهم لصد الطائرات

الألمانية مما جعل الألمان يعتقدون أن الإنجليز كانوا يملكون عدداً كبيراً من الطائرات ، حيث كان هذا العدد الكبير يلاقى الطائرات المغيرة أينما طارت ومن أى جهة قامت .

وكان الرادار أول الأمر لا يصلح إلا لصد الغارات النهارية ، ولكن علماء الحلفاء استطاعوا بعد بحوث قيمة الوصول إلى نتائج باهرة من استخدام موجات لاسلكية قصيرة تبلغ عشرة سنتيمترات أو أقل ، فاستطاعت بذلك إنجلترا من صد الغارات الليلية

وفى سنة ١٩٤١ وضعت أول طائفة من أجهزة الرادار السنتيمترية المفيدة فى الغارات الليلية ، واستخدمت فى الطائرات المغيرة البريطانية الليلية ، ومنذ سنة ١٩٤٣ استطاع الإنجليز أن يغيروا على ألمانيا بطائراتهم الكبيرة ، وكانت تعود سالمة بفضل الرادار عندهم ، وقلته عند الألمان .

الرادار فى حرب السفن الحربية والغواصات

تعرف ألمانيا أن الجزر البريطانية تعتمد فى تموينها على السفن الكثيرة التى تصل إليها من البلاد الأخرى وممتلكاتها المتباعدة عنها . فأرادت ألمانيا أن تحرمها من تموينها باغراق السفن الواصلة إليها . فحشدت عدداً كبيراً من الغواصات فى طريق هذه

السفن ، وكانت تغرق العدد الكبير منها فى أوائل الحرب ، وقد أوشك الألمان أن يفلحوا فى حصار الجزر البريطانية باستخدام الغواصات والألغام المغنطيسية وغيرها ، وقد بلغت خسارة بريطانيا فى السفن سنة ١٩٤٢ ما حمولته ١٦٠٠٠ طن فى اليوم الواحد ، فبدأت إنجلترا تعرف سر الألغام الجديدة . وشرعت تستخدم الرادار فقضت على هذه الغواصات إلى حد كبير .

ومعروف أن الغواصات ترتفع أحياناً بالليل فوق سطح المياه لتأخذ حاجتها من الهواء ولتشحن (بطارياتها) . فلما استخدم الحلفاء الرادار فى طائراتهم الليلية منذ سنة ١٩٤١ استطاعت تلك الطائرات كشف الغواصات المعادية بسرعة أقلقت بال الألمان ، واستطاع الإنجليز أن يغرقوا نحو مائة غواصة سنة ١٩٤٣ فى ثلاثة أشهر مما لم يسبق له مثيل ، وذلك أنهم ما بين مارس وآخر يونية سنة ١٩٤٣ استعمل الحلفاء ما بين خمسين ومائة جهاز (رادار) حديث فأبطلوا حرب الغواصات ، حتى لقد صرح هتلر فى حديث له فقال : « إن تعطيلا مؤقتاً حدث لغواصاتنا بسبب اختراع فنى وفق إليه أعداؤنا . . . . » ، ولكن هذا التعطيل كان إلى نهاية الحرب .

وبسبب الرادار استطاعت أساطيل الحلفاء أن تحارب اليابانيين عند جزر ألوشيان سنتين متتاليتين ، وتمكنت هذه

الأساطيل من معرفة طريقها فى الظلام الدامس من شواطئ لم تعرفها من قبل ، واستطاعت الدخول إلى الموانئ المعادية فى الليل وإطلاق النار عليها وتحطيم بوارجها وسفنها الحربية .

وبفضل الرادار استطاع الأسطول البريطانى أن يحطم الأسطول الإيطالى سنة ١٩٤١ بالقرب من إيطاليا ، وأغرقت بواسطته المدمرة الألمانية بسمارك وحمولتها ٣٥٠٠٠ طن فى نفس العام والمدمرة شارن هورست فى عام ١٩٤٣ .

١٠

فكرة الرادار

الرادار جهاز من أجهزة اللاسلكى مخصص لمعرفة أبعاد واتجاهات الأجسام مثل الطائرات والسفن والغواصات مهما خفيت عن الأنظار ، وله منافع هامة فى الحرب والسلم ، ويكفيه فخراً أنه من أهم العوامل وأخص الأسلحة السرية التى أكسبت الحلفاء النصر النهائى ، ومن هنا كانت أهميته والاهتمام به ، ومن ثم ظهرت مزاياه فى السلم بعد انتهاء الحرب ، وليست الحرب كلها أضراراً ، بل إن لها بعض المزايا والأفضال . ومن أهم مخترعات الحرب الحديثة الرادار والقنبلة الذرية والقنابل الصاروخية ، وللثلاثة تطبيقات هامة فى السلم .

ونجاح الرادار مبنى أولا على استخدام الموج الساحر ذى الموجة القصيرة جداً . والموجات اللاسلكية — كما قلنا — تختلف الطول من عدة آلاف من الأمتار إلى أمتار قليلة ، والجديد فيها الطول القصير جداً وهو عدة سنتيمترات ، والرادار الحديث هو

الذى يستخدم الموجات التى طولها عشرة سنتيمترات . ولذلك اتجه العلماء إلى خواص هذه الموجات دون القصيرة ، ووفقوا إلى الكثير من طرق استخدامها بأجهزة سرية ، ومعرفة خواصها ؛ وقد كانت هذه الكشوف الخاصة بطرق توليد الأشعة السنتيمترية وخواصها خلال الحرب الأخيرة .

فذلك الموج الساحر القصير ، بل القزم ، هو الذى أنتج ذلك السلاح السرى الخطير الشأن وأكسب الحلفاء النصر .

والرادار جهاز به جزء للإرسال وآخر للاستقبال . فإذا ما انطلقت منه الموجات دون القصيرة فى الفضاء انعكست متى قابلت جسماً ساكناً أو متحركاً ، وفكرته كلها مبنية على هذا الانعكاس ، أو على هذا الصدى اللاسلكى ، ولفهم حقيقة هذا الصدى اللاسلكى يجب أولا أن نعرف شيئاً عن صدى الصوت .

صدى الصوت وصدى اللاسلكى

صدى الصوت هو ظاهرة مألوفة معروفة . يدركها الناس عند ما يصيح أحدهم فى الخلاء على بعد معين من عائق مثل تل أوجبل أوبناء مرتفع ، فإنه يسمع تكرار صوته ، ويسمى هذا الصوت المنعكس بالصدى .

وقد درس علماء الطبيعة صدى الصوت دراسة دقيقة فوفقوا إلى حقائق جديدة وتطبيقات فى الحياة متعددة .

والصوت موجات ، وموجات الصوت تنعكس فتحدث صدى الصوت ، وموجات اللاسلكى تنعكس فتحدث صدى اللاسلكى ، ولا بد لحدوث صدى الصوت من شروط أهمها وجود حائل أوسطح عاكس ، ولا بد أن يكون الحائل على بعد من مصدر الصوت لا يقل عن ١٧ متراً .

ويظهر من هذين الشرطين أنه إذا لم يوجد حائل فلا صدى للصوت ، والعكس صحيح ، أى أنه إذا سمع الإنسان صدى لصوته فإنه يستنبط أنه لا بد أن يكون هناك حائل عكس موجات صوته ، وكثيراً ما يسمع الإنسان صدى صوته ولا يرى الحائل ، فعند ما يسمع الصدى يمكنه أن يحكم على وجود حائل بعيد عن ناظريه .

قياس الأبعاد بوساطة الصدى

ويستخدم صدى الصوت فى تقدير المسافات والأبعاد والأعماق ، وكذلك صدى اللاسلكى يستخدم فى هذه الأغراض أيضاً ، ولكن صدى الصوت يستخدم لمعرفة أبعاد تل أو جبل فى البر أو البحر أو عمق بئر أو بحر ، أما صدى اللاسلكى فيستخدم

لمعرفة بعد طائرة أوسفينة أوغواصة .

وتقدير الأبعاد مبنى على أن سرعة الصوت معروفة وكذلك سرعة اللاسلكى ، وسرعة الصوت فى الهواء تبلغ نحو ٣٤٠ متراً فى الثانية . فإذا ما أحدث إنسان صوتاً ثم سمع صداه بعد ثانية مثلا فإنه يحكم على أن العائق لا بد أن يقع على مسافة ١٧٠ متراً ، وذلك لأن الصوت يقطع المسافة بينه وبين العائق مرتين ، مرة فى الذهاب وأخرى فى الإياب . فالذهاب وحده يقطعه فى نصف ثانية فقط أى ١٧٠ متراً .

وإذا استغرق الصوت ثانيتين بين الشخص والعائق فإن المسافة بينهما ٣٤٠ متراً ، وهكذا نجد أن المسافة بين الشخص والعائق هى سرعة الصوت مضروبة فى نصف الزمن (أى نصف الزمن بين إحداث الصوت وسماع الصدى) ونفس هذه العلامة صحيحة فى حالة تقدير المسافات باستخدام صدى اللاسلكى ، مع استخدام سرعة اللاسلكى طبعاً بدلا من سرعة الصوت .

ولاستخدام صدى الصوت فى تقدير المسافات بدقة يجب أن نتوخى بعض الشروط ، منها أنه يجب استخدام صوت قصير الأمد ، أى أن حدوثه لا يستغرق إلا زمناً قصيراً جداً كتصفيقة قصيرة سريعة باليد ، أو طلقة بندقية أو مدفع ، فإذا ما أطلق

طلق نارى على بعد من جبل حسب الزمن بدقة بين لحظة الطلق ولحظة سماع الصدى ، فإنه يمكن حساب المسافة بدقة بضرب العدد الدال على سرعة الصوت فى العدد الدال على نصف الزمن .

وتستخدم هذه الطريقة كثيراً فى السفن الضالة وسط الضباب الكثيف لكى تتجنب الاصطدام بالصخور أو جبال الجليد ، فتطلق صفاراتها على فترات وتنتظر سماع الصدى . وبتكرار ذلك يتبين الربان مدى اقتراب سفينته من هذه المواطن الخطرة .

وتستخدم ظاهرة صدى الصوت أيضاً فى معرفة أعماق البحار ، فتقف السفينة وسط البحر فى المكان المراد معرفة العمق عنده ، ويستخدم جهاز مخصوص لإرسال موجات الصوت واستقبال صداها ، ويحسب الزمن بين لحظة إحداث الصوت ولحظة سماع الصدى ، وفى الجهاز آلة مخصوصة لتقدير الزمن بدقة تامة ، ويلاحظ أن سرعة الصوت فى الماء غيرها فى الهواء ، فسرعتها فى الماء ١٤٤٠ متراً فى الثانية ، أى ٤٩٠٠ قدم فى الثانية .

وفى تجربة من التجارب وجد العلماء أن الزمن اللازم لسماع صدى الصوت بلغ ١١ ثانية ، فدل بذلك على أن العمق عند

هذا المكان بلغ ٢٦٩٥ قدماً (وذلك بضرب نصف الزمن ؤ
السرعة أى ٥½ × ٤٩٠٠) .

صدى اللاسلكى

وللاسلكى موجات ، وكل موج ينعكس ، فجهاز الرادا
جهاز لإرسال موجات اللاسلكى دون القصيرة وآخر للاستقبال
والجهاز لا يرسل الموجات باستمرار ، بل يرسلها متقطعة ، أ؛
يرسل البعض منها لفترة زمنية قصيرة ثم ينتظر فترة راحة بعدها
وهذه الموجات القصيرة الأمد تسمى نبضة Pulse ، وتنتش
موجات النبضة فى الفضاء ، فإذا ما قابلت هدفاً كطائرة أ
سفينة أو غواصة فإنها تنعكس من سطحها ، ويرتد البعض م
هذه الموجات المنعكسة إلى الرادار ، فيتأثر جهاز الاستقبا
فيه ، فيعلم العامل المنوط به جهاز الرادار أن هدفاً عكس
موجاته ، ويستطيع أن يعرف مسافة الهدف واتجاه
وارتفاعه ، أى يعرف موضعه بالضبط ولو لم يره .

وكل ذلك بدقة تامة وبسرعة فائقة ، ولا يحتاج إلى حساب
المسافة أو غيرها ، بل إن الأجهزة التى أمامه تبين كل شئ
أمامه مباشرة من مسافة وزوايا إلى موضع الهدف فى الفضاء .

وفكرة تقدير المسافة فى صدى اللاسلكى هى الفكرة نفسه

فى صدى الصوت ، فسرعة اللاسلكى معروفة وهى ٣٠٠ مليون متر فى الثانية أو ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية ، فإذا ما أحدث الرادار نبضة من موجاته وحسب الزمن من وقت إرسالها إلى لحظة استقبالها فإنه يمكن حساب المسافة التى قطعتها الموجات ذهاباً وإياباً . فإذا كان هذا الزمن جزءاً من مليون من الثانية فإن المسافة فى الذهاب والإياب تكون ٣٠٠ متر ، وتكون المسافة بين جهاز الرادار والهدف ١٥٠ متراً ، أى أن المسافة على العموم ما بين جهاز الرادار والهدف هى سرعة اللاسلكى مضروبة فى نصف الزمن ، أى نصف الزمن بين إرسال نبضة اللاسلكى ولحظة استقبالها .

وفى المعتاد يقدر الإنجليز المسافات بالميل والياردة ، وبعملية حسابية بسيطة يمكن أن نعرف أنه إذا كان الزمن ١ر٦ ميكروثانية (والميكروثانية جزء من مليون من الثانية) فإن المسافة بين جهاز الرادار والهدف تكون ٢٠٠٠ ياردة للذهاب والإياب ، وتكون المسافة وحدها ١٠٠٠ ياردة .

حساب الزمن

ولعل القارئ الكريم يتساءل كيف يحسبون ذلك الزمن القصير الميكروثانية أو الجزء من المليون من الثانية ؟ . إنه زمن لا يكاد

يتصوره عقل إنسان فإن كل فترة بين غمضة عين وانتباهتها تعتبر ثانية تقريباً أونصف ثانية ، فما باللك بجزء من مليون من الثانية ؟

لو أحضرت ما يسمى فى علم الموسيقى والصوت بالشوكة الرنانة وطرقتها فإنها تهتز اهتزازاً سريعاً لا يكاد يدرك بالعين ، ولكن إذا وضعنا طرفها بجوار ماء فإن الماء يتناثر من أثر اهتزاز الشوكة ، ويمكن حساب زمن كل هزة بطرق طبيعية دقيقة ، وبمعرفة زمن كل دورة من دورات اهتزاز الشوكة الرنانة يمكن أن نصل به إلى جزء من ألف من الثانية ، بل وإلى أقل من ذلك فهذا بعض الانتصار فى قياس زمن قصير وصلنا به قبل اختراع اللاسلكى إلى جزء من الألف من الثانية .

ولكن بعد اختراع اللاسلكي والتلفزيون أمكن حساب جزء من مليون من الثانية بكل دقة ، والسبيل إلى ذلك أن نعمل جهاز لاسلكى للاهتزاز أى للإرسال ، وفى المعتاد تستخدم البلورة لدقة الاهتزاز ، فإذا كان هذا الجهاز يعمل مليون دورة فى الثانية فإن زمن كل دورة تستغرق جزءاً من مليون من الثانية (أى ميكروثانية) . وفى أجهزة الرادار الحديثة جهاز إرسال تردده ٨ر١٦٣ كيلو سيكل فى الثانية ، فيكون زمن كل دورة يساوى ٦ر١ ميكروثانية ، وتمثل ألفى ياردة ذهاباً وإياباً ، أى ألف

ياردة مسافة ، كما أشرت من قبل .

وفى جهاز الرادار جهاز استقبال ، وبدلا من أن تحول الموجات المستقبلة إلى أصوات ، كما فى أجهزة الراديو العادية فى المنازل ، فإنها تحول إلى أضواء على قاعدة أنبوبية تسمى أنبوبة أشعة المهبط المستعملة فى التلفزيون ، إذا نظرت إليها وجدت خطوطاً متموجة لونها أخضر جميل ، وكل خطين منها يمثل زمناً قدره ١٫٦ ميكروثانية ، أى ١٫٦ من الجزء من المليون من الثانية ، أى تمثل مسافة قدرها ١٠٠٠ ياردة .

هوائى الرادار

كثيراً ما نشاهد فى السيارات الحديثة التى فيها أجهزة الراديو المعتادة ليسمع أصحابها الإذاعات فى أثناء سيرهم سلكاً عمودياً أمام السيارة ، هذا السلك هو الهوائى الخاص بجهاز الراديو فى السيارة ، ويبلغ طوله نحو مترين أو ثلاثة فى المعتاد .

وهوائى الرادار الحديث طوله ٥ سنتيمترات ، أى يقدر بطول عود الثقاب ؛ وجهاز الرادار الحديث الذى شاهدته فى الجيش المصرى له هوائى للإرسال وآخر للاستقبال ، وتجدهما أعلى السيارة التى تحمل الرادار ، وخلف كل منهما مرآة معدنية عاكسة ، وفى وسط المرآة تجد الهوائى ولكنه محفوظ داخل كرة اسطوانية .

وهوائى الرادار فى جهاز الاستقبال يدور بمعدل ١٠٥ مرات فى الثانية ، ولدورانه أهمية كبيرة فى معرفة اتجاه الهدف ، فيأخذ الهوائى أربعة مواضع ، أحدهما أفقى من أعلى وضع ثم رأسى من اليمين ثم أفقى من أسفل ثم رأسى من اليسار ، أى أن له وضعين أفقيين متوازيين ووضعين رأسيين متوازيين .

وعامل الرادار عند ما يرسل موجاته فتنعكس يشاهد على قاعدة الأنبوبة خطين متوازيين ، فإذا كان أحدهما أطول من الآخر فإنه يدير مفتاحاً يغير الاتجاه حتى يحصل على وضع يكون فيه الخطان متساويين تماماً ، وعندئذ يكون الهدف فى وسط الخطين المتوازين أى على العمود المنصف للبعد بين الخطين المتوازيين .

وعامل اللاسلكى أمامه ثلاث أنبوبات : إحداهما لمعرفة الاتجاه الأفقى بالنسبة للشمال ويسمونه اتجاه أرضى ، والثانية لمعرفة الاتجاه الرأسى بالنسبة للأفقى ويسمونه زاوية الارتفاع أو زاوية البعد ، والثالثة لمعرفة المسافة ؛ وهذه المعلومات الثلاثة تحدد موضع الهدف تماماً .

زيارة ومشاهدة

سمحت لى إدارة الجيش المصرى بالزيارة لمشاهدة الرادار

بمكان ما بالقاهرة ، وقد قام رجاله أمامى بتجارب تدعو إلى الإعجاب ، وكان ذلك يوم ١٨ أبريل من سنة ١٩٤٦ ، وسأذكر هنا ما لا يتعارض مع سرية الأجهزة . فهناك شاهدت أجهزة الرادار يديرها مصريون إخصائيون فى اللاسلكى والرادار ، وفى حركات سريعة تصل المعلومات من الرادار إلى غرفة التسجيل بطريقة أتوماتيكية بوساطة أسلاك تصل ما بين الرادار وغرفة التسجيل ، وهذه تنقل المعلومات بوساطة أسلاك أخرى إلى المدفعيين فتدور المدافع بحيث تتجه إلى زاوية اتجاه بالنسبة إلى الشمال ، ثم تصوب إلى أعلى حسب زاوية الارتفاع ، ثم تعد القذيفة بحيث تنفجر على مسافة معينة ؛ وكل هذا فى لمح البصر وبدون أى خطأ مما يدعو إلى الإعجاب حقاً . وهذا مما ضمن الفوز للحلفاء بهذا الجهاز الغريب العجيب .

جهاز الرادار داخل سيارة كبيرة (لورى) كأنها محطة إذاعة متنقلة ، إذا أقفلت السيارة حسبتها سيارة عادية ، إلا أنها تتميز بوجود سطحين على شكل المرايا فى أعلاها ، هما هوائى للإرسال وآخر للاستقبال ، وهذا هو النوع الحديث ؛ وفى المعتاد توجد ثلاثة أجهزة للرادار ، أولها للإنذار ويسمى Light Warning والثانى الرادار ماركة ٢ ، والثالث يسمونه الرادار ماركة ٣ .

والأول يلتقط على مدى ١٠٠ ميل ويعطى المعلومات الأولية

بطريقة تقريبية لفرقة التسجيل .

وعند ما تتلقى غرفة التسجيل هذا الإنذار بقرب طائرة أو أى هدف من منطقة الرادار ، تعطى معلوماته الأولية للرادار رقم ٢ وللمدافع كإنذار للاستعداد ، والرادار ماركة ٢ يلتقط على مدى ٥٠٫٠٠٠ ياردة ، أى ما يقرب من ٢٨ ميلا ، وبمجرد التقاط علامة الهدف ينقلها للرادار ماركة ٣ .

والرادار ماركة ٣ ، وهو أدقها ، يعطى المعلومات الصحيحة الدقيقة لفرقة التسجيل ، وهذه تعطيها بدورها للمدافع للضرب .

والرادار لا يخطئ فى تقدير المسافة كلها أكثر من ٢٥ ياردة ، وما هذه الياردات البسيطة فى مدى مائة ميل أو ثلاثين ميلا ؟

والرادار لا يخطئ فى الزوايا أكثر من نصف درجة .

فإذا ما أرسلت القذيفة بحيث تنفجر عند نهاية المسافة التى حسبها الرادار فإن الهدف لا بد أن يصاب ، إن لم يكن مباشرة فإن الشظايا التى تتناثر من موضع الانفجار تتبعثر فى مسافات واتجاهات مختلفة من موضع الانفجار ، وتصيب الشظايا الهدف عندئذ . والرادار ماركة ١ أو ٢ تردده من ٥٥ مليون سيكل فى الثانية إلى ٨٥ مليون سيكل فى الثانية ، أى أن طول الموجة الخاصة به تقع ما بين مترين إلى خمسة أمتار ، وتجد الأشعة منبعثة منهما عريضة الطرف ، فإذا ما سقطت على الهدف فإنه يعكس بعضاً

منها ، وهذا يحدث إذا كان الهدف فى وسط الطرف أو على أحد جانبيه ، فلذلك يكون التقدير للرادار ماركة ١ أو ٢ غير دقيق .

أما الرادار ماركة ٣ فإن شعاعه دقيق ، وليس عريضاً كالسابقين ، ولدقته فإن معلوماته دقيقة ، وتردده ٣٠٠٠ مليون سيكل فى الثانية ، أى أن طول موجته ١٠ سنتيمترات ، والهوائى الخاص به لا يزيد على خمسة سنتيمترات ، أى يمتد بطول عود الثقاب . والرادار ماركة ٣ يرسل نبضة تستمر جزءاً من مليون من الثانية ، ويرسل ٤٢٠ نبضة فى الثانية ، أى أن هناك فترة راحة لا يرسل فيها إشعاعاً ، وذلك لكى تسمح فترة الصمت بالتقاط الموجات المنعكسة .

وشاهدت جهـــازاً يسمى الحاسب Predictor يلتقط المعلومات من الرادار ويحسب مسافة الهدف وزواياه ويحسب الموضع الحالى للطيارة والموضع المستقبل لها ، ويعرف الموضع المستقبل بمعرفة سرعة الطيارة وسرعة الرياح والزمن اللازم للقذيفة لكى تصل إلى الهدف . وكل هذا يحسب بطريقة آلية دقيقة تدعو إلى الإعجاب وترسل على الفور إلى المدافع للضرب

١١

تاريخ الرادار

نبذة تاريخية عن اختراع الرادار

كان علماء الطبيعة يقومون بأبحاث انعكاس اللاسلكى قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد شغل بذلك علماء الإنجليز والأمريكان منهم العالم الإنجليزى هيفسايد والعالم الأمريكى كنلى Kennely والعالم الإنجليزى أبلتن ؛ وقد كان لهذا العالم الأخير الفضل الأول فى تقدم بحثه تقدماً عظيماً ، وكان ذلك سنة ١٩٢٤

وكان أول تسجيل لاستخدام موجات اللاسلكى لإعانة الطيران سنة ١٩٢٩ ، وكان الإنجليز يطلقون اسم معينة الاتجاهات اللاسلكية على هذه الطريقة لمعرفة مواضع السفن أو الطائرات باستخدام موجات اللاسلكى .

واشتغل الأمريكان بهذا البحث ، فوصلوا إلى معلومات واختراعات متعددة ، وهم الذين أطلقوا اسم « الرادار » على الجهاز الجديد الخاص بكشف الطائرات والسفن والأهداف :

ومن عظماء العلماء الذين وفقوا فى هذا البحث ووصلوا إلى حقائق سرية هم :

أولا — العالم الأمريكى تايلور Albert Hoyt Taylor

وهو عالم طبيعى أمريكى اشتغل فى اللاسلكى وفى البحرية ، وبحث فى خواص الموجات القصيرة ، حتى إنه قدم بحثاً سنة ١٩٣٠ عن استخدام موجات اللاسلكى فى كشف وجود أجسام متحركة .

وفى سنة ١٩٣٧ عمل أول رادار ، واستخدمه فى البحار بصفته ممن اشتغلوا فى البحرية ، وقد ولد هذا العالم سنة ١٨٧٩ ، وهو حى إلى الآن .

ثانياً — سير واتسون وات Robert Alexander Watson Watt

ويعتبر هذا العالم الإنجليزى من أعظم خبراء الرادار ومؤسسيه ، وقد ولد فى اسكتلندا سنة ١٨٩٣ ، ومنح لقب سير فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك سنة ١٩٤٢ ، وتفوق فى الطيران الحربى . وقد كان محاضراً للطبيعة فى جامعة الكلية University College فى بلده دندى Dundee فى إسكتلندا واشتغل فى طبيعة الجو وتحديد موضع الزوابع ، ولو كانت على بعد مئات الأميال . ثم اشتغل فى انعكاس موجات اللاسلكى ،

فهداه بحثه إلى طريقة تحديد مواضع الأجسام المتحركة في الجو.

وقد بدأ بحثه في الرادار منذ سنة ١٩٣٥ ، ولكن الحكومة منعت الكتابة عن هذا البحث حتى عام ١٩٤٣ . حيث ظهر فيما بعد أن الرادار لعب دوراً هاماً في إنقاذ الجزر البريطانية من الغارات الجوية التي حدثت فيما بين سنة ١٩٤٠ — ١٩٤٤ ؛ وبوساطة الرادار طردوا الطائرات الألمانية من بريطانيا على الرغم من قلة عدد الطائرات البريطانية حينئذ .

ثالثاً — العالم الأمريكي وولف Irving Wolf وهو زعيم من زعماء الرادار ، ولد سنة ١٨٩٤ في نيويورك ، وتخصص في علم الطبيعة وحصل على درجة فيها سنة ١٩١٦ . وشغل بأبحاث كثيرة في اللاسلكي ، ووفق إلى اختراعات متعددة في الميكروفونات ، وبدأ بحثه في انعكاس اللاسلكي سنة ١٩٣٢ .

وكان يجرى تجاربه في هذا الموضوع في معامل لشركة أمريكية مختصة بعمل أجهزة الرادار المسماة .R.C.A ، وفي سنة ١٩٣٧ بدت بوادر نجاحه ، إذ وفق إلى إتمام جهاز يبين البعد والموضع للجسم العاكس . ولما كانت لأبحاثه أهمية خاصة في تطبيقاتها في الحروب تدخلت الحكومة وطلبت حفظ أسرار أبحاثه .

واستخدمت هذه الأجهزة فى طائرات هذه الشركة لمنع التصادم بين الطائرات فيما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٣٩ ، وظهرت فوائده العظيمة فى منع التصادم بين الطائرات بعضها ببعض ، أو بين الطائرة وجبل أو أى حائل آخر ، وفى تحديد الارتفاع .

رابعاً — العالم الأمريكى يوسف لايمان Joseph Layman ولد هذا العالم فى أغسطس سنة ١٩٠٦ فى نورثامبتون Northampton وكان من هواة اللاسلكى منذ سن الثانية عشرة ، واستهوت فؤاده الموجات دون القصيرة Ultra Short وكان يوسف لايمان وأخوه أول من كان عنده محطة لاسلكية خاصة بهما ، وكان ترددها عالياً من الموجات المخصصة للهواة .

واشتهر أمرهما بين الهواة حتى اعتبروا من زعمائهم ، وكانت موجاتهما التى خصصوها لمحطتهما مائة متر ، و ٤٠ متراً ، و ٢٠ متراً ، ونالت شهرة بين المحطات .

وقد هداه بحثه فى خواص الموجات دون القصيرة فى سنة ١٩٣٢ إلى عمل اختبارات خاصة باللاسلكى والطيران فى الموجات ذات طول خمسة أمتار ، وتكلم من طائرته مع عدة محطات لاسلكية للهواة . ولما وجد معلوماته فى حاجة إلى الاستزادة التحق

بأكاديمية ولستون Wiliston وتخرج فيها سنة ١٩٢٦ ، والتحق بأبحاث جامعة ميشيجان وطبق معلوماته فى إفادة الطيران باللاسلكى .

وقد سجل كشفاً هاماً بمعرفة اتجاه حركة الطائرات سنة ١٩٤١ ، ومنع بطريقته التصادم بين الطائرات فى حالات الجو السيئة التى يمتنع فيه الإبصار والرؤية ، واستخدمه أيضاً لتحديد مواضع الطائرات على المطارات أو على الأرض لتضرمها بالنار ، ولا تخفى أهمية ذلك فى الحروب ؛ بل كانت فوائد كشفه ممتدة إلى حفظ الطائرات عند هبوطها .

وهكذا كان علماء الطبيعة خيراً وبركة فى كشف الرادار وتطبيقاته المختلفة فى الحرب والسلم .

الاتصال بالقمر

والقمر هو ذلك الكوكب الجميل الذى بهر الناس بجماله الرائع ، وافتن فى وصف جماله الأدباء . وتخيلوه المثل الأعلى فى الجمال والكمال . وإذا ما وصف الناس غادة أو سيدة بالجمال قالوا لها « أنت قمر » ؛ وذلك لاستدارة وجهه واشراق نوره وجمال ابتسامته البادية ، فلا غرو إذا أحبه الناس ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

والقمر تابع من توابع الأرض ، كما أن الأرض تابع من توابع الشمس ، والشمس جسم ضخم متوهج يبلغ قطره نحو مائة مرة من قطر الأرض . أما القمر فإنه أصغر من الأرض فإن قطره يبلغ نحو ربع قطر الأرض ، وبعد القمر عن الأرض يبلغ نحو ٢٣٩٫٠٠٠ ميل . فى حين أن بعد الشمس يبلغ نحو ٩٣ مليون ميل

فإذا بدا القمر والشمس فى السماء كأنهما متساويان فى القرص ، فإن ذلك من أخطاء النظر ، والواقع أن القمر أصغر بكثير من الشمس ، وكثيراً ما تشاهد قطاراً بعيداً فيبدو أصغر من حصان بعيد .

القمر فى الواقع جسم معتم ، ولكنه يبدو متلألئاً لانعكاس أشعة الشمس على سطحه ، ومن هنا يبدو القمر مشرقاً للناس . « وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر » كما يقول الشعراء .

وقد أجرى العلماء تجربة بالرادار حاولوا فيها الاتصال بالقمر ، وما القمر إلا جسم عاكس للأشعة ، ومنها اشعة اللاسلكى يرسل أشعة اللاسلكى وتعكسها الأجسام التى تعترضها كالطائرات لأن تربة القمر كتربة الأرض ، التى تعكس أشعة الرادار ، ومن هنا كان التفكير فى الاتصال بالقمر . فى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٤٦ ، وفى محطة الرادار المقامة على شاطئ مدينة نيوجرسي بالولايات المتحدة ، وفى الساعة ١.١ والدقيقة ٤٨ أرسل

عالمان أمريكيان نبضات أشعة الرادار المتقطعة وصوبوها نحو القمر الذى كان مشرقاً ويعلو الأفق فى تلك اللحظة ، وكانت تمضى بين كل نبضة وأخرى خمس ثوان ، وشاهدوا أنه بعد انقضاء فترة ثانيتين ونصف ثانية على بدء الإشارة الأولى قد أضاءت قاعدة الأنبوبة ، مما يدل على انعكاس الموجات . وحيث إن بعد القمر معروف ، وسرعة موجات اللاسلكى معروفة ، فإنه يمكن معرفة الزمن اللازم لهذه الموجات فى الذهاب والإياب ، وهذا الزمن يقرب من ثانيتين ونصف ثانية . أى أنه يحتاج إلى ثانية وربع للطريق الواحد .

وقد أعلنت نتيجة هذا الاتصال بين القمر والأرض بالرادار فى اجتماع علمى عرضت عليه نتائج هذه التجربة فى معهد هندسة الراديو بمدينة نيويورك ، فأقر العلماء صحة التجربة وأهميتها ووافقوا جميعاً على أن الجسم الذى عاكس موجات الرادار واستغرقت ثانيتين ونصف فى الذهاب والإياب ، ما هو إلا القمر .

ويرجو العلماء أن تكون هذه التجربة فاتحة عهد جديد فى معرفة معلومات جديدة عن القمر من اتصال مباشر ، ومن هنا كانت أهميتها . وقد صرح أخيرا العالم الطبيعى « لو » Low بأن العلماء سيتمكنون من الوصول إلى القمر بالصاروخ بعد خمسة عشر عاما بسبب المعلومات التى وصلوا إليها بهذه التجربة .

١٢

المستقبل

إن الناس ليتشوقون إلى معرفة مستقبل الموج الساحر بعد أن خبروا ماضيه وحاضره ، يتلهفون إلى استقراء حوادثه القادمة بعد أن درسوا حوادثه السابقة ، والتكهن بمستقبل العلم صحيح وقد لعب التكهن فيه أدواراً هامة .

والواقع أن مخترعات اليوم كانت خيالا فى عقول الماضى ، وما كان الناس يظنونه معجزة فى الماضى أصبح اليوم يرونه حقيقة واقعة . أفلا يحق لنا أن نقول : إن خيال اليوم سوف يصبح حقيقة المستقبل ؟ وليس بمستكثر على الموج الساحر وعلى العالم عموماً أن يحقق آمال اليوم كما حقق آمال الأمس .

تطور

بدأ الموج الساحر بسيطاً ، وتطور تطورات سريعة نالت إعجاب الناس وأثارت دهشتهم ، فبدأ موجاً مضمحلا ، أى

لا يكاد يظهر حتى يضمحل ويتلاشى ، أو كما يقول علماء الطبيعة: « إن سعة ذبذباته تتناقص » ، ولم يكن له من الفوائد إلا أشياء محدودة ، استعمل هذا الموج فى التلغراف واللاسلكى ، ثم تطور إلى موج ساحر مستمر غير مضمحل ، فأفاد فى نقل الكلمات بعد نقل الإشارات ، فطربت النفوس وفرحت الأفئدة . واستخدم فى الإذاعات فأفلح فى نقل الأحاديث والأغانى والموسيقى .

وكان الموج الساحر يقطع أول نشأته آحاد الأميال وعشراتها ، فنشطوا حتى جعلوه يقطع مئات الأميال وآلافها ، وبدأ الموج يحبو على الأرض فأصبح الان يسبح فوق الماء ، ويقطع أجواز الفضاء لا يعبأ بتكور الأرض ولا بجبال أو تلال .

وفى كل مرة يتطلع العلماء إلى الأمام ويعملون على تنويع ميادينه وتوسيعها ، فهذه أفاعيله فى ميادين التلغراف والتليفون اللاسلكية والإذاعة اللاسلكية ، وهذه آثاره فى المواصلات البرية والبحرية والجوية ، وهذه خدماته فى البوليس وحفظ الأمن وفى العلاج والطب . وفى السلم عمل على إسعاد الناس وراحتهم ، وفى الحرب عمل على إنهاء شرورها ، فهو جامع النقيضين والمؤلف بين الشتيتين .

بدأوا استخدامه باستعمال البلورة فكانت فوائده محدودة ،

ثم استخدموا الصمام فزادت قدرته ، ونوعوا فى الصمامات فتنوعت خدمته ، فمن صمام ثنائى إلى ثلاثى إلى سباعى إلى ثمانى ؛ ومن صمام مقوم إلى مكبر ، ومن صمام مهتز بطرق وذبذبات مختلفة إلى صمام انشىء فى الحرب الأخيرة ، ولا يزال سرياً ، ويسمونه المجنترون Magnetron وهو صمام لتوليد الاهتزازات بطول موجة دون القصيرة . إنها ذات طول عدة سنتيمترات ومن هنا كان نجاح الرادار .

وتطور الموج الساحر من نقل الأصوات والكلمات إلى قدرته على نقل الصور والمرئيات ، فماذا بعد ذلك . . . ؟

إذاعة الروائح

قد تغلب العلماء إلى الآن على توصيل حاستين هامتين بطريق الموج الساحر هما حاستا السمع والبصر ، فهل سيتغلبون على نقل الحواس الباقية ، وهى الشم والذوق واللمس؟ هل سيتمكن الموج من نقل الروائح المختلفة ، فينقل الرائحة الذكية من الحدائق الفيحاء إلى الدور والمنازل ؟ أو ينقل رائحة العطور من معملها إلى المسارح والدور والمجتمعات المختلفة ؟ وهل يكفى أن يوضع جهاز لاسلكى خاص فى معمل الغازات السامة لنقلها

إلى ميادين الحرب فتنقض على العدو فى التو والثانية ؟ ليس هذا ببعيد المنال ، بل إن البحوث الحديثة تدل على قرب وقوعه وتعميمه .

إذاعة حاستى الذوق واللمس

أما الذوق واللمس فلا أعتقد أن العلماء يوجهون إليها عناية فى بحث حالتيهما من حيث نقلهما بالموج الساحر ، فليس هناك من فائدة تذكر ينتظرها العلماء إذا أفلحوا فى نقل هاتين الحاستين بالموج الساحر ، فالناس لا يدفعهم حافز كبير إلى تذوق طعام بعيد أو لمس شىء ثمين وبعيد ، اللهم إلا إذا كانت حاجة بعض التجار فى تذوق صنف خاص أو لمس أقمشة أو بضاعة يريدون شراءها . وعلى أية حال فإن تحقيق نقل هاتين الحاستين باللاسلكى سوف يطول أمده أو يتأخر تنفيذه .

ساعة لاسلكية

ومن الآمال المنتظر تحقيقها عن قريب استخدام أجهزة لاسلكية صغيرة دقيقة توضع فى الجيب كما توضع الساعة أو قطعة نقود ، وسيؤدى هذا الجهاز على صغره ودقته ما يؤدى الجهاز العادى الكبير الآن ، فيتصل الابن بأبيه ، ويتصل الجند

بحبيبته ، والزوج بزوجته وإن طال بينهما البعد ،أو باعدت بينهما القارات والبحار ، حتى ولو كان أحدهما على الأرض والآخر فى طائرة ؛ ولكم يحدث الان فى كثير من الأحيان أن يخرج الإنسان من منزله ويركب الترام أو السيارة ويدرك أهله بعد خروجه حاجتهم إليه ، كأن يكون قد نسى شيئاً هاماً ،أو نسوا أن يخبروه بقضاء حاجة هامة أو . . . . أو . . . إلخ ، فيأمروا الخادم أو أحدهم باللحاق به ، ولكنه يرجع بخفى حنين ويعجز عن اللحاق به ، ففى مثل هذه الأحوال وفى القريب العاجل يستطيعون الاتصال به بالموج الساحر ويوفرون كثيراً من المتاعب والمشاق .

صحافة لاسلكية

من المخترعات المنتظر تحقيقها فى القريب العاجل « الصحيفة اللاسلكية » ؛ فسيلحق بكل جهاز للاستقبال جهاز آخر خاص لإعداد هذه الصحيفة ، ولا يكون الشخص ملزماً بعدئذ أن يبقى بجوار الجهاز ليستمع إلى الأنباء فى الساعة الثانية بعد الظهر أو فى الساعة العاشرة مساء ، بل ما عليه إلا أن يضع قطعة من الورق الأبيض مساحتها صفحة كاملة فى جهاز خاص به ، وبالجهاز ساعة ذاتية (أتوماتيكية) يملؤها الإنسان ويحدد عليها الوقت الذى يطلب أن يشتغل عندها الجهاز . فمثلا إذا عرف أن

المحطة بنيويورك تذيع أنباءها الهامة بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً، فعليه أن يدير عقرب الساعة إلى الرابعة ، ولا تحين الساعة المحددة حتى يبدأ الجهاز فى تلقى الأنباء والحوادث ويسجلها كتابة . وفى وقت راحته المناسب يذهب الشخص ويقرأ الصحيفة التى سجل عليها الجهاز أنباء محطة الإذاعة .

وفكرة هذا الجهاز مبنية على نقل الصور باللاسلكى .

انتشار التلفزيون

والتلفزيون الآن محدود ، وفى المستقبل القريب سوف تنتشر أجهزة التلفزيون ، فيرى الإنسان ويسمع — وهو فى بيته — ما يعرض فى دور السينما والمسارح ، وما يحدث من مشاهدات الحروب المثيرة الفتاكة . فبدلا من أن ينقل إليه وصف مدافعها سوف يستطيع متابعة تطوراتها كأنه قريب من الميدان ، ولكنه بعيد عن أخطاره، يسمع دوى المدافع وهو بمنجى عن كل ذلك، وفى أمان من جميع الأضرار .

وإذا كان التلفزيون الآن لا يصل إلى أكثر من ستين ميلا ، فسوف ينتشر فى المستقبل إلى أبعد المسافات . وفى أمريكا الآن أجهزة لاسلكية للصوت والرؤية معاً ، ولكن الجهاز مرتفع الثمن الآن ، وسوف يتمكن العلماء من تخفيض ثمنه ؛ والصور

التى تعرض الآن صغيرة لا يتيسر النظر إليها مباشرة ، ولكن فيما بعد سوف تكبر الصور وسوف تكون ملونة ، بل ومجسمة كما حدث فى السينما ، وسوف يلبس الإنسان منظاراً خاصاً فيرى الصورة مكبرة ملونة مجسمة واضحة ، فتكون أقرب ما تكون إلى الطبيعة والواقــــع .

غير المنظور

وغير المنظور الان سوف نستطيع أن نراه . فالمجهر أو الميكرسكوب يرى الميكروبات والمقاطع ، وذلك من الأهمية بمكان فى حياتنا الحديثة وفى نواح متعددة منها الناحية الصحية والناحية الاقتصادية والناحية المادية والناحية العلمية .

فقد كشف المجهر أسرار الخلايا وتركيبها ، والميكروبات وأشكالها والنباتات وتطوراتها ؛ فأفاد المجهر فى فتوحات علمية كثيرة ؛ والمجهر المعتاد لا يكبر الأشياء إلا بقدر ألف مرة أو ٢٥٠٠ مرة على الأكثر ، وهناك أشياء ومخلوقات أدق من ذلك وعجز المجهر أن يغزوها أو أن يعرف أسرارها .

وقد كشف حديثاً المجهر الكهربى ، وهو جهاز يعتمد أساسه على الكهيرب أو الألكترون ، بل وعلى أسس التلفزيون ، وهذا الجهاز يكبر الأشياء إلى نحو ٢٠٠ر٠٠٠ مرة ، أى بقدر نحو

مائتى مرة من المجهر الضوئى ، وبهذا الجهاز سوف يتوصلون إلى معرفة الميكروبات الدقيقة المعروفة باسم الفيراس Virus ، وهى الخاصة بالسرطان وبعض الحميات ، وإذا عرف تركيبها وخواصها فسوف يستطيعون أن يعرفوا طرق مهاجمتها ، والتغلب على أمراض كثيرة ، وسوف تخترع أدوات وأجهزة تجعل الإنسان يستطيع أشياء كثيرة لا يقدر عليها الآن .

الأشعة الصحية

وسوف يستخدم الموج الساحر فى نواح صحية متعددة ، فما على الطبيب إلا أن يدير جهازاً لاسلكياً للإرسال ولتوليد موجات دون القصيرة ، فتخترق جسمك ويسخن لحمك وترتفع درجة حرارتك بالقدر الذى يتطلبه طبيبك ومرضك ، وبذلك يتولد فى جسمك حمى صناعية تفيد فى كثير من الحالات ، مثل تنشيط الدورة الدموية وشفاء بعض أمراض المجارى البولية .

أشعة الموت

ولعل العلماء يتوصلون فيما بعد لاستخدام الموج الساحر لا للصحة أو كشف الأهداف بل إلى القتل والموت ، ولعل ذلك عند ما يستطيعون أن يولدوا موجات طولها عدة مليمترات ، وقد

استطاعوا إلى الآن أن يصلوا إلى طول عدة سنتيمترات ، ولعل ما حصل من الإشعاعات الناتجة من القنابل الذرية ، وما حدث لأهل هيروشيما وناجازاكي باليابان ، وما يحصل لهم إلى الآن، يجعلنا نعتقد أن مثل هذه الأشعة غير بعيدة المنال .

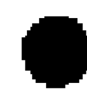
فيا أيها العلماء رفقاً بالناس . بل يا أيها السياسيون لا تضغطوا على العلماء ، فأحب شيء إلى نفوس الناس هي الحياة ، فعليكم بأشعة الصحة وتناسوا أشعة الموت .

أبواب الكتاب

مؤلفات الدكتور طه حسين بك

		ص
فى الأدب الجاهلى		٣٥
فصول فى النقد والأدب		٣٥
لحظات (جزآن)	ثمن الجزء	١٨
حديث الأربعاء ثالث		٤٠
صوت باريس (جزآن)	ثمن الجزء	١٨
مع أبى العلاء فى سجنه		٢٥
تجديد ذكرى أبى العلاء	(تحت الطبع)	
الأيام أول		٢٠
الأيام ثان		٢٥
الحب الضائع		١٨
دعاء الكروان		٢٠
شجرة البؤس		٢٥
على هامش السيرة أول		٢٠
على هامش السيرة ثان		٢٥
على هامش السيرة ثالث		٢٥

		ص
فى الصيف	(نفد)	
أديب		٢٥
جنة الشوك		٢٥
مستقبل الثقافة فى مصر		٤٠



الفتنة الكبرى

للدكتور طه حسين بك

دراسة مستفيضة شاملة توفر عليها الدكتور طه حسين بك، وجلاها ناصعة واضحة بأسلوبه البليغ وحكمه الصائب.

يظهر منها قريباً الكتاب الأول :

عثمان بن عفان

ترقبوا الجزء الممتاز
الذى يصدر من مجلة الكتاب
فى أول يناير سنة ١٩٤٨
عن

الجمال

موضوعات طلية ودراسات قوية ولوحات فنية

يشترك فى تحريره جمهرة
من أعلام الفن والبيان
بمصر والشرق العربى

مؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد

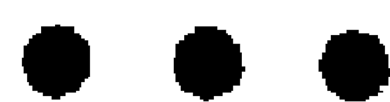
	ص
عبقرية الصديق	٢٥
عبقرية الإمام	(تحت الطبع)
الصديقة بنت الصديق	٢٥
فرنسيس باكون	٢٥
أثر العرب فى الحضارة الأوربية	٢٠
كتاب الله	٤٠
مجمع الأحياء	١٥

اقرأ

المؤلفات التى ظهرت فى هذه السلسلة
فى السنين الثلاثة الأخيرة

٢٦	العشاق الثلاثة	للدكتور زكى مبارك
٢٧	بغداد مدينة السلام	للأستاذ طه الراوى
٢٨	بوشكين	للأستاذ نجاتى صدقى
٢٩	النار والنور	للأستاذ أمين إبرهيم كحيل
٣٠	قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
٣١	الغزالى	للأستاذ طه عبد الباقى سرور
٣٢	الشيخ قرير العين	للأستاذ كرم ملحم كرم
٣٣	فى بيتى	للأستاذ عباس محمود العقاد
٣٤	فارس بنى حمدان	للأستاذ على الجارم بك
٣٥	جوته	للأستاذ صديق شيبوب
٣٦	مع الحيات	للدكتور حسين فرج زين الدين
٣٧	العناصر النفسية فى سياسة العرب	للأستاذ شفيق جبرى
٣٨	العلم والحياة	للدكتور على مصطفى مشرفة باشا

٣٩	المدينة المسحورة	للأستاذ سيد قطب
٤٠	مهد العرب	للدكتور عبد الوهاب عزام بك
٤١	الفيتامينات	للدكتورين محمد رشاد الطوبى ومصطفى عبد العزيز
٤٢	قصة عبقرى	للأستاذ يوسف العش
٤٣	عنترة بن شداد	للأستاذ محمد فريد أبوحديد بك
٤٤	قصة العدوى	للدكتور محمد عبد الحميد جوهر
٤٥	مشاهدات فى الهند	للسيدة أمينة السعيد
٤٦	الشيخ الرئيس ابن سينا	للأستاذ عباس محمود العقاد
٤٧	أبو زيد الهلالى	للأستاذ محمد فهمى عبداللطيف
٤٨	غرائز الحيوانات	للأستاذ محمد محمد فياض
٤٩	بين البحر والصحراء	للأستاذ شفيق جبرى
٥٠	تشيخوف	للأستاذ نجاتى صدقى
٥١	الشاعر الطموح	للأستاذ على الجارم بك
٥٢	النار الخالدة	للأستاذ فؤاد صروف
٥٣	قصة الكتابة العربية	للدكتور إبرهيم جمعة
٥٤	تولستوى	للأستاذ حسن محمود



مؤلفات الأستاذ محمد عاطف البرقوقى

تبسيط اللاسلكى		ص ٤٠
المهندس الصغير		٧
قصص علماء الطبيعة		٣
الحياة مصورة للأطفال	(الجزء)	٥
أدب العلوم		٢٥
قصة الكهربا واللاسلكى		٢٥

اقرأ

علي الجارم بك

مرح الوليد

مَرَح الوليد

علي الجارم بك

مَرَح الوليد

اقرأ ٦٢
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٢ — يناير سنة ١٩٤٨

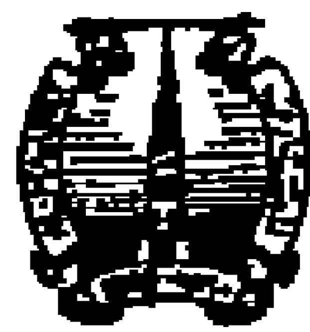
شكر وعهد

تدخل سلسلة اقرأ بهذا الكتاب فى عامها السادس . وهى ما برحت ، منذ أن أنشئت فى يناير ١٩٤٣ ، بمعاونة حضرات الأساتذة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل باشا وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف ، تضطلع برسالتها السامية فى تقريب موارد العلم والعرفان إلى أذهان الشعب من أيسر سبيل .

ويسرها أن تبث الشكر أرباب الأقلام الذين ساعدوها على أداء رسالتها ، وجمهور القراء الذين عرفوا قدر الزاد الذى توفره لهم ، فأقبلوا عليها إقبالا لم تحظ به سلسلة أخرى من نوعها .

ويطيب لها اليوم أن تجدد عهدها لقراء الشرق العربى فى أن تضاعف جهدها ، لتكون لهم نعم المرشد والهادى إلى متعة العقل ولذة الروح .

دار المعارف بمصر



نصح وعناد

قصر راسخ القواعد ، شامخ الذرا ، رسا أصله فوق شرف عال من الأرض ، وارتفعت قبابه فى الجو كأنها تطلب شيئاً فى السماء . وقد موهت بالنضار ، وسطع عليها الأصيل ، فأرسلت شعاعاً كان أجمل من الأصيل ، وأبهى من خالص النضار . وامتدت حول القصر البساتين الفيح تجرى بها الجداول بطيئة متعثرة ، كأنها تخشى أن تلتقى بنهر بَرَدَى فيلتقمها زخاره الخضم ، ويدور بها كالمذعور فيقتحم كل دار وينفذ من كل حائط . ورفت بها الأزهار رائعة الألوان ، مسكية الشذا ، وقد عبث بها النسيم فراحت تختبئ فى أكمامها كأنها الغيد الحسان خافت خائنة الأعين ، وفضول العاشقين . وماست أشجار الحور كأنما شجاها تغريد الطير فوقها ، فأخذت تساوق الأنغام ، وتساير رنين الإيقاع .

ذلك مشهد يجب أن يرى حتى يعرف ، ويجب أن تراه عين فنان لتدرك بعض ما به من جمال وروعة . أما القلم ، وأما اللسان ، فأعجز من أن يصلا فيه إلى صورة ، أو شبه صورة ،

تقر بها العيون ، أو تطمئن لها النفوس . يقولون إن اللغة أداة البيان ، ويقولون إن اللغة بريد العقول ، فهل هى أداة البيان حقاً ؟ وهل هى بريد صادق يحمل ما فى نفسك إلى نفس غيرك ؟ إن من ضروب الأحاسيس ما يدق عن متناول اللسان، ويستعصى على سنان القلم . وإن من الصور الغريبة الألوان الغريبة التركيب ، ما يعجز الوصف ، ويخرس البيان . ولن يملك المرء إذا رآها إلا أن يصيح: هذا باهر ! هذا جميل! هذا فاتن ! وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر فلا يستطيع . وستبقى الإنسانية هكذا عجماء حتى توفق إلى وضع كلمات جديدة تترجم عن كل ما تراه العين ، ويجيش به الوجدان . ويكفى أن أقول إن هذا المنظر كان بربوة الوادى بالجانب الغربى من دمشق ، وإن هذه الربوة ، تزدان بأبدع ما طرزته يد القدرة على هذه الأرض من حلل ، وإنها إلى جنة الخلد أشبه بالمطلع إلى القصيدة ، أو بالمقدمة إلى الكتاب ، وهى التى حينما رآها عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام قرأ قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

هذه هى ربوة دمشق ، وهذا هو قصر الوليد بن يزيد ، وكان يسمى قصر « حبابة » ، بناه يزيد بن عبد الملك الخليفة

الأموى لجاريته « حبابة » وأنفق فيه كثيراً من كنوز الدولة ، وقام على بنائه وزخرفه كبار مهندسى الروم ، فجاء صورة للفن الرائع ومظهراً لفخامة الملك ، وصولة السلطان .

وفى أحد أيام شوال من سنة ثلاث وعشرين ومائة ، جلس ببعض أبهاء هذا القصر يزيد بن الوليد ، ويزيد بن عنبسة ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، ويزيد السلمى ، وقد طال بهم الإطراق ، ودلت أسارير وجوههم على ما تنطوى عليه أنفسهم من أمر عظيم ، وهم دفين . وبعد لأى رفع الزهرى رأسه ، وكان من كبار المحدثين ، وأعلام التابعين ، عظيم المنزلة فى الدولة لعلمه وورعه ، وقال :

— لست أدرى لم بعثنا الخليفة هشام إلى هذا الرجل ، وهو يعلم أن انتقال جبل « قاسيون » من مكانه أهون وأيسر فى إدراك العقول من هدايته وزحزحته عما هو فيه من عبث ؟ لقد حدثته مرارا ، وسقت إليه كثيراً من أقوال الرسول الكريم ، ووعظته فأطلت الوعظ ، فما كان يزيده كل هذا إلا تماديا ، حتى كأننى كنت أغريه بلومى ، وأثير فيه شيطان الغرور بمواعظى ، « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » . صدق الله العظيم . فرفع إليه يزيد بن الوليد بصره ، وقد نم وجهه عن ضجر واشمئزاز ، وقال :

— إن الأمر يا أبا بكر لو اقتصر على فتى سادر لهان وقلت نوازله ، وخفت أوزاره ، ولكنه أمر أسرة كريمة المنبت فى الجاهلية والإسلام ، وشأن دولة تحمل أعباء الخلافة ، وتحمى صخرة الدين أن تنهار ، بعد أن بذلت جهود وعقول فى إرسائها ، وحطمت سيوف فى توطيد أركانها . والشيخ يرى ما تنهض به دولة بنى أمية كل يوم من أعباء ، وما تشد من عزائم . فجيوشها لا تكاد تقفل من العراق وخراسان ، حتى تسير إلى أرمينية وأرض الروم ، فهى أبداً صائفة شاتية . وسيوفها لا تكاد تقر فى أغمادها ، حتى تستل من جديد ، ولا تكاد تجف دماؤها من قهر خارجى ، حتى ينبع لها خارجى من أقاصى الأرض ، كأن الأرض أجدبت من كل نبات إلا من هؤلاء المناكيد . وإذا أسكتنا زئير أهل خراسان ، أطلت علينا ثورة فى المدينة ، ومدت رأسها فتنة بالعراق . فإذا لم تكن أزمة الدولة فى يد جريئة حازمة ، ولم يصرف شئونها رجل داهية باقعة لم تستعبده الدنيا ، ضاعت الدولة بددا ، وكانت حرضا . وهذا الوليد بن يزيد الذى بعثنا اليوم هشام لنصحه ودعوته إلى الكف عن لهوه ، لو كان فتى من فتيان بنى أمية لا يرتبط بالخلافة ، ولا يتصل بسياسة الحكم بسبب ، لصرفنا عنه وجوهنا آسفين محزونين ، ولقلنا شاب أطغاه المال والشباب والحسب ، فراح ينتهب لذات

الحياة، وإن له لغاية هو مدركها ، وأجلا هو موفّيه ، ولحظة ندم يهم أن يعتصم فيها بالتوبة فلا تنفعه التوبة . ولكن يأبى القدر إلا أن يكون الوليد هذا ولى عهد الخلافة ، وتأبى الأيام السود إلا أن تعده ليجلس حيث كان يجلس عبد الملك ابن مروان وعمر بن عبد العزيز . ويا ويل الخلافة ، ويا ويل الإسلام إذا ألقيت مقاليد الحكم فى يد هذا الرجل ! وإننا إذا جئنا اليوم لنكفه عن شهواته ، أو لنصلح من نفسه — إن كان ذلك الإصلاح مستطاعا — فإنما إلى صون الخلافة نقصد ، وحماية الملك نريد . فتحرك يزيد بن عنبسة فى قلق المغيظ المحنق ، وقد كان قبل ذلك يعتمد برأسه على قائم سيفه حزيناً واجماً ، وقال :

— إن الله يريد لهذا الملك أمراً هو قاضيه ، فاننا ما كدنا نبتهج بموت أبيه يزيد بن عبد الملك ، وقيام خلافة هشام بعده ، حتى دهمتنا المقادير فحتمت علينا أن يكون هذا الفتى ولى عهد هشام . لقد كان يزيد مسرفاً على نفسه ، قسم أيامه وأمواله بين سلامة القس المغنية ، وحبابة اللعوب ، وبنى لحبابة هذا القصر الشامخ الذى نجلس فيه اليوم ، وأنفق عليه من الأموال ما كان يكفى لغزو الصين ، وكل ما وراء البحر الأخضر من ممالك . ولكنا نحمد الله على أن عهده لم يطل ،

وأن هلاكه كان وشيكا ، وكثيراً ما يكون الموت علاجاً إذا أعضل الداء ، وعز الدواء . كانت خلافته أربع سنين كادت تهوى فيها الدولة إلى الحضيض ، لولا قوة فيها كامنة من عزمات صلاب وطدت آساسها من عهد قديم . وكأنه أراد أن يصل حباله بحبال ابنه فلم يمت حتى عهد بالخلافة بعده إلى هشام ، ثم من بعد هشام إلى هذا الفتى . وإن أخشى ما نخشاه بعد أن أعاد هشام إلى الخلافة عظمتها ، وغرس فى القلوب الرهبة منها ، وأقام عمودها ، وحرص على جمع الأموال لسد مفاقرها ، أن يأتى بعده هذا الوليد فيمحو آثارها ، ويبدد قوتها ، ويمكّن منها أعداءها القاعدين لها كل مرصد ، والمتربصين لها الدوائر ، والمتحرقين إلى فرصة يمزقونها فيها أشلاء ، ويأتون على بنيانها من القواعد . وليس لدينا من الرجال اليوم ما كان لنا والدولة فى عنفوانها ، والملك فى قوة اكتماله . فليس لنا مثل مسلم بن عقبه ، وليس لنا مثل الحجاج بن يوسف ، وليس لنا مثل قرة بن شريك . فاذا وقعت الواقعة ، وحلت الفادحة ، وتركت الدولة فى أيدٍ خائرة لم تجد بين الدافعين عنها إلا بنانا مخضبا ، ومعصما أدماه السوار . وويل لدولة تحميها النساء ! فأسرع الزهرى يقول :

— لقد حاول يزيد بن عبد الملك أن يخلع هشاما من ولاية

العهد ، وأن يقدم ابنه عليه لولا أن أدركه الموت من حيث لم يكن يتوقع . ولو أنه فعل لكان للمسلمين اليوم حال غير تلك الحال . وهنا اتجه يزيد بن عنبسة إلى السلمى وقال :

— مالك لا تنازعنا الحديث أبا مساحق ؟ إن أكبر الظن أن كلامنا يثقل عليك ، فلقد رأيت سحابة غيظ تركد على وجهك منذ دخولنا . ولعلك لم تكن تتوقع أن يزور صاحبك اليوم قوم غلاظ شداد يصارحونه القول ، ويدعونه فى عنف إلى تقوى الله ومخالفة نفسه . فقال الزهرى :

— إن السلمى كان معلم الوليد ونصيحه ، وكان الأجدر به ، وقد قضى فى الإشراف على تهذيبه سنوات ، أن يقوّم قناته ، وأن يصرف عنه شياطين الفتنة ، فإنه لو فعل لأغنانا اليوم عن لقاء هذا الفتى وجبهه بما يكره . ووالله لولا أن ألح علىّ الخليفة وألحف فى وجوب القيام بنصحه ، ما نقلت إلى داره قدما . فقال يزيد بن الوليد :

— ومن لهذا الأمر سواك يا ابن شهاب وأنت اليوم مناط هذه الأمة فى أمور دينها ؟ ولقد كان عمر بن عبد العزيز ناصحا للمسلمين حين كتب إلى عماله فى الآفاق يدعوهم إلى الأخذ بآرائك فى الدين ، ويقول لهم : إنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية من ابن شهاب . فمد الزهرى يده إلى يزيد

كالمتوسل إليه أن يكف عن هذا المديح ثم قال :

ــ أرسل إلى الخليفة إبراهيم المخزومى بعد أن انفتلت من صلاة الغداة فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك إليه الساعة . فذهبت معه على تثاقل وكره، فلما حضرت مجلسه أقبل على كاسف النفس حزينا ، وكان ولداه مسلمة والعباس واقفين فى خدمته ، ثم قال : اقرب منى قليلا أبا بكر . فقربت وسادتى من وسادته ، فاتجه إلى وقال : إنى نظرت يا ابن شهاب فى أمرى وأمر هذا الملك الذى آسوسه ، والأمة التى أرعاها ، فرأيت أنى أسير إلى الفناء وثباً ، وأعدو نحو الموت عدوا ، فان هذه الذبحة ما زالت تعتادنى بين الحين والحين ، وقد استطعت حتى الساعة أن أنجو منها بذلك الدواء الذى أتجرعه ، ولكن نوباتها أخذت تتقارب وتطول ، وأخشى أن أكون مائتاً بعد أيام أو أشهر . وقد بذلت كل ما فى قدرة رجل مثلى لإنهاض الدولة وتمكين سلطانها ، ولو كنت أعلم أن الذى يلى هذا الأمر من بعدى رجل حمال للأعباء ، شديد على اللأواء ، كامل الرجولة ، طاهر النفس ، نقى الجيب ، يخاف ربه ، ويخافه عدوه ، لهان على الأمر واستقبلت الموت سعيداً رضياً . ولكن الخلافة ستنتقل إلى ابن أخى الوليد ، وهو ــ كما علمت وعلم أهل الحضر والمدر ــ قد نسى نفسه ، ونسى حسبه ، وانصرف إلى جلساء السوء . فماذا

يكون من أمر هذه الأمة إذا وليها هذا الفتى ؟ وماذا يكون من أمر أطراف الدولة ، والثورات فيها لا تنطفىء نيرانها ، ولا يركد قتامها ؟ وماذا يكون من أمر ملك بقى إلى اليوم أكثر من ثمانين عاماً تؤثّـله جبابرة الأمويين بآرائهم وسيوفهم ؟ لن يبقى من ذلك شيء، وستتمزق فلول بنى أمية فى البلاد حيارى مطاردين ، يحسدون رعاة الإبل فى الصحارى الجرد على ما هم فيه من رخاء ونعمة . لقد بذلت كل ما فى وسع بشر لإصلاح هذا الرجل ، فلم ألق نجحا . وكان من آخر أمرى وأمره أن وليته الحج بالناس لأصلح من سيرته وأغريه بتقوى الله إغراء ، فكان منه ما علمت وعلم الناس . والآن وقد ضاقت بى الحيلة ، أدعوك لتذهب إليه أنت ويزيد بن الوليد وابن عنبسة ، لتبصّروه بما يجب عليه إزاء الله ، وإزاء الخلافة ، وإزاء نفسه ، ولتخبروه بأن صلاحه لن يكون له وحده بل لهذه الأمة التى نخشى أن تذهب ضياعاً ، وتصبح نهباً مقسما . هذا يا أبا بكر آخر سهم فى كنانتى ، فإن أجاب وأطاع هدأت نفسى ، وإلا فلله أمر هو فاعله . اذهب الآن مباركاً موفقاً ، وقد أمرت يزيد بن الوليد وابن عنبسة أن ينتظراك لدى الباب .

وكأن طول الحديث قد أجهد الزهرى فأخذ يرسل أنفاساً قصارا متلاحقة ، ثم قال وهو ينظر إلى السلمى :

— وهكذا جئنا أبا مساحق لنروض هذا المهر الحرون ، حتى يسلس قياده ،وإنى أرى فى ملامحك ما يدل على الاستنكار والمخالفة ، فهل لديك من شىء يقال ؟

— لقد أطلتم الحديث ، وسلكتم فيه فنوناً ، ولكنكم اتجهتم اتجاهاً واحداً ، ونظرتم إلى الرجل من ناحية واحدة ، فصورتموه كما شاءت نفوسكم لاهياً مرحاً تسلب من صفات الرجولة ، وقطع كل صلة بينه وبين الخلق الكريم ، وهذا تصوير مائن أيها البررة الأتقياء . إنى خالطت الوليد منذ كان غلاماً فى الحادية عشرة ، وهو الآن يجاوز الثلاثين ، خالطته خلاط معاشرة واختبار ، وسبرت غور نفسه ، وعرفت ظاهر أمره وباطنه ، فرأيت أنه سر آبائه جميعاً ، ففيه دهاء مروان بن الحكم وشغفه بالانتقام ، وفيه تيه عبد الملك وكبرياؤه وصدق عزيمته ، وفيه عناد أبيه وضعف نفسه . ثم إن به عرقاً من أخواله بنى هاشم أمدّه بالبلاغة وإجادة الشعر ، وذلل له سبيل التمكن من اللغة ومعرفة الأخبار . إنه ابن آبائه حقاً ، ورثهم فى الجاه والمال والخلافة ، كما ورثهم فى الجبلة والخلق ، وفيما يزين وفيما يشين . إنه حقيبة من وراثات مختلفة متباينة : فيها الخير وفيها الشر ، وفيها ما يسوء وفيها ما يسر . وأشهد إنى ما رأيته يقرأ القرآن أو يدرس أحاديث النبى الكريم إلا متطهراً متطيباً جالساً على

ركبتيه فى خشوع ورهبة . وأشهد إنه طالما حدثنى عن نفسه وما يدساق إليه من هفوات الشباب ، والدموع تنهمر من عينيه ، والحزن يملأ جوانب نفسه . وكثيراً ما كان يقول وهو فى تلك الحال : وماذا أفعل وقد خلقت ريشة فى مهب الأهواء ، وقصبة جوفاء فى بحر مائج بالفتنة والإغراء ؟ ثم يرفع رأسه إلى السماء فى رعب وضراعة وهو يردّد : اللهم إنك إنما سُمّيت الغفور لأنك تغفر لمثلى . وسمعته مرة وقد اجتمع بفتية من بنى أمية وهو يقول لهم : يا بنى أمية ، إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ، ويهدم المروءة ، ويثور ثورة الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية الشيطان . إنى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لذة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال .

فأسرع ابن عنبسة يقول :

ــ أخشى يا أبا مساحق إذا طال بنا المجلس أن تزعم أن صاحبك من الملائكة الأطهار .

ــ لا يا ابن أخى إنه ليس من الملائكة الأطهار ، إنه قد يكون أحياناً عبد نفسه إذا جمحت به أرخى لها العنان وتركها تسير به إلى حيث تريد . ولكنى أقول إنه رجل له جانبان ؛ جانب للخير يظهر فيه نبله وكرم عنصره وطهارة عرقه ، وجانب

للشر يرحل فيه العقل، وتنحل العزيمة ، ويختفى الوليد الشريف الكريم ، ويأتى الوليد الظريف المرح . وربما كان فى انقياده إلى نوازع نفسه لا يزيد عن أمثاله من الفتيان الذين خلقوا على غرار فطرته ، ولكن الوليد أضاف إلى ما فيه من ضعف العزيمة ما طبع عليه من العناد والتحدى والتباهى بازدراء آراء الناس ، وعدم المبالاة بلوم اللائمين . فلم يُراءِ كما يراءون ، ولم يخف الرقباء كما يخافون ، بل قال ما يقول فى علانية وسخرية ، وكشف ذات نفسه لأعدائه وأصدقائه فى غير خوف أو حذر . ومما أكثر فيه القالة شغف الناس بالأقاصيص وغرائب الأخبار ، فهم إذا نقل إليهم كاذب أنه شرب كأساً لم يرقهم أن ينقلوا الخبر كما هو . وأى طرافة فى أن يشرب شاب كأساً محرمة بعد أن فسد الزمان ؟ فراحوا يقولون إنه شرب باطيتين حتى انتفخ بطنه . وهنا ابتدره ابن عنبسة فقال :

ـــ إن الناس لا ينقلون إلا ما يسمعون من غلمان القصر وجواريه . وقد بلغنى أنه اصطنع بركة فى هذا القصر ، وملأها خمراً ، وأنه إذا استخفه الطرب ألقى فيها بنفسه وأخذ يكرع ، حتى يبين النقص فى أطرافها .

ـــ هذا اختلاق مائن ، وإفك كاذب . فالوليد أبغض الناس للقذر ، أو ما فيه احتمال القذر ، وهو لحرصه على النظافة لا يشرب

من إناء شرب منه غيره . ثم كيف يستساغ فى العقل أن يشرب من البركة حتى يظهر النقص فيها ؟ إنه لو فعل لكان اليوم من الهالكين ، واسترحنا من الجدل فى شأنه . وهذه الفرية البلقاء لا تقل فى بشاعة كذبها عما يتناقله الناس من أنه أراد يوما أن يتفاءل ، ففتح المصحف ، فكانت أول آية تقع تحت عينيه قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » . فقد قالوا إنه غضب عند ذلك وعربد ومزق المصحف وقال :

أتوعد كل جبار عنيد ؟ فها أنا ذاك جبار عنيد !
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

ويكفى لتفنيد هذا الهراء أنى أعلم وأنكم تعلمون أن العرب على ولوعها بالتفاؤل ، لا تتفاءل بالمصاحف ، ولا بما يدون فى الكتب ، فإن ذلك لم يكن من عاداتها منذ خلق الله الصحراء والجمل.

وأكبر الظن عندى أن هناك ثلاث طوائف تعمل على الكيد لبنى أمية كلهم لا للوليد وحده ، وأنها تبذل الجهد ناشطة لإسقاط الدولة ومحو آثارها . وهذه الطوائف هى طائفة الناقمين من غير العرب بعد أن أذلهم بنو أمية ، وقضوا على عزهم ومجدهم ، وأنزلوهم بدار الهوان والاتعاس . وطائفة بنى العباس الذين يدعون « لمحمد بن على » والذين ربضوا بخراسان متربصين ، يتحينون الفرصة للوثبة ، وينشرون جواسيسهم وعمالهم فى البلاد ليبثوا

فى الناس كراهية الخلافة ورجال الدولة ، ويذيعوا عنهم خروجهم على الدين واحتجانهم الأموال وتبديدها فى اللهو والنعيم . وهناك شيعة على بن أبى طالب ، الذين يجتذبون الناس بزهدهم ، ويستدرون عطفهم بما أوقع بهم بنو أمية من القتل والتشريد . هؤلاء جميعاً يعملون كادحين لإسقاط عرش الأمويين . وقد وجدوا فى الوليد منبعاً فياضاً لإشاعة الأكاذيب ، وابتداع الأخاليق ، وراحوا يهوّلون فى كل ما يبدو منه من لهو . فإذا لم يصدر عنه شىء رسم لهم خيالهم أبشع الصور ، ولفّق لهم أسوأ الأحاديث . وهنا التفت إليه الزهرى وقال :

— عجيب أمرك يا ابن مساحق ، تعترف بعبث صاحبك ثم تدفع عنه ، وحينما ترى أن حجتك لا تنهض بجناح ، تحاول أن تنقل الأمر من الوليد إلى بنى أمية عامة ، ثم إلى ما يحيط بهم من أحداث وأعداء .

— لا يا أبا بكر إننى إنما أنكر على الناس تعصبهم عليه ، وتألبهم للكيد له ، وأخشى أن يكون من أسباب ذلك أنه ولى العهد ، وأنه يسد الطريق على أبناء هشام . ولعله لو تخلى عن هذه الولاية لارتدت عنه سهامهم ، ولعاش كما يعيش غيره ، ولسكتت عنه ألسن السوء .

وبينما هم فى الحديث إذ بدت لهم من النافذة ، عن بعد ،

جماعة من الفرسان ، تثب الكلاب من حولهم ومن خلفهم ، وقد سار فى المقدمة فارس معتدل القامة ، كأنه عامل الرمح ، وهو يعبث بسوطه فى الهواء . فقال السلمى : هذا هو الوليد ومعه فتيانه ، وقد قدموا من الصيد ، وسيكونون بيننا بعد قليل .

فتمكن الزهرى فى مجلسه ، وتمتم بكلمات ربما كانت تسبيحاً ، وربما كانت استنكاراً . وومضت عينا ابن عنبسة بالشر ، وتنحنح يزيد بن الوليد وقال فى حزن وأسى :

— وهكذا تدور حياة هذا الشاب بين مرح ولهو وغناء وطرب ! يا لضيعة بنى أمية !

ويصل الوليد إلى القصر ، ومعه من ندمائه كاتبه عياض بن مسلم ، وابن سهيل ، والمنذر بن أبى عمر ، وعبد الصمد بن عبد الأعلى . فيسرع إليه غلامه رستم الفارسى ، وخادمه سبرة ، فيخبرانه بكل ما دار بين القوم من أحاديث ، فيعبس وجهه قليلا ، ثم ينبسط عن ابتسامة ماكرة ، فيها عناد ، وفيها تشف ، وفيها انتقام وعبث . ثم يقول : أبعثهم إلىّ هشام لينصحونى أم ليمهدوا السبيل إلى خلعى من ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة ؟ والله لن أخلع ما وضعه الله فى عنقى أو أموت دونه ! يقولون إنى لاه عابث ، سأريهم يا سبرة كيف أعبث بهم ، وكيف ألهو بأشياخهم ، وسأريهم أنى لا أبالى بما يذيعون عنى من

كذب وبهتان . ادع عمر الوادى وأبا كامل ، وادع جميع المغنين ؛ فسوف يعرفون اليوم من هو الوليد بن يزيد ؟ وانطلق سبرة يطيع أمر مولاه ، وما هى إلا لحظات حتى سمع رنين العيدان ، ونقر الدفوف ، وأقبل المغنون ومشى أمامهم الوليد نحو زوّاره . فلما دخل عليهم كان أبو كامل يغنى :

علّلانى واسقيانى من شراب أصفهانى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرُمُزان
إن بالكأس لمسكا أو بكفّى من سقانى
إنما الكأس ربيع يُتعاطى بالبنان

وكانت القيان تدق بالكفوف والدفوف ، ويمشين فى خفة ومرح ، كأنهن الحمائم ترف رفيفاً . ثم اتجه الوليد إلى عمر الوادى صائحاً : يا جامع لذتى ومحيى طربى ، غنى من خفيف الرمل بالبنصر ، فانطلق يغنى :

اصدع نجىّ الهموم بالطرب
وانعَم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته
لا تقفُ منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادمُها
فهى عجوز تعلو على الحقب

أشهى إلى الشرب يوم جلوتهـــا
من الفتـــاة الكريمـــة النسب
فقـــد تجلت ورقّ جوهرهـــا
حتى تبـــدّت فى منظر عجب
فهى بغـــير المزاج من شرر وهى لدى المزج سائل الذهب
فى فتيـــة من بنى أمية أهـــل المجد والمأثرات والحسب
ما فى الورى مثلهم ، ولا بهم مثلى ، ولا منتم لمثل أبى

وما كاد ينتهى من غنائه حتى هجم عليه الوليد ، وأخذ يقبله ويخلع من عقود الجوهر التى يتحلى بها ويضعها فى عنقه .

وهنا لم يطق الزهرى الصبر ، فهمّ بالوقوف ودعا صاحبيه إلى الخروج ، ولكن يزيد بن الوليد اجتذبه من كمه وهو يقول : إننا لا نستطيع أن نغادر القصر من غير أن نقضى حاجة هشام ، فإنك تعرف ثورة غضبه على من يتهاون فى تأدية ما يطلبه منه . ولمح الوليد ما يدور بين القوم فصرف المغنين ، ثم أقبل على الزهرى فى أدب وخشوع وكثير من الوقار ، كأن لم يكن شىء ، وكأنّ ما ملأ البهو من لهو وطرب منذ لحظة لم يكن منه شىء . أقبل على الزهرى فحياه ورحب به ، ثم نظر إلى يزيد بن الوليد وإلى ابن عنبسة نظرة صلف ، أتبعها بتحية ، فيها تيه ، وفيها اعتزاز . ثم أخذ يسأل الزهرى عن مسائل فى الحديث وغريب

اللغة والقرآن ، والقوم فى دهش جارف ملك عليهم ألسنتهم ، وأذهل عقولهم . فلما هدأت نفس الزهرى قال :

— إننا جئنا إليك يا بنى من قبل الخليفة لنسدى إليك النصح ، وندعوك إلى ترك ما أنت فيه من لهو يقضى على المروءة ، ويعبث بالشرف . وقد ضاق الخليفة ذرعاً بما يسمعه عنك ، وما ينقل إليه من أمرك . ثم إنه الآن ، وقد تقدمت به السن ، يخشى أن يترك الخلافة فى يد من لا يصونها أو يستطيع النفح دونها . وهؤلاء المسوّدة — كما يسمونهم — أو دعاة بنى العباس ، قد ظهروا بخراسان ، وأصبح لهم عديد وعدة ، وأشياع وأنصار . فإذا لم يحم الخلافة رأى نافذ ، وعزم باطش ، ضاع الملك الذى أثلتموه ، ولاقى بنو أمية من أعدائهم شر ما يلاقى الذليل المقهور . فالخليفة ينذرك ويدعوك إلى التوبة ، ونبذ ما أنت فيه ، ويطلب إليك أن تسرّح ندماءك وأصفياءك ، وأن تبتدئ حياة جديدة كلها جد وصلاح ، وابتعاد عن الدنيا ، واهتمام بشئون الدولة حتى تكون أهلا لولاية العهد .

كان الوليد ينصت عابساً مفكراً يعبث بأصابعه فى شعرات لحيته ، وما كاد ينتهى الزهرى حتى أرسل قهقهة طويلة اهتزت لها جوانح صدره ، ثم نظر إلى القوم وقال :

— ألأجل ذلك جئتم ؟ ومن أجل هذا أتعبتم دوابّكم حتى

بلغتم قصرى؟ لقد سخر منكم هشام وغرر بكم . إن ما يجرى فى قصرى من اللهو العفيف لا يزيد عما يجرى فى قصور فتيان بنى أمية . ثم التفت إلى ابن عنبسة ويزيد وقال : وعما يجرى فى دار ابن عنبسة وفى قصر يزيد ، وإن أبناء هشام أنفسهم يتمتعون بالحياة طولا وعرضاً وعمقاً ، ولكن هشاماً يريد شيئاً آخر ، يريد أن يسخّركم من حيث لا تشعرون فى مأرب هو أقصى أمانيه ومنتهى آماله ، يريد أن يهدم هذا السد الذى يحول بين ابنه مسلمة والخلافة ، يريد أن يخلع عنى ولاية العهد بعد أن أقسم عليها أمام أبى أغلظ الأيمان ، وأعطى أوثق العهود ، ليقدمها إلى « أبى شاكر » هدية غالية ثمينة تبقى فى أولاده وأحفاده يد الدهر . ولم ير للوصول إلى ذلك من سبيل إلا أن يثلب عرضى ، ويكثر فىّ قالة السوء ، ويبعث حولى جواسيسه وعيونه ليجعلوا من الفأرة جملا ، ومن بيت النملة قصراً ، وليملئوا الدنيا بأخبار زندقتى ، حتى لقد أصبحت حديث السمار ، ومثلا شروداً فى اللهو وحب الطرب . وإنى أسخر منه ومن أعوانه ، وأزيد فى نكايته بإصرارى على ما أحب ، وتمسكى بما يكره . ثم إنه أراد أن يخطو خطوته الأخيرة فبعثك يا ابن شهاب ، وأنت من أنت فى رأى العامة والخاصة علماً وديناً ونسكاً ، ليستشهد بك لدى الناس إذا خلعنى ، وليقول لهم لقد صبرت عليه كثيراً فلم يزدجر ،

ونصحت له كثيراً فلم يرعو ، وهذا الزهرى على ما أقول شهيد . لقد حرمنى العطاء منذ عدت من الحج ، وضيّق على وعلى ندمائى ، ولكنى لم أبال به ، ولم آبه له ، وإن لى من ميراث أبى ومن أموال أخوالى ما يزيد عن حاجتى ، وإن فى نفسى يقيناً لا يزعزعه إرهاب هشام ، ولا تنقص منه صولة هشام ، ذلك أنى سأكون خليفة على رغم أنوف بنى أمية جميعاً ، وأن هشاماً سيموت ويزول ملكه ، ويذهب معه نهمه ، وتدفن مطامعه ، وسأكون من بعده الخليفة الأموى الفتى . وسوف أثيب أصدقائى أجزل الثواب ، وأذيق أعدائي مرّ العذاب . فلقد أعددت فى سرداب القصر مائة قيد من حديد كتبت على كل قيد اسم صاحبه . ثم التفت إلى ثلاثتهم وقال : وأكبر ظنى أن أسماءكم بين ما كتب من أسماء ، وسوف يقول الناس إن الوليد لم يكن غرّا مائقاً ، ولم يكن مغفّلا ماجناً ، لأنه عرف أعداءه فحقهم ، وعرف أحباءه فأجزل عطاءهم .

أنا ابن أبى العاصى وعثمان والدى
ومروان جدى ذو الفَعال وعامر

أنا ابن عظيم القريتين وعزهـــا
ثقيف وفهر والعصاة الأكابر

نبيّ الهدى خالى ، ومن يك خاله
نبي الهدى يقهر به من يفاخر

ثم وقف ومد يده إلى الزهرى وهو يقول : إذا لقيت هشاماً فقل له عنى :

كفرت يدا من منعم لو شكرتها
جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جاهــداً فى قطيعتى
ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبنى
أراك على الباقين تجنى ضغينــة
فيا ويحهم إن متّ من شر ما تجنى !
كأنى بهم يوماً وأكثر قولهم
ألا ليت أنا ، حين « يا ليت » لا تغنى

ثم ترك البهو فسار خلفه غلاماه وترك القوم مشدوهين حائرين ، فأخذ الزهرى يجمع ثيابه ويتهيأ للخروج ، وهو يقول : صدق رسول الله : إن لكل دين خلقا ، وإن خلق الإسلام الحياء .

رشد وغيّ

كان الوليد من أصبح الناس وجهاً ، وأشدهم قوة ، وأرقهم طبعاً ، وأظرفهم حديثاً . وكان فارعاً متين البناء يكاد يتفجر منه ماء الشباب ، وكان أعظم ما يجتذب إليه النظر عيناه السوداوان الواسعتان اللتان يلتمع منهما وميض وهاج ، فيه القوة والعزيمة والشراسة ، ثم لا يكاد يظهر هذا الوميض حتى يختفى وتأخذ مكانه نظرات ذابلة ناعسة ذاهلة ، فيها شعر ، وفيها خيال ، وفيها ما يشبه الذهول . وكان يلبس حلة خضراء من الحرير الدبيقى فوقها جبة بيضاء طرزت حواشيها بالذهب وتغطى رأسه عمامة من الخز الأحمر حليت أطرافها بالدر الثمين ، ويتقلد عقوداً من نفيس الجواهر المتلألئة الباهرة الألوان . وكان يغير هذه العقود فى اليوم مراراً كما يغير حلله وأثوابه .

قصد الوليد بعد أن ترك من جاءوا لنصحه إلى حجرة فسيحة كان بها جماعة من ندمائه وإخوانه، وكان بينهم أشعب بن جبير مضحكه ومنّدره ومسليه . وكان أشعب آية زمانه فى سرعة البديهة ، وتوقد الذكاء ، وحسن الحيلة ، وإجادة النادرة ،

وإثارة الضحك من غريب ما يقول وعجيب ما يفعل .

وكان لا يحب أن يزاحمه أحد فى فنونه وألاعيبه . فقد زعموا أن رجلا بالمدينة حاول أن يسلك مسلكه ، وأخذ يحاكيه فى مذهبه ونوادره ، حتى استطابه الناس وأعجبوا به ، وعلم أشعب بخبره فرقبه حتى عرف أنه يختلف إلى مجلس لبعض فتيان قريش يحادثهم ويضحكهم ، فصار إليه ثم قال له : بلغنى أنك قد نحوت نحوى ، وشغلت عنى من كان يألفنى ، فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل . ثم غضّن من وجهه وعرّضه وشنّجه حتى صار عرضه أكثر من طوله ، وصار فى هيئة لم يعرفه بها أحد . ثم أرسل وجهه وقال : ثم افعل هكذا ، وطوّل وجهه حتى كاد ذقنه يتجاوز صدره ، وصار كأنه وجه الناظر فى سيف لامع . ثم نزع ثيابه وتحادب فصار فى ظهره حدبة كسنام البعير ، وأصبح طوله مقدار شبر أو أكثر . ثم قام فتمدد حتى صار أطول ما يكون من الرجال . فضحك القوم حتى أغمى عليهم ، وبهت الرجل فما تكلم بنادرة ، ولا زاد على أن يقول : يا أبا العلاء علىّ لله عهد ألا أعاود ما تكره ، وإنما أنا تلميذك وخريجك .

وكان أشعب فى ذلك الحين قد جاوز التسعين ولكنه بقى مستكملا قوته ، حافظاً لفنّه ودعابته . وكان دقيق الجسم ناحله ، أزرق العينين أحولهما ، أصلع الرأس حتى كأن رأسه كرة

من الشمع اللامع . وحينما ورد على الوليد حظي عنده فأمر خدمه أن يلبسوه سروالا من جلد قرد له ذنب طويل . وأن يشدوا فى فى رجليه أجراسا وفى عنقه جلاجل .

دخل الوليد على ندمائه باشاً مبتهجاً كأن وفد هشام لم يثر فى نفسه هماً ، ولم يكدر له صفواً ، فشرع ابن سهيل يقول :

ــ لقد أحسنت إجابتهم يا مولاى وكشفت خديعتهم ، ولكنى أخشى ألا يقف هشام عند هذه الغاية ، وأخشى أن يكون ما فعله اليوم إنما هو تحفز لهجوم ، وطليعة لمكيدة جديدة . فقال عياض :

ــ إن هشاماً لا يستطيع أن يمس الوليد ، ولكنه سيصب غضبه علىّ وعليك يا أبا وهب . فقد بلغنى من مولاه يعقوب ــ وهو جاسوس لى عليه ــ أن حديثاً جرى منذ يومين بشأن الوليد وندمائه ، وأن جواسيسه نقلوا إليه بعض شعرك الذى تمدح به الأمير وتذكر ما يرجى منه إذا ولى الخلافة ، وترمى فيه هشاما بأقبح الصفات ، فغضب حتى كاد يعود حوله عمى ، ثم صاح : والله لأقصن جناحيه ، ولأفرقنّ عنه قرناء السوء الذين يمالئونه علىّ ! والرجل بطاش منتقم ، يقتنص العصفور من بين براثن النسور ، ولا يترك أعداءه للمقادير . وهنا قال عبد الصمد بن عبد الأعلى :

— وكل حقده عليّ أني لم أخضع لأمره ، ولم أقنع الوليد بالتخلى عن ولاية العهد . فأسرع عياض وقال :

— إن لى وللك عنده ذنوباً لا تحصها العد ، ولكنا لن نبالى به ، ولن نأبه لوعيده ، وسنكون ألصق بالوليد من جلده ، وأقرب إليه من عقوده ، ولو لقينا فى سبيل ذلك الموت . ولله غيب هو مظهره ، ولعلها غمرات ثم ينجلين ، وظلمة يتبعها سفور الصباح . إن الرجل مضطرب مصاب بمرض يسمى ولاية العهد ووجوب انتقالها إلى ابنه مسلمة . فصرخ الوليد :

— دون هذا وتسيل الدماء . إن ولاية العهد قد كتبت فى سجل القدر ، ولن يستطيع هشام أن يمحو مدادها ولو استعان بأمواج البحار . ثم قام فى اختلاج واضطراب إلى ندمائه فأخذ يقبلهم واحداً واحداً ، والدموع تنهمر من عينيه ، وهو يقول : أنا أعلم أن المكروه سيصيبكم من أجلى . ويل لى ! وويل لكم منى . أليس مما يمزق القلب أسفاً أنى لا أقدر أن أدفع عن أصدقائى وخلصائى ؟ إننى إزاء بطش هذا الرجل أضعف من ذات خمار . ولقد عرف كيف ينتقم منى فيكم ، وعرف كيف يحرمنى بفقدكم طيب الحياة . إننى أعلم أن كلمة واحدة من فمى تنقذكم جميعاً ، ذلك بأن أذهب إلى هشام وأقول له إنى تخليت راضياً عن ولاية العهد ، ولكنى لن أفعل شيئاً من

هذا ، لأنى أعلم أنى أحب إليكم من أنفسكم ، وأنكم تفدوننى بأرواحكم ، وأن أكبر آمالكم أن أصبح خليفة وأن أشفى نفسى بدماء أعدائى . ثم ضحك طويلا حتى كادت تسقط عمامته ، وقال : موتوا مطمئنين أيها الأوفياء . ثم التفت إلى ابن سهيل وقال : ما أجملك مصلوباً يا أبا وهب ، وقد امتدت ذراعاك فى الهواء كأنك لا تزال تذكر عناق الحسان . لا تجزع يا حبيبى ، ومت آمناً فسأقتل بك عشرين فتى من فتيان بنى أمية . أما أنت يا ابن مسلم فما تطيب له نفسك أن تعلم أن سيفاً منذ طبعت السيوف لم يقطع عنقاً أشرف ولا أكرم من عنقك . فلا تبتئس أيها الصديق ، وسر إلى الموت كريما ، فسأقتل بك خمسين فتى من فتيان بنى أمية . وهنا صاح أشعب بصوت يشبه نقيق الضفادع قائلا : أما أنا أيها الأمير فسوف أموت فرحاً مسروراً ، لأنك ستقتل بى مائة عجل من عجول بنى أمية ! فأغرق القوم فى الضحك ، وقام الوليد يعدو وراءه ، فقرّ منه وهو يقفز أحياناً ، ويمشى على رأسه أحياناً ، وبخلاجله صليل ورنين . ثم صاح به الوليد :

– ماذا كان جواب الرسالة التى بعثتك بها يا قرد السوء ولم لم تخبرنى بما تم فيها بالأمس ؟

– انتظرتك حتى تفرغ من مجالسك يا أبا العباس

وكنت أظن أن ذلك لن يكون إلا فى العام المقبل .

ــ سأكون فى العام المقبل خليفة فلا أحتاج إلى الاستشفاع بك .

ــ ولكنك ستكون بطبائعك الوليدَ بن يزيد الذى نعرفه جميعاً فلا تستغنى عن شفاعتى . فضحك القوم ، وقال ابن سهيل : ما تلك الرسالة أيها الأمير ؟

فتأوه الوليد وغشيت وجهه سحابة من الحزن وقال :

ــ رسالة إلى سعدة .

ــ ألا تزال تذكرها ؟

ــ دعنى بالله يا ابن سهيل ولا تثر لواعج نفسى ، فإننى كلما ذكرت عهدها طار بى الشوق إليها وهزنى نحوها الحنين . إننى رجل منكود الحظ ، شقى الطالع ، لا أكاد أصل فى سلم السعادة إلى درجة أشرف منها على الحياة حتى يسقط بى السلم فى هوة لا ينادى وليدها ، ولا يرجى فقيدها . لقد كان حبنا سماوياً لم ينعم بمثله زوجان فوق هذه الأرض الفانية ، ولقد مرت بنا سنوات كأنها بسمات الروض لأشعة الصباح عشنا فيها تظلنا دوحة الحب سعيدين هانئين .

ــ إلى أن رأيت أختها سلمى .

ــ إلى أن رأيت أختها سلمى يا ابن سهيل ، ويلاه . ليت

هذا اليوم لم يكن . ذلك كان يوم أن ذهبت لأعود أباها سعيد ابن خالد ، وإنه ليوم بالغ الأثر ، شديد الخطر ، تبدّلت فيه حياتى ، واضطربت من بعده أيامى ، لمحت فيه سلمى وقد برزت بوجه لم تشرق الشمس على أجمل منه ، وقامت حولها جواريها ليسترنها عنى ففرعتهن طولا ، فاهتز لها قلبى ، وخفقت جوانحى ، ورحت بها صبا متبولا لا يستقر لى قرار ، ولا ينطفىء أوار .

ـ لذلك طلقت سعدة لتفوز بأختها .

ـ نعم طلقتها فى لحظة جنون ، وكنت أظن أن الوصول إلى سلمى بعد ذلك من أهون الأمور ، وأنه ليس على إلا أن أخطبها من أبيها فيجيب شاكراً مسروراً .

ـ ولكن هشاما وقف بينك وبينه ، وحال بين الثمرة اليانعة وجانيها .

ـ نعم يا أبا وهب فرجعت صفر اليدين ، أندب محبوبتين ، وأعانى آلا م غرامين ، فلا على سعدة حصلت ، ولا بسلمى ظفرت .

ـ والآن تريد أن تعود إلى مودة سعدة بعد أن هجرتها وهجرتك وبعد أن أصبحت ذات بعل ؟

إن غرامى بها يكاد يصل إلى حد الجنون ، وإن لى أملا

فى أن تنفصم عقدة زواجها فأعود إليها كما كنت زوجاً وافر الحظ سعيداً .

— عجيب كل أمرك أيها الأمير ، وأعجب ما فيه أنك بعد أن عاودك الهيام بسعدة لا تزال تحب سلمى .

— لا أزال أحبها ؟ إننى أحبها كما يقول ابن أبى ربيعة : « عدد الرمل والحصى والتراب » إن لى فى الحب يا ابن سهيل مذهباً لا تعرفه .

ثم اتجه إلى أشعب وصاح : ماذا كان جواب الرسالة أيها القرد الأحمق ؟ فتقدم منه أشعب وهو يتصنع الخوف وقال :

— ذهبت إليها بالأمس ياسيدى فلما أذن لى عليها ، رأيت صورة رائعة الحسن ما وقعت على مثلها عيناى ، فملكتنى الدهشة ، وتعثر بى لسانى ، فلما اطمأنت نفسى ، واستقر بى مجلسى ، وقفت أقول وأنا أرتعد رعباً : يا سيدتى هذه رسالة مولاى الوليد إليك ، وهو يقول لك فيها :

أسعدة هل إليك لنا سبيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاقى ؟
بلى ، ولعل دهراً أن يواتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عينى ويجمع شملنا بعد افتراق

وما كدت أتم البيت الثالث حتى صرخت فى وجهى ، وأخذت تصيح بخدمها : خذوا عنى هذا الفاسق الفاجر ،

جرّوه من رجليه ثم اقتلوه فى بستان القصر ولا تدنسوا بدمه بساطى . فلم أملك نفسى من الرعب والوهل ، وتعلقت بطرف ثوبها فى ذلة وتوسل وأنا أقول : ارحمينى يا مولاتى . ارحمينى بحق جدك عثمان بن عفان . لقد والله كنت أعرف أنى مقدم على مثل هذا ، ولكن ماذا أصنع وأنا أشعب ، وقد أغرانى ثمن هذه الرسالة المشئومة ؟ إن ثمنها يا مولاتى عشرة آلاف درهم ! عشرة آلاف درهم ! فابتسمت قليلا وقالت : والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتنى : فهدأت نفسى وقلت : وماذا تهبين لى من أجر على رسالتك ؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قلت : قومى عنه إذاً فإنى لا أحب بيع النسيئة . فقامت عنه وطويته تحت إبطى ، ثم قلت : هاتى رسالتك جعلت فداك . قالت : قل له :

أتبكى على لبنى وأنت تركتها؟ فقد ذهبت لبنى ، فما أنت صانع !؟

وما كاد ينتهى حتى وثب عليه الوليد كأنه الجمل الصائل ، ولكن أشعب استطاع أن يفر منه قبل أن يلثمه بسوطه فصرخ الوليد : إنها تقول : فما أنت صانع ؟ الذى أصنعه يا ابن أم الخلندج أن أدلّيك منكساً فى بئر ، أو أن أقذف بك من قمة القصر ، أو أن أضرب رأسك بسيفى ضربة أطيح بها رأسك . هذا هو الذى أنا صانع . فوقف أشعب فى ثبات وثقة وقال :

ـــ والله ما كنت لتفعل شيئاً من هذا .

— ولم يا ابن المجلودة ؟

— لأنك لم تكن لتعذب عينين نظرتا إلى سعدة . فارتد الوليد عنه وهو يتأوه ويقول : نجوت يا ابن الورهاء . اعزب عني أيها الأزرق المشئوم .

وأذن مؤذن المغرب فانتفض الوليد كمن يرفع رأسه من لجة غامرة ، وتبدلت حاله ، ولبسته صورة رائعة من الخشوع والتبتل ، ونظر إلى السماء فى ذلة وخشية ، وأسرع غلامه سبرة فأحضر إبريقاً وطستاً فتوضأ ، وقام القوم فتوضئوا ، ثم صاح بصوت هز أرجاء القصر : الصلاة الصلاة . ونهض فأم من بالقصر ، فلما فرغ من الصلاة أخذ يجاذب ندماءه طرائف الأحاديث والأخبار ، حتى إذا مر طرف من الليل صاح : أين النوار ؟ أين سعاد الكوفية ؟ أين جامع لذتى ومحيى طربى ؟ أين عمر الوادى ؟ وكأنهم جميعاً كانوا يترقبون هذا الأمر ، فما مرت لحظات حتى أقبل الجوارى والمغنون . فطلب إلى عمر الوادى أن يغنيه بشعره فى سلمى ، فعزفت العيدان ، وارتفع صوت النائ ، ودقت الدفوف ، وأخذ عمر يغنى هزجاً بالبنصر .

يا سليمى يا سليمى كنت للقلب عذابا
يا سليمى ابنــةَ عمى برد الليــل وطابا
أيما واش وشى بى فاملئى فاه ترابا

ريقُها فى الصبح مسك　　باشر العذب الرضابا

فطار عقل الوليد من الطرب ، وخلع جبته وقذف بها فى وجه عمر وهو يقول : خذها لا بارك الله لك فيها ، ثم زدنى بالله زدنى ، فانطلق يغنى رملا بالبنصر :

يا من لقلب فى الهوى متشعب ؟
بل من لقلب بالحبيب عميد ؟
سلمى هواه ليس يعرف غـــيرها
دون الطريف ودون كل تليـــد ؟
إن القرابة والسعادة ألفّـــا
بين الوليـــد وبين بنت سعيد

فما أتم غناءه حتى قام الوليد فاختطف الدف من جاريته صدوف غاضباً وقال : أنت لا تحسنين الإيقاع يا جارية ! دق عليه أنت يا ابن عائشة ، وغننا بالله يا أبا كامل ، فأسرع يغنى :

ويح سلمى لو ترانى　　لعناها ما عنـــانى
متلفاً فى اللهو مالى　　عاشقاً حور القيان
إنما أحزن قـــلبى　　قولى سلمى إذ أتانى
ولقـــد كنت زماناً　　خالى الذرع لشانى
شاق قـــلبى وعنانى　　حب سلمى وبرانى

ولكم لام نصيح فى سليمى ونهانى

فكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فلما هدأت نفسه ، وثب مسرعاً إلى الجناح الذى تسكنه أمه ، وهو يصيح : يا سبرة اطرد المغنين ، واصرف الجوارى ، فقد سئمت هذا العبث. أخرجهم من القصر إن شئت فإنهم جنود إبليس فى هذه الأرض .

دخل الوليد على أمه حزيناً مطرقاً يكاد يطفر الدمع من عينيه ، وكانت أمه بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفى أخى الحجاج ابن يوسف ، فى نحو السادسة والأربعين ، وهى على تجاوزها ريعان الشباب ، لا تزال تزهى بلمحات جمال بارع ، لم تذهب بنضارته السنون . وكانت مولعة بالوليد كثيرة التدليل له ، والرفق به ، والإغضاء عن هفواته .

دخل عليها فرآها جالسة على أريكة نجّدت بالحرير ، وطرزت ستائرها بالقصب ، وقد لفت رأسها بخمار من الحرير الأسود ، فبدا منه وجهها كما يبدو البدر فى حلك الظلام . وكانت تقرأ القرآن ، وأبو رقية أمامها ممسك بالمصحف يستمع لتلاوتها .

وكان أبو رقية هذا فى طليعة شبابه شديد الذكاء متوقد القريحة ، تجرد لطلب علوم الدين والقرآن ، فأوغل فى الدرس ،

وواصل فيه ليله بنهاره ، فغلبت عليه المِرة السوداء ، فاختلط عقله ، وأصابته لوثة ، وانتابه البله فى أكثر أحواله . ولكنه كان يفيق أحياناً فيثوب إليه عقله ، ويعاوده ذكاؤه ، ويصدر عنه من الدهاء والمكر ما يعز على أكثر العقلاء . وقد يرى فى أثناء إفاقته أن من الخير له أن يتباله ، فلا يكاد يفرق من يراه بين بلاهته المطبوعة ، وبلاهته المصنوعة . ومما يؤثر من نوادره فى إحدى نوبات جنونه ، أنه كان يحمل مرة فى طرف ثوبه بيض دجاج ، فأحرده الصبيان وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف على البيض منهم ، فوضعه على الأرض وجلس عليه حتى لا يراه منهم أحد .

واتفق عند دخول الوليد أن كانت أمه تقرأ قوله تعالى : « نَبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . فانكب على يديها يقبلهما فى حزن وخشوع ، وهو يجهش بالبكاء ويغمغم : نعم يا أماه ، إنه هو الغفور الرحيم ، ولكن عذابه هو العذاب الأليم ، فأين أكون من هذين ؟ وهل تتسع رحمته لمثلى ؟ إنه كريم يقبل التوب ، ويغفر الذنب ، ولكن أين غفرانه منى وأنا أشرد منه شراد البعير ؟ اسأليه عنى يا أماه أن يرد عنى كيد الشيطان ، فإنى أخجل من دعائه والابتهال إليه . خذينى إليك يا أماه ، وضمينى إلى صدرك ، فلعلى أعود كما كنت

طفلا نقى الذيل طاهر النقيبة ، فقد استعبدتنى نفسى ، وأثقلتنى همومى . فأقبلت عليه أمه تمسح على رأسه فى حنان ورفق ، وتملأ وجهه بقبلاتها ، ثم قالت :

ـ خفف عن نفسك يا ولدى ، فإن الدموع تغسل الذنوب ، والخوف من الله أول مراتب التوبة النصوح . ثم ابتسمت وأخذت تربّت كتفه وتقول : ولكنك يا بنى لا تكاد تعرى أفراس الصبا حتى تسرجها وتركض بها غير مبال ولا هياب ، ولا تكاد تحطم كأساً من اللهو حتى يسبك لك الشيطان كاسات . إن قلبك يا بنى قلب مؤمن ، إذا تيقظ كشف لك وجه الحق ، فدعه دائماً متيقظاً .

ـ ليتنى أستطيع يا أماه ! إن ابن إبليس تمنى على أبيه لعبة يلهو بها فلم يجد له اللاعين سواى . إنى أفيق كما يفيق المحموم ثم أعود إلى الخمود . ويلتمع فى نفسى نور من الحق كما يلتمع السراج فى آخر الليل ثم يخبو . أرأيت هذا المجنون أبا رقية . . ؟ فصاح أبو رقية فى استنكار : لست مجنوناً ولكنى أشعر بالجنون أحياناً حينما أرانى مدفوعاً إلى حب أمثالك يا أبا العباس ، وإلى بذل ذات نفسى لدفع الشر عنهم .

ـ أتحبنى يا أبا رقية ؟

نعم وأركب كل صعب للوصول إلى ما يرضيك .

— أتقول حقاً أيها الأبله ؟

— لست بأبله لأنني لا أشرب إلا إذا ظمئت ، أما غيرى فيشرب وهو ريان .

— وكثيراً ما صفروا لك لتشرب .

— خير لى أن أشرب مع الحمير من أن أشرب مع قرناء السوء .

— أما ذقت الخمر يا أبا رقية ؟

— ذقتها بعيني عند ما رأيت عربدة المخمورين .

— تبا لك من معتوه ، والله ما رأيت لك مثلا .

— إنك ترى كثيراً من أمثالى فى مجالس الشراب .

فابتسمت أم الوليد واشارت إلى ابنها ان يكف ، ثم سألت : ما شأن هؤلاء القوم الذين جاءوا اليوم ؟ لقد أخبرتنى صدوف بكل شىء.

— صدوف ؟ إننى لا أحب هذه الجارية يا أمى على جمالها وكمال أدبها . لا أدرى لماذا ، ولكنها نفرة أشعر بها كلما مددت إليها عيناً .

— إن صدوف من خير جواريك خَلقا وخلقا . ولقد شكت لى منذ أيام صدودك عنها ، وانصرافك إلى غيرها .

— إن الحب والبغض شيئان نحسهما ولا نعرف أسبابهما .

ـ هذا حق ، ولكن الكريم يجامل إذا لم يحب .

ـ بم أخبرتك صدوف ؟

ـ أخبرتني بكل ما قاله لك رسل هشام ، وبكل ما قلته لهم . إنها خدعة الصبي عن اللبن يا بني ، فلا تركن إليهم . إن هشاماً يريد أن يتخلص منك ، فاياك أن تمكنه من مأربه ، وإن ولاية العهد لأمانة لله في يديك فمت دونها كريماً ، ولا تفرج عنها أصابعك . لقد مات أبوك بين سحري ونحري وهو ينظر إليك محزوناً مكموداً ويقول : الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبين ولدي ! فقد كانت ولاية العهد لك بعد أبيك يا بني ولكن عمك مسلمة أدخل على أبيك الشبهة ، وقد كنت صغيراً ، فحمله على أن يعهد بها إلى هشام على أن تكون لك من بعده ، والآن وقد استمرأ هشام مرعاها ، واستحلى أفاويقها ، يهم بأن يخلعك ليخص بها ابنه من بعده . إن ذلك أبعد إليه من السماكين ، وأنأى من الفرقدين . إن بقصر هشام أحابيل تنصب لك ، ومكايد تدبر لهلاكك ، فكن منها على حذر ، وامش يا بني كمن يمشي في مسبعة لا يرد الطرف عن ناحية حتى يصوبه إلى أخرى ، وخير سلاح ترد به كيد أعدائك أن تتخلى عما أنت فيه من لهو ، فإنهم يجعلون التشهير بك ذريعة إلى نيل ما يؤملون .

ــ ليتني أستطيع أن أتخلى .

ــ كن قوى العزم يا بنى ، وغالب نفسك بالصبر والجلد .
ألا تزال تحن إلى سلمى ؟

ــ حنين النيب إلى إفالها . لقد قابلت أباها منذ أيام أمام باب الفراديس فسألته فى سلمى ، وتذللت له ، وألحفت فى المسألة ، فما كان منه إلا أن نأى بجانبه فى أنفة وكبرياء ، فأمسكت بذراعيه وقد اشتد بى الغيظ وقلت : سحقاً لك من رجل منخوب الفؤاد . الآن تردنى عنها ، وكأنى بك وقد وليتُ الخلافة تتملقنى وتخطبنى لابنتك فلا أجيبك . فما كان منه إلا أن نتر ذراعيه من يدى وقال : إن امرأ يجعل كريمته عند مثلك لحقيق بأكثر مما قلت . فلم أملك إلا أن أجبهه بما يكره من شتائم ، وتركته مغضباً .

ــ لقد انقلبت الأوضاع يا بنى فى هذه الدولة ، واضطربت الموازين . ولقد عشت حتى أرى سعيد بن خالد يأنف من مصاهرة الوليد بن يزيد . كنت أزور اليوم أم عثمان زوج هشام ، فسمعت منها أن يزيد بن عنبسة يلح فى خطبة أختها سلمى ، وأن هشاماً يميل إلى تزويجه بها . فوثب الوليد كأنما انقضت عليه صاعقة ثم صاح : ويل للفاجر . يزيد بن عنبسة يخطب سلمى ! إنه أذل من أن يشرف بنيل إحدى وصائفها . ألهذا جاء إلى

اليوم فى صورة الأمين الناصح ، وجعل من نفسه صنيعة لهشام ليشهّر بى ، ويملأ الآفاق بمذمتى ؟

— أخشى أن يكون تزويجه بسلمى جزءاً من المكيدة التى تدبر لك .

— لو نال منها شعرة لروّيت منه سيفى .

وبينما هما فى الحديث إذ سمعت ضجة فى القصر ، ودخل سبرة مذعوراً وهو يلهث ويقول : قدم يا مولاى خالد بن القعقاع رئيس شرطة هشام ، ومعه كثير من أعوانه ، فوثبوا على القصر وقبضوا على ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، وكبلوهم بالأغلال ، ثم ساقوهم إلى سجن الخلافة . وكان أبو رقية ينصت دهشاً ، وقد اتسعت حدقتاه حتى كادتا تملآن وجهه ، وتمتم بكلمات زادها الجنون إبهاماً . وسقط الوليد لهول الخبر ، ثم أخذ يئن أنين المجروح ويقول : أصدقائى ! أحبابى ! ندمائى ! اللهم أجرنى منه ! اللهم أجرنى منه !

أنا النذير لمسدى نعمــة أبــداً
إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بُطرا
وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا

أتشمخون ومنـــا رأس نعمتكم ؟
ستعلمون إذا أبصرتم الدولا
انظر فإن أنت لم تقدر على مثل
لهم سوى الكلب ، فاضربه لهم مثلا

ثم وثب فجأة ، وأمر سبرة أن يدعو المغنين ، وانطلق من باب الحجرة كما ينطلق السهم ، وهو يصيح : إلى مطلع الفجر ! إلى مطلع الفجر !

سجن وإطلاق

كان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فى نحو الخمسين من عمره ، وسيم الوجه ، أبيض البشرة بادناً ، عريض الجبهة ، حسن اللحية ، يخضب بالسواد ، فى عينيه حول . وكان حازماً ذا رأى ودهاء ، من رآه رأى رجلا محشواً عقلا . وكان بخيلا جماعاً للاموال . وكان يجلس فى هذا الصباح بدار الخلافة ، وقد وقف أمامه كاتبه سالم أبو العلاء ، وجلس إلى يمينه ابناه مسلمة وسعيد ، وإلى يساره جمع من رجال بنى أمية ، منهم يزيد بن الوليد وإبراهيم المخزومى ويزيد بن عنبسة . وأخذ سالم يقرأ عليه ما حمله البريد من أخبار الأطراف ، وما بعث به الولاة

والقواد من رسائل ، وما ورد من العيون والجواسيس الذين كان يبثهم الأمويون فى أقطار الدولة .

وقرأ سالم أول ما قرأ رسالة من حسان النبطى ، يذكر فيها : أن خالد بن عبدالله القسرى ، عسف بأهل العراق ، وسلب أموالهم بالقهر ، حتى لقد بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم . فزمجر هشام وصاح : بمثل هؤلاء الولاة تزول الدول ، وتنهار الممالك . والله لأردنّه إلى بغلته وطيلسانه الفيروزى ؟ اكتب إلى يوسف بن عمر عامل اليمن بولاية العراق ، ومره أن يسجن ابن النصرانية وعماله ، وأن يحتجن كل ما لهم من صامت وناطق . لن يشرب ماء الفرات بعد اليوم ، وأنا ابن عبدالملك . إن الدولة بولاتها ، فإذا فسدوا فسد فيها كل شىء . هل من حدث آخر يا أبا العلاء ؟

— وهذا يا أمير المؤمنين كتاب من خراسان بعث به عذافر ابن يزيد يقول فيه : إن خراسان أصبحت عشاً للفتن ، ووكراً لشيعة بنى العباس ، ينشرون فيها دعوتهم ، ويبعثون منها رسلهم ، ويعدون فيها ما استطاعوا من قوة ، ويتلقون بالطاعة ما يأمر به محمد بن على بن العباس المقيم بالحميمة . وقد كتب عذافر يقول : إن سليمان بن كثير وبكير بن ماهان ، يعملان جاهدين فى خفية وحذر ، لدعوة الناس إلى بنى العباس ،

وصرفهم عن بنى أمية . ويقول : إن شاباً نشأ بأصفهان يكنى بأبى مسلم ، سيكون له شأن وخطر ، وإنه دولة فى شخص ، وجيش فى رجل ، وإنه ألد الخصام ، واسع الحيلة ، وإذا لم يقض عليه فى أول نشأته ، عظم أمره ، وآثارها شعواء لا تبقى ولا تذر .

— إن خراسان مكمن الداء فى هذه الدولة ، وهى حصن أعدائنا الناقمين علينا.وهذا بكير بن ماهان يعمل منذ أن وليت الخلافة على الانتقاض عليها ، وإيغار الصدور على ولاتها . أليس فى مملكتى رجل كريم العم والخال ، عربى الأرومة يوجر رمحه فى أحشاء هذا الكلب العقور؟ . ويل للخلافة من نصرائها . إنها تتلهف إلى حجاج ثان يثبت ما اهتز من أركانها . ثم إنى حرت فى أمر محمد بن على هذا ، إنك حيثما قلبته لا تجد إلا زهداً وصلاحاً وانصرافاً إلى الله وتبتلا . إن اليد لترتعد إذا امتدت إليه بسوء ، وإن السيف ليتحطم فى غمده قبل أن يسل فى وجهه . ولكنى أخشى أن يكون لابساً غير ثوبه ، وأن يكون ساتراً وراء هذا الزهد خبأ وخديعة وفتكا . وكلما ذكرت خبر أبى معه تملكنى الخوف ، واعتصمت بالحذر . ذلك أن محمداً هذا ورد مع أبيه على أبى ، وكان بالمجلس قائف يلمح ما غاب عن الناس من أحكام القدر ، فلما انصرفا التفت أبى

إلى القائف وسأله : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ولكنى أعرف من أمره واحدة . قال : وما هى ؟ قال : إن كان الفتى الذى معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض ، ولا يناوئهم مناوئ إلا قتلوه . فالتفت إليه يزيد بن الوليد وقال :

ـــ هون عليك يا أمير المؤمنين ، فذلك حديث خرافة ، والله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . وأنصار العباسيين بخراسان حفنة متخاذلة يكفى أن يسوقها أحد عبيدك بالسوط إلى طاعتك .

ـــ لا تستهينوا بصغار الأمور يا بنى أمية ، فإنها إحدى علائم زوال الدول .

ـــ إن الدولة بخير يا أمير المؤمنين ، وقد قمت بالأمر فيها ثمانى عشرة سنة فثبت دعائمها ، وشددت أركانها .

ـــ أتستكثر على ثمانى عشرة سنة فى الخلافة ؟ ويل لكم من بعدى ! والله ما تشبثت بأهدابها إلا لأصون ملكاً ضيعة أهله ، وعبث به فتيانه ، ولقد أعلم أن كثيراً منكم يعيبنى بأنى حفى بالخلافة ، أكاد أعض عليها بالنواجذ . نعم إننى عليها حريص ، وبها ضنين ، ولكنى أرى بعين بصيرتى مجداً يترنح ، وعرشاً تكاد تسقط قوائمه ، فأود لو امتدت حياتى ، وتنفس لى العمر حتى أعيد إلى الخلافة مجدها القديم . عجيب شأن الإنسان ،

لا يكاد يكتمل حتى يذبل ويدركه الموت ، وإن فى الحياة ومطالبها وغاياتها ما يضيق به عمره القصير الأمد . أليس من أعجب العجب أن تعيش السلحفاة ، وهى من أحقر المخلوقات ، مائتى عام ، وأن تضن الحياة على الإنسان المسكين بأكثر من ستين أو سبعين عاماً ؟ ولو أنه عاش عمر السلحفاة لصنع العجائب ، وأتى بالمعجزات . وماذا نعمل بالحياة إذا كنا نموت كلما أوشكنا أن نفهم حقيقتها ؟ ثم زفر زفرة طويلة ، واتجه إلى كاتبه سائلا :

— أعندك شىء آخر ؟

— نعم يا أمير المؤمنين قبض الشرط بالأمس على رجل بالقرب من الباب الشرقى كان بداره قيان وخمر وطرب ، وقد أحضرناه ومعه البربط الذى كان يعزف به .

ودخل الرجل فوثب هشام من مجلسه واختطف البربط من يده ، وهو يصيح مهدداً : والله لأكسرن هذا الطنبور على رأسك أيها الفاجر ؟ فبكى الرجل ، وأغرق فى البكاء ، فسأله هشام عن سبب بكائه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أبكى من خوف الضرب ، وإنما الذى أبكانى أنك تهين البربط وتسميه طنبوراً .

ولم ينفع الرجل بكاؤه ولا توسله ، فضُرب وكسر بربطه

أو طنبوره على رأسه . وبعد انصرافه اتجه هشام إلى كاتبه يسأله عمن قبض عليهم بالأمس من ندماء الوليد ، وعما فعل بهم .

— قذفنا بهم فى سجن الظلام مكبلين يا أمير المؤمنين .

— إن هؤلاء شياطين الشر وأس البلاء ، ولولاهم ما ركب الوليد رأسه ، ولا أطاع هوى نفسه . ولقد بعثت الزهرى إليه بالأمس لينصح له فلم يلق منه إلا نكرا ، وإن من الخيانة لعهد الله ورسوله أن تترك الخلافة فى يد هذا الفتى . يقولون إننى أريد أن أصرفها إلى ولدى مسلمة ، وأقسم إننى لو رأيت فى ابن أخى خيراً ما جال هذا الأمر لى بخاطر . إننى أريد أن أرقد فى قبرى هانئاً مستريحاً ، وأن أترك خلق الله فى رعاية من يخاف الله . ولو حال ابن أخى بينى وبين ما أحب لهذه الأمة ، لرؤيت منه سيئ غير مستحقب إثماً . وبينما هو منساق فى حديثه ، إذ دخل الوليد وهو يمشى فى نخترة وعجب ، شامخ الأنف ، أصيد العنق ، فحيا أمير المؤمنين ثم جلس بجانبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكاد يزحمه فى مجلسه . ونظر إليه هشـــام نظرة المغيظ المحنق ، ثم أسرع فبسط له وجهه كأنما طافت برأسه فكرة خاطفة صرفته عن نيته . وشرع الوليد يقول :

ــ لقد بعث أمير المؤمنين إلى نفراً من جماعته بالأمس ليثلبوا عرضى ، ويحطوا ما رفع الله من كرامتى ، فى آثواب ناصحين مشفقين ، وما كنت لعمر الله لأصبر على هذا الضيم ، لولا أنهم رسل أمير المؤمنين . إن أبناء عبد شمس وهم سادة الجاهلية وخلفاء الإسلام ، أقوى شكيمة ، وأحمى أنوفاً من أن يطأطئوا رءوسهم لناصح متطفل . ثم ما هذا الذى فعلته يا أمير المؤمنين مما أقض مضجعك ، وجعلك تترك شئون الخلافة لتفرغ لى ولأخدانى ؟ أأحدثت فى الدين حدثا ؟ أم هدمت من الخلافة ركناً ؟ أم جردت للفتنة جيشاً ؟ إننى أعيش فى قصرى بعيداً عنك وعن حاشيتك وبطانتك ، ولكنى لا أسلم من رِقبة جواسيسك وتطلع عيونك ، حتى أصبحت هدفاً لكل رام . ثم لم يكفك هذا فعملت كادحاً على الانتقام منى ، فقطعت عنى عطاءك لأذل لك وأستكين ، وأستجدى جدواك . وأقسم بمن خلق للحق ميزاناً ، وأعد للطاغين نيراناً ، إنى ما سررت بعطائك ، ولا حزنت لانقطاعه . فقد سبب الله لى من العهد ، وكتب لى من العمر ، وقسم لى من الرزق ، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شىء منه دون مدته ، ولا صرفِ شىء منه عن مواقعه . ولعل من الخير لك يا أمير المؤمنين أن ترعى فى

أواصر القربى ، وأن تذكر أبى الذى آثرك بها على ولده .

فإن تلك قد مللت القرب منى   فسوف ترى مجانبتى وبعدى
وسوف تلوم نفسك إن بقينا   وتبلو الناس والأحوال بعدى

إنى جئت اليوم يا أمير المؤمنين لا لأطلب شيئاً لنفسى ، وإنما جئت لأسألك فى فكاك أصحابى الذين ألقيت بهم فى السجن ، وليس لهم من جرم ، إلا أنهم بى حفيّون ، ولعهدى مخلصون ، وإذا كان لا بد لغضب أمير المؤمنين من متنفس فليصبه على وحدى ، فأنا به أوسع صدراً ، وأكثر احتمالا .

فاربد وجه هشام ، وانتفخت خياشيمه من الغضب ، وصاح فى وجهه :

— إنى لن أترك الخلافة بين زق وعود ، ولن أتركها لندمائك يبيعونها للأعداء . أما ما ذكرت من قطعى ما كنت أجريه فإنى أستغفر الله من سبق إجرائه عليك ، وأرجو أن يعفو الله عنى بعد أن تداركت الأمر ، وأسرعت بقطع مال كان ينفق فى غير وجهه . وأما ندماؤك فهم عندى جذور الشر ومعاول الفساد ، وهل زاد ابن سهيل لله أبوك عن أن يكون مغنياً زفّاناً ، قد بلغ فى السفه غايته ؟ وهو مع ذلك ليس بشر ممن تستصحبهم فى الأمور التى أكرم نفسى عن ذكرها . وهل عياض ابن مسلم إلا وسيط سوء بينى وبينك ، ومزور أخبار يستثيرك

بها على آهلك وقومك ؟ وهل عبد الصمد إلا رجل احتال للوصول إليك ليكون لك معلماً ومؤدباً ، ثم انقلب فاجراً معربداً ، وشيطاناً مغوياً ؟ إن سجن الظلام منذ أن بناه الروم فى عهودهم السحيقة لم تضم جدرانه ، ولم يظل سقفه ، أكثر إجراماً ، ولا أخبث أنفساً ، ولا أجرأ على الشر من ندمائك الملاعين . لن يفك لهم إسار ، ولن يروا نور الحياة ، ما دام فىّ نفس يتردد . وأقسم لولا صلة القربى التى ذكرتها ، ولولا أن يشمت الأعداء ببنى مروان ، لألحقتك بهم . يا حرَسىّ ، سر أمامنا إلى السجن لنرى الوليد أحباءه فلعله يرى فيهم عظة ومعتبراً .

— لن أذهب معك يا أمير المؤمنين ، فانى أخشى أن ينقض علينا غضب من الله ونحن فى السجن .

— إن غضب الله لا ينقضّ إلا على الغاوين .

— إن كثيراً من الناس لا يعرفون أنفسهم .

— ولو عرفوها ما هزوا أعواد الخلافة باستهتارهم ، ولكفى الله المؤمنين شرهم .

— وأى شر فى مجالسة صديق وسماع لحن من الثقيل الأول ؟

— زوال الإسلام يا فتى ، وذهاب ريح المسلمين . هلم إلى السجن لتمتع النظر بأصدقائك المخلصين .

فسار الوليد خلفه فى تثاقل واستكراه كأنما يقاد بالسلاسل ،

ووصل الخليفة والحاشية إلى السجن بعد قليل .

وهو سجن رومانى قديم نحت فى باطن الأرض ، ينزل إليه النازل بدرجات تبلغ الست والثلاثين ، وهو متسع الرقعة ، لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل ، وقد قسم بالبناء حجرات صغيرة يقيم بها المسجونون . وبه بئر عظيمة ، بعيدة الغور تسمى « بئر الموت » تلقى بها جثث من أنقذهم الموت من ويلات هذه الجحيم . وقد تراكمت به الأقذار ، حتى أصبحت أرضاً فوق أرضه ، واشتد به الظلام حين حرم ضوء الشمس ، وركدت به روائح العفن والقذر حين حرم نسمات الرياح . ولم يكن يفرق بينه وبين القبور إلا أن سكانه أحياء يشعرون فيتألمون ، وسكانها أموات لا يشعرون . ظلمة لا تسمع فيها إلا شكاة الشاكين ، ولا ترى فيها إلا أشباحاً هزيلة تروح وتجىء فى ضوء خافت من المشاعل يخفق فى اضطراب وضعف ، كما يخفق قلب الطائر الجريح أقصدته السهام ، وسجانون شداد غلاظ كأنهم زبانية السعير ، وأنات وزفرات تتلهف إلى قسوة الموت بعد أن يئست من رفق الحياة .

دخل هشام السجن وقد وضع يده على أنفه كراهية أن تصل إليه ريحه ، ومشى أمامه كبير السجن حتى وصل إلى حجرة ابن سهيل فرآه ملقى على الأرض فى مسح خلق ، والسوط

ينصب عليه من سجان عنيف صخرى القلب مفتول العضل ، وهو يئن أنين المحتضر ، ويستغيث فلا يجد مغيثاً . فأسرع الوليد وأمسك بيد السجان ثم وكزه بمرفقه فى غضب ونكر ، حتى ابتعد عنه ، واتجه إلى هشام فقال : يا أمير المؤمنين اجعلنى مكانه ، أو مر هذا الجبار الأحمق أن يكف عنه . إن الموت يا أمير المؤمنين أروح له من هذا العذاب . فلوى عنه هشام وجهه ، وأشار إلى السجان أن يمضى فى عمله ، وجذب الوليد من كمه ، وسار وتبعته الحاشية فشهدوا من عذاب عياض وعبد الصمد ما تقشعر له الجلود . وكان الوليد حزيناً مطرقاً يذرف الدمع مدراراً ، وترسل أنفاسه حسرات إثر حسرات حتى إذا بلغوا إحدى حجرات السجن رأوا شيخاً فى الثمانين ، وقد طال شعره ، وامتدت أظفاره ، ولم يبق منه السجن إلا عينين ذاهلتين ، ونفساً قصيراً متلاحقاً ، وجسماً كادت تبرز منه العظام . فسأل هشام كبير السجن عنه فقال :

— هذا يا أمير المؤمنين «مجاهدبن حبيب» كان من أصحاب «سعيد بن جبير» الذى خلع «الحجاج بن يوسف» وخرج عليه ، فلما تمكن الحجاج من سعيد وقبض على أصحابه كان هذا منهم ، فألقى فى هذا السجن ونسى ذكره ، فبقى هنا إلى اليوم .

— هذا كان فى سنة أربع وتسعين !

ـــ نعم يا أمير المؤمنين .

ـــ ونحن الآن فى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، أبقى الرجل منسياً فى هذا السجن تسعاً وعشرين سنة ؟ .

ـــ نعم يا أمير المؤمنين .

وقرب الخليفة من الشيخ وصاح فى أذنه : قم أيها الشيخ . فأجاب فى صوت خافت :

ـــ وهل أبقى فىّ السجن والهرم ساقين أقف عليهما ؟

ـــ خبرنا بحديثك .

ـــ نسيته .

ـــ من أنت ؟

ـــ كنت رجلا فيما مضى ، ولكنى أصبحت اليوم جثة بها نفس يطيل فى عذابها .

ـــ أتحب أن نطلق سراحك ؟

ـــ ماتت فىّ الرغبة والرهبة منذ زمن بعيد ، فأصبحت لا أريد ولا أخشى .

ـــ أنا هشام بن عبد الملك الخليفة .

ـــ « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ » صدق الله العظيم .

فاتجه هشام إلى كبير السجن وقال : أطلقوا الرجل . ثم التفت إلى كاتبه وأمره أن يمنحه ما يكفيه فى أيامه الباقية . وما كاد يخرج من السجن حتى رأى خادمه يعقوب يقبل إليه مسرعاً ، وقد تملكه الاضطراب والفزع ، وهو يصيح :

— مولاى مسلمة يا أمير المؤمنين ! !

— ما شأنه ؟

— اختطفه اللصوص يا أمير المؤمنين ! فبهت هشام وصرخ :

— اللصوص ؟ أى لصوص ويلك ؟

— نعم يا أمير المؤمنين اختطفه اللصوص .

— كيف ، ثكلتك أمك ؟

— لقد خرج فى هذا الصباح كعادته على برذونه الطخارى ، وصحبته إلى الغوطة ، حتى إذا عزمنا على الرجوع بدا لنا من بعد رجل يضرب امرأة بسوطه ، لا تأخذه بها رحمة ، وهى تصيح وتستغيث . فأشفق سيدى على المرأة ، وجرى نحوها لينقذها وجريت معه ، ثم نزل عن برذونه ، وتقدم نحو الرجل شاهراً سيفه ، وما كاد يفعل حتى خرج علينا كمين من الخلف فانقض علينا رجاله ، وقبضوا على أيدينا فلم نستطع دفعاً ، ثم شدوا وثاقنا فلم نستطع حراكاً ، ثم جاءوا فربطوا على فمى

وفم سيدى ، وحملوه على جواد لهم ، وانطلقوا به فى سرعة الريح العاصفة ، وبقيت مكتوفاً مكموماً حتى عثر بى أحد الأعراب فحل وثاقى فأسرعت إليك يا أمير المؤمنين لتجد إلى إنقاذه سبيلا .

— ويل لهم ! يختطفون ابنى فى حاضرة ملكى وبين سمع أعوانى وبصرهم ! أى طريق سلكوا لا أم لك ؟

— لا أدرى يا أمير المؤمنين ، فقد أثارت خيولهم غباراً حجب عنى طريقهم .

— صفهم لى .

— كانوا يلبسون ثياب الأعراب ولكنهم لم يكونوا من الأعراب ، وقد دس أحدهم هذه الورقة فى يدى وهو يعقد وثاقى .

— هاتها ويلك ! فناوله يعقوب الورقة ، فأسرع إلى قراءتها وكان فيها :

إن لم تطلق عبد الصمد بن عبد الأعلى وابن سهيل وابن مسلم الليلة ذبحنا ابنك كما تذبح الشاة ، وقذفنا به فى فناء قصرك . إننا جادون غير هازلين ، وبيننا وبينك غروب الشمس فان أطلقتهم نام ابنك الليلة على فراشه ، وإلا فقد أنذرناك .

صعق هشام بعد أن قرأ الورقة ، وأخذت يداه ترتعشان ،

ورمى الوليد بنظرة كادت تسحقه ، وصاح بكبير السجن : أطلق الكفرة الفجرة أصحاب الوليد ، وسوف يكون لى ولهم شأن ، فإن للعذاب ألواناً غير السجون ، وسيعلم الأنذال ما ينتظرهم بعد حين .

هجر ولقاء

ترك الوليد هشاماً وهو يعجب لتصاريف القدر ، ويفكر فى أمر الذين جرءوا على ابن الخليفة فاختطفوه فى النهار المبصر ، كما تختطف السلع أو كما تطر الجيوب . ثم طاف بخاطره أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعملون لأجله ، ويحتطبون فى حبله ، ويناصرونه على أعدائه ، وأنهم ما أنقذوا ندماءه من براثن هشام إلا لحبهم إياه وبغضهم الخليفة . من يكون هؤلاء يا ترى ؟ ومن الذى دفعهم إلى هذه الفعلة الجريئة ؟ ومن هو ذاك الذى أمدهم بالمال ، ورسم لهم تلك الخطة المحكمة ، وذلك التدبير الحاذق؟ أسئلة لم يستطع الإجابة عنها بعد أن فكر طويلا ، وأكدّ ذهنه طويلا ، فسار إلى قصره حتى بلغه فكان أول من قابله أبو رقية المعتوه بوجهه الأبله ، وفمه المفتوح الذى لا ينقطع منه سيلان الريال ، فقال الوليد :

ــ كيف حال الدنيا اليوم يا أبا رقية .

ــ الدنيا بخير لأنها تجرى على نمط مطرد، وإنما الناس هم الذين يتغيرون ، ولو عاش الناس عيشة البهائم لرأوا أن للدنيا صورة واحدة جميلة تتكرر على مر الزمان . وإذا قلنا لهم : عيشوا عيشة البهائم قالوا : إننا مجانين . إن الإنسان هو الذى يشقى نفسه فى هذه الدنيا بمطامعه وبعد مطالبه وضغنه على كل من يزاحمه فى الحياة ، أو يسبقه إلى لقياتها . وكلما نال منها نصيباً زاد طمعه فلوّن الدنيا بألوان نفسه ، فهو يرى فيها خوفاً وحقداً وخداعاً وطمعاً واغتصاباً ، ولو حقق لعلم أن هذه الألوان البشعة إنما هى مرائى نفسه وصورها .

ــ مرحى أبا رقية . لقد أصبحت حكيما بصيرا بالحياة بعد أن عمى عنها العقلاء .

فضحك أبو رقية ضحكة أشبه بصراخ الأطفال وقال :

ــ وأين العقلاء أيها الأمير ؟ إنى أخشى أن تعدنى منهم ، أليس عجيباً أن العقل الذى يعرف الأشياء يعجز عن أن يعرف نفسه . وأن الناس يحصرون المجانين فيمن يرجمهم الصبيان بالأحجار ، ولو علموا لرأوا أن الظالم والقاتل والمدمن والمبذر والشحيح والمزهو بنفسه وكثيراً من أنواع الناس ، لا يعدّون فى صفوف العقلاء .

— هل تكره الظلم يا أبا رقية ؟

— أكرهه وأدفع شره بنفسي وبغيرى . ثم رفع عينيه الذاهلتين إلى الوليد وقال :

— هل زرت الخليفة اليوم ؟

— نعم ، هل ذكرته حينما ذكرت الظلم والشر ؟

— لا . ولكن نبئنى أوصلت إليه رسالة من أحد ؟

فدهش الوليد وقبض بشدة على ذراعى أبى رقية الرخوتين وقال :

— من أنبأك بهذا أيها الأحمق ؟ فابتسم ابو رقية ابتسامة الاطمئنان واليقين ، وقال :

— الحمد لله لقد أفلح التدبير . وماذا فعل هشام ؟

— أطلق سراح المسجونين . ومن آين لك علم كل هذا ؟

— كان ذلك يسيراً على ، فان الخليفة حينما أرسل أعوانه إلى القصر فقبضوا على أصدقائك وقذفوا بهم فى السجن ، علمت أن كل ذلك للنكاية بك والإساءة إليك ، فذهبت باكياً إلى أملك فنفضت إليها الخبر ، فقالت : وماذا أصنع فى الخليفة ؟ فقلت : تعطينني مائتى دينار . فابتسمت فى حزن وأسى ، وقالت : ترشو بهما الخليفة ؟ فقلت : لا ، بل أعطيهما « خارجة القيسى » شيخ لصوص الشام ، فقالت : وما شأنك

باللصوص ؟ قلت : إذا قسا الحاكم تحكم اللصوص . فتنهدت طويلا ثم قذفت إلى بثمانية أكياس ، فأسرعت إلى خارجة ورسمت له طريق العمل ، ودعوت له بالتوفيق .

— لقد أجاب الله دعاءك يا أخا « هبنقة » . ثم صاح : أين أشعب ؟ فجاء إليه يحجل فى مشيته كما يحجل القرد راعته عصا صاحبه ، ثم رفع صوته محاكياً صوت الديك ، ووضع رأسه على الأرض ورجليه إلى الأعلى ، ثم انقلب فعاد كما كان ، وقال :

— هل يريد مولاى الأمير أن يعطينى شيئاً ؟

— أعطيك هذا ، ثم قنّعه بسوط كان فى يده ، فأخذ يحاكى صوت الكلب حينما يقذف بحجر ، فرمى إليه الوليد ديناراً فتلقفه بفمه فى مهارة بارعة ثم قال :

— الآن نستطيع أن نتحدث ، ماذا يريد مولاى ؟

— تعرف ما كان من أمر ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، فقد اعتقلهم الخليفة وعذبهم عذاباً شديداً ، ثم أجبر مكرهاً على فك عقالهم ، وهم الآن فى دورهم فاذهب إليهم وأحضرهم إلىّ الساعة .

— أتريد أن أحل محلهم فى سجن الظلام ؟ إن كل واحد

منهم الآن محاط بجواسيس الخليفة ، فهل تظننى أبا رقية حتى تقذف بى فى هذه المهالك ؟

— أتريد أن تعيش فى قصرى منعماً مترفاً دون أن تتعرض لخوف ؟ إن الغنم بالغرم يا ابن جبير .

— لقد لقنتنى أمى ألا أحمل غرماً ، وألا أتعفف عن غنم .

فأخرج الوليد من كمه كيساً وهزه فسمعت وسوسة الدنانير ، وقال : وما تقول فى هذا ؟

— الآن أذهب ولعن الله أمى . ثم أخذ يمط وجهه ويطوّله حتى بلغ وسط صدره وأصبح لا يعرفه من كان يعرفه ، ثم وثب فاختطف الكيس من يد الوليد وانطلق كما ينطلق السهم عن القوس .

وبعد قليل أقبل ندماء الوليد ضعفَى يتوكئون حتى كأنهم خرجوا من معركة أثخنتهم جراحها ، وما كاد يراهم الوليد حتى انقض عليهم معانقاً مقبلا ، ثم صاح : على بالمغنين . على بعمر الوادى وأصحابه . هذه ليلة الليالى وواحدة الدهر ؟ أوقدوا الشموع جميعاً ، سننسى فى هذه الليلة الحياة ، وسننسى الآلام ، وسننسى هشاما . فأسرع المغنون إلى البهو ودخل بعدهم نحو الأربعين من الجوارى والقيان ، بين روميات وفارسيات وتركيات فى الملابس الزاهية والحلى الباهر . وكان عمر الوادى

قد لقنهن أبياتاً للوليد فى سلمى ، فأخذن ينشدن معاً بصوت ساحر بين رنين العيدان ونقر الدفوف :

خبرونى أن سلمى خرجت يوم المصلى
فإذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت: هل تعرف سلمى؟ قال : ها . ثم تدلى
قلت: هل أبصرت سلمى؟ قال : لا . ثم تولى .

ولعب الطرب بالرءوس ، وظفر شره العيون بجمال الوجوه فكاد يلتهمها إلتهاماً . وصاح رستم : لنرقص رقصة الفرس ، لنرقص الفَنزج ولننشد معاً :

نجا عياض وابن وهب قد نجا ونال مولانا الوليد ما رجا
هلم نرقص فى هواه الفنزجا

فأخذ كل رجل بذراع فتاة ، وتمايلت الرءوس ، وماست الخصور ، وسايرت الأقدام دقات الأنغام، واحمرت الوجنات ، ولعبت العيون ، وانطلقت الضحكات ، وطغى المرح فأطلق لنفسه العنان ، وطار العقل وغادر المكان ، وكان صياح ، وكان هرج ، وكان نزق . وبينما القوم فى لهوهم إذ علا عند مدخل البهو صوت فيه رصانة ، وفيه نبل ، فنظر القوم مبهوتين فاذا أم الوليد فى جلال سمتها ، واعتدال قوامها ، ترسل نظرات ثاقبة ملؤها الغيظ والغضب ، فأطرقوا فى خشية وخجل . فقالت :

— ما هذا يا بنى إن جواسيس هشام تحيط بقصرى من كل جانب ، وقد كنت أرضى كارهة عن الغناء والطرب ، أما رقصات العلوج وضجيجهم ففوق احتمالى وأكثر مما تسيغه طاقتى .

وما سمعها القوم حتى تسللوا لواذاً مطرقين وجلين .

وبقى الوليد وأمه وأبو رقية فالتفتت الأم إلى الوليد وقالت : يا بنى إن من يريد عرشاً لا يصل إليه من هذه الطريق ، وإن هشاماً يقعد لك كل مرصد ، ويسجل كل ما تأتى وما تذر ، ليثبت لرجال بنى أمية أنك لا تصلح للخلافة ، وأن الحقيق بها ابنه مسلمة . ولقد غشى حبى لك على سمعى وبصرى ، فأغضيت عن شىء من اللهو ، ولكنى أراك تستمرئ ما أنت فيه ، وتجاوز الحد فيما لا يليق بك . فبكى الوليد بكاء الطفل واحتضن أمه ، وسرت العدوى إلى أبى رقية فسالت دموعه مدراراً . وقال الوليد . بين النحيب والنشيج :

— صفحَك يا أمى . إنى ولد عاق حقاً . ولكن ماذا أعمل وخيال سلمى يعاودنى فى كل لحظة فيؤجج أشجانى ، ويثير أحزانى ؟ وكلما حاولت نسيانه والانصراف عنه وثب أمامى ساحراً فتاناً ، يعبس مرة ، ويبسم أخرى ، ويغرس فىّ الأمل حيناً ، واليأس أحياناً ، حتى كاد يسوقنى إلى الجنون .

إننى يا أمى أحاول نسيانه بهذا اللهو ، وأجهد فى طرده عنى بضرب الدفوف وعزف المزاهر ، إننى شقى يا أماه . جاه ومال وسلطان ودولة ، ولكن أين السعادة بين كل هؤلاء ؟ لا أرى لها أثراً ولا ظلا من أثر . إن صلاحى فى سلمى ، وحياتى ومماتى لها ، فلو أنى نلتها أو فزت بكلمة منها لكنت أتقى الأتقياء ، وخير الأصفياء .

وهنا تلعثم أبو رقية والدموع لا تزال تنهمر من عينيه وقال :

— إذا كان فى قرب سلمى صلاحك فلم لا تتزوجها ؟

فابتدره الوليد قائلا : ألم تعلم بما كان من أبيها أيها المجنون ؟ ألم تعلم أنى أطرد دونها كما تطرد غرائب الإبل عن المناهل ، وأنها أبعد إلى من مناط الثريا وأنأى من آمال الحمقى ؟

— هون عليك أبا العباس فكل شىء ينال إذا صبرت له حتى آمال الحمقى .

— وكيف ذلك يا رضيع « الجرنفش » ؟

— إنى سأفكر بعقلى وأدبر لك لقاءها

— لقد يئس العقلاء من اجتذابها إلى فلم يبق إلا المجانين !

— إن الناس يتقون العقلاء لأنهم يعرفون طرق تفكيرهم فيتحصنون منهم ، أما المجانين فلهم أسلوب من الحيل لا يهتدى

إليه العقلاء . سأذهب إليها غداً وستراها بعد غد .

فضحك الوليد ضحك اليائس ، وأخذ يسخر من أبى رقية ويهزأ به ، وأبو رقية مطرق لا ينبس . ثم طلب الوليد المصحف وشرع يقرأ حتى إذا انتصف الليل ذهب إلى فراشه .

وفى الصباح خرج أبو رقية من القصر ، ولما ابتعد عنه كثيراً وقرب من قصر سعيد بن خالد ، أخذ يهارش الصبيان ويغريهم بإيذائه ، حتى إذا وصل إلى القصر شرعوا يرجمونه بالحجارة ، وقد كثر عددهم ، فطفق يصيح ويستغيث ، وقد شج رأسه ، فخرج العبيد فذادوا عنه الصبيان وأدخلوه القصر ، ولكنه استمر فى عويله ، وأخذ يرفع الصوت بشتم الصبيان والدعاء عليهم . فأطلت عليه سلمى مع بعض جواريها وقالت :

— ماذا أصابك يا أبا رقية ؟

— كل ما أصابنى بسببك يا سيدتى .

— بسببى ؟ وهل أنا التى أغرت بك هؤلاء الشياطين ؟

— نعم أنت . رأيت لك رؤيا بالأمس فأعجبتنى ، فجئت لأبشرك بها ، فقابلنى هؤلاء الأبالسة فشجوا رأسى . ألست أنت السبب فى كل هذا ؟ فضحكت سلمى ضحكة فاتنة لو سمعها الوليد لباع بها ملك الشام والعراق ، ثم أدركتها شفقة على الرجل ، ورثاء لما أصابه ، وعطف يحسه

العاقل على المجانين ، فدعته إلى حجرتها وقالت في دلال وعجب :

— حدثني بحديث هذه الرؤيا يا أبا رقية .

— إنها رؤيا جميلة جداً لم أخبر بها أحداً ، وأنا واثق من أنها ستقع ، لأني لم أر شيئاً في المنام إلا تحقق كما رأيته : رأيت مرة ليزيد بن عبد الملك أن حبيبته « حبابة » ستعود إليه ، وقد كان يئس من لقائها ، فعادت إليه بعد ثلاثة أيام ، ورأيت لمسلمة بن عبد الملك قبل سفره إلى العراق أنه سيقود جيشاً لمحاربة يزيد بن المهلب ، وأنه سيقتله ، فلم يمض شهر حتى تحققت الرؤيا . نعم يا سيدتي إن العقلاء يرون الأشياء في النهار حينما تجيء ، ونراها نحن في الليل قبل أن تجيء .

فأغرقت سلمى في الضحك وقالت :

— أسرع أبا رقية وخبرني بهذه الرؤيا .

— لا بد أن آخذ البشرى أولا .

— لك عشرة دنانير .

— لا يا سيدتي . وماذا أصنع بالدنانير ؟ إنني أريد منك شيئاً أعظم من هذا ، بشرط أن تقسمي لي بجدك عثمان بن عفان أن تعطيني ما أطلبه منك .

— أقسمت بعثمان فماذا تطلب ؟

— أطلب طبقاً من هريسة .

فأغرقت فى الضحك ، وأعجبها ما فى الرجل من بلاهة وظرف . وأشارت إلى الجوارى أن يغادرن الحجرة ، واتجهت إليه قائلة :

— لك ما تطلب يا أبا رقية فاقصص رؤياك .

— رأيت يا سيدتى كأننى فى ميدان قصر الخلافة . وإذا بك أنت نفسك يا سيدتى تجرين فى ذعر ووهل ، ووراءك أسد مفترس ما رأيت فى حياتى أشد منه شراسة وأنكر زئيراً ، وكنت تصيحين وتستجيرين . فاجتمع الناس وملئوا جوانب الميدان ، فأعدت النظر إلى الأسد ، فاذا هو ينقلب رجلا أزرق العينين أحمر الوجه ، غزير شعر الحاجبين أصفر شعر اللحية كثها ، عظيم الشفتين ، بخده الأيسر أثر ضربة سيف كاد يشوه وجهه .

فنظرت إليه سلمى فى ذهول وقالت :

— أنا أعرف هذا الرجل .

— أنا لا أعرفه يا مولاتى ، ولكنى فى النوم سمعت الناس يصيحون . ابن عنبسة ، ولا أدرى من هو .

— نعم هو ابن عنبسة ، يزيد بن عنبسة ، إنه خطبنى من أبى .

— هذا لم يكن فى منامى ، ولا شأن لى بالرجل ولا بخطبته .

انقلب الأسد رجلا على الوصف الذى ذكرت كأنى أراه أمامى الساعة ، وكان فى يده خنجر همّ أن يطعنك به ، فصحت وحاولت التخلص من يديه ، وبينما أنت كذلك إذ أقبل رجل يشق صفوف الناس ، وسيفه فى يده ، وعلى وجهه الشهامة والبطولة وغضب الكريم لعرضه وشرفه ، فصاح الناس : الوليد . أمير المؤمنين . الخليفة . فرجعت البصر فإذا هو مولاى الوليد ابن يزيد . فسألت رجلا بجانبى : أأصبح الوليد خليفة ؟ فأجاب نعم أصبح خليفة أيها الأبله ، ألم تعلم أن هشاماً مات منذ سنوات ، وأنه الآن خليفة المسلمين ؟ فسكت وترقبت فإذا الوليد يهجم بسيفه فيشطر الرجل الذى أراد طعنك بخنجره شطرين ، ويأخذ بذراعك فى رفق وحنان ، ثم يمشى بك حتى يبلغ دار الخلافة بين صياح الصائحين ، والدعاء لك ولزوجك أمير المؤمنين .

كانت سلمى ذاهلة واجمة ، كأنها تسبح فى حلم آخر ، وكانت بفطرتها جمة المطامع بعيدة الآمال طموحاً ، وكانت تبغض ابن عنبسة لثقل فيه ودمامة ، ولأنه جاوز سن الشباب ، فلما تعرض لخطبتها طلبت من أبيها أن يسوّف الرجل ويمهله ، لأن قلبها كان يهفو إلى الوليد على الرغم مما عرف عنه ، وعلى الرغم من إباء هشام وتحريضه أباها ألا يزوجها إياه . كانت

تحب الوليد وتخاف رعونته ، وكان مما يزهدها فيه ويخفف من ثورة حبها له سعي هشام الحثيث لخلعه من ولاية العهد ، وإطباق أكثر الناس على أنه لا يصلح للخلافة ، بعد أن أرخى لنفسه العنان . وإذا ضاعت الخلافة من الرجل لم يبق منه إلا شبح هزيل من بنى الإنسان لا جاه له ولا غناء فيه . ولكن الرؤيا التى قصها عليها أبورقية محت من نفسها كل شك ، وأججت خامد الآمال . فالتفتت إليه وقالت :

— وبم تعبر هذه الرؤيا ؟

— إنها لا تحتاج إلى تعبير ، إنها كفلق الصبح .

— وهل أصبح حقاً فى يوم من الأيام زوجة الخليفة ؟

— ذلك بعد أن آكل الهريسة . فضحكت سلمى طويلا ثم قالت :

— ولكنى لا أحب الوليد ، وقد خطبنى من أبى فرد طلبه فى عنف وإباء ، فكيف أتزوجه ؟ لا يا أبا رقية إنك واهم ، فلعلك رأيت فى منامك فتاة أخرى تشبهنى .

— لم أرك وحدى ، إن الناس الذين كانوا فى ميدان الخلافة رأوك معى ، وقالوا : هذه سلمى بنت سعيد . على أنى أعرف أن الوليد بك صب مفتون ، وأنه إنما يعبث ويلهو لينسى حبك بعد أن أيأسه أبوك من قربك ، فلو أنه ظفر بك لرأى فى حبك

كل ما يحجبه عن اللهو والمرح . ثم إنى لمحت منذ أيام أن جارية « عاتكة » بنت العباس بن الوليد قد أكثرت التردد على قصر حبابة ، وأكثرت من الخلوة بالوليد ، وعلمت من الجوارى أن عاتكة مفتونة بحب الوليد ، وأنها تحاول أن تجتذب مودته بعد أن يئس منك . ولست أبالى أتزوج عاتكة أم تزوج غيرها ، ولكنى لا أحب عاتكة لأنى ائتمنتها مرة على حجر قذفنى به الصبيان فضيعته .

ثارت الغيرة فى نفس سلمى ، وتيقظت فيها غريزة المرأة فقالت :

— وماذا أعمل للوليد وقد رأيتَ أنه محجوب عنى وعن قصرى؟ ثم ماذا أصنع وقد أقسم أبى ألا يزوجنى إياه ؟

— إنه يريد أن يطفىء نار غرامه برؤيتك والحديث إليك ، أما زواجه بك فقد كتب فى سجل القدر ، ولن تستطيع يمين أبيك أن تمحو ما كتبه القدر .

— وكيف أراه وعلى ألف عين من أهلى ؟

— ذلك هين يسير ، إنه سيأتى إلى القصر غداً متنكراً فى هيئة رجل يبيع ثياباً ، ومعه حماره وفوقه بضاعته ، ولا تثريب عليك فى شراء ثياب من بائع ثياب . فصاحت فى خوف ممتزج بالفرح :

— أنت أعقل مجنون رأيته يا أبا رقية .

— وأنت أجن عاقلة رأيتها . عمى صباحا ، أرجو ألا ألتقى بالصبيان فى عودتى . ثم انفتل من حولها فكأنما ابتلعته الأرض .

وعاد أبو رقية إلى القصر فالتقى به الوليد وأمه فحدثهما بكل ما حاك من حيلة وتدبير ، ودهش الوليد ، واستبد به الفرح ، وانكب على أبى رقية يقبله . وأرسل فاشترى أثواباً من جميع الأنواع ، وما جاء الصباح حتى غير من زيه وهيئته على نحو ما يرتدى باعة الملابس ، فلبس عمامة صفراء وسروالا فضفاضاً وصدارا من الصوف الخشن ، ولف حول رأسه شملة من الحرير الأحمر ، وخرج من القصر بعد أن وضع الأثواب فوق حمار هزيل ، حتى إذا بلغ قصر سعيد نادى بأعلى صوته :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان . عندى من الحرير ، ما ليس له نظير ، حرير صنعانى ، وحرير تنّيسى ، وخز فارسى . ذهب بذهب ، وعجب من عجب . فسمعته سلمى وأمرت إحدى جواريها أن تدعوه ، فحمل بعض بضاعته ودخل القصر ، فقادته الجارية إلى حجرة سلمى ، فبهره حسنها ، وكاد يفضحه جمالها ، وأخذ يتلعثم ويتمتم ، وهم بأن يمد إليها يده ، فنظرت إليه عابسة ، وأشارت إلى جاريتها بالخروج ، فلما خرجت رمى بالأثواب ، وانكب على يديها يلتهمها لثما وتقبيلا ، وجعل يئن ويقول :

— ارحميني يا حبيبتي . أنت حياة روحي ، وريحانة نفسي ، أنت الهواء الذي أتنسم ، والأمل الذي أناغي ، والسعادة التي أرجو وإليها أصبو . نظرة واحدة تكفيني ، وبسمة تقنعني ، وكلمة تفتح أمامي باب الرجاء .

— قم أبا العباس فبي مثل ما بك ، وحبي لك صدىً لخفقات قلبك ، ولكن أبي والخليفة يحولان دون هذا الحب .

— إن الحب لا يعرف الحوائل ، إنه ينفذ إلى ما لا ينفذ إليه الهواء ، ويحلق فوق ما لا يصل إليه جناح ، فإذا أحببتني فلا الخليفة ولا أبوك ولا الدنيا كلها بمستطيعة أن تقف بيننا .

— أحبك . فوثب عليها يقبل وجهها في شغف وفتون . فابتعدت عنه قليلا ثم قالت :

— اهدأ يا حبيبي فاني لست لك بزوجة ، وخير لنا أن نصبر حتى يصل الله بين حبلينا ، ويقرب منا ما بعد .

— إني سأكون خليفة ، وسأنعم بزواجك .

— هذا لا شك فيه .

— ولن تتزوجي ابن عنبسة .

— لن أتزوج به .

— وكيف أظفر بقربك قبل أن يتم زواجنا ؟

— تبيع أثواباً كل أسبوع ، وتأتي إلينا بحمارك الناحل

الأعجف . ثم قامت كأنها تدعوه إلى الانصراف ، فوقف يودعها طويلا ، فلما خرج وضع الأثواب على حماره ، وهو يكاد يطير من الفرح ، وأخذ يضرب الحمار بعصاه ويصيح :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان !

نار ورماد

كانت دولة بنى أمية عربية النزعة ، شديدة التعصب لكل ما هو عربى ، تنظر إلى الأعاجم فى تيه وتعاظم ، وتحول بينهم وبين مناصب الدولة ومراتبها . ثم اشتط بعض الأمويين وغلا فى إحياء نزعات الجاهلية ، ونبش ما دفن من أحقاد القبائل التى جهد الإسلام فى إماتتها ، واجتثاث أصولها . فكان الخلفاء يؤثرون بعض القبائل بالمودة والعطاء والتجاوز عن عدوانهم ، وكان كل وال من ولاتهم يختص قبيلته بالبذل والمحاباة . فمرة تكون المحاباة لليمانية ، ومرة تكون للمضرية . وكان الناس يشعرون بكل هذا فيطرقون واجمين ، ويسكتون وجلين ، حينما كانت الخلافة فى عنفوانهـــا ، والدولة فى شبابها ، والسيف مصلتاً فوق الرءوس ، والولاة كلهم من

طينة الحجاج بن يوسف الذى كان يقول : من قال برأسه هكذا ، قلنا له بالسيف هكذا ! فلما ضعفت الدولة بعد موت الوليد بن عبد الملك ، تطلعت رءوس من الفرس كانت مدفونة تحت أطباق الخوف ، ونطقت أفواه من بنى العباس كان يسكتها الذعر والحذر . وامتد الزمان بدولة بنى أمية فزاد ضعفها باستنامة رجالها إلى النعيم ، ففقدوا رجولتهم ، وتسلبوا من خصائص عروبتهم . فكان ضعفهم قوة لأعدائهم ، وتراخى حبلهم شدة وبأساً للخارجين عليهم . لهذا قوى أمر بنى العباس بمعاونة الفرس فى أواخر عهد هشام ، وتجمع الناس حول دعاتهم بخراسان ، وتكونت فى أكثر أقطار الدولة جماعات من أنصارهم ، كانوا جميعاً يعملون سراً ، ويعدون العدة فى الخفاء ، وينتظرون الفرصة للانقضاض على الدولة وثل عرشها .

وكان بدمشق كثير من المحتطبين فى حبل العباسيين بين فرس وعرب ، وهؤلاء كانوا يبعثون بأخبار الخلافة وأسرارها إلى الزعماء بخراسان ، ويتلقون أوامرهم وإشاراتهم . وكانوا ينبثون بين الناس فيشيعون بينهم مساوى الخلافة ، وهفوات فتيان بنى أمية ، بأسلوب شيطانى عجيب لا يلصق بهم تهمة ، ولا يدع لسامعيهم شكاً فى أنهم أمناء مخلصون للدولة ، حريصون على بلوغها ما ينبغى لها من عظمة ومجد . يبدأ الرجل

منهم فخوراً بمكانة الخلافة وفضل رجالها الأولين ، وقوادها السالفين ، وأنها رفعت راية الإسلام ، ونشرت كلمة التوحيد فى كل مكان ، ثم يقول فى رنة حزن وبصوت تكاد تخنقه الغيرة ، وتقلبه الحمية بكاء : هدى الله خلفاءنا السداد ، وألهم فتيانهم التوفيق ! أكان يفعل هشام كذا لو كان عمر بن عبد العزيز حياً ؟ وهل كان يفعل الوليد كذا لو كان عبد الملك ابن مروان حياً ؟ ثم يزفر زفرة طويلة ويرفع عينيه إلى السماء داعياً للإسلام والمسلمين . هكذا كانت تعمل هذه الفئة الثائرة . ومن أخاليق هؤلاء وأكاذيبهم امتلأت كتب الأدب والتاريخ بكثير من مثالب الأمويين . وكان بين هذه الطائفة أشخاص اندسوا فى قصور الأمويين ليكونوا عليهم عيوناً ، ولينقلوا أسرارهم إلى أعدائهم .

وفى إحدى ليالى شهر رجب سنة أربع وعشرين ومائة وصل من دمشق إلى الكوفة إسماعيل بن يسار رسولا من الشام من قبل محمد بن على بن عبدالله بن العباس ، فنزل بدار بكير بن ما هان وكان من كبار أنصار العباسيين ، وأخبره بما قدم إلى الكوفة بسببه ، فسهّل له بكير لقاء سليمان بن كثير الحرانى زعيم جماعتهم ومالك بن الهيثم ، واتفقوا على زيارة يونس بن عاصم وعيسى وإدريس ابنى معقل فى السجن ، وكان قد اتهمهم

يوسف بن عمر عامل هشام على خراسان بالدعاء إلى بني العباس . فلما ذهبوا إلى السجن قابلهم حارسه وكان رجلا غليظاً مفرطاً فى الطول ، متين البناء ، ينطق وجهه بالشراسة والشر . فتعمد ابن كثير أن يسقط من كمه ديناراً ، فأخذ يدور فوق الأرض ، فانقض عليه الحارس يلتقطه ، ثم رفعه إلى ابن كثير قائلا :

— هذا دينار سقط منك يا رجل . فقال ابن كثير :

— خذه جزاء أمانتك ، فانما اللقطة لمن وجدها . ثم تعمد إسقاط دينار ثان فانكب عليه الحارس وقال : وهذا دينار آخر . فأطبق عليه ابن كثير كف الحارس وقال :

— هو لك أيضاً . فقد أحسنت فى الأولى والثانية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فبهت الحارس لهذه الأريحية ، ثم اتجه إليه ابن كثير سائلا :

— هل بين ضيوفك فى هذا السجن عيسى بن معقل ؟ فاننا قوم من أهله جئنا لنراه ولنحدثه فى أمور أولاده وضياعه .

— إن ابن عمر يحظر أن يلقاه أحد ، ولكن أوامر الرؤساء دائماً تصدر لتنقض ، فلا تثريب عليكم من أن تروه على شرط ألا تطيلوا المكوث ، وعلى شرط ألا تتحدثوا فى أمر بني العباس .

— إن لنا من الشغل بأنفسنا ما يذودنا عن الحديث فى

شئون غيرنا . وأشار إليهم الحارس بالدخول فوصلوا إلى حجرة المسجونين ، وكانت واسعة فسيحة منعزلة فى ناحية من البناء ، وما كاد يراهم من بها حتى أسرعوا إليهم فرحين معانقين ، وأخذوا يمطرونهم بالأسئلة عن محمد بن على بن عبد الله وعن ابنه وخليفته إبراهيم الإمام ، ثم عن الدعوة بخراسان ، وعن قوتها ونشاطها وانتشارها . وكان يخدمهم بالسجن شاب قصير فى نحو الرابعة والعشرين ، أسمر اللون نقى البشرة أحور العينين عريض الجبهة ، كانوا يدعونه أبا مسلم ، وهو أبو مسلم الخراسانى الذى كانت تدخر له الأيام عظمة ومجداً ، وهو الذى أقام بسيفه ورأيه بعد ثمانى سنوات لبنى العباس دولة شامخة الذرا راسخة البنيان .

جلس الجماعة بعد التحية وتبادل الأشواق ، فقال ابن كثير فى صوت خافت :

ـــ هذا إسماعيل بن يسار شاعر الطائفة العباسية ومذيع فضلها وناشر مناقبها ، قدم بالأمس من الحميمة بعد أن قابل ابن عم رسول الله وزوده بما يجب علينا عمله لإشعال الثورة على الأمويين وبثها فى كل مكان ، وهو يستطيع أن يحدثنا بكثير من أخبار فتيان بنى أمية وعبثهم ، وسخط الناس عليهم ، وقد يهدينا تبادل الرأى وتجاذب التفكير إلى ما يحسم هذا الأمر ،

وإلى أن نرسم طريقاً لا حباً نمضى فيه إلى الغاية موفقين . لقد بلغ السيل الزبى ، وجاوزت الشدة طاقة الاحتمال ، ولا بد من ضربة سيف قاصمة مصممة تفرق بين الحق والباطل ، وتعيد الخلافة إلى أهلها . فصاح أبو مسلم والدموع تتناثر من عينيه :

ـ نعم لا بد من ضربة سيف ، ولا بد أن يمحى كل أثر لأبناء عبد شمس .

ـ اهدأ يا بنى فإن الرأى لا تنضجه نيران الغضب .

ـ إن الغضب هو الذى يصهر العزائم ويشحذ الهمم ، وما حاجتى إلى رأى هزيل تزيده الشكوك ضعفاً وهزالا ؟

فالتفت ابن كثير إلى ابن معقل فى دهشة وقال :

ـ من هذا الشاب ؟

ـ هذا أبو مسلم أشدنا حماسة إلى الدعوة ، وهو أرهف من سيف ، وأنفذ إلى مطالبه من سهم ، إن نار الثورة تسرى فى شرايين جسمه ، وإننا نسميه صخرة الأرض وداهية الدواهى .

ـ هذا كله حسن ، ولكنى أحب أن يضم إلى فورة شبابه حكمة الشيوخ ودهاءهم .

ـ إن عنده من ذلك الشىء الكثير فلا يلفتك أمره عما نحن فيه .

ـ أظن أن الكلام فى جبروت الأمويين وحرمانهم إيانا

مناصب الدولة قد أصبح كلاماً مكرراً ، وحديثاً معاداً .
فقال إسماعيل بن يسار :

— إنهم يتعالون علينا ويشمخون بأنوفهم حتى كأن الله خلقنا من طين وخلقهم من مسك وكافور . فقال عيسى ابن معقل :

— إن دين الله لا يفرق بين عربى وأعجمى ، ولا بين مضرى ويمانى ، ولكن هؤلاء القوم يكيلون للناس بمكيالين ، وينزلونهم منزلين ، وينظرون لهؤلاء بعين ولأولئك بعين ، ثم يزعمون أنهم نصراء القرآن وحماة الإسلام . وهنا وثب أبو مسلم واقفاً وقال :

— لو زرت خراسان اليوم يا صاحبى لرأيت الأعاجيب .
فقال ابن يسار :

— إن ما نلقاه بالشام أعجب وأغرب يا فتى . أنشدت هشاماً مرة قصيدة فدفعنى الاعتزاز بقومى إلى أن أفخر بالفرس وأشيد بمجدهم القديم ، فما كان منه إلا أن غضب حتى نفرت أوداجه ، وصاح فى جبرية وزهو : أعلى تفخر بقومك أيها الأحمق ؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح فيها نفسك وأعلاج قومك ؟ ثم أمر عبيده أن يغطونى فى الماء ، فقذفونى فى بركة حتى كدت

أغرق ، ثم أمر فنفيت إلى الحجاز . فصاح عيسى بن معقل ماذا كانت قصيدتك لله أبوك ؟

ــ قلت فيها يا سيدى :

إنى وجدك ما عودى بذى خور
عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
إلى لسان كحــد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة
جرد عتــاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخر أو لتعظيم ؟

فصاح القوم لا فض فوك يا ابن يسار ، بمثلك تنهض الدعوة وتتأجج الثورة ، فلما عادوا إلى الحديث قال إسماعيل : أما العبث بين فتيان بنى أمية فقد بلغ الغاية ، وقد جهدنا جهدنا فى إذاعة مثالبهم ونشر أخبارهم ، ووصمهم بكثير من النقائص بالحق وبالباطل ، حتى أصبحوا حديث كل غاد ورائح ، وأخذ الناس يشعرون بوجوب زوال دولتهم وانتهاء أمرهم .

والوليد بن يزيد سادر فى غلوائه ، لا يقف فى طريقه شىء ، وإذا نصحه ناصح ، أو زجره زاجر زاد عناداً وتحدياً ، كأنه يتعجل نهاية أيام بنى أميه . وهو ولى العهد ، وإذا ولى الخلافة على تلك الحال قوى ثورتنا ، ومكن لدعوتنا ، وقدم الخلافة هدية سائغة هنيئة لأمير المؤمنين ابن العباس . لكل هذا تعمل جماعتنا بدمشق على إحباط كل مسعاة لهشام فى خلعه من ولاية العهد ، ونقلها إلى ابنه مسلمة . ولأجل هذا نحث دائماً رستم غلامه على أن يوحى إليه بكل شنعاء . وعندكم بخراسان جماعة منظمة تبعث بالجوارى الحسان إلى قصور أمراء بنى أمية لإغرائهم بالتبذل ، وليكن جاسوسات عليهم ، ينقلن أخبارهم ، ويفشين أسرارهم . وقد نجحن كثيراً وأصبحن المتحكمات فى الدولة ، المسيطرات على خلفائها وقوادها . ولو طال عمر « حبابة » جارية يزيد بن عبد الملك قليلا ، لانتهى حكم بنى عبد شمس منذ حين ، ولكنا اليوم ناعمين هانئين فى ظل خلافة بنى العباس .

فصاح أبو مسلم .

— لقد طال حكم هشام حتى كاد يدب اليأس إلى نفوس بعض ضعاف العزائم من شيعتنا . فقال ابن يسار :

— لقد طال حكمه حقاً ، وهو قاس صارم يريد أن يعيد الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية ومروان وعبد الملك .

شحيح بالمال جماع له ، كأنه يريد أن يصون كل دينار ودرهم لحماية الخلافة والذود عنها إذا خرج عليها خارج . فلم يعط أحداً من بنى مروان عطاء إلا إذا خرج للغزو بنفسه أو أخرج من ينوب عنه . ورد عليه يوماً محمد بن زيد للعطاء فقال له : « مالك عندى شىء ، وإياك أن يغرك أحد فيقول لك : إن أمير المؤمنين لم يعرفك ، فوالله لقد عرفتك ، أنت محمد بن زيد ابن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، فلا تقيمن وتنفق ما معك ، فليس لك عندى صلة » . فعاد الرجل إلى المدينة بخُفّى حنين . وبعث إليه أحد عماله بسلة خوخ فكتب إليه : قد أعجب الخوخ أمير المؤمنين ، فزدنا منه واستوثق من الوعاء حتى لا يسرق فى الطريق . وأخبرنى غلامه فيروز أن بعض المشرفين على ضياعه بعث إليه خادماً بطائرين ظريفين ، فدخل عليه وهو جالس فى سرير فى عرصة الدار ، فقال للخادم : أرسل الطائرين لأنظر إليهما ، فأرسلهما ، ولما أراد الخادم الانصراف طلب جائزته ، فقال له هشام : ويلك وما جائزة طائرين ؟ قال : أى شىء تجود به . قال : خذ أحدهما . فعدا فى الدار خلفهما ، فقال له هشام : ماذا تصنع ؟ قال : أختار خيرهما . قال : أتختار خيرهما وتدع لى شرهما ؟ لا والله لا نلت منهما ريشة ، لعن الله ناقة حملتك إلينا ! وهذا هو الرجل الذى تخضع الدنيا لأمره ،

وتجبى إليه ثمراتها . ولقد كان مرة فى أحد بساتينه ، والزراع يجمعون الزيتون ، فرآهم يهزون الأشجار ليتناثر زيتونها ، فصاح : القطوه لقطاً ، ولا تنفضوه نفضاً فتنفقأ عيونه ، وتنكسر غصونه . هذا هو هشام : بخل فكرهه الناس ، وقسا فحقد عليه الناس ، وطال عهده فضجر منه الناس . فقال ابن كثير :

— إنه الصخرة الصماء التى تتحطم حولها آمالنا ، والتى يجب أن تزول من الطريق . فقال ابن يسار :

— إنه مصاب بذبحة الصدر ، ولولا دواء مزجه له طبيبه « فرات بن شحناثا » لقضى عليه منذ سنوات ، واستراحت الدنيا منه ومن صلفه وشحه . فزفر عيسى بن معقل طويلا ثم قال : ألا يستطيع فتى أحوذى أن يروى خنجره بدمه ؟ . فأجاب ابن كثير :

— إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا ، فقد يكفى أن نوعز إلى خادمه فيروز أن يريق ما فى زجاجة الدواء ، ويضع مكانه ماء بلونه ، فاذا أدركته النوبة وأسعف بالدواء لم يغنه الماء شيئاً . فصاح جميعهم هذا رأى صائب ، مر فيروز أن يفعل هذا يا ابن يسار . وهنا عاد ابن كثير إلى الحديث فقال : لنوجز الآن ما استقر عليه رأينا ليعمل كل منا على إنفاذه وليبلغه ابن يسار إلى الإمام محمد بن على . فقد رأينا أولا أن نبث بين

الناس بغض بنى أمية والسخط على حكمهم ، وأن نبتدع الأقاصيص والأخبار التى تشوه سيرتهم وتثير الضغينة عليهم ، ثم أن نغرى الوليد بالاستمرار فيما هو آخذ فيه بكل ما فى مكنتنا من وسائل ، وأن نذلل له السبيل إلى الخلافة فإنه لن يمكث بها أياماً حتى تدول ، ثم أن نقلل من مدة هشام ، وأن نقطع الخيط الذى يصله بالحياة ، وعلينا أن نفكر فى كل لحظة فى اليوم الذى تنجلى فيه هذه الغمة حتى كأنه الغد ، وأن نسخر من العقبات التى يضعها أجراء بنى أمية فى طريقنا . هلم الآن فقد طال بنا الجلوس .

ويخرج الزوار فيمرون بالحارس لدى الباب ، فيتجه إلى ابن كثير وهو يقول فى سخرية ودهاء :

— الآن لا تسقط دنانيرك أيها الشيخ !

— كان بثوبى فتق فأصلحته .

— أخشى أنك تعمل أنت ومن معك لفتق لا يرتق .

— قد يكون الهدم إصلاحاً فى كثير من الأحيان .

— إلا أن تهدم داراً على ساكنيها . احذر ياشيخ فإنى أجد فى أعطافك ريح الثورة . والثورة نار مجنونة ، تأكل أول ما تأكل مشعليها ، اذهبوا فإنى لا أرى فى وجوهكم خيراً .

فسار الثوار حتى بلغوا دار بكير بن ماهان ، وأقام معهم

إسماعيل بن يسار أياماً ثم عاد إلى دمشق لينهض العزائم ويثير الهمم .

موت وحياة

مرت شهور والوليد بن يزيد لا يزال يزور قصر سلمى فى كل أسبوع لبيع الثياب ، حتى بليت الثياب وملّ الحمار . ومرت شهور وهشام ما زال يتحرق غيظاً على الوليد وعلى أنصاره الذين تحدوه واختطفوا ابنه مسلمة ، وجعلوا رده ثمناً لفك من اعتقلهم من أصحاب الوليد . ومرت شهور ويزيد بن عنبسة لا يزال يلح على سعيد بن خالد فى أن يزوجه سلمى ، وهو يرجئه ويراوغه ، ويرده خائباً محسوراً . وفى ذات يوم أعلمته « صدوف » إحدى جوارى الوليد ، وكانت جاسوسة له عليه ، أن الوليد يزور سلمى فى كل أسبوع فى هيئة بائع ثياب ، فيتبادلان الحب والصبابة ، فزاد حقده على الوليد ، وأخذ يدبر له الغوائل .

وساقته قدماه يوماً إلى دار الخلافة ، فلما بلغ قاعة الحكم رأى « يعقوب » حاجب هشام لدى الباب ، فسأله عن الخليفة فقال :

— إنه بالقاعة مع كثير من رجال بنى أمية ، وهم يتحدثون

فى أمر ذى بال ، وقد حجب الباب ، وأرسل رسولا إلى دارك .

— نبئه بقدومى يا يعقوب ، فإنى أود أن أحدثه أيضاً بأمر ذى بال . ودخل يعقوب وعاد سريعاً بالإذن ، فلما مثل ابن عنبسة أمام هشام رآه مطرقاً ، وقد أربد وجهه ، وانتفض عرق بصدغه الأيسر كان ينتفض كلما غضب ، ورأى عنده يزيد ابن الوليد والزهرى ومحمد بن هشام المخزومى وأخاه إبراهيم وبنى القعقاع العبسى ، ثم العباس بن الوليد ويزيد بن خالد .

سلم ابن عنبسة فرفع هشام رأسه متثاقلا وقال : وعليك السلام يا ابن عنبسة ! هلم إلينا فاننا بصدد أمر خطير سيكون له ما بعده ، ونرجو أن نخرج منه بعد أن نكون قد نصحنا لله ورسوله ولصالح المؤمنين . هذا ابن أخى الوليد قد شرد على الله شراد البعير ، وجالس قرناء السوء ، وركب رأسه جامحاً . ثم هو لا يزيده النصح إلا إسرافاً فى العناد ، ولقد عاهدت أخى يزيد ابن عبد الملك وحلفت له أوثق الأيمان أن تكون الخلافة له من بعدى ، ولم أكن حين أقسمت أعلم أنى أقسمت على أن أترك زمام الخلافة وهى معقد آمال المسلمين ، ومعقل أمنهم ، فى يدى مثله ، ولكنى أقسمت حين أقسمت وأنا أرى غلاماً أزهر الوجه ، نبيل السمات ، توحى مخايله بصدق الأمل فيه ، وتنطق ملامحه بالثقة به ، ورب سم كامن فى الزهر

النضير ! وموت راكد فى الماء النمير ! وأنا الآن يابنى مروان بين خلتين ؛ إما أن أترك الأمة بعد موتى تنساق إلى الدمار بولاية الوليد وهنا النازلة الفادحة ، والقاصمة القارعة ، وتمزيق أوصال الدولة ، وفناء بنى أمية بالموت أو بالذل والهوان . وإما أن أحمى ما ورائى ، وأتخذ الأهبة للقاء ربى ، وأصون تراث آبائى ، فأخلع الوليد من ولاية العهد ، وأختار للمسلمين رجلا يحمى ذمارهم ، وللخلافة من يبعث فيها العظمة والقوة والشباب .

فقال يزيد بن الوليد : لا يصلح لها إلا ابنك مسلمة .

— دعك من هذا الآن يا ابن العم ، فلن يحسن فى هذا الأمر إلا أن ننسى أنفسنا وأبناءنا ، والذى نفس هشام بيده لو علمت أن صلاح هذا الأمر فى اعتزالى لاعتزلت ، ولو علمت أن غير مسلمة أقوى بالخلافة كاهلا ، وأضبط يداً لقدمته عليه . فأسرع إبراهيم المخزومى قائلا :

— لن تصلح الخلافة إلا بك يا أمير المؤمنين . وإذا كان لنا فى الله رجاء فهو أن تبقى فيك ثم فى ابنك مسلمة من بعدك ، فانه بضعة منك ، فيه ما فيك من دين وسياسة وحزم . فصاح أبناء القعقاع : لن نرضى بمسلمة بديلا ، أما الأيمان التى عقدتها لأخيك لتولية ابنه من بعدك فان الله يحلك منها . وهنا قال الزهرى فى صوت خافت :

— يرى بعض المفسرين في قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » أن المعنى لا تجعلوا القسم بالله حائلا بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإذا حلف رجل أن يأتي منكراً وجب عليه أن ينقض يمينه ويكفر عنها . فقال ابن عنبسة : هذا تفسير عظيم . وأسرع هشام فقال :

— إذاً أنا في حل من هذه الأيمان ولم يبق إلا أن نكتب ميثاقاً ندون فيه مساوى الوليد ومثالبه ، وأنه لا يصلح للخلافة ، ونثبت فيه محامد مسلمة ومناقبه ، وأنه خير من يقوم بها من بني أمية ، وأن أمير المؤمنين لكل هذا خلع الوليد من ولاية العهد ونقلها إلى مسلمة . أين سالم أبو العلاء ؟ فتحرك العباس ابن الوليد في مجلسه قليلا ، وهو يكبت غيظاً دفيناً ، وقال :

— قبل أن تدعو كاتبك يا أمير المؤمنين أرى أن نبحث في الأمر حتى نصل فيه إلى غاية تثلج الصدر ، وتبدد الشكوك . فأجاب هشام غاضباً :

— ألم نمحص الأمر بحثاً ودراية ؟ ألم يصبح عبث الوليد حديث الناس ومسلاتهم في أسمارهم ؟ أليس ابني مسلمة في دينه وعقله خيراً ألف مرة من الوليد ؟ فأجاب العباس :

— إن الأمر يا أمير المؤمنين أعظم خطراً من أن نتقنّع فيه

بالحياء ، وأجل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك ، أو نجتنب فيه سخطك . أنا شاك غير مستيقن بكل ما قلتم ، فلا الوليد قد وصل إلى تلك الهاوية التى زعمتم ، ولا مسلمة قد بلغ تلك القمة من الصيانة والتقوى ، ولا تلك الأيمان التى وكدتها لأخيك أصبحت لغواً فصرت فى حل من نقضها .

فبهت من بالمجلس ، واصفر وجه هشام ، واحمرت عيناه من الغيظ ، وضرب عرق صدغه ، وانتفض وصاح حتى ملأ صوته القاعة :

ــ هكذا أنتم دائماً يا أولاد الوليد بن عبد الملك! تحقدون على وعلى أولادى ، ولقد كاد يسلبكم الضغن عقولكم حين ما ازورّ عنكم وجه الخلافة بعد أن تجاذبتم أطرافها ، فأصبحتم تعدون علينا الأيام ، وتتمنون أن تتقلص عنا ظلالها . إنكم أعظم كيداً للخلافة ، وأكثر عدواناً عليها ، من العباسيين والعلويين والترك والديلم ، ووالله لولا خشية منه ، ولولا أن يقول الناس حارب هشام آهل بيته ، لبدأت بكم قبل أن أبدأ بمقاتلة المتألبين على الدولة من الخوارج . أما قولك إنك فى شك من الأمر فباطل يراد به إزهاق الحق ، وإطلاق شيطان الفتنة من عقاله ، ليعيث معكم فى الدولة كما تعيثون . فوقف يزيد بن خالد وقفة المناضل المتحدى وقال :

ـــ مهلا أمير المؤمنين ، فنقل الخلافة من رجل إلى رجل أمر جلل ، لا يكفى فيه أن يكون أمير المؤمنين ساخطاً على هذا أو راضياً عن ذاك . لقد قال العباس حقاً، وإن رأى من تجمعهم اليوم من أنصارك لا يكفى لاقناع الأمة وحملها على نبذ العهد الذى عاهدتك عليه . والأمر شديد الخطر على أمير المؤمنين قبل أن يكون شديد الخطر على الوليد . لقد بايعك الناس فى عهد واحد وفى ميثاق واحد على أمرين لا على أمر واحد ، بايعوك بالخلافة ، وبايعوك على أن تكون الخلافة من بعدك للوليد بن يزيد ، فإذا نقضت بعض العهد يا أمير المؤمنين انتقض كله ، وتحلل الناس من البيعة لك ، وصح لكل خارج عليك أو ضجر من حكمك أن يصيح فى الناس : أيها المسلمون . إن هشاماً نقض العهد الذى بينه وبينكم ، فليس له فى رقابكم بيعة . أتريد أن يحصل هذا يا أمير المؤمنين ؟ أتريد أن توقظ راقد الفتنة وتعيد أيام صفين حين احتكم المسلمون إلى سيوفهم فى شأن الخلافة ؟ إن هؤلاء يا أمير المؤمنين الذين يزينون لك ما تحب ، ويقربون لك الأقصى مما تريد ، أعداء فى ثياب أصدقاء ، أو مخبولون فى مسوك عقلاء . ثم من هم أبناء الوليد الذين يكيدون لك ويدبرون السوء لدولتك ؟ أتستطيع أن تشير إلى واحد منهم عن بينة ويقين ؟ دعك من كل هذا

يا أمير المؤمنين ، واترك الأمر كما هو . فلسنا فى حاجة إلى فتن جديدة نشعلها بين الناس ، فإن الفتن تنبث فى كل مكان ، وإن تحت الرماد للهيباً وضراماً . وما كاد يسكت حتى ابتدره ابن عنبسة قائلا :

ــ ما هذا التهويل يا ابن خالد ؟ أنا أعرف صلتك بالوليد ومحبتك له وتهاديكما الجوارى الحسان ، وأعرف أنك تطمع أنت والعباس فى أن يكون لكما شأن فى خلافته بعد أن انبت بكما الحبل فى هذه الدولة . ثم ما أخلوقة البيعة هذه التى إذا انتقض بعضها انتقض كلها ؟ وهنا تمتم الإمام الزهرى قائلا :

ــ إن ما قاله ابن خالد حق ، لأن الجزأين متلازمان . وقد تفهم البيعة على وجه آخر، هو أن الناس بايعوا هشاماً بالخلافة على شريطة أن يتركها بعده للوليد ، فاذا أقصى الوليد عن ولاية العهد فقد نقض شرط ما بايعوه عليه ، وبهذا تسقط بيعته من أعناقهم . فوجم هشام، وجف ريقه ، وظهرت الحيرة على على وجوه أنصاره . وهنا قال العباس :

ــ قلت إن عندى شكاً ، ولم أكن فى هذا القول كاذباً ولا متجنياً ، إن أكثر ما يشاع عن الوليد إفك ومين ، وهى أكاذيب ولع الناس بها ، واختلقها قوم لهم فى اختلاقها مأرب ومغنم. فعجل الزهرى وقال :

— لا يا ابن الوليد لقد رأيته بعيني وحوله القيان ينقرن الدفوف ، والمغنون يضربون على البرابط والطنابير .

— هذا يا مولانا أمر لا يخلو منه قصر من قصور بنى أمية . ثم التفت إلى هشام قائلا : ثم إنى لا أعرف من رجال بنى أمية من يبغض الوليد إلا القليل ممن يحيطون بهذا القصر ، ويتزلفون إلى صاحبه . ولو أنك يا أمير المؤمنين خلعت الوليد لأثرت فتنة شعواء فى حياتك ، وفرقت كلمة المسلمين بعد مماتك . فانى أرى بعين الغيب — وأطال الله بقاء أمير المؤمنين — أن الناس سيختلفون بعد موتك ، وسوف يعد كثير منهم نقضك الولاية للوليد أمراً باطلا ، فينصرفون إليه ، ويبقى فريق مع مسلمة ، ويتقاتل الفريقان ، ويأتى العباسيون فيضربون هذا بذاك ويختطفون الخلافة من أيديهم . يا أمير المؤمنين : دع الأمر كما هو ، ودع كلاب الفتنة نائمة ، فإنى أخشى أن نكون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. والله يعلم أنى لك ناصح وعلى خير المسلمين أمين.

فانتفض هشام واقفاً وقال : اذهبوا عنى الآن ، فإن عقلى يكاد يطير من رأسى ، اذهبوا فللخلافة رب يحميها ، وأين هشام إذا أراد أمراً وأراد الله غيره ؟ فانصرف القوم فى وجل ورهبة ، وبقى ابن عنبسة متخلفاً ، فلما خلت القاعة التفت إليه هشام وقال فى ألم ممض :

ــ طار العصفور من أيدينا ، وبقى على دوحته ينظر إلينا مغرداً ساخراً . لقد خاب الأمل فى بنى أمية .

ــ دعه يغرد قليلا يا أمير المؤمنين ، فاننا سنعد له بعد قليل فخاً وسكيناً .

ــ كيف يا ابن عنبسة ؟

ــ إذا لم نستطع خلعه من ولاية العهد استطعنا خلعه من الحيـــاة .

ــ معاذ الله أن أمد يدى إلى الوليد بسوء، لا تفكر فى شىء من هذا يا ابن عنبسة، أتريد أن تجعلنى أحدوثة فى الناس وأن يقول القالة إن هشاماً قتل ابن أخيه ؟

ــ لن يكون لك يا أمير المؤمنين فى هذا الأمر ورد ولا صدر ، وإنما

هو الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيـــلة مال الفاحش المتشدد

ــ لا . لا . يا يزيد ، وإياك أن تقتل نفساً حرم الله إلا بالحق .

ــ لقد كنت أفكر يا أمير المؤمنين فى التخلص من الوليد ، لا لأنه يزاحم مسلمة فى الخلافة فحسب ، بل لأنه يزاحمنى فى سلمى بنت سعيد .

— لقد حلت بينه وبين هذه الأمنية ، وأمرت سعيداً ألا يرضى به زوجاً لبنته .

— من يدرى يا أمير المؤمنين ؟ فإن الأحوال قد تحول ، وقد يصبح سعيد له راجياً بعد أن كان آبياً .

— ماذا تريد أن تقول لا أم لك ؟

— أطال الله حياة أمير المؤمنين ومد فى عمره .

— سمعت هذه الدعوات من آلاف الآلاف من الناس ، ولكن الدعاء لا يمنع القدر .

— إن لكل نفس أجلا يا أمير المؤمنين لا تستقدم عنه ساعة ولا تستأخر .

— دعك من ذكر الموت ، وخض فى حديث آخر .

— كانت لى جارية اسمها « صدوف » يا أمير المؤمنين اشتراها منى الوليد من خمس سنوات ، وهى لا تزال تهفو إلى ، وتحن إلى ذكراى ، وتنقل لى أخباره . ولو أنى أمرتها أن تثب فى النار ، أو تنام فى خيس الأسد لفعلت مطيعة راضية ، وقد كنت أريد إغراءها بقتل الوليد قبل أن يستنكره أمير المؤمنين وينهى عنه ، وأمير المؤمنين واجب الطاعة ، وقد كان الأمر جد هين ، فإن مروان بن الحكم الذى كانت تنتفض منه قلوب الأبطال رعباً ، لم يقتله إلا امرأة هى زوجه أم خالد ، فقد وضعت على وجهه

وسادة وهو نائم ، فلم ترفعها عنه حتى مات . فأغمض هشام عينيه وغادر الحجرة غاضباً وهو يقول : احذر يا ابن عنبسة أن تدنس يديك بالدماء ! إنى أنهاك إنى أنهاك !

وخرج ابن عنبسة من عند الخليفة بعد أن خدعه وأظهر له العدول عن الفتك بالوليد ، والتقى بعد أيام بصدوف فى داره ، لأنها كانت تتغفل أهلها وتختلس زيارته بين الحين والحين ، فأحسن لقاءها ، وأكثر من الحفاوة بها ، وطوقها بهالة من غزله وتشبيبه ، وبثها كثيراً من أشواقه فأجج فى قلبها ناراً كاد يطفئها اليأس ، وفتح باباً من الرجاء أغلقه القنوط . فمالت عليه مذهولة حيرى بعد أن أثار فيها حباً قديماً كان يساورها فى اليقظة والمنام ، وهاج فى نفسها وجدا كامناً لم تفل من حدته الأيام، ثم أخذت تتمتم ورأسها على كتفه قائلة :

— حبيبى . ماذا جدّ لك ؟ لقد كنت ألقاك قبل اليوم فلا أجد فيك تلك النشوة ، ولا أحس لقلبك بهذا الخفقان الذى كأنه صدى وجيب قلبى .

— كنت أكظمه يا صدوف ، وكنت أربأ بمروءتى أن أمد يدى إلى طعام غيرى ، ولكن لكل شىء طاقة ، وقد عجزت طاقتى . وناء صبرى بأن يحتمل أكثر مما احتملت ، ولا بد للماء فى مرجل أن يفور ، وللسيل المحتبس أن يخترق ما أمامه من

جنادل . لقد بعتك يا حبيبة قلبي فى ساعة جنون ، ولم أعرف الهدوء منذ ذلك الحين ، ولكنى كنت أخاف أن أظهرك على ما فى نفسى فأجدد لك شوقاً وحزناً أنت عنهما فى غناء . ثم انكب عليها يقبلها فى ظمأ ونهم ، ويهمس فى أذنها بما يلقى من الصبابة والهجر . فأحاطت وجهه بيديها الرخصتين وهى تقول : ليتنى أعود إليك يا حبيبى . هل من سبيل ؟ فأطرق كالمفكر وقال :

— ليس من سبيل إلا أن يبيعك لى الوليد .

— إنه كثير النفور منى ، متجن عسوف ، ولكنه شديد البغض لك ، وهو يؤثر أن يبيعنى لمجوسى ولا يبيعنى لك ، ولو وازنتنى بالذهب .

— إذاً لم يبق من سبيل .

— إننى لا أستطيع الحياة بعيدة عنك يا حبيبى .

— ويل للوليد . إنه سد منيع بين قلبين .

— سد من فولاذ .

— أنستطيع أن نحطم هذا السد ؟

— كيف يا حبيبى ؟

— إن الحديد بالحديد يفلح ، بهذا الخنجر . ثم قذف بالخنجر فسقط فى حجرها ، فقامت مذعورة وقد تفتحت

عيناها ، وارتعشت يداها ، وأدركها ما يدرك النساء ساعة الوهل من الذهول وارتجاف العصب . ثم همست والكلمات تتعثر بلسانها :

— تريد أنه يقتل ؟

— نعم يقتل ، لأن الحب لا يقف فى طريقه شىء .

— لا يا حبيبى ، دعنى من القتل وذكر الدماء ، وخذ فى وسيلة أخرى .

— ليس أمامى شىء غير القتل ، ولو واتتنى الفرص كما تواتيك ما توانيت لحظة عن قتله .

كما تواتينى ؟ أتريد أنى أقتله أنا ؟

— ولم لا ؟

— لا ، إنى أوثر أن يقتلنى الحب على أن أمد يدى لقتل رجل أعيش تحت سقف داره .

— تعيشين تحت سقف داره ذليلة منبوذة . تعيشين تحت سقف داره وتتركينه ينام ملء عينيه هانئاً سعيداً ، وحبيبك يتقلب دنفاً حزيناً على فراش من سهاد . تعيشين تحت سقف داره وتتحرجين من قتل رجل يقتل نفسين فى وقت معاً . إنى لن أعيش طويلا إذا ظلت هذه الحال ، ولن تمر أيام حتى تذرفى الدموع على شهيد قتلته حبيبته ، لأنها لم تقتل قاتله .

— إن القتل أكبر الجرائم إثماً عند الله والناس .

ــ ألا يقتل بعض الناس بعضاً فى الحرب فرحين متفاخرين ؟

ــ ذلك فى ميدان الحرب يا حبيبى .

ــ إن الوليد يحاربنى ويحاربك بسلاح مسموم ، فيجب أن ندفع عن أنفسنا ، وأن نقتل قاتلنا .

ــ ولكنى لا أقتل أحداً .

ــ إذا لم تقتليه فخير لى أن أقتل نفسى ، ثم وثب نحو الخنجر فدفعته عنه مذعورة وصاحت : لا تفعل يا حبيبى ، وقل ما شئت فإننى لك سمع وطاعة . فارتمى على وسادته كالمجهود ثم قال :

ــ إن الأمر أهون ما يكون ، إن الوليد ينام وحده ، فإذا هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، ولم يبق من الليل إلا أقله ، تسللت إلى حجرته كأنك الطيف الطارق ، أو الظل السارى ، فأغمدت هذا الخنجر فى صدره وهو نائم ، دون أن تسمع لك نأمة ، أو تحس حركة ، ثم عدت فغسلت يديك ، ونمت مطمئنة هادئة . فاذا جاء الصبح وعلم الأمر ، سهل أن يتهم بقتله أحد خدمه ، وبينهم رستم الفارسى الذى هو جاسوس عليه من خراسان . ثم ناولها الخنجر فخبأته تحت ثيابها وخرجت من لدنه مضطربة ذاهلة كأن بها مساً من جنون .

ولما بلغت القصر لمحها ابن رقية ، وقرأ بعينه البلهاء ما على وجهها من خوف وحذر ، ورأى فى اضطراب مشيتها ، وفى حديثها الذاهل المتعثر ما يريب ، لأن المسكينة على ما بذلت من جهد ، لم تستطع أن تكبت ما يجيش فى صدرها من أمواج الدسيسة . لمحها أبو رقية فأخذ يغالط نفسه ، ويتهم عينيه ، ويلوم عقله المختبل على إساءة الظن بفتاة قد يكون عصف بها مطل حبيب ، أو فراق خليل . ثم إنه يعرف بصورة مبهمة أن الوليد ينأى عنها بحبه ، ويخص بغرامه سعاد الكوفية ، فلعل ثورة من الغيرة طافت بها فى هذه اللحظة ، والنساء لغز معقد لا يهتدى إلى حله ، وتيه مضلل تدور فيه ولا تخرج منه ، ولكنه رجع إليها البصر فلمح نتوءاً لا يكاد يرى عند أعلى فخذها اليمنى ، فعاوده الشك وتملكته الحيرة : أتخفى صدوف شيئاً تحت ثيابها ؟ ولم تخفيه إذا لم تقصد شراً ؟ وما هو؟ ولعب الشيطان بعقله ، وتزاحمت هواجسه ، فصمم على أن يتابع حركاتها دون أن تشعر ليرى إلى أى مدى تنتهى ، وجاء المساء ، وانصرف أهل القصر إلى شئ من اللهو والطرب كعادتهم ، وصلى الوليد العشاء الآخرة بعد أن مر هزيع من الليل ، وتحين أبو رقية غفلة العيون فدلف إلى حجرة نوم الوليد واختفى تحت سريره ، ثم ذهب الوليد لينام ، وأوى من بالقصر إلى مضاجعهم ،

ولما سكتت الأصوات ، ولف القصر ضرب من سكون الموت بعد أن كان يضطرب بضجيج الحياة ، وأوشك الليل أن يزمع الرحيل ، قامت صدوف من مرقدها خائفة مرتعشة ، ولكنها استعانت ببقية من مذخور عزيمتها فأسرعت الخطا فى حذر وترقب ، حتى بلغت الحجرة فدخلتها ، فسمعت تنفس الوليد هادئاً فأدركتها رجفة ،ولكنها لم تأبه لها ، وتقدمت والخنجر فى يمينها ، وسمع أبو رقية خطواتها فتزحزح ليخرج من تحت السرير ، فرأى صدوف ويدها تمتد بالخنجر إلى صدر الوليد ، فوثب من مكانه وقبض على يدها بقوة ليست فى طوق البشر ، وذعرت الفتاة للمفاجأة فصرخت وقذفت بالخنجر ، ودهمتها موجة جارفة من البكاء والنحيب واستيقظ الوليد فدهش لما رأى وصاح :

— ما الخبر يا أبا رقية ؟

— شىء تافه ، فتاة تريد أن تنافسنى فى الجنون .

— قل لى ما الخبر قبل أن أكون مجنوناً ثالثاً .

— سلها يا سيدى . وكان من بالقصر قد تيقظ للجلبة والصياح ، فهرع الجوارى والخدم إلى حجرة الوليد ، وجاءت أمه ترتعد من الخوف ، حتى إذا رأته رمت بنفسها بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء ، وقبض الوليد على ذراع الجارية وقال :

— قولى ماذا كنت تقصدين بهذا الخنجر ؟ فأجابت بين الشهيق والعويل :

— كنت أقصد أن أقتلك .

— ولم تقتليننى يا فتاة ؟

— ذلك سر أطويه لنفسى .

— هل أغراك أحد بقتلى ؟

— لم يغرنى أحد . فازداد غيظ الوليد ولكنه كبح غضبه وأمر سبرة أن يحبس الفتاة وألا يمسها بسوء ، ثم التفت إلى أمه وهو يقول مشيراً إلى أبى رقية :

— لقد أنقذنى هذا المجنون .

— إنه ليس بمجنون يا بنى . إنه إذا أراد كان أعقل العقلاء . حياك الله أبا رقية ! لقد نجيت ولدى .

— لعل من أكبر علامات جنونى أنى أهتم دائماً بهذا الوليد الذى لا يساوى جناح بعوضة . فضحك الوليد وقال : الآن عاد إليك الجنون . قل لى بالله : كيف وصلت إلى حجرتى ؟

— لقد ارتبت فى أمر الفتاة منذ الصباح ، وجال فى نفسى أنها تريد بك شراً لا أدرى لماذا ، فاختبأت تحت سريرك قبل أن تنام ، وقد صدق ظنى ، وتحققت وساوسى . فقالت أم الوليد : هذه مؤامرة من أعدائك حركت ساعد الفتاة بالخنجر ،

فاحذر يا بنى فإنك تمشى فوق أرض ملئت بالفخاخ !

وانتهت الحادثة ، ومرت أيام وأيام ، وعرف ابن عنبسة من اختفاء صدوف أن المؤامرة لم تفلح .

وفى أحد الأيام خرج الوليد للصيد مع فريق من ندمائه ، وبينما كان يعدو بفرسه « السندى » خلف غزال ظهر فارس من عبيد بنى أمية كان مختفياً خلف أكمة ، فلمحه الوليد وهو يصوّب إليه سهماً فراغ منه ، فرماه بثان وثالث فأخطأه ، وعجل الوليد فدار ووثب عليه بالسيف فأطاح رأسه وقال :

ألم تر أنى بينما أنا آمن ... يخب بى السندى قفرا فيافيا
تطلعت من غور فأبصرت فارساً ... فأوجست منه خيفة أن يرانيا
ولما بدا لى أنما هو فارس ... وقفت له حتى أتى فرمانيا
رمانى ثلاثاً ثم إنى طعنته ... فروّيت منه صعدتى وسنانيا

وقد علم الوليد بعد هذه المخاتلات المتكررة أن حياته أصبحت فى خطر داهم ، وأنه إذا نجا مرة وأخرى فلن ينجو فى كل مرة ، وتحدث مع أمه وندمائه فى الأمر ، فعقدوا العزم على أن يفر بنفسه فى البوادى ، وأن يتنقل بين المنازل والمناهل فلا يعلم مستقرّه إلا أخلص خلصائه ، فهجر دمشق مع بعض جواريه وأصحابه ، وخلف كاتبه عياض بن مسلم بالرُصافة ليكون له جاسوساً على هشام ولينبئه بأخباره .

ونزل على ماء يسمى « الأغدف » بعمان بين أرض بلقين وفزارة ، ونسى الناس بدمشق الوليد ، وأطرقت أفاعى أعدائه إلى حين .

ومرت أيام وشهور على الوليد وهو يعانى الهم والضيق ، ويتنقل بين أحياء العرب كالطريد المنبوذ ، فى خشونة لم يتعودها ، وجفوة ليس له بها عهد .

وفى ليلة الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، أحس هشام ضيقاً فى صدره واختناقاً ، فأخذ يئن أنيناً ، ويدلى رأسه من النوافذ ليلتقط بعض النسيم ، ويهمس فى ضعف ويأس : هذه الذبحة ! هذه الذبحة ! لقد عاودتنى ، ليس لى منها نجاة هذه المرة . مروا فيروز يحضر دواء الذبحة فإنى ما أرانى إلا مائتاً .

وأسرع فيروز فأحضر الزجاجة ولم يكن بها إلا ماء ملون ، فجرع هشام منها مرات فلم تفده شيئاً ، واشتد به الداء فألقى رأسه على الوسادة ، وأخذ يردد أنفاساً قصاراً .

وعلم عياض بن مسلم بمرضه وإشرافه على الموت ، فأسرع وختم على خزائن الأموال ، وأمر خزّانها أن يحتفظوا بما فى أيديهم ، وألا يخرجوا من خزائنهم شيئاً ، وإلا كان جزاؤهم الموت .

وأفاق هشام من غشيته فطلب مروحة من بيت المال يجتذب بها

بعض الهواء إلى صدره ، فقيل له : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فزفر زفرة قصيرة ثم قال بصوت يزاحمه الموت : « أرانا كنا خزّاناً للوليد » ثم مات . وحينما هم أهله بغسله طلبوا قمقماً ليسخن فيه ماء الغُسل، فقيل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة، فاستعاروا قمقماً من الجيران ، ثم طلبوا له كفناً فقيل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فكفنه أحد عبيده من حرّ ماله .

وهكذا يموت من ملك الدنيا ، ودانت له الأرض ، فلا يجد إناء لماء غُسله ، ولا يجد كفناً فيكفنه العبيد . فسبحان من له الملك الدائم والعزة التى لا تبيد ! !

ضحك وبكاء

أقام الوليد طويلا بالصحراء حتى جفاها وجفته ، وأسأمها بالشكاية وأسأمته ، وبينما كان جالساً ذات يوم إلى ندمائه وهم يتحدثون فى دمشق وليالى دمشق وما فيها من إشراق ومتاع ، إذ طاف به خيال سلمى فاستبد به شوقه ، واشتد إليها حنينه ، وصاح : لقد انقطعت الرسل بينى وبينها ، وأصبحت لا أطيق لهذا البين احتمالا ، ولا عليه صبراً . ليت شعرى أين الآن وجهها ؟ وماذا تفعل الآن بعدى ؟ ألا تزال راعية لعهدى حافظة

لودى ؟ أخشى أن يكون ابن عنبسة قد وجد إليها الطريق ذلولا ، وأخشى أن يكون أبوها قد تغلب على عنادها ودفعها إلى قبول هذا العتل الزنيم زوجاً . ثم تأوه وزفر وطلب إلى عمر الوادى أن يغنى :

طاف من سلمى خيال بعد ما نمت فهاجا
قلت عد نحوى أسائل لك عن الحب فعاجا
بفلاة ليس ترعى أنبتت شيحاً وحاجا(١)

فغنى الأبيات بصوت حزين بكى له الوليد وبكى له من معه ، ثم عاوده الفرح فجأة وطلب إلى أبى كامل أن يغنى :

أصبح اليوم وليـــد هائماً بالفسلوات
ابعثوا خيلا لخيـــل ورمـــاة لرمـــاة !

فلما سكت أطرق الوليد طويلا ثم اتجه إلى عبد الصمد ابن عبد الأعلى وقال : أما لهذا الليل من آخر يا ابن عبد الأعلى ؟ أما آن لهذه الغمرات أن تنجلى ؟ لقد طالت مدة هشام حتى مللت انتظار يومه ، وكأنه يريد أن أسبقه إلى الموت .

فقال عبد الصمد : رفقاً بنفسك يا مولاى فإنى أرى فى ظلمات الغيب نوراً يأتلق ، وأسمع فى صدرى همساً يبشر بالفرج القريب :

ألم تر للنجم إذ شُيّعا يبادر فى برجه المرجعا ؟

(١) الحاج : الشوك

فقلت وأعجبنى شـأنه ... وقد لاح إذ لاح لى مطمعا
لعل الوليـد دنا ملكه ... فأمسى إليه قد استجمعا
وكنا نؤمـل فى ملكه ... كتأميل ذى الجدب أن يمرعا
عقدنا له محكمات الأمو ... ر طوعاً ، فكان لها موضعا

فاهتز الوليد للشعر وقال : حياك الله يا ابن عبد الأعلى! ألا تزال تؤمل فى ملكى كتأميل ذى الجدب أن يمرع ؟ إذاً فلتؤمل طويلا ، ولتصبر طويلا ، فإن بينك وبينه سداً من صخر وجنادل يسميه الناس هشاماً . ثم وجه الحديث إلى المنذر بن أبى عمرو فقال : أتعرف يا ابن أبى عمرو أن ليلة لم تأت على منذ عقلت عقلى أطول من ليلة الأمس؟ لقد عرضت لى فيها هموم ، وحدثتنى فيها نفسى بأمور ، وأخذت أفكر فى هذا الرجل الذى شردنى وتجرد لإيذائى ، فاركب بنا نتنفس فقد كدت أضيق بكل ما حولى . فركبا حتى إذا سارا ميلين وقف الوليد على كثيب ، وأعاد الكلام فى هشام ، وفى الشكوى من هشام ، وبينما هو يعدد أفاعيله ، إذا رجلان على البريد مقبلان ، أحدهما مولى لأبى محمد السفيانى ، والآخر يدعى جردبة ، فلما قربا أتيا الوليد يعدوان حتى دنوا منه ، فسلما عليه بالخلافة ، فدهش الوليد وتملكه ذهول كاد يسقطه على الأرض ، فجعل جردبة يكرر السلام عليه بالخلافة ، وهو مشدوه يفتح فمه ولا يستطيع

الكلام ، ثم جاهد حتى ملك نفسه وقال :

ــ ويحك أمات هشام ؟

ــ نعم يا أمير المؤمنين . فصاح الوليد : صدق الله العظيم «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» . اكتب يا ابن أبى عمرو إلى العباس بن الوليد أن يأتى الرُصافة ويحصى ما فيها من أموال هشام ، وأن يسجن أولاده وعماله وخدمه ، ثم قال :

طاب يومى ولذ شرب السلافة   إذ أتانى نعىُّ من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاما   وأتانا بخـــاتم للخلافـــة

وأمر من معه بالرحيل إلى دمشق ، ودخل المدينة فى موكب حافل وهو فوق فرسه «الرائد» ، وقد لبس خلع الخلافة ، وقبض على عصاها ، ووضع فوق رأسه عمامة بها ياقوتة حمراء بقدر الكف قبّلتها أشعة الشمس ، ثم ارتدت عنها فأرسلت بريقاً وألواناً تتخطف العيون . وحف به ندماؤه وكتابه وعماله وكبار أهل الرأى من بنى أمية ، واصطف الناس وتزاحموا على الجانبين ، ورددوا صيحات الفرح والاستبشار بالخليفة الشاب ، ونثر أمامه النثّار الدنانير والدراهم ، فانكب عليها الناس فى هرج وشره كما تنقض سباع الطير على فرائسها ، ومشى المغنون وهم ينقرون الدفوف ويعزفون بالطنابير ، وكان أشعب يرقص أمامهم رقصات

عجيبة يتلوى فيها جسمه كما يريد ، كأنه خلا من العظام ، ويرسل النكات سافرة ومحجبة لا يبالى من يقذف بها .

وبلغ الموكب قصر الخلافة ، وجلس الوليد على عرش آبائه بعد أن طال إليه اشتياقه وكاد يدركه اليأس منه ، وتقدم صناديد الأمويين وعظماؤهم يبايعونه ويسلمون عليه بالخلافة ، وبايع الناس جميعاً ، وطارت إليه الرسل من أقصى الأرض بالبيعة والتهنئات ، وجال بخاطره وهو فى هذه النشوة الساحرة ، وذلك العز الشامخ ، بيت من الشعر قالته لسليمان بن عبد الملك إحدى حظاياه :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غـــير أن لا بقـــاء للإنسان !

فغام وجهه وزاغ بصره ، فهز رأسه هزاً عنيفاً ، كأنه يريد أن يطرد عنه طائر التطير ، ثم أمر ابن عبد الأعلى أن يدعو إليه سعيد بن خالد . وقدم عليه فى هذه الأثناء وفد الشعراء وكان فى مقدمتهم يزيد بن ضبة ، وهو شيخ جاوز السبعين ، دخل يتوكأ على عصاه فهنأ الوليد بالخلافة ، وانكب على رجليه يقبلهما ، وكان ابن ضبة فى أول عهده منقطعاً إلى الوليد ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام فر من وجهه إلى الطائف ، وحين رآه الوليد فرح به وهش للقائه وأدناه ، وقال لحاشيته :

هذا طريد هشام لصحبته إياى وانقطاعه إلىّ ! هات يا ابن ضبة ما عندك . فأنشده قصيدة منها :

سَما بالذهب الأحمر وزناً بالقناطير
كريم العود والعنصر غمر غير منزور

فطرب الوليد للشعر ، وأمر بأن تعد أبيات القصيدة وأن يعطى بكل بيت ألف درهم ، وكانت خمسين بيتاً . ثم أمر كاتبه عياضاً أن يجرى عطاء دائماً على عجزة أهل الشام من الشيوخ والمرضى والعميان والفقراء المعدمين ، وأن يخص كل واحد منهم بخادم ، وأمره بأن يزيد فى عطاء كل صاحب عطاء عشرة دنانير ، وأن يصل بأعطية أهل الشام إلى ضعف ما كانوا يأخذون .

ثم طلب منه أن يكتب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان ، أن يسير إليه مع وجوه أهل خراسان ، وأن يحضر معه برابط وطنابير ودفوفاً وأباريق من ذهب وفضة ، وأن يجمع كل صنّاجة يقدر عليها ، وكل باز ، وكل برذون فاره . ثم أطرق قليلا وقال :

وعليك أن تحصر علماء الحديث والقرآن بالشام والمدينة ، ثم تجرى على كل واحد منهم مائتى دينار فى العام .

والتفت إلى ابن سهيل وقال : وأنت يا ابن سهيل مر كبير شرطتى أن يقبض على يزيد بن عنبسة وسليمان بن عبد الملك

وعمر بن الوليد والزهرى وأبناء القعقاع ، وأن يزجّ بهم فى سجن الظلام ، فقد كنت أحن إلى هذا اليوم الذى أشفى فيه نفسى منهم.

وما كاد ينتهى من أوامره حتى وصل سعيد بن خالد فاستأذن فأذن له ، فدخل وهو يرتجف من الخوف ، فقبّل يد الوليد وهنأه بالخلافة . فقال الوليد :

ــ أقبل على يا ابن خالد ، فإن بيننا حساباً عسيراً .

ــ لقد سعدت الدنيا بك يا أمير المؤمنين وسعد الناس . وهذا يوم صفاء يجب ألا يكدر بذكر الماضى .

ــ صدقت يا ابن خالد ، ولكنك كنت علىّ إلباً مع هشام ، ولو شئت أن أنتقم لفعلت ، ولكن شفيعاً لا يرد يأتى دونك ودونى ، فيرد عنك يدى ، ويغمد سيفى . كيف سلمى ؟

ــ هى بخير تقبل يدى أمير المؤمنين وترجو رضاه .

ــ ترجو رضاى ؟ ولقد لبثت شهوراً بائع ثياب لألتمس منها كلمة رضا ! والآن وقد أصبحت أمير المؤمنين أتقبل أن تزوجنيها ؟

ــ هى خادمة لأمير المؤمنين . فوثب الوليد من مجلسه وثبة عصبية ، وصاح فى أصحابه : أعدّوا كل شىء للعروس .

وكان عرساً لم تر له دمشق مثيلا ، تألقت فيه الأنوار ، ومدّت الموائد ، ونثرت الدنانير واللآلىء ، وتواترت فيه الهدايا من كبار

الدولة وعمال الأمصار ، ولم يبق عود ولا طنبور ولا دف فى المدينة إلا أطلق العنان للألحان ، ولم تبق راقصة ولا شادية إلا عرضت من فنونها ما يثير الوجدان ويعجز البيان ، ولعبت نشوة الفرح بالرءوس فسالت الأعطاف وجمد اللسان ، وعرض أشعب ألاعيبه وفنونه بين ابتسامات الشيوخ وضحكات الحسان ، واخترق الوليد الجمع الحاشد وهو يصيح فى غير مبالاة :

أولا تخرج العرو س فقد طال حبسها ؟!
قد دنا الصبح أو بدا وهى لم يُقض لبسها !

وبعد قليل تحققت أمنيته وابتسم له القدر العابس ، وزفت إليه حبيبة قلبه وريحانة حياته ، بعد أن ضرب الدهر بينه وبينها ، وكاد اليأس يقضى عليه وعليها .

وكانت سلمى فى بُرد شبابها زينة شبابها ، وزهرة أترابها ، جسم رخص ريان ناصع البياض كأنما صيغ من صافى الدر أو سبيك اللجين ، وقامة مياسة يزيدها العجب حسناً ولدانة ، وصدر ممتلىء رجراج كأنه الزئبق يفر من البنان ، ووجه تأنقت يد القــدرة فى تكوينه وتلوينه فجاء صورة للجمال البارع الذى حاول وصفه كل شاعر فند عن أوزانه ، وخطر لكل رسام فأبى على ألواحه وألوانه ، جبين يتألق كأنه الصباح الباسم ، وعينان فيهما سحر وفيهما خمر وفيهما كل ما يثير الفتنة ويعبث

بالعقول ، وأنف عربى أموى فيه الشمم وفيه العزة وفيه الجمال ، وفم ياقوتى يبسم عن درر لم تظفر بمثلها صدفات البحار .

جلست سلمى إلى جانب الوليد فتشاكيا البعد ، وتبادلا الوجد ، وشربا من رحيق الحياة أكوابه صافية مترعة ، ومرت بهما ساعات هنيئات أطلق الدهر الغادر لهما فيها العنان ، ومد الحب عليهما الظلال ، فمن عناق إلى عناق ، ومن قبلات إلى أشواق ، ومن ضحك إلى بكاء هو الضحك ، ومن مزاح إلى جد هو المزاح ، حب وملك ونشوة وشباب وجمال فماذا بقى من صنوف النعيم ؟ وماذا تخلف من نضارة الحياة ؟ حقاً إن السعادة لو طمعت فى أكثر من هذا لكانت بطرة ملولا !

ومضى سبعة أيام والعاشقان يتساقيان كؤوس الحب ، ويتراشفان رضاب الغرام ، وترك الوليد شؤون الدولة تسير كما تريد أن تسير ، أو تقف كما تريد أن تقف ، وانفرد بحبيبته فى ناحية من قصره كما ينفرد طائران فى وكن ، وجعل بينه وبين صخب الحياة وضجيجها وآلامها ودسائسها حجاباً مستوراً . لم يخطر بباله تألب العلويين ، ولا مؤامرات العباسيين ، ولا تذمر الأمويين ، ولا تلك الثورات التى أخذت تشتعل فى أطراف الدولة . الدنيا عنده سلمى ، والحياة سلمى ، وكل جميل فى هذا الوجود ليس إلا سلمى . وطالما كان يقول ، وطالما كان يردد !

أنا في يمنى يديها وهي في يسرى يديّه
إن هذا لقضاء ليس عدلا يا أخيّه
ليت من لام محبا في الهوى لاقى منيّه
فاستراح الناس منه مِيتة غير سويّه !

بقيا على تلك الحال سبعة أيام ، وجاء اليوم الثامن فكان شديد الحر ، لوّاح الهجير ، متقد أديم الأرض ، مات فيه النسيم العليل ، وبعثت نيران الجحيم ، وصبت الشمس فيه شواظاً على جبل قاسيون فأبى أن يحمله وأشفق منه ، فرمى به إلى المدينة شرراً وحمماً . واغبر الجو فاختنقت الأنفاس ، وضاقت الصدور ، ولم تطق سلمى ذلك الحر اللافح ، فأمرت جواريها أن يضعن لها ثلجاً في الماء ، فلما ذاب فيه قامت لتبترد ، فتسلبت من ثيابها ، وأخذت تصب الماء على جسمها ، وحين شعرت بلذة الماء وبرده والت الصب ثم والته ، كأنها كانت تطفىء لهيباً . ثم لبست غلالة رقيقة من الحرير ، وخرجت إلى أحد مشارف القصر فوقفت به طويلا ، وما كاد يولي النهار حتى شعرت ببرد شديد يسرى في أوصالها ، ثم أخذتها غشية فسقطت على الأرض لا تحس ولا تبين ، فأسرع إليها الوليد فحملها إلى سريرها ، وأقبلت أمه مذعورة واجفة ، وطفق الجوارى يدلكن جسمها ، وينضحن وجهها بماء الورد لتفيق .

واضطرب الوليد وأخذه البكاء واستولى عليه الهلع ، وجعل يصيح : أين الطبيب ؟ أين الطبيب ؟ اذهبوا إلى فرات بن شحناثا اليهودى . أحضروه على جناح الريح . على جناح البرق . على جناح الشيطان ! حبيبتى ! حبيبتى تموت وأنتم هنا أمامى يا أولاد الإماء !

ولم يمض إلا قليل حتى جاء الطبيب وكانت البرودة التى فى جسم سلمى انقلبت حرارة متأججة ، وأخذ تنفسها يتلاحق ، وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حداد . ثم اعترتها نوبة هذاء وخلاط ، فجعلت تثب من سريرها وتصيح : دعونى أذهب إلى زوجى ، أنا أعرف أنه بعمان ، لقد حال هشام بينى وبينه ، حبيبى ! أنت لا تصلح بائع ثياب ، إن وجهك يشى بك ، إن به نبلا موروثاً ، إنه وجه ملك . أثواب وألوان للعذارى الحسان ! دعنى يا أبى من ابن عنبسة ، عم مساء يا أبى ، هاتوا حلى العروس ! مشطوا العروس ! ما هذه البئر ؟ إنها بعيدة الغور مظلمة ، لقد زلقت رجلى ، أدركونى ! أنقذونى ! ثم سقطت على السرير مجهودة لاهثة ، تطلب نفس النسيم فلا تكاد تجده ، وغاصت فى غشية لا قرار لها ، وارتفع بكاء الوليد وبكاء من حوله من الجوارى والخدم ، وأخذ يلطم وجهه كما تفعل النساء إذا حزبهن الحزن ولم يجدن له متنفساً ، ومس

الطبيب المريضة وسأل عما يكون سبباً فى المرض ، ثم اتجه إلى الخليفة مكفهر الوجه حزيناً وقال : إن هذا المرض فى الرئتين يا أمير المؤمنين ، وقد سببه صب الماء البارد ، ثم التعرض للجو فى غلالة رقيقة ، وهو مرض قوى الحملة ، شديد الوطأة ، ولكن الله يشفى ما هو أشد منه وأعضل . ودواؤه الدفء والأشربة الساخنة ، ويجب ألا تخاطب المريضة وهى تهذى وإلا اختلط عقلها ، وإذا احتملت مولاتى هذا المرض خمسة عشر يوماً نجت وزالت أسباب الخوف ، وإنى يا أمير المؤمنين مستبشر خيراً ، راج فى وجه الله الكريم ، وسأعد لمولاتى دواء ، وسأتردد فى كل يوم مرات ، مسح الله السوء عن مولاتى ، ولا أحزن قلب أمير المؤمنين !

وانصرف الطبيب ، ومر يوم وثان وثالث والمرض يستشرى ، والآمال تتضاءل ، حتى إذا كان اليوم السابع هدأت المريضة وسكن صدرها من الخفقان ، فاستبشر الوليد وأرسل صيحة فرح دوّت فى جوانب الحجرة ، وكادت تهز الكلة التى ضربت فوق سريرها ، ثم أخذ يداعبها ويدللها ويقول : لقد شفيت يا حبيبتى وزال عنك الضر ، سأذهب بك عند ما يتم شفاؤك إلى لبنان ، إن هواءه يبرئ السقيم ، وماءه من تسنيم ، وتفاحه كفمك مسكىّ النفحات ، سكرى اللثمات ، أتحبين تفاح

لبنان يا سلمى ؟ حدثيني ، أتفضلينه على مشمش دمشق ؟ قولى يا حبيبتى أيهما تفضلين ؟ مالك ساكتة ؟ أواجدة أنت على ؟ لا لا ، إن الوليد لا يغضب ريحانة حياته ، بالله أجيبى يا سلمى !

ولكنها لم ترد عليه ، ولم تجاذبه الحديث ، فرفع الكلة ونظر ، فإذا جثة هامدة ! وإذا الجمال الباهر الذى كان جمالا فى جسم وروح أصبح جمالا فى تمثال . فصرخ وشق ثيابه ، وأخذ يدور فى الحجرة كالمجنون ، ويضربُ الجدران برأسه ويصرخ : ماتت سلمى ! ماتت سلمى ! ذهبت حياتى ! طويت آمالى ! غابت شمسى ! جفت زهرتى ! صوحت روضتى ! أدركونى يا عبيد القصر ، خذونى وادفنونى معها ، لا شأن لى بالحياة بعدها ، إن الحياة ليست نفساً يتردد ولكنها أمل ورجاء وحب . وكان أبو رقية يجلس فى ناحية من الحجرة مشدوه العينين ساهماً ، يرتل القرآن ترتيلا . وقدم رجال الدولة وعم البكاء وارتفع العويل وطوى بساط للسرور وفرش بساط للأحزان .

وفى اليوم التالى دفنت سلمى بعد إباء من الوليد وممانعة ، وبعد أن شيعها بأبيات تقطع نياط القلوب ، وتستنزف ماء الشؤون :

ألما تعلما سلمى أقامت مضمّنة من الصحراء لحدا ؟

لعمرك يا وليد لقد أجنّوا بهـــا حسباً ومكرمة ومجدا
ووجها كان يقصر عنْ مداه شعاع الشمس ، أهلا أن يفدى
فلم أر ميّتاً أبكى لعين وأكثر جازعاً ، وأجلّ فقدا !

وعكف بعد ذلك الوليد على أحزانه ، ولم يجد تسلية لهمومه إلا أن يصب عذابه على من ناصبوه العداء أيام هشام ، فأحضر سليمان بن هشام من السجن وأمر بأن يضرب أمامه مائة سوط وأن يحلق رأسه ولحيته ثم ينفى إلى عمان ، وطلب يزيد بن عنبسة والزهرى فقيل له إنهما فرّا إلى حيث لا يعلم مكانهما ، فأرسل خلفهما الجنود ليقبضوا عليهما ولو كانا فى أقصى الأرض ، ثم أمر بأن يدفع بنو القعقاع إلى عامل قِنّسرين ليذيقهم مرّ العذاب إلى أن يموتوا ، ودعا عياضاً كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى يوسف بن عمر والى العراق بقتل خالد بن عبدالله القَسرى ، وهكذا كان يقضى الوليد نهاره فى تعذيب وانتقام ، وليله فى تطريب وأنغام !

واجتمع أهل الدعوة بخراسان عند ما وصلت إليهم أنباء الوليد وأحاديث لهوه وظلمه ، ورأوا أن دولة الأمويين تخطو حثيثاً إلى الزوال ، وأن من الحكمة أن ينتظروا بإظهار دعوتهم قليلا حتى تجفّ الثمرة فتسقط وحدها ، لأن عبث بنى أمية وحده سيزيد فى كراهية الناس لهم وانصرافهم عنهم ، وبذلك

يسهل ثل عرشهم ومحو سلطانهم ، واستبشر الدعاة بالوليد خيراً فزادت قوتهم وتجددت آمالهم ، وظهرت منهم بوادر رآها نصر ابن سيار عامل خراسان فتوجس الشر ،وأحس بسوء المصير ، وكتب إلى الوليد :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام !
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام !
فقلت من التعجب: ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيـــام ؟ !

فلما قرأ الوليد كتاب نصر كتب فى أسفله :

بل نيام يا ابن البلهاء ! لقد أقطعك أمير المؤمنين خراسان هبة فاعمل بها ما شئت ، فإنه مشغول عنك وعن خراسانك !

قتل ودمار

ومرت شهور والوليد يشفى نفسه فى كل يوم بانتقام جديد حتى خافته خاصة الناس وسئمته عامتهم ، ولقد فرح الناس لتوليته أول الأمر لما أغدق من العطايا والنعم ، ولما بذل من المواهب واصطناع المعروف ، بعد أن عانوا أيام هشام عهداً شحيحاً يحاسب فيه الخليفة على الدانق ، ولا يثيب إلا على عمل . ولكن الوليد لم يستطع أن يمد يده بالعطاء فى كل حين ، ولم يكن له من الخلال

ما يحمل الناس على حبه وإجلاله ، فتحولت عنه قلوبهم ونالت منه ألسنتهم . ولكل دولة فى أول عهودها بهجة وإشراق ، يستقبلها الناس فرحين مستبشرين ، وهى تستقبل الناس بالوعود وبذل الرغائب ، فإذا ذهبت جِدّتها ولم تواصل إحسانها انصرفوا عنها ساخطين شاكين وهم يتحسرون على العهد القديم ، ويتطلعون إلى فجر يوم جديد .

واجتوى الوليد دمشق واجتوته ، وكره لقاء الناس وضجروا به ، فرحل إلى « الأغدف » بعمان وسار فى ركابه كثير من خدمه وندمائه . وكان الوليد خَلقاً عجيباً فقد كانت له نفس واحدة استطاعت أن تتقسم أنفساً ، فكانت له نفس باكية حزينة ، ونفس مرحة ضحوك ، ونفس تقية خيرة ، ونفس عارمة صاخبة ،وكانت كل نفس من هذه الأنفس تظهر فجأة على غير إرادة من صاحبها ، وتطالع الناس متناوبة متعاقبة كما تدور كرة حول محور ، فكثيراً ما اتصل منه الضحك بالبكاء ، والخير بالشر ، والقوة بالضعف ، وكان الناس لذلك منه دائماً فى وجل وخوف ، لا يدرون ماذا تكون اللحظة التالية للحظة الحاضرة .

ذهب إلى الأغدف وأعاد فيه مجالس أنسه ومجالى صبوته ، وكأنه لم يعشق مرّة سلمى ، ولم ينكب بموت سلمى ، ولكن

خيالها كان يطوف بنفسه فى لحظات متقطعة فيبكى بين رنين المزاهر ودقات الصنوج . وتنفست دمشق الصعداء لفراقه ، ومد فيها الساخطون رءوسهم إلى الفتنة ، وعاد إليها كثير من الفارين كابن عنبسة وبعض بنى القعقاع وزعماء اليمنية . وفى ذات صباح التقى جمع منهم بدار شبيب بن أبى مالك فتذاكروا فى شأن الوليد ، وأنه إذا امتد عهده لم يبق منهم أحداً ، ولم يترك لمجد الخلافة أثراً ، واستقر رأيهم على مبايعة يزيد بن الوليد لأنه كان يظهر التقوى والورع ويتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فذهبوا إليه وكان بالرصافة فحدثوه بأمرهم ، وألقوا إليه بسرهم ، فأخذته الدهشة وتذكر سطوة الوليد وبطشه فطلب منهم أن يمهلوه حتى يستشير عمرو بن يزيد ، ثم تركهم وذهب إلى عمرو فى داره وأطلعه على ما اعتزم عليه القوم فوقف عمرو وقد كان جالساً وقال :

هذا يا ابن العم أمر جسيم لن يفصل فيه إلا أخوك العباس فإنه صاحب رأى ومعرفة ، أما أنا فرجل كثير الشكوك كثير التقلب ، وليس لمتقلب رأى .

وانطلق يزيد إلى العباس يستشيره ويستهديه ، فما كاد يكشف له عن طرف مما جاء بشأنه حتى وكزه العباس فى صدره ، وصاح فى وجهه غاضباً : حقاً إنك لأشأم سخلة فى بنى مروان .

والله لولا ما أخافه عليك من حدة غضب الوليد لشددت وثاقك وحملتك إليه ، إن دولة بنى أمية تهتز للسقوط فبالله عليك لا تضرب فيها بمعول جديد ! وإن بها من نيران الفتن ما تعدّ جهنم إزاءه جذوة خامدة ، فدعها أيها الغرّ ولا تزدها نكالا ! دعها بالله وانصرف إلى شأنك . أتدرى معنى خلع خليفة من بنى مروان ؟ إن معناه أيها الأبله ضياع الدولة كلها ، اذهب يا عدوّ عشيرته ولا تثر جُرحاً لا يريد أن يندمل ، وإذا حدّثتك نفسك بشىء مما فى نفسك فاعلم أنه هو الشيطان الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، وأن غراب الفتنة هو الذى يدفع الأشقياء إلى أن يخرّبوا بيوتهم بأيديهم :

إنى أعيذكمُ بالله من فتن   مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملّت سياستكم   فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

وخرج يزيد من لدن العباس حزيناً متردّداً ، ولكن الرغبة فى الملك أغرته بنبذ وصايا أخيه فنفض عنه ما كان قد أصابه من يأس ، وطرح ما كان مسّه من خوف ، والتقى بجماعات الساخطين وكان بينهم يزيد بن عنبسة فبايعوه سراً ، ولما اجتمع له أمره قصد إلى دمشق متنكراً فى سبعة من أنصاره ، فنزل على المِزّة وهى من أرباض دمشق ، وقصد قُدُماً إلى دار معاوية بن مصاد زعيم قومه فبايعه وبايعه كثير من أهله

ورجاله ، ثم رحل إلى دمشق وعزم على إظهار الدعوة ، فأرسل إلى أصحابه فكمنوا عند باب الفراديس ، ودخلوا المسجد الجامع لصلاة العشاء ، فلما أتموا المكتوبة قبضوا على من بالمسجد من الحراس وكبلوهم ، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخبره الخبر ثم قال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه ! فاتجه يزيد إلى السماء وهو يقول : اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعنّى عليه وسددنى له ، وإن كان غير ذلك فاصرفه عنى ! وانطلق مع ابن عنبسة فى دروب دمشق ، وكلما سارا خطوات انضم إليهما أعوان وأنصار . وما جاء اليوم الثانى حتى توافدت على يزيد الكتائب يقودها مشايخها ، وهى تتحرق للقتال وترجو ما وراءه من غنائم .

وطار أحد عبيد الوليد على جواد يسابق الريح إلى سيده ، فلما بلغ الأغدف رآه بين ندمائه وعمر الوادى ينشدهم :

أدر الكأس يمينا لا تدرها باليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر فى جرار

وما كاد يلقى إليه الخبر حتى ثار وقذف بالحمم ، وأمر بضربه مائة سوط ثم بحبسه .

وكان بمجلس الوليد يزيد بن خالد ، وعبدالله بن سعيد ،

والأبرش الكلبي . فقال ابن خالد :

ـ إني أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل حمص فإنها حصينة ، وأن توجّه منها الجنود إلى يزيد حتى يُظهرك الله عليه . وقال ابن سعيد :

ـ لا ينبغي للخليفة أن يرتحل بجنوده ويدع نساءه في أيدي أعدائه ، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره . فابتدره ابن خالد قائلا :

ـ وماذا يخاف أمير المؤمنين على نسائه ، وقائد جيش عدوه هو ابن عمهن عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ؟ فصاح الوليد في غضب وسآمة : لن أرحل ولن أترك أهلي ونسائي . وأشار عليه الأبرش أن ينزل بحصن البخراء وأن يقاتل أعداءه حوله ، فأخذ الوليد برأيه ، وانتقل إليه . أما دعاة يزيد فانطلقوا ينادون في الناس : من سار للقتال مع يزيد فله ألفان ! فهرع إليه كثير من مرتزقة المحاربين .

ثم علم عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش يزيد أن العباس ابن الوليد قادم لمناصرة الوليد بطائفة من أهله ورجاله ، فسقط في يده ، وأيقن أن شيئاً من ذلك لو تم لتفرّق عنه رجاله لشدة ثقتهم بالعباس ، وحبهم إياه واعتقادهم أن الفئة التي يظاهرها هي الفئة الغالبة ، لذلك أسرع فبعث منصور بن جمهور على

رأس فرقة من الجند لتحول بين العباس والوصول إلى الوليد .

وسار منصور وهدّد العباس وساقه مع من معه إلى مخيّم ابن الحجاج ، فلما وصل إليه أمره ابن الحجاج أن يبايع لأخيه يزيد فبايع مكرهاً مغلوباً ، ونصب ابن الحجاج راية العباس ، وأمر منادياً أن ينادى فى الناس : هذه راية العباس وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد . وما كاد أصحاب الوليد يسمعون هذا النداء حتى تفرّقوا عنه وانضموا إلى جيوش أعدائه .

ولكن الوليد كان شجاعاً مقداماً بعروبته وطبعه الموروث ، فلم يأبه لانصراف أصحابه عنه ، واعتزم أن يلقى القوم بنفسه . فى أحد أيام جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة ركب فرسه « السندى » وقذف بنفسه فى حومة الحرب فقاتل قتالا شديداً ، ولكن القوم تزاحموا عليه حتى كادت تنوشه سيوفهم ، فدخل الحصن وأغلق الباب دونه ثم أخذ المصحف وجلس يرتل آيات القرآن الكريم ، وانتحى أبو رقية ناحية من الحجرة وأخذ يفتح عينيه ويغمضهما كأنه كان يصلى بإيماء العينين .

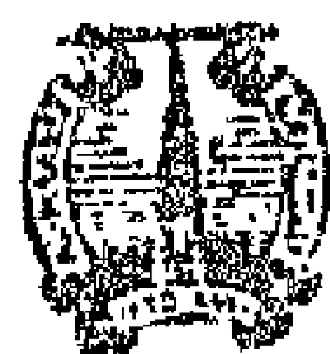
ووثب يزيد بن عنبسة نحو الباب وصاح قائلا : كلمنى يا وليد ، فلقد كنت تبحث عنى فى كل مكانٍ ، وها أنذا قد أتيت إليك طائعاً ، ولكنى أظنك لا تودّ اليوم لقائى . لقد حاربتنى فى سلمى أيها الرجل فانتصر الموت علينا جميعاً واستأثر بها ، واليوم

تلقى جزاءك بما قدمت ! لا تخف يا أبا العباس فإنى لن ألقاك ولكن سيفى هو الذى سيلقاك . فقال الوليد : لم تقتلوننى لا أبا لكم ؟ ألم أزد فى أعطيات أصحاب العطاء ؟ ألم أرفع المؤن عن كثير من الناس ؟ ألم أعط الفقراء ؟ ألم أعطف على الزمنى ؟ فصاح ابن عنبسة : إنا نقتلك لننقذ الخلافة من يديك . فغضب الوليد وقال : حسبك يا ابن عنبسة ، إن الخلافة أكرم على الله من أن ينقذها مثلك . ثم عاد إلى التلاوة وهو يردد : يوم كيوم عثمان ! فسخر منه ابن عنبسة وجبهه بمقذع السباب وغليظ القول ، ثم وثب فوق الحائط وانطلق وراءه نفر من أصحابه ، ولما قرب من الوليد قبض على يده وكان يريد أن يأسره ويذهب به إلى القوم ليفصلوا فى أمره ، ولكن رجلا عاجله بضربة من سيفه فخر صريعاً مضرجاً بدمائه ، وتقدم ثان فاحتز رأسه ، وأسرع روح بن مقبل فحمل الرأس وطار إلى يزيد فرحاً بما يحمل ، فلما وصل إلى خيمته قذف أمامه به وهو يقول : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد وأسر من كان معه ، هذا نصر مبين مؤزر ! فسجد يزيد شكراً ، ثم التفت إليه باكياً وقال : كنت أرضى منكم بدون هذا ، أما القتل فبلاء عظيم !

ودخل ابن عنبسة فأخذ بيد يزيد وقال : قم يا أمير المؤمنين

وأبشر بنصر الله لك وإتمام نعمته عليك . فارتعد يزيد وقال : ويلى إذا لم يغفر الله لى ! قل لى بالله يا ابن عنبسة ، ماذا قال لكم الوليد قبل قتله ؟ فأجاب ابن عنبسة : لقد كان يقول : أما فيكم ذو حسب فأكلمه ؟ أليس منكم رجل رشيد يستمع لما أقول ؟ ولكنا أوسعناه تقريعاً وتواثبنا عليه فروّينا أديم الأرض بدمائه . فصاح يزيد : كفاك يا ابن عنبسة كفاك ! لقد لعمرى أكثرت وأغرقت ، أما والله لا يرتق بعدها لكم فتق ، ولا يلم شعث ، ولا تجتمع كلمة ! إن الرءوس التى حصدها الحجاج ابن يوسف بعد أن أينعت وحان قطافها ستثأر اليوم لنفسها ! لقد حق القول على بنى أمية وانهار بناؤها ، وخربت — كما يقول العباس — بيوتها بأيديها ! وإنما أنا والوليد رجلان المنتصر منهما المهزوم ، والقاتل منهما المقتول !

يضاولنى والسيف بينى وبينه وأقتله عمداً ، وفى قتله قتلى !



اقرأ

نظمي لوقا

رفيق الأرض

دار المعارف بمصر

رقيق الأرض

« لم آت لأدعو خطاة إلى التوبة ، بل الأبرار »

هنريك إبسن

نظمي لوقا

رفيق الأرض

اقرأ ٦٣

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٣ — فبراير سنة ١٩٤٨



إلى السائرين فى الظلمة
وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد
ن . ل

مقدمة

في صفحات هذه القصة المصرية صـــدق فنى منزه عن الأغراض .

وفرق عظيم بين الصدق المنزه عن الأغراض ، والصدق الذى لا ينتهى إلى غرض ، أو لا يؤدى إلى نتيجة .

فكل صدق فنى فهو يعطينا معرفة نفسية ، ويخلق فى وجداننا وخيالنا حركة جائشة . وكلاهما زاد لا غنى عنه فى عمل من أعمال الحياة ، أو قوة من قوى الأخلاق .

معرفة نفسية وحركة جائشة فى الوجدان والخيال .

من الصدق الفنى نستمد هذين ، وبغير هذين لا يفلح عامل ولا يشعر صاحب إحساس .

فإذا كان الصدق الفنى يؤدى بنا إلى تحصيل زاد العمل والشعور ، فليس لأحد أن يقول : إن صاحب الفن الصادق — من أجل الفن الصادق — يعيش كما يقولون فى برج من العاج .

* * *

أما القصة الواقعية التى يسميها بعضهم بالقصة الفنية الصادقة

ويحسبها مسخرة لخدمة هذا المذهب الاجتماعى أو ذاك ، فليست هى من الفن ولا هى من الصدق فى شىء .

لأنها خديعة من الكاتب لتسخير القارئ فى خدمة عقيدته ودعواه .

وهى خديعة لا شك فيها . إذ نحن لا نعرف من الناس طائفة كلها خير ، أو طائفة كلها شر ، ولا نعرف من الناس جماعة كلها إنصاف أو جماعة كلها ظلم ، وما من طائفة أو جماعة تروى عنها ما يثبت فسادها ، إلا أمكنك أن تروى عنها كذلك ما يثبت صلاحها . فإذا قصر الكاتب وصفه على الجانب الذى يزرى بها ويدعو إلى محاربتها ، أو قصر وصفه على الجانب الذى يرفع شأنها ويدعو إلى مؤازرتها ، فهو خادع يحجب بعض الحقيقة لغرض فى نفسه . ولن يكون الخداع قريناً للصدق فى عالم الفن ولا فى عالم الأخلاق .

قيل عن الصدق الأخلاقى إن مخالفته لا تجوز إلا مع اثنين : مع عدو أو مع مريض .

وفى وسعنا أن نقول عن الصدق الفنى مثل ذلك . فلا يخالفه الكاتب إلا وهو يحسب المجتمع القارئ من الأعداء ، أو يحسبه من المرضى . فأجمل ما يوصف به أنه كاتب كاذب لعلة ، وخير منه ولا شك الكاتب الصادق لغير علة . وهكذا كان الأستاذ

نظمى لوقا مؤلف هذه القصة ، حين عرض لسرد الوقائع ، وحين عرض لوصف « الشخصيات » .

فكل شخصية من شخصيات « رقيق الأرض » فأنت واجد لها نظيراً فى بيئة من البيئات المصرية .

وكل حادثة من حوادثها فمن الجائز جداً أن يصادفها القارئ فى تجاربه المألوفة .

وإنما يربطها الكاتب برباط الفن فإذا هى وحدة حية معروضة فى نطاقها المحدود ، ماثلة أمام القارئ بغير افتئات على فكره أو على شعوره أو على هواه .

ولن يضيع أثر هذا الصدق لأنه صدق بغير دعاية ، فإن المؤلف الصادق لم يعش فى برج من العاج ولم يضع الحياة فى برج من العاج ، بل وضعها حيث يحيا أبناؤها ، وحيث يرقبها الناظر البصير على حقيقتها .

وهذا هو الواجب الأول ، بل هذا هو كل الواجب على كاتب القصة والرواية ، وعلى كل كاتب فنان .

* * *

والأستاذ نظمى مؤلف « رقيق الأرض » أديب شاعر ، أخذ بقسط حسن من دراسة القانون ، وأخذ بقسط أحسن وأوفى من دراسة الفلسفة ، واطلع على ثمرات العبقرية فى العربية وفى

اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وواجه الحياة بحس شاعر وفكر فيلسوف . وقد كانت له وهو دون العشرين دراسات لديكرت ، ولما وراء الطبيعة ، تستوجب الثناء لو صدرت من أبناء الثلاثين أو الأربعين .

وقد عالج القصة تأليفاً وترجمة فى مناسبات كثيرة ، ثم كتب « رفيق الأرض » فأودعها من هذه الخبرة الفنية وهذه الدراسة القليلة ، خلاصة طيبة تتراءى فى ترتيبها وتبويبها ، كما تتراءى فى صوغها وأسلوبها ، فهى بهذه المزايا خليقة أن تتقدم إلى القراء بغير تقديم .

فإذا قال القارئ بعد الفراغ من قراءتها إن تقديمى لها تحصيل حاصل ، وإنه لم يجاوز الواقع الذى اطلع عليه ، فليذكر أيضاً أن الصدق المنزه الذى يطابق الواقع جائز فى التقديم جوازه فى التأليف .

عباس محمود العقاد

كلمة فى الموضوع . . .

أما الأرض فهى هذا الكوكب .

وأما الرقيق فهم أنا وأنت — أيها القارىء — وسائر من خلق الله . . .

فليست الأرض هى المزرعة ، بل هى هذا العالم الكبير بظروفه وأوضاعه .

وليس الرقيق زارعوها الملتصقون بها ، بل هم هذا الجمع المجتمع مقيدين بهذه الظروف مستعبدين للأوضاع والمواضعات التى تنجم عن حياة الاجتماع . . .

وهل تحسب جميع من يسيرون على اثنتين لا على أربع ، ويخضعون لقواعد متشابهة من المنطق وعلم الاقتصاد وعلم الأحياء ، طرازاً واحداً من الكائنات لا يخضع الواحد منهم إلا لهذه الحدود المشتركة التى يعينها العلم ويرسمها العرف ويسهر عليها القانون ؟

إن الأمر على خلاف هذا . . .

وهان أمر الإنسانية إذن لو أن شخوصها كانت خواء منخوبة كل ما فيها هذه الخلائق الشائعة والسمات الظاهرة دون تمايز فى الكنه ودخيلة الضمير . . .

وهان كذلك كل مشكل ينشأ عن التشابه الظاهرى وقيود الاجتماع . . . .

فليس الناس نسخاً من صحيفة الأهرام لا تمايز نسخة منها عن زميلتها إلا بخدش فى الورق هنا أو حرف مطموس هناك . . . فإن وراء هذا التشابه الظاهر لاختلافا يهون إلى جانبه اختلاف ما بين درجتين متمايزتين من مملكة الحيوان . . .

فإن النفس الإنسانية شيء عجيب حقاً : إنها نهر دافق عظيم — كما يقول هنرى برجسون — وليست الأعمال الظاهرة فيه إلا ما يطفو فوق سطحه ، أما التيار نفسه فى عمقه ، وشدته ، وحيويته الدافقة فطوى عن أنظار من تبهرهم الأضواء المعكوسة على سطحه اللامع الأخاذ . . .

وإن كل لحظة نفسية من لحظات الطفولة ، وكل أثر من تجاربها لهى « التربية » الحقة التى تطبع ذلك التيار الجارف

بطابعها الذى لا يزول ، والذى ينشأ عنه كل جديد من إحساس المرء وانفعالاته وأفكاره عند ما يشب ، بالقدر الذى تحركه فيه مناسبات العالم الخارجى الذى يعيش فيه الجميع على تشابه ظاهرى فى الصفات والظروف . . .

وإن طعاماً يفيد عملاقاً ويزيده قوة وصحة ، لهو سم قاتل للمريض المحموم ، والاثنان بعد يعيشان فى مجتمع واحد وفى ظروف واحدة . . .

والناس مختلفة نفوسهم كاختلاف معدة ومعدة فى حالى الصحة والمرض ، بل إن الأمر لهو أشد اختلافاً : فهذه الظروف الواحدة فى حد ذاتها ، ليست واحدة أبداً فى آثارها وما تستنفره وتبتعثه فى النفس من إثارات واستجابات . . .

فالمساواة فى الشروط هنا مساواة ظاهرية فقط ، أما من حيث الموضوعات الخاضعة لها — وهى الكائنات البشرية — فإن هذه الشروط لا تكفل المساواة ولا تمت إليها بصلة من الصلات .

عوالم متمايزة معزولة ، مغلقة على ذواتها معظم الأحيان ، بحيث يكون الأخ وأخوه شيئين مختلفين تمام الاختلاف فى

التجربة النفسية التى يبتعثها مؤثر واحد من مؤثرات الحياة الخارجية .

ولكن هل يعنى العرف بهذا الاختلاف ، وهل يحله القانون محل الاعتبار؟ . . .

إن الأمر يتطلب نفاذاً إلى هذه العوالم واستكناها لها غير يسير . . . ، وما أقل الرغبة فى النفاذ إلى الكنه المطوى ، وأقل من ذلك بكثير القدرة عليه . . .

فالعرف العام والقانون الوضعى كلاهما يقوم على المساواة ، وأنها فى الواقع لتسوية لا مساواة ، وبين الأمرين فارق شاسع مخيف خطر . . .

وهل من خطر أعظم مما يحمله خداع الألفاظ ، فنحسب أنا نعدل بين الناس إذ نسوى بينهم تسوية الموازين التى لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين(١)، ونحسب أنا بهذا أبرأنا الذمة ووفينا بما افترضنا فى أنفسنا من صدق الحكم حين تصدينا للقضايا والأحكام ؟ ! . .

فكل امرىء رهين بالصورة التى يتراءى بها العالم الخارجى فى مرآة نفسه البعيدة الأغوار ، المشكلة على غير غرار ، والتى

---

(١) العقاد

ينظر إليها العالم الخارجى — أى العرف والقانون — كأنها سطح مستو لا عمق فيه ولا أسرار ، ولا ضرورة فيه ولا اضطرار ، وإنما الأمر كله نسخ مطبوعة لا تنطوى إلا على موضوعات المنطق وعلم الأحياء وعلم الاقتصاد . . .

فنحن بهذا سجناء فى رحبة الأرض ، سجناء فى طوايا أنفسنا ، بل نحن شر من السجناء : لأننا لا نعرف أغوار أنفسنا وأسرارها ، ونؤمن مع هذا بصواب نظرة العالم الخارجى ومقاييسه — لأن مقاييسنا وصيغ عقلنا مكتسبة من حياة الاجتماع التى هى سجن آخر رهيب لا يفهمنا ، ونتقبل نحن مع هذا فهمه لنا فى إيمان وتسليم . ونحن لا نفهم أنفسنا ، ولكننا نخضع مع هذا لها لأنها « نحن » قبل كل اعتبار ، ثم بعد هذا يديننا العالم بمقاييسه العمياء ، بل وندين نحن أيضاً أنفسنا مع العالم فى كثير من الأحيان ! . .

ألسنا إذن رقيقاً فى الأرض ، نخضع دون فهم ولا اختيار لطوايا نفوسنا ، ولا نملك من ذلك فكاكا ، كالمدلجين فى الظلمة على عجز ، وكالذين ضرب عليهم العمى من مولدهم ولا عكازة لديهم ولا رفيق ، وعليهم مع هذا أن يخطوا وفق حدود

رسمها من يزعمون لأنفسهم بصرا ، وإنما هم تواضعوا على تخطيط لمعالم الأرض دون نظر إلى طبائع السالكين . . .

هذه هى الأرض ، وهؤلاء هم رقيقها المساكين . . .

فإذا تخطى واحد منهم تلك الحدود المرسومة ، فتلك هى الجريمة ! . .

جريمة أجل ! بينما فى طوايا النفس لا جريمة ، وإنما هو تيار مطرد ينتهى إلى نقطة لا بد منها بحكم اندفاع التيار واتجاهه وبحكم ما يعتلج فيه وما يتلقاه من خارج من موجهات تحدث فيه أعجب الآثار . . .

أما فى نظر القانون . فهذا التطور الطبيعى المحتوم جريمة تنصب لها الموازين ، وأى موازين ؟ تلك التى لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين . . .

إنها حقاً لمعصوبة العينين هذه العدالة التى بيسارها السيف وبيمينها القسطاس ! . .

ولست عن عدالة القضاء وحدها أتحدث ، وإنما عن العرف العام ومقاييس المجتمع الخلقية فى مجموعها أيضاً . . . .

أما النفس المطوية على أسرارها فتمضى فى طريقها غير

خاضعة إلا لشروط عالمها المكنون الذى تكتنفه الظلمة والحيوية، كما تمضى العدالة أيضاً فى طريقها مغمضة العينين لا تحاول النفاذ إلى ذلك العالم المطوى عن الأبصار ، والذى ينبغى للنفاذ إليه كل ما فى البصر من سلامة وقوة . . .

ولكن العدالة معصوبة العينين . . .

ولكن العدالة راضية عن نفسها أعظم الرضى ما دام فى يدها الميزان الذى لا يفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين . . .

ولكن العدالة مقدسة ومستنيرة ، لأنها تنظر إلى الأمور فى ضوء العقل الخارجى وصيغ المنطق وعلم القانون . . .

* * *

هذه هى الجريمة وهذه هى العدالة على طرفى النقيض . . .

وهذا بعينه موضوع المأساة التى تعرضها هذه القصة : العوالم المغلقة التى لا تعى ما فى داخلها ، ولا تحسن إدراك ما يحيط بها فهى مستعبدة مرتين : لذواتها المجهولة لها ، ولمحيطها الذى لا يفهمها ويدينها على ما لا يدلها فيه بحكم طبيعتها الكامنة الحرة المجهولة لها وللعالم الخارجى .

وأقول العوالم المغلقة ، وهى هنا نفوسنا جميعاً ، أنا وأنت :

الجالس فى قفص الاتهام ، والمتصدى للقضايا والأحكام ، والمتفرج فى الجلسة على حد سواء . . .

فنحن جميعاً رقيق الأرض المساكين . . .

* * *

لقد اختمر عندى موضوع هذه القصة منذ سنوات طويلة ، حينما أريد لى وأنا فى السادسة عشرة أن أدرس القانون ، فمضيت فى دراسته نيفاً وسنتين ، ولكن الأمر أقلقنى ، وأنا رجل ضعيف عن مغالبة الهواجس ، فلم أجد فى نفسى الشجاعة على التصدى للقضايا والأحكام محامياً أو قاضياً أو ممثلا للاتهام ، فتحولت إلى العوالم المغلقة : عالمى أنا وعوالم الناس أحاول أن أسبر أغوارها . . . .

وإنه لطريق طويل . . .

ولكننى غير ضجر بالطول والمشقة ، لأننى رجل غير طموح ، ولا تغوينى الأضواء الباهرة فى بلاط المجتمع الأنيق الذى يحوّل عينيه مستنكفاً عن الظلام ويحب الموسيقى والزينة والأوشحة والعناوين .

وتسألنى أيها القارىء عن الظلام وماذا أعددنا له لكى نسلك فى أغوار الإنسان المظلمة . . .

فأقول هو « الحب والصدق وشجاعة الإيمان » .

هو الحب ، لأنه يخلق المشاركة الوجدانية التى تنتهى بك إلى الفهم وتنقلك إلى شبيه بذلك الجو الذى تريد النفاذ إلى ما يعتلج فيه . . .

وهو الصدق ، لأن الأمانة تفضى بك مع الحب إلى حسن الفهم والعزوف عن زخارف المجتمع ومقاييسه . . .

وهو شجاعة الإيمان ، لأن الإنسان ضعيف وللأضواء فتنتها ، ولأن العوالم المغلقة المظلمة طريقها شاق وطويل ، وليس الوصول إلى شىء ذى قيمة بأمر سهل ولا مضمون . . . بل إن الوصول نفسه لا يبدو فى مستهل الطريق موصلا إلى كرامة أو تشريف .

ولكن عند ما يكون هناك الحب والصدق وشجاعة الإيمان ، يكون السلوك فى الظلام مع عدم التقدير من عشاق الأضواء والمراسيم لذة فى حد ذاته وإن لم ينته إلى شىء كثير . . .

الحب والصدق وشجاعة الإيمان : ليست زاداً لرحلة إلى

أضواء المدينة ومهارج لذاذاتها الصاخبة ، ولكنها زاد طيب لحياة سعيدة تقوم على القوة والإباء . . .

يونيو سنة ١٩٤٥ نظمى لوقا جرجس

١

المجتمع الطاهر يتفلسف . . .

كانت تمر الخواطر برأسه سريعة متقطعة ، وراء جبهته الضيقة التي تعلو عينيه الحولاوين الدائرتين فى محجريهما لا تستقران ، وقد طرح طربوشه إلى مؤخر رأسه المستدير ، وهو يتدحرج إلى المنزل فى ظهر يوم من أيام الصيف فى مدينة « د » دافعاً أمامه كرشه الصغيرة التي تهتز مع خطواته الحثيثة القصيرة كقامته المكتنزة ، وقد حفظ توازن تلك الكرش بطيخة عن شمال ، وقرطاس من البلح عن يمين . . .

كانت خواطر « محمد أفندى » عن العمل ، وعن المارة ، وعن هذه الساق الملفوفة الظاهرة الفتنة تحت لفة محبوكة من الملاءة الهفهافة ، وعن هذا البرقوق الفاحش الغلاء فى دكان بائع الفاكهة الذى لا يقبل المساومة ويتكلم « بالكناية » . . .

وقطع الطريق فجأة إلى الإفريز الآخر ، ليتحاشى « ممدوح أفندى » وكيل القلم . . . ويا له من وغد خسيس ، لا يحلو له أن يتغطرس ويقطب جبينه وينتقد فى حدة واستعلاء إلا عندما يضطر إلى الدخول عليه ليمضى منه بعض الأوراق فى الوقت الذى

يكون فى مكتبه بعض الضيوف . . . والويل له إذا تصادف إن كانت إحدى هاتيك الأرامل اللطيفات فى ثياب الحداد التى تزيدهن فتنة جالسة عند « سى ممدوح » لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بمعاش « المرحوم » ! .

وهل هو أكفأ منى هذا الممدوح أفندى ! هراء . وإنما هو حظه وكفاءته الممتازة ، والتى تتمثل أولا وآخراً فى أخته التى تشتغل بالحياكة ، والتى تفصل عندها عائلات « الرياسة العليا » ملابسهن الأنيقة . . .

لقد بلغ الدار أخيراً ، ورفع رأسه وهو ساخط على هذه المذلة التى يلقاها من هذا « الممدوح أفندى » ، فإذا « الولد » فى الشرفة ، ينتظر أوبته . . .

وارتقى السلم ، وقد انقلب استخذاؤه ومذلته إلى تقطيبة عريضة — كم تشبه هذه التقطيبة تلك التى تعلو سحنة « ممدوح أفندى » عند ما ينتهره أمام الزائرات اللطيفات !

إن الولد الخبيث قد طبع قبلة خاطفة ، ويده على الفاكهة ، كأنما تلك القبلة ضريبة الملاهى التى تلقى إلى العامل القاء قبل الدخول إلى الملهى . . .

وبدا صوته فيه استعلاء وغطرسة — صوت لا يعهد فى فى الديوان ، وبخاصة فى مكتب ممدوح أفندى — وهو يلوم امرأته على قلة عنايتها بالأناقة والترتيب ، فإن الملابس مكومة فوق الأريكة عند المدخل . . .

وكانت «ست بليغة» فى هذا الوقت تغرف الطعام فى المطبخ ، وقد لبست القميص «الباتسة اللبنى المسخسخ» ، وأساريرها منفرجة فى غبطة الأنثى عند ما تحس سطوة «الفحل» وتستمرؤها . إنها الجرعة الأولى من الرضى بعد تعب النهار فى سبيل إرضاء الرجل الذى تحس فى سيطرته اطمئنان الغريزة إلى كنفها الطبيعى . . .

وشرع يخلع ملابسه ، وقد زال التقطب عن وجهه ، فقد نفس عن صدره ما لقيه من ممدوح أفندى : أليس يملك هو أيضاً أن يأمر وينهى ، وأن يجد الغبطة فى الأمر والنهى ، وأن يشهد الطاعة حيث ينتظر . . إنه الساعة سيد كريم تماماً لا يحس فوق كاهله وقرا ينقص عزته أو يثلمها . . .

ودلف إلى قاعة الطعام ، وقد هش للطعام وتفتحت حواسه لرائحته ، فأقبل عليه إقبال المستمتع يملأ شدقيه المكتنزين

كليهما ، ويكاد يحسبه الناظر يأكل بكل جوارحه . حتى شعره وأذناه كانت كأنها كلها تمضغ وتزدرد لقم الطعام . . . وعينه الحولاء تحسبها دائماً شاخصة إلى باب الحجرة عن يمين ، بينما هي على الطبق ثابتة لا تريم . . .

وجاء دور ضجعة القيلولة ، وقد تفتّحتْ الحواس لها بالطعام ورائحته الفاغمة ، فنشطا لتلك الضجعة نشاطاً طبيعياً تستكمل به النفس الحيوانية متاعها بعد أن استوفت حظها من العلف وفاتحات الشهية من تلويحات الطبيعة التى تفعل فعلها دون وعى ، لأنها أعمق مسرباً فى النفس من كل وعى وتدبير . . .

* * *

ــ قومى يا امرأة . . . قومى أعدى لنا قهوة العصر . . .

وانتقل إلى الأريكة فى الغرفة البحرية ، وهو يسوى بيده طاقيته البيضاء فوق رأسه الصغيرة المستديرة كأنها القلقاسة ، ويدندن فى طرب ورضى عن الحياة « يا محنيه ديل العصفورة . وباشواتنا جايه منصوره » .

ولعله كان يظن نفسه حينئذ باشاً منصوراً . . . والنصر ليس بعد بوقف على ميدان دون ميدان . . .

وجاءت « الست بليغة » بالصينية « النحاس الأصفر » اللامعة ، وقد صفت عليها معدات القهوة ، تخطو بها فى نشاط ورضى ، شأن من استوفى حظه من العقار والطعام .

وتلمظ « محمد أفندى » وهو يمتص « شفطة » من القهوة فى تلذذ ظاهر وصوت مسموع ، وتناول الجريدة يتصفحها تصفح المتفرج الذى رضيت. نفسه واستراحت أعصابه إلى مطالبها ، فبدأت تتطلع إلى الناس من حولها كيف يلقون من دنياهم ، وماذا هم فاعلون . . .

وسألته «ست بليغة» عن الأخبار ، فقلب شفتيه وقال « لا شيء . . . ركود سياسى ، وركود مالى . . . » .

وسألته أن يقرأ لها أخبار الحوادث والمحاكم والجنايات ، فإن أمثال هذه الأسرة الشريفة التى يتكون منها المجموع الطاهر السوى الحسن السلوك ، والتى ينهض عليها بناء المجتمع ، وتكون الرأى السائد فيه ، تحب دائماً أن تتسلى بشىء مخالف لنغمة حياتها الرتيبة المغمورة ، سواء أكان ذلك عملا من أعمال البطولة ، أو الحرب أو الفضائح ، أو الجريمة . . .

ولكن الصحيفة كانت مقفرة ذلك اليوم من الفضائح وأعمال

البطولة والجنايات المثيرة ، وأخيراً وقع بصره على هذا الخبر في ركن منزو من الصحيفة .

« لمندوبنا فى المحاكم : نظرت الدائرة الثانية جنايات المنعقدة برياسة س بك . فى قضية امرأة ألقت بابنتها الوحيدة فى بئر ، ولم تدل هذه المرأة بأى دفاع عن نفسها ، ومما أثار الدهشة أن هذه الطفلة شرعية لا غبار علي مولدها . . . وقد قضت المحكمة بحبسها ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ » .

— آخر زمن يا امرأة ! آخر زمن! طفلة شرعية ، أنجبتها من زواج شرعى . . . أتقتلها ؟ . . .

— والله صدقت ! آخر زمن !

— وحكموا عليها بثلاث سنين فقط ؟ مدهش . . .

— لقد كان الأولى أن يقطع من لحمها ويطرح للكلاب . .

— هذا حكم يشجع على الجريمة . . . كان ينبغى أن تعدم لتكون عبرة لغيرها . . . هذه الخنزيرة . . .

قالها وهو يطوى الصحيفة ويضعها إلى جواره ، وانتقلوا بالحديث إلى أسعار السمن الباهضة فى هذه الأيام . . .

٢

الطست ومنعطفات الطريق

كان البرد شديداً ، وصفحة السماء داكنة ، والريح تصفق مصاريع النوافذ فى غير هوادة ، ولكن الموقد الذى تعلوه قدر الماء ، كان يرسل الدفء فى حجرة الغسيل التى كانت تعمل فيها ، ويداها لا تكفان عن الدلك والدعك والتصبين ، وقد رُكزت عيناها — لا تطرفان ولا تحولان — عن نقطة فى الحائط قبالتها ، وقد أشرق وجهها بابتسامة شاردة ، كأنما تداعب بها حلماً بعيداً يرتسم مشرقاً وراء ذلك الحائط الذى سوده دخان الموقد .

إنها ابتسامة الكائن الحى تداعبه غاية أجنتها أعصابه وطبيعة تكوينه ، فيتفتح لها بمجموعه فى غير مواربة . . . إنها الأنثى تقبل على الحياة وقد آذنت حجبها أن تنكشف دون غاية الطبيعة التى تموه لها بالأفراح والأغاريد ، وبالهزة فى كيانها كله من منبت الشعر حتى القرار .

لقد كان خيالها يطوف — وراء ذلك الحائط — بمنعطفات فى الطريق حيث يركز متبولى « طبليته » بين الفينة والفينة ويبيع

لحم الرأس لعشاقه ومستطيبيه ، وعلى رأسه لاسته المائلة إلى اليسار قليلا ، فوق جبينه الواسع وعينه القوية النظرة الشديدة الأسر ، وشاربه . . . لهفى على ذلك الشارب المفتول ، كم أصمى فؤاد نعيمه ، وكم أثار فى خيالها وطوايا ضميرها الفطرى من أحاسيس مبهمة ، هى بعد مفهومة فى عالم الإحساس والأعصاب حيث لغة المنطق واثارات الوعى لا تفهم ولا تستجاب .

لقد رأت نفسها وقد التفت بملاءتها المفهافة ، ووضعت البرقع ذى القصبة الذهبية على وجهها — ولكم تبدو ساحرة حين تضع اللثام . وأخذت تتخطر فى الطريق وهى تمضغ اللبان ، وتطرقع به بين شدقيها فى تيه ودلال . . .

وانها لترى نفسها تقترب من ذلك المكان الذى تعلم سلفاً أن متبولى يقف به ذلك الوقت من النهار . . . فإذا بها تحس شيئاً يدفعها من رجليها نحو مكانه ، وتحس شيئاً آخر يريد أن ينحرف بهما عن ذلك المكان ، وهى بين ذلك حائرة يندفع الدم إلى أذنيها وتضطرب خطوتها وتأخذها رعشة تكاد تصل بها إلى الاغماء ، وقد أوشكت أن تلتف قدماها إحداهما بالأخرى . ..

إنها لا تنظر ناحيته ، ولكنها تعلم أنه ينظر إليها نظرته تلك لفاحصة الكاشفة ، فكأنما هو بتلك النظرة ينفذ إلى صميمها يفحص استدارة جسدها هنا وهناك ، وهو يدق بالساطور ذلك لدق المتتابع الرتيب ، وعلى وجهه ابتسامة الخبير حين يميز « البضاعة » الطيبة التى تخفى مزيتها على سواه . . .

وإنها لترتعش رعشة قوية ، ولكنها تحس لذلك الحرج نشوة عاتية تتملكها وتغمرها وتغوص فى كيانها إلى الأعماق حينما يقول بلهجته البلدية : ميت حلاوة !

وتتسع الابتسامة التائهة على شفتيها حتى تملأ وجهها جميعاً ، ويحمر وجهها احمراراً شديداً ، ثم لا تلبث أن تنتبه فجأة ، فتحنى رأسها لتنظر إلى يديها وهما تعملان فى الطست ، كأنما هى توجس من كثرة الأحلام أن تصيبها عين شريرة ، أو لعلها أحست خجلا ساذجاً من نفسها أن تسترسل مع الأحلام وأن تستهويها الخواطر ذلك الاستهواء فتنصرف عن عملها هذا الذى تؤجر عنه ريالا كاملا فى اليوم ، تنفق منه على ملبسها وزينتها وتشترى من مدخره الحلى الذهبية التى توسوس كلما حركت يديها — وما أكثر ما تحركهما منذ اشترت هذه الحلى — فإن

أمها « مبروكة » قد كفتها القوت والمسكن بما تبيع من الفول النابت صدر النهار .

وظلت تدعك الغسيل بيديها وهى ناظرة إليهما ، كأنها تحاول تركيز انتباهها فى هذا العمل الدائب فلا يطير مع الأحلام فى منعطفات الطريق .

ولكن لا يلبث الطست والغسيل وحركة يديها أن تتلاشى كلها — ولا تدرى كيف — وإذا بها ترى نافذة صغيرة تطل على حارة نظيفة ، وقد صفت عليها أصص من الزهر والنعنع ناضرة عبقة ، وانسدل عليها ستار كذلك الذى تلمحه فى غرفة نوم منيرة هانم ، عجباً لهذه المرأة ، كيف تمط كلامها وتلويه فى فمها ذلك اللي العجيب فى لباقة وتطرٍّ كلما كان « الأفندى » فى المنزل ! كم تفتن هذه المرأة فى الخلاعة تقيد بها إلى جسدها ذلك الرجل المزواج الذى بنى قبلها بست نساء !

وإنها لترى نفسها وقدمدت يدها — يدها فقط — بل أطراف أصابعها من وراء الستار لتضع على النافذة صينية القلل ، وقد لمعت قللها من نظافتها وفاحت رائحة ماء الورد منها ، وإنها لترى من ثقوب الستار ذلك المراهق من أبناء الجيران مصفف

الشعر فى بزة أبناء المدارس المترفين ، وكيف يتطلع إلى هذه الأنامل ويتحرق إلى رؤية وجه صاحبتها . . . وأنها يومئذ لفاتنة كأنها لم تتزوج متبولى بعد ، ولكنها اليوم حصان مخدرة ، لا تخرج لعمل وقد سكنت إلى فحل يكفلها ويرعاها ، وإن كانت تسر دائماً أن ترى جمالها وفتنتها وأنوثتها تثير حرقات الرجال . . .

وإن الغرفة لنظيفة كبيوت التركيات ، ومفارش الأريكة والسرير لامعة — إنها ستفتن فى الغسل والتنظيف حينئذ سيدة لا مأجورة — وستقف خلف ستار النافذة تتسلى بغاد ورائح ، وبنظرة من الفتى اللهفان فى الشرفة المقابلة ، فى انتظار متبولى يعود من مجلسه مع الجدعان ، ليعقد معها ذلك السهر الشهى الذى ستملأ هى جوه سحراً ورغبة ودفأ . . .

وإنها لترى إخوانه « عترة الحى » يغبطونه على ما غدا فيه من أناقة ونظافة يلفتان النظر ، فإنه « الآن » يصمى قلوب عذارى الحى وإناثه أكثر من ذى قبل بهذا التجمل والتأنق اللذين ستعنى هى بهما عناية خاصة ، لتزيد نار الحاسدات المنافسات ضراماً ، والتفرد باللقمة المشتهاة فيه فوق الشبع لذة ومتاع . . .

وإنها لتعود إلى ابتسامة الرضى واللذة الساذجة بهذا الكيد الذى تثيره ، وهذا الفوز الذى تحسه وتجتهد فى توكيده والمكايدة به ، وتتسع ابتسامتها حتى يفيقها فرط ذلك السرور من حلمها ، فإذا الطست أمامها وهى دائبة بعد على الدعك والتصبين . . .

٣

سرحة فى فضاء شعرى !. . .

قام من ضجعة القيلولة ــ إذا صح أن نسميها ضجعة تلك التهويمة اليسيرة المبتسرة التى استغرق فيها متبولى فوق كرسى غير مريح فى قهوة « الحاج خليفة » ــ فجعل يحرك شفتيه كأنما يتلذذ ببقايا طعام فى فيه . ثم مسح على فمه بظهر يده وتثاءب وتمطى ، ثم بصق ، ونادى صبى المقهى ليحضر له فنجان القهوة السادة ..

وجعل ساقاً تحت فخذه على المقعد ، ومد الأخرى على الأرض أمامه يداعب بها طرف مركوبه الضخم ، وهو يتأمل هذه الحركة ، وكأنما قد راقه منظر قدمه العارية ، وما نبت فى أصابعها من شعر أثيث . . . وذكره ذلك برجولته البادية ، فهرش ثم فتل شاربه وهو ينظر إليه فى زهو ورضى !

وجاءت القهوة ، فجعل يحسوها حسو المستأنى ، وقد سرح بصره فى الفضاء أمامه ــ ولم يكن ذلك الفضاء الشعرى الذى سرح بصره فيه إلا خربة من خرائب الوقف يألفها الناس بين وقت ووقت فى هذا الحى الذى لم تنتشر فيه بعد سنة التخصيص فى المرافق والأوضاع ! ..

إن فيه لرجولة بادية ، وإن فيه فوق ذلك وقبل ذلك لإحساساً شديداً مركزاً بهذه الرجولة ومظاهرها ومدى ما ينبغي لها !.. فهو بهذا الاقتناع يتبع حواء و يطلبها ،ويسيل لعابه للفاكهة الناضجة أيان وقع عليها بصره ، تفاحاً كانت أو قثاء .. !

سرح بصره فى الفضاء الشعرى الذى أمامه فرأى نفسه مثار أحاسيس النضج فى كل ثمرة تحس نضجها وتتأهب للسقوط والالتهام متى رأت القواطع والأنياب وعضلات الفك القوية فى وجوه الاكلين . وأنه ليبدو ذا ناب قوية ومعدة تحسن تقبل الطعام وهضمه فى قدرة لا تخفى على صاحب الطعام الذى ينشد له أقدر الأكلين المتذوقين لحسن الطهى والتتبيل !

ورأى الثمرات أمامه نواضج كلهن ، ما فيهن ثمرة إلا رفت لنابه بعين ، أو رنقت لفكه القوية بطرف ، أو هفت إلى معدته القوية أن تحتويها إلى الأبد فى لهفة وحنين ! ...

ويتحلب « شفطة » من القهوة متلمظاً فى تلذذ ظاهر ، كأنه يتذوق من تلك لثمرات التى تستهويه على السواء ، ولا يرى فى أيها اختلافاً عن سائرها ، لأن ما يستهويه فى جميعها إنما هو النضوج ونداء اللعاب والأنياب ،

ثم استقرت أمامه صورة « نعيمة » بجسدها الذى يرى تحت الملابس استدارته رأى العين ، ويكاد يتحسس بيديه الخشنتين لين معاطفها و بضاضتها . . . وإنه ليتشمم فى خياشيمه لها ريحاً هو ريح الثمرة الناضجة . . . وقد يكون ريحاً غير جميل ، ولكنه يخاطب الغدد والأعصاب ، ولغير خطاب الجمال خلقت لغة الغدد والأعصاب

ورأى خطرتها تلك فى ملاءتها ، تشعر بالمكانة التى وهى لا تنحدر إلى الحضيض من حساب طبقات الناس كافة ، ترتفع إلى الصدر فى ذلك الحى الذى يعيش على عرق السواعد والجبــــاه .

وأن سمات السيادة ، من تلك الملاءة والبرقع ذى القصبة الذهبية ، إلى الحلق والأساور العديدة التى توسوس فى يديها وهى تصلح عامدة من لفة الملاءة فى جانب الطريق لكى تكشف عن ثوبها المشجر من الحرير الصناعى اللامع ، لتستولى كلها على مشاعر متبولى الذى نشأ فى الحضيض ودرج على إكبار سمات العزة والسيادة . .

وإنه ليراها ثمرة مشتهاة إذن لا زهرة مونقة رفافة ، وإن رغبته

لتزيد فيها بتلك البوادر من علامات اليسار التى تفتن مثله وتجتذبه لا انجذاب طامع أو حاسد، بل انجذاب مكبر شيئاً ما لهذا الذى يستهويه ويرغب فيه .

ورأى الثمرة فى شروده ذاك ببصره وقد تضرج خداها بحمرة فوق مالها من حمرة النضوج ، واهتز جسدها فوق اهتزازه بمشية الدلال ، كلما اقتربت منه ، ورأى الرغبة فى إغضائها تحت بصره ، وحرصها على المرور تحت ذلك البصر أصيل كل يوم أو قبل الأصيل . . .

وابتسم راضياً عن نفسه ، وشرب بقية الفنجان . . .

٤

دعاء الوليد

استيقظ مضطرباً على صرخة حادة من ذلك الطفل الذى يرقد إلى جواره فوق السرير فيزحمه وزوجه فيه ، فتقلب فى مرقده برماً ، وهو يفتح عينيه ويقفلهما بحركة سريعة يتبين بهاصور الأشياء حوله فى ضوء مصباح خافت معلق قبالته على مسمار فى حائط الغرفة المغلقة النوافذ الممتلئة برائحة الكربون المحترق فى تلك الليلة ، وكانت من ليالى الشتاء التى تدأب نعيمة فى مثيلاتها على تدفئة الغرفة بوقود من الفحم النباتى تموه رائحته « ببخور السيدة » « وفسوخ الإمام » . . . .

وتبين فى ذلك الضوء الخافت هذه الطفلة الرضيع التى لا يكاد يحسبها المرء مخلوقاً حياً لولا أنفاس ضعيفة وصرخات قليلة حادة منقطعة تند عنها على غير ترقب أو انتظار . . وتبين إلى جانبها تلك الأم المعروقة اليد والساعد ، المتغضنة الوجه بعض الشىء ، المتهدلة الثدى والأوراك ، وقد اتخذت فى نومها وضعاً لا إرادياً باعد بينها وبين إغراء الأنوثة . . .

يا للمرأة ! إنها لم تستيقظ لصراخ ابنتها بعد كد النهار عاملة

فى بيتها إثر عملها فى بيوت الناس بالكراء . . . لقد عجل التعب لها بعلامات السن !

وظل يتفرس صامتاً فى هذه الكتلة الحيوية الملقاة إلى جانبه وهى تغط فى نومها غطيطاً غير رتيب ، بينما ابنته ـ تلك الصغيرة ـ تبكى وتنشج فى غير هوادة ولا انقطاع . . . وأما هو فقد كان يتأمل ساكناً فى هذا المنظر ، وقد رفع أحد حاجبيه دون الآخر قليلا ، وقد علا وجهه هدوء لولا التبلد لكان تفكيرا . . .

وأخيراً وضعت الرضيع إبهام يمناها فى فمها وسكتت ، وأشاح هو ببصره ونظر إلى السقف ، وأخذ ينقر بأصابعه على عمود السرير الحديدى إلى جوار رأسه نقراً متوالياً خافتاً ، واستغرق فى شرود طويل . . .

وعادت به ذاكرته إلى ليلة الأمس ، إذ آب بعد السهرة إلى الدار . إنه ليذكر الآن تماماً ـ فإنه لم يفرط فى الشراب هذه الليلة ـ كيف وقف طويلا فى الظلام أمام الباب ، فى الجانب الآخر من الحارة ، يتطلع إلى نافذة هذه الحجرة وبابها ، ويسأل نفسه :لماذا هذا المكان بيته دون غيره من هذه البيوت عن يمين وعن يسار ؟ ! لقد أحس بعض الكآبة وعدم الاكتراث

بالعودة ، ولكن كان لا بد من عودة كما هو الحال فى كل ليلة . . .
ولماذا يعود ؟ هكذا !

وإنه ليذكر الان تماماً كيف رفس قطة « أم صالح » التى وجدها رابضة بجوار الباب تلك الرفسة القوية فى غيظ . . . ليس يدرى لماذا . . . كأنما هى التى كتبت عليه أن يعود كل ليلة ، وأن يعود إلى هذا المكان دون غيره . . .

وهذا الطعام الغث الذى رآه تحت المصفاة على الشباك . . إنه لا يزال هناك فى موضعه حيث أودعته له نعيمة قبل أن تنام .. أتحسب لأنها تدفع ثمن الطعام فى هذه الأيام أنه يأكل مثل هذا ؟ لماذا لم ترمه لقطة أم صالح الجائعة . . لعنة الله على « أم صالح » . . وعلى قطتها وعلى آلها أجمعين ،

لقد كانت ليلة الأمس الليلة الخامسة أو السادسة — ليس من عادة متبولى أن يدقق فى الحساب كثيراً ، فقد تكون العاشرة أو العشرين .. لافرق ! — فى صحبة الإخوان فى بار السبعة ثم فى مجلس الأنس والانشراح . .

حياة سريع مرور الوقت فيها ، وفى متعة أيضاً . . . فقد عاد لعابه فى تلك الليالى القليلة إلى المسيل بعد أن كاد يركد هذا العام

الأخير من الزواج ! . . أهذه هى الأنثى التى فتنته مَنذ ست سنين فبنى بها ؟ وهل هذه « الدربكة » الراكدة الرتيبة هى معيشة الأسرة ؟ وهذه الطفلة أيضاً : كيف انشقت عنها الأرض على غير انتظار ؟

ولوى شفتيه ، . .

نعم إنه ينفق كل كسبه فى تلك الحياة الجديدة ، ولكن لا بأس ، فنعيمة كانت تعمل فى البيوت غاسلة بالكراء ففيم تشبثها اليوم بسمت السيدات وهى لن تزيدهن كثيراً . .

واستدار بوجهه إلى الحائط ، وبدأ النعاس يعاود جفنيه ! . .

٥

مواء القط . . .

قطع عليها إغفاءتها مواء قطط فى الحارة ، كفعل القطط دائماً حينما تتصايح لشأن لها فى سكون الليل . . . فاعتدلت فى جلستها على الأرض حيث كان قد فجأها النوم ، ونظرت إلى السرير لتستوثق من أنه لم يعد بعد ، ثم قامت إلى مرآة مصباح البترول لترى نفسها ، وهل اضطرب شىء من زينتها تلك التى احتفلت لها أعظم احتفال ليلتها هذه ، فوضعت — لأول مرة فى حياتها — من صباغ الأحمر الرخيص فوق وجنتيها وشفتيها الشاحبتين ، وتكحلت وحنت يديها وقدميها ، ووضعت من عطر الياسمين « والتمر حناء ! »

لقد هالها ذلك الانصراف من متبولى عنها ، إثر هدأة الشبع بعيد الزواج ، حتى لقد حسبتها هدأة الاطمئنان والألفة ، فإذا الطريق ينشعب هذا الانشعاب الغريب على غير انتظار منها .

ولقد عادت إلى الغسل راضية ، ولقد حملت وحدها عبء نفقة المسكن والطعام لثلاثتهم راضية كذلك ، ولكن الانصراف

زاد ، وزاد مع الانصراف اشفاقها من الزيادة فيه ، فأخذت ترضاه ، حتى لقد باعت فى العيد الكبير سواراً ذهبياً واشترت له بثمنها طاقماً كاملا من الملابس ، وجلباباً من الحرير وحذاء جديداً وجورباً ومنديلا حريرياً أحمر يضعه فى جيب الجلباب ترضية له أو تبكيتاً كالترضية ، فكأنما فتحت له بذلك باباً كان من قبل يراه مغلقاً أمام ناظريه . . .

فأخذ يسومها المال حيناً بعد حين ، وهى لاتضن به خوفاً من فقدانه ، كأنما هى لم تفقده بعد كل الفقدان . . . ولكنه مراء النفس تنزل عن كل شىء لتشترى بذلك الخسران مؤنة الاعتراف بالخسران ،. . .

أهن خير منها هؤلاء الخليلات من بنات الهوى ؟

أهن أجمل منها ؟

أهن أكثر حبًّا لهُ منها ؟

لقد تسللت – وقد غطت وجهها – إلى ذلك الحى حيث يجلس النسوة عل عتبات الدور ، فرأت ماذا؟

مساحيق على وجـــوه ، وخرزاً لامعاً على أثواب خليعة . . .

وحركات وإشارات تؤدّى فى غير داع وإن كانت ترمى إلى غرض . . .

وأسرعت فى طريقها . . . وقد انطبعت فى مخيلتها هذه الصورة الصارخة الأصباغ .

عادت فمرت ببائع الأصباغ الرخيصة ، وبائع الكحل والحناء ، وببائع العطر الفاقع فى الزقاق المجاور ، ودخلت الحمام وأخذت زينتها ثم استشارت مرآة مصباح البترول بعد أن عصبت رأسها بمنديل مرصع بالترتر استعارته من جارة لها ، فأفتتها المرآة أنها كإحداهن سمتاً وشارة . . . فابتسمت راضية وجلست على كرسى وطىء كجلسة إحداهن ، وقد رفعت فضل ثوبها فوق ركبتيها — ياللمسكينة ! لقد أضحى وركها متهدلا من أثر الإرهاق بين الطست والمنزل وسوء الغذاء !

بهذا المنظر الهزيل فى فتنته ، الهازل فى صورته ، الفاجع فى دلالته ، جلست نعيمة تنتظر متبولى عندما يعود من السهرة ، لتفتنه عن خدينات اللهو وصديقات الشارع . . .

وفى هذه الجلسة غلبها النعاس ، حتى أيقظها تصايح القطط لشأن لها فى الطريق . . . وجعلت تنصت لعلها تسمع وقع أقدامه

ولكنها لم تسمع إلا ذلك المواء الدائب الغريب ، فجعلت تنصت له فى صمت وهى تبتسم فى بلاهة . . . حتى دهمها النعاس مرة أخرى وهى على هذه الحال . . .

٦

يقظة الصباح

لم تجتذبه مهارج الزينة التى اصطنعتها له ، بل لقد أثارته إلى ما لم يقترف معها – رغم كل شى – ، وهو ذلك الضرب المبرح المغيظ الذى انهال به عليها عندما رآها على هذه الحال ، بعد أن كان يكتفى قبل بالإعراض فى مسالمة وسكون .

« أولئك بنات الهوى . . . أرغب فيهن ؟ نعم ! أذهب إليهن دونك ؟ نعم ! أما أن تتشبه بهن امرأتى . .فكلا ثم كلا ! تلك سبة وكفران مبين ! »

إنه لم يقل هذا تماماً...فما هكذا تفكير الرجل فى دقة ووضوح ولكن هكذا كان منطق عواطف الرجل . .

لم يعد أمامها من باب تطرقه إذن إلا الأشياخ وإخوان العفاريت والجان ، وللشيخ رجب سمعة لو صدقت فهو ذو قدرة لا تخيب !

وسمعت أخيراً وقع أقدامه وقد قارب الفجر أن يطلع ، فسارعت إلى ذلك الماء المسحور الذى أعطاها إياه الشيخ رجب أمس ، فدلقته أمام عتبة الباب من الداخل حتى يخطو فوقه ، وهى

واجفة القلب راعشة اليد ، ثم انكفأت إلى السرير فاصطنعت النوم ، وقد واربت جفنيها قليلا لترى ما هو صانع . . .

ـ وافرحتاه وشكراً لله ، لقد خطا بقدميه كليهما فوق الماء المسحور ، ولا يلبث السحر أن يفعل فعله ، ويعود متبولى إلى سابق حاله . . .

هاهو يمشى على أطراف أصابعه نحو السرير . . عجباً ! إنه الليلة غير مخمور ، سرك باتع ياشيخ رجب ، إنه يحدق فيها وفى الطفلة فيطيل التحديق . . لماذا ينظر هكذا ؟ ولكنه هادىء الأسارير . . هاهو يصعد ويرقد . . .

* * *

نظر إلى ذلك العرق الخشبي الممدود فى السقف الذى طالما نظر إليه كلما صحا فى الليل وجال بخاطره أمر من الأمور . . لقد كانت هذه أول ليلة منذ شهور عديدة لم يسهرها مع الإخوان فى بار السبعة ثم عند « عزيزة الزعكة » أو « إحسان الجحش » .

لقد قضى هذه الليلة وحيداً فى قهوة « الترسو » فى محطة « باب الحديد » . لا يدرى لماذا ؟ إنه مكان لم يطرقه من قبل ،

فهو لم يغادر القاهرة فى حياته أبداً ، ولكنه هكذا وجد قدميه تسيران به .

لقد مل هذه الحياة . . ماذا ؟ بل إنه لم يعد يطيق هذه الحياة لقد فرغ ثمن آخر سوار هذه المرأة الراقدة الآن إلى جواره ، بعد حلقها وكردالتها وقصبة برقعها وخلخالها القشرة . . .

لقد كانت تستبقيه بالثمن ، وبالثمن أيضاً كان هو يحصل على غيرها ويستبقيهن ! .

لم يشعر باشمئزاز ، كلا . بل بمجرد رغبة فى الانصراف عن هذه الوتيرة ، فإنه يريد أن يرى نفسه مرة أخرى قبل فوات الأوان « عترة » ومنى صبية غريرة بضة لم تعرف الرجال . . .

وذكره هذا بأول بخته مع نعيمة . . .

ونظر إليها طويلا . .

كم تغيرت الأيام ! أما هو — معاذ الله — فلم يتغير !

وماذا يستطيع هو مثلا أن يصنع للقدر إذا شاء أن تتغير الأيام ؟ ألعله قادر أن يغير المكتوب ؟

وهز كتفيه وهو راقد ، وقال لنفسه بصوت يكاد لايسمع :

— أبداً !

ونظر فوق رأسه إلى (شيش) النافذة ، ثم دفع بيده فى كتف امرأته — التى لم تكن قد نامت بعد — وهو يصيح بها ليوقظها :

— خلاص يا امرأة خلاص ، لقد طلع النهار !

٧

رتيبة . . . بائعة اللادن

فى خفة ظاهرة أقبلت ترص بضاعتها صدر الضحى ، على الرصيف المواجه لمكتب البريد ، وهى تدندن بأغنية شائعة فى تطر وتحرك مع النغم رأسها ، فيهتز لتلك الحركة ما علقت فى رقبتها من حبات الكهرباء الكبيرة ، ويتماوج الترتر الكثير الذى يتدلى من عصبتها الخزارية اللون الماثلة على جبهتها السمراء لتسمح لتلك الخصلات من الشعر ذى الصباغ الأصفر الفاقع أن تبدو للناظرين فينسجم لونها مع السن الذهبية فى جانب الفم المفتوح دائماً إما بالابتسام ، وإما بالكلام ، وإما بمضغ اللبان ! وسوت صدرها بيديها حتى تبدو تفاصيله من ذلك الثوب الأسود غير المحبوك الذى لا يخفى نسيجه القميص الأصفر من تحته . .

ومر بدير بائع الصحف الأعمش ، فمال عليها وهى جالسة على الرصيف تعبث بميزانها الصغير ، وهمس لها بضع كلمات فى تظرف ، وهو « يربش » بعينيه ، فضحكت البائعة الصغيرة ضحكة ممطوطة رنانة وصاحت

— شوفى ياختى الواد ، اختشى يا واد انت ، يادى النيلة !

وانطلق « الواد » فى طريقه مسروراً بهذه الغزوة الصباحية ، وغادت هى إلى أغنيتها الشعبية ، وإلى نش الذباب ، وهى تنظر بين لحظة وأخرى إلى منعطف الطريق كمن ينتظر شيئاً معلوماً . . ثم أخذت تصلح من جلستها ومن شعرها ،وهى تتشاغل بالنظر إلى اللادن ، ثم وقفت أمامها كسوة صفراء ، فرفعت نظرها كمن فوجئ بما لا يتوقع ثم قالت :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . . . صباح النور ياسى ابرهيم . .

وأجابها صاحب الكسوة الصفراء ، وهو يبتسم عن فم واسع وأسنان سود تحت شارب حديث الصباغة ظاهرة فيه تلك المعاجين التى تستعمل فى التطرية والتثبيت ، وفى صوته بحة كشنشنة الإناء المشدوخ :

ـ . . . الفل على عيونك !

ولم تكن ترى عينيه ، لأنهما بحيث لا يميزهما المرء بسهولة . . ولكنها أحست أن تحت هذين الحاجبين المصبوغين عينين تحدقان فيها بخليط من الإعجاب والسرور والرغبة . .

وهى لا تدرى لماذا انصرفت عن كل ما فى وجهه المائل فوقها وهى جالسة ، لتنظر فى اهتمام إلى الزر الكالح المتدلى فوق أذنه

اليسرى ، والذى كان يهتز مع كلماته وضحكاته التى تشبه رنين الإناء المشدوخ ، ولعلها كانت تفكر فى نفسها : لماذا لا يصبغ هذا الرجل زر طربوشه أيضاً ، فإنه هو الآخر قد شاب ! . .

ــ فصين لادن من يدك الحلوة !

وناولها قطعة من ذات نصف القرش ، وضعها فى كفها وهو يغرسها فى لحم يدها غرساً .

ثم تناول اللفة الصغيرة ومشى ، وهو يزن خطوته وزناً دقيقاً ، وتابعته هى بنظرة فيها زراية وضحكة مكتومة وهى تقيس من ظهره قامته التى أجهد نفسه مطها مطاً ، وهمست بكلمة ذكرت فيها بعض أهله ، ثم رفعت صوتها الرنان تنادى على « اللادن » ، حتى يسمع وهو فى مكتب البريد نبراتها الممدودة ، لتزيد شيخوخته المموهة اضطراباً وحرقة ، ولتزيد فى المساء مقطوعيته من الصباغ والمعاجين ومجددات الشباب وبقية ما يبيعه العطار لمن يحسون وطأة الزمن وهم بعد متشبثون بأطوار الصبا فى إصرار متزايد ولهفة تشبه الجنون .

واعتدلت فجأة فى جلستها ، وغطت بفضل ثوبها المتهدل مفرق ثدييها ، وغضت من بصرها فى اصطناع يقرب من

الصدق ، ثم اقتربت منها خطوات المركوب الضخم ووقع عليها ظلٌ منبسط عريض ، ووضع متبولى طبليته إزاءها فى سكون وقال:

– كيف الحال ؟ •

فرفعت إليه بصرها فى تطلع تموه له بالحياء ، ثم غضته سريعاً وقالت ولم تزد :

– معدن . . .

وبرم هو شاربه فى زهو . . . وأخذ يتفرس فى هذا الشعر المصبوغ ، وهذه السن الذهبية ، وهذا الثوب الذى يشف عن القميص الليمونى المشغول ، وفى هذه الخلاعة الخافية البادية ، وهذه العين التى لا ترتفع إليه لأنها تحس طغيان رغبتها فى التعلق برسمه الوسيم . . . فابتسم وتنحنح ، وجعل يخبط بساطوره « الطبلية » الغليظة فيحدث صوتاً متتابعاً خشناً ، وباع لهذا الزبون وذاك ساعة من الصباح ، وهو لا يحدثها ولا تحدثه إلا نذرا ، وإلا حين يقدم إليها بعضاً من طيبات بضاعته بين فترة وأخرى . . .

راقه فى استواء الكهولة أن يرى خلاعة بادية تتخفى بقدر ما تعفى موروثاته من التجريح ، وتبدو بقدر ما يوائم ما فوق

الثلاثين ودون الأربعين من إثارات شبيهة بما عهد فى النساء المدربات على استهواء الرجال ، ومن تحشم يرضى أثرة الرجولة ويشعرها بمنعة الحوزة وصيانتها وبوجود الحمى الذى ينفرد هو بالسهر عليه .

وبرم شاربه وهو ينظر إليها فى زهو وكأنه يقول :

— أعلى أنا يجوز هذا الحياء ؟ أنا وحدى أفهم هذه الطراوة وهذا التكسر فى الجفن وهذا التخلع فى الجلسة والإشارة . . . إن هذه الطراوة ترضينى ، لأننى أنا أعرف معناها .

وسعل فى صوت جهير ، سعال من يعرف كيف يعبر عن قوته واعتزازه بها حتى عن طريق هذا العرض من أعراض المرض والإعياء . . .

وحمل طبليته وقال لها :

— بنت يا رتيبة . . . أمك فى البيت ؟ العصر يمكن أفوت. . . ابقى قولى لها . . .

ومشى يضرب الأرض فى مشيته ، ولو أنه كان ذا ذنب لكان اهتزاز ذلك الذنب وئيداً فى قوة واعتداد ! . . .

٨

العودة من الدفن . . .

انقطعت الجلبة بعد انصراف المعزيات من الغرفة العارية تماماً إلا حصيراً مفروشاً على أرضها ، وموقد البترول فى ركن منها ، والطراحة والمصباح الصغير ذى المرآة على مسماره المعهود ، وقليل من آنية النحاس . . . قليل جداً : مصفاة وحلتان وصينية القلل والستارة الناصعة التى لم تشأ نعيمة أن تفرط فيها كآخر علامات المتعة والستر ، ترفعها للعالم أجمع من هذه النافذة . . .

لم تقم لتغلق النافذة كما كانت تفعل كل مساء ، فإنها الليلة متعبة قليلا ، وتحس جسمها ثقيلا كأنه كيس من الرمل ، ولم توقد مصباح البترول لأنها متعبة ولأنها أيضاً لا تريد مزيداً من النور فإن ضوء القمر الباكر يكفى ، ثم هى لا تريد أن ترى شيئاً ما ، ولا يعنيها أن ترى شيئاً ، فهى جالسة فى الركن على الأرض هكذا ، وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها ، وأسندت رأسها فوقهما ، وأغلقت عينيها كمن يهم للنوم . . . ولكنها لم تكن نائمة .

وكل ما هنالك أنها تجهد ذهنها لتفهم ما دار حولها وما حدث

لها طيلة ذلك اليوم . . . إنها تحاول أن تفهم ، وأن يكن كل ما حدث أموراً بسيطة واضحة سهلة الفهم جداً . . . إنها تعرفها كلها ، كل أمر منها على حدة ، ولكنها مع هذا لا تفهمها .

ونظرت حولها فى الغرفة . . . لقد كان ضوء القمر الباكر أكثر مما يلزم لرؤية كل شىء فيها . . .

لقد كانت راقدة هناك ، فى هذا الركن البعيد من الغرفة ، عند ما دق بابها فى الصباح ، وقيل لها إن أمها «مبروكة» قد ماتت فى المعزل . . .

لقد وجمت ساعتئذ قليلا ، وكررت السؤال :

— ماتت ؟ ماتت حقيقة ؟ !

وهل يمكن أن يموت الإنسان إلا موتاً حقيقياً ؟ لقد خيل إليها مع هذا أن أمها الحدباء العجوز يمكن أن تموت ، وأن يكون موتها غير خالص ، فتجلس رغم موتها فى مكانها المألوف تبيع الفول النابت وتنظر إليها بعينها الوحيدة التى لا تزال ترى بها نور الدنيا نظرتها السريعة النافذة تلك ، ثم تهز رأسها وتقول :

— والله انبريت يا نعيمة يا بنتى ! لوكان عاش لك أخوك

عبد الحى ! .. الرجال أقوياء ما لهم إلا القوى .. الصبر طيب يا نعيمة ....

لقد كان يخيل إليها أن موت أمها ليس بحارمها من هذه اللحظات القصار مع أمها ، ومن هذه اللمسات الرفيقة التى تعودتها منها يوماً بعد يوم ... ولكن موت أمها كان موتاً خالصاً .

لن تستطيع العجوز المسكينة أن تنظر إلى ابنتها إذن هذه النظرة ، وأن تجلس بحدبتها وقصعتها فى جانب الطريق ...

لا تذكر هل صرخت عند ما أيقنت بموت أمها الخالص المؤنس هذا مع الصارخات من الجارات ، ولكنها تذكر أن ذلك اليوم كان زاخراً بالصراخ طول الرحلة إلى المعزل .

وهناك لم يدعوها ترى أمها ... فعادت فى ذلك الموكب الصارخ إلى هذه الحجرة نفسها ، لتعقد مجلس العزاء ...

وفى هذا المكان عينه جلست ، وجلس النسوة من حولها ، يصرخن شوطاً بعد شوط ، وقد تطوعت إحداهن بالنواح ، يوقعن على نغماته الحزينة بالالتدام والتصفيق الرتيب .

لقد سمعت فى أمها ذلك اليوم من الصفات ما لم يكن يخطر

ببالها أن توصف به أمها يوماً من الأيام . . .

ـ يا خسارتك يا مبروكة يا أم عبد الحى ! يا صغيرة يا اختى يا أم عبد الحى ؟ يا حلاوة لفتك فى الملس يا أم عبد الحى ! . . .

لقد كانت تنظر إليهن ببلاهة ، وهن يقلن هذا ، وتحدق فيهن ، ولكنها لا ترى على وجوه القائلات سخرية ولا شماتة ، بل كن يعنين هذا القول . . .

ولا تدرى لماذا ودت من صميم قلبها لو أنهن ذكرن لأمها حدبتها تلك التى انفردت بها دون سائر الأمهات . . . فإنها لتحس أن ذكر تلك الحدبة خليق أن يثير اللوعة فى قلبها على أمها الشوهاء أكثر من كل وصف آخر بالأناقة والحلاوة وحبكة الملبس الملفوف . . .

لماذا لا يذكرن أنها عجوز ؟ فإن ذكر هذا كان أوجع للقلب من وصفها بصغر السن وغضارة الإهاب . . .

وتنهدت وهى تذكر هذا . . .

من لها بنظرة أخرى من عين أمها الواحدة ، ونظرة إلى حدبتها الكبيرة الظاهرة التى لم تكن تحاول اخفاءها — لأنها

لم تكن لتخفى ! — ومن وجهها الذى غطته التجاعيد وخطوط الزمن .

هذه الأسنان التى سقطت ، والعظام التى برزت والتجاعيد التى ارتسمت فى عمق على جبينها وخديها . . . أوجع لقلبها من كل صفات الجمال والشباب ، فإن الجمال والشباب تفه كله . . . تفه ومضحك أيضاً ، حين يقاس إلى هذه المأساة التى تحسها فى قلبها بفقد تلك العجوز الشوهاء فقداً لالقاء بعده . . .

وانسابت فى سكون على خدها الدمعة الأولى التى ذرفتها على أمها ذلك النهار . . .

وقامت تفتح لطارق دق الباب .

إنها « أم صالح » جارتها ، ترد إليها ابنتها التى قاربت العام من سنها والتى كان بنات أم صالح الكبيرات يعنين بها اليوم كله . . .

لقد كانت نائمة ، فأخذتها « نعيمة » على ركبتها وجلست حيث كانت جالسة وأخذت تنظر إلى نقش ملون باهت فى الحصير . . .

ماذا بقى لها من دنياها ؟

هذا الحصير ، والحشية ، وهذه الآنية من النحاس ، والموقد والمصباح ، وهذه البنية ، والستار ذى الثقوب . . .

ونظرت إلى الستار . . .

وذكرت فى هذه اللحظة — لا تدرى لماذا ، فليس هذا أنسب الأوقات لمثل هذه الذكريات ، ولكن الإنسان يذكر أحياناً أشياء فى أبعد الظروف عن مناسباتها — ذكرت كم تمنت هذه الستارة طول صباها ، وكم تمنت معها للجيران ابناً ظريفاً مراهقاً مصفف الشعر يذهب إلى المدرسة ، ويجلس عصر كل يوم فى الشرفة المقابلة يتصيد نظرة منها وهى تضع صينية القلل أو تسقى أصص الزهر والنعنع العبق المصفوفة على نافذتها الصغيرة . . .

لقد كانت لها الستارة ، وصينية القلل ، وأصص الزهر والنعنع ، أما الجيران فلم يكن لهم ابن جميل ولا غير جميل . . .

وامتلأ قلبها بالسخط والنقمة على حظها التعس . . .

ولا تدرى لماذا نقمت هذا على الدنيا ذلك الحرمان الذى يبدو تافهاً لا يمت إليها بصلة مباشرة وثيقة . . . لقد أحست بالنقمة كلها تتجمع فى صدرها ، هى التى لم تحس نقمة كبيرة على

الدنيا عند ما أيقنت بموت أمها ... موتاً خالصاً أيضاً ولا رجعة فيه .

أما أصص النعنع والزهر فقد أتلفها صبيان الحارة الشياطين ، ولكنها هزت كتفيها ، فما يعنيها الآن هذا ، والجيران ليس لهم ولد ، بل كلهم بنات ، بنات ، بنات دائماً وفى كل مكان...

وطفقت تبكى فى مرارة وعنف ... حتى دهمها النوم وهى جالسة ، وابنتها نائمة على حجرها ، وقد جفت دموعها على خدها الكالح الحزين ، وضوء القمر الباهت قد غطى المكان ...

٩

الحاج محمود قصير الديل . . .

عادت بحملها الثقيل إلى المنزل

لقد كانت تحمل ابنتها ، ولكن الناظر إليها من خلف وهى سائرة ، كان يحسبها تحمل عشرة أضعاف ما تزن هذه الطفلة الهزيلة الصموت عن كل مناغاة إلا صرخات منقطعة قصيرة تسكت فجأة كما ارتفعت فجأة ، وإبهام يمناها فى فمها معظم الأحيان : يقظى ونائمة . قاعدة وقائمة .

لقد كانت تحمل فى الواقع أيامها وابنتها وتعب يوم آخر إلى الغرفة العارية .

ودخلت فشقت طريقها إلى النافذة ففتحتها ، إلى موقد البترول فأوقدته ، وانصرفت إلى عمل قهوة الغروب ، لتقرأ أيضاً طالعها فى الفنجان كما تعلمته من جارتها العجوز « أم صالح » .

وسمعت نقراً خافتا على الباب ، كأنما صاحبه متردد بين الدخول والإحجام .

وأنزلت « التنكة » من فوق الموقد ، وهى تسأل نفسها من

يكون الطارق ، فليس هذا حس طرقة أحد ممن تعرف من الجارات واللواتى يرتدن حجرتها كل مغرب وعشية للثرثرة ، أو لاستعارة قليل من الملح أو « تلقيمة » بن أو موقد البترول « غلوة واحدة بس » .

ومضت فى عجلة واستطلاع تفتح الباب للطارق الذى لم يكرر الطرق على غير عادة سكان هذا الحى إذا أنسوا انصرافاً عن استجابة الطرقة الأولى .

وقرأها السلام رجل فيه كبرة وتوقر ، وفى وجهه شىء من التوجس يحاول اخفاءه بابتسامة واسعة لا معنى لها مع تلك النظرة القلقة التى ألقاها عليها وعلى الغرفة من فوق كتفها فى سرعة ثم ردها إلى وجهها ثانية .

ودعته إلى الدخول ، وإلى الجلوس فوق الحشية التى أضحت أثاث الغرفة الوحيد عدا الحصير وآنية النحاس والستار وموقد البترول .

وجلس الرجل القرفصاء ، وجعل عصاه بين ركبتيه ينكت بها الأرض ، وهو ينظر إلى حذائه البالى ذى الرقبة و« الأستك » ، ثم قال كمن يريد أن يقول شيئاً يقطع به السكون .

ـــ سلامات يا ست نعيمة . . .

ـــ أهلا وسهلا ، حصلت البركات . . .

وخصته بفنجان القهوة من دونها ، وتربعت على الأرض قبالته وهى تنظر إليه نظرة استطلاع فاحصة .

ـــ أنا الحاج محمود قصير الديل . . . شيخ الحارة .

ـــ أهلا وسهلا . . . خير ان شاء الله .

ـــ خير . . . أى نعم خير . . .

وشرب بقية الفنجان جرعة واحدة ، كأنما يريد أن ينجز هذه المهمة قبل أن يتكلم فى موضوع حضوره فينقطع عليه طريق شرب بقية الفنجان . . .

ومن يدرى . . . فلعلها ساعتئذ تخطفه من يده قبل أن يشربه ، أو تصرخ فتلم الجيران والجارات ، ولا يبقى أمامه من سبيل وسط هذه الضجة لشرب هذا الفنجان المغرى ذى الرائحة الفاغمة . فلقد شهد مثل هذا فى مثل هذا الموقف ، وعلمته التجربة الطويلة أن يتوقع أى شىء وألا يستبعد أمراً من الأمور .

ومسح فمه بظهر يده ، وهو يحرك شفتيه مستجمعاً بقايا القهوة

من بينهما متحلباً إياها بلسانه ، ثم تنحنح وقال بسرعة عجيبة لا تنتظر ممن كان فى مثل سنه ، كمن يخشى أن يقف به لسانه دون نهاية الشوط لسبب من الأسباب :

— كل شىء قسمة ونصيب ... وإلا ماذا ؟ أى نعم قسمة ونصيب ... النهاية بقى .. خلاصة الكلام إن « سى متبولى » ... إيوه سى متبولى بعث لك الورقة هى معى وعلى كل حال ربنا عنده العوض ، وانت لا تزالين شابة والرجال كثير ... ويمكن يكون خير يا بنتى ... ؟ أى نعم يمكن يكون خير ... ولعكم تكرهون شيئاً ... وإلا ماذا ؟ يمكن يكون فيه عدل فى واسع علمه ... هى قسم ... قسمة ونصيب .

وانصفق الباب ... وكانت الورقة مطوية فوق الحشية القذرة ، وكانت هى تحدق فى الباب ، وهى تصغى لوقع خطواته الثقيلة مسرعة يخالف بينها بوقع عصاه على أرض الحارة الصماء ...

أهذه هى النهاية إذن ؟ ...

ألهذا كانت زيارته لها أول من أمس ، بعد غيبة طويلة ، ومبيته معها ، وترفقه بها تلك الليلة فى حال كان قد انقطع عهدها

بهمن زمن ، حتى تجدد لديها الأمل أن يكون قد تشوق إلى محاسنها .

محاسن ؟ أى شيء هـــذا الذى بقى من جسدها الهزيل المتداعى ؟

لقد كان لقاء الوداع . . . كمن ينظر فى خطاب قديم لا قيمة له ، ليستوثق من تفاهة أمره قبل أن يمزقه أو يلقى به إلى النار.

لقد كانت تنظر إلى الباب الذى أغلقه الحاج محمود خلفه ، وظل بصرها معلقاً بالباب المغلق الذى خرج منه الحاج محمود كما خرج منه رجلها منذ يومين . . .

رجل خرج وأغلق الباب وراءه . . . وخطواته السريعة ترن مبتعدة حتى تتلاشى . . .

ماذا فى حياتها الآن غير هذا ؟ . . .

وتنهدت ، ثم حولت بصرها إلى « حياة » النائمة فوق ركبتيها . وأخذت تنظر إليها فى بلاهة وصمت ، وقد خيم الظلام على المكان . . .

١٠

هدية القدر . . .

قاربت الشمس أن تغيب ، وهى جالسة على طرف الطراحة وقد اعتمدت رأسها على راحتها ، تنظر إلى ركبتها أو يبدو كأنها تنظر إليها ، ثم تلتفت بين حين وحين لتلقى على الطفلة الراقدة على مقربة منها نظرة قلقة غامضة فيها غير قليل من التبلد وعدم الإدراك . . .

لقد كانت الفتاة نائمة نوماً غير شاذ فى مظهره ، فهى لا تتلوى ولا تصرخ . . . ولكنك لو دققت النظر فى وجهها لوجدت دملا صغيراً بين عينيها المغمضتين ، هنا فى أعلى الأنف حيث يتصل بالجبهة .

كان دملا صغيراً كغيره من الدمامل الصغيرة التى يمتحن بها الناس والأطفال خاصة فى مثل هذا الحى .

ولكن الفتاة عافت الرضاع منذ يومين ، وانقطع أو كاد ذلك الصراخ الذى تعود أن يند عنها فجأة وينقطع كما ارتفع فجأة ، وهى اليوم ساخنة لم تفق من نومها هذا ولم تنتبه أبدا رغم محاولات أمها الكثيرة ، التى انتهت بها إلى الدهشة

والقلق وتسليم التبلد والانتظار

وإن جبينها لحار شديد الحرارة ، فلو أنك فكرت فى امتحان الفتاة بالمقياس لأشار الزئبق إلى درجة الحمى المرتفعة ، ولكن نعيمة لم تكن تعرف المقياس ولا هى فكرت فى شىء من ذلك ولا أحست بحاجتها إليه ، بل إنها لم تفكر فى أن تصنع للصغيرة شيئاً ، لأنها لم تفهم شيئاً من هذه الحالة الطارئة الغريبة ، ولم يقلقها أبداً ذلك الدمل الصغير ، ولم يخطر ببالها قط أن يكون له أدنى صلة بهذا العارض الذى ترزح تحته الفتاة منذ يومين .

وقامت إلى مصباح البترول فأشعلته ، ثم انكفأت إلى مكانها فى صمت وحيرة .

ودفعت الباب « أم صالح » ، ودخلت تحوقل وتبسمل وفى يدها طبق من الصاج يتصاعد منه خيط من الدخان ورائحة بخور رخيص .

ورفعت نعيمة عينها إلى القادمة ، وتابعتها ببصرها حتى جلست إلى جوارها على الطراحة ، ومدت ساقيها أمامها ، ووضعت حملها الثمين فى عناية وحرص على الحصير بينهما ، ثم

أخذت تمزق قطعة من ورق الصحف فجعلت منها « عروسة » طفقت تخرقها بإبرة أخرجتها من ثوبها عند الصدر ، ثم دارت بالعروسة حول رأس الفتاة الغائبة عن الصواب دورات سريعة وهى تتمتم بأدعية وتعاويذ، وقد أضفى ضوء المصباح الخافت على وجهها المجعد الجامد النظرة وشعرها المصبوغ بالحناء رهبة وغموضاً كأنها ساحرة عجوز لا تنقصها المكنسة كى تطير أو تصنع الأعاجيب .

ثم ألقت بالعروسة فى النار ، ورفعت الطبق فجعلت تطوف به حول رأس الفتاة وجسدها سبعاً ، ثم أعادت النار إلى مكانها من الحصير ، وألقت فيها قطعة من الشب جعلت تفور كما يصنع الشب إذ يوضع فى الجمر ، ولكن الفوران هنا كان ينظر إليه كعجيبة من الخوارق تكمن وراءها قوى غامضة من عالم غير منظور ، وإذا الشب قد تشكل تلك الحاسدة اللعين التى أصابت الطفلة بشر عينها الصفراء . . .

وجعلت تتأمل قطعة الشب هنيهة ، وقد قربتها من عينيها الخابيتين ، ثم شهقت وسحقتها فى كعب المريضة الأيسر ، وجعلت المسحوق فى خرقة صغيرة أحكمت رباطها ، وخرجت لترميها

فى مفرق أربع حارات ، حتى تأخذ أقدام الناس هذا الداء إلى مكان سحيق . . .

كل هذا والفتاة غارقة فى غيبوبتها ، وأمها جالسة ترقب ما تفعله العجوز فى صمت وأمل ، ثم قامت فجاءت بماء اطفأت به جذوة النار وهى تشهق ثلاثاً . . .

وعادت أم صالح من مهمتها فجلست تثرثر بصوتها الهزيل المرتفع كنقيق الضفدع ، وتقص على «أم حياة» قصصاً متشابكاً لا ينتهى عن مرضى لم يعرف أحد ماذا أصابهم ، ولم يستطع نطس الأطباء ، حين استدعوا ، أن ينتهوا إلى قرار أو علاج ، ولكن « الأثر » استطاع أن يهدى إلى علة العلل فى هذه الأدواء المعضلة ، فإذا به « عمل » مدسوس فى مجرى ماء أو مدفون تحت عتبة الدار ، فلا ينقطع المرض ما دام « العمل » قائماً أو يشفى بصاحبه على الهلاك . . .

وفى كل قصة من هذا القصص الرهيب كانت رأس نعيمة تدور ، وكانت نفسها تضطرب ، وعينها تزوغ جزعا ورهبة ، فلا بد أن ابنتها مريضة بفعل سحر مدفون ، فإن مرضها يبدو غامضاً جداً غير مفهوم ، بل هو لا سبيل إلى فهمه : فالفتاة

لا تسعل ، فهى إذن غير مصابة ببرد ، وهى لا « تسهل » فهى إذن غير مصابة بداء فى الجوف ، فلا بد أنه السحر ، ولا بد أنه كيد « رتيبة » ، تلك اللعوب التى عقد متبولى عليها وإن لم يزف إليها بعد . . . فلا شك أنها تخشى أن يعود متبولى إلى زوجه القديمة لأنها أم ابنته ، فإن هذه الابنة مظنة انعطاف بين الزوجين القديمين فى يوم من الأيام ، وهى على كل حال صلة باقية بينهما لا سبيل إلى فصمها إلا بالقضاء على هذه الطفلة الصموت . . .

وهل يبعد على من كانت شريرة مثلها أن تقدم على مثل هذا الكيد الحقير ؟ . . وما أسهل هذا ، فهى دائماً فى الخارج تغسل فى البيوت ولا تعود إلا آخر النهار ، فنى استطاعة « الأخرى » أن تحضر فى غيبتها وتدس ذلك العمل فى فناء الدار حيث تعبر هى بضع مرات فى النهار .

وانتهت « أم صالح » إلى حيث تريد من هذا القصص الطويل المخيف ، فاقترحت عليها أن تأتيها « بالحاج عطية » ، وهو رجل صالح و « مخاوى » ، متزوج بإحدى بنات ملوك الجن ، تأتيه كل ليلة فتبيت معه حتى الصباح ، لا يراها أحد أبداً ، وقد

أنجب منها بنين كثارا ، تربيهم هى فى مملكة أبيها تحت الأرض ، وتمنعه أن يمس امرأة غيرها ، فهى تغار عليه غيرة شديدة شعواء . . .

ولكنها تعلم أنها لا تأتيه هذه الأيام من العام ، لأنها فى المخاض تحت الأرض ، ذلك المخاض الذى لا يخطؤها أبداً هذا الوقت من العام ، والذى ينتهى دائماً بابن جديد بارع الجمال خارق الأوصاف لهذا الغرام العجيب بين إنسى وملكة من ملكات الجان !

وهى لهذا تقترح أن تدعوه تواً ، وأن تلح عليه فى الرجاء لعله يرضى ، بل هى لا تشك فى أنه لا يرد رجاءها أبداً ، لما لها من منزلة عنده ، ولأنه أخبرها يوماً أن زوجه الجنية قد أوصته بها خيراً ، وقالت له أنها لا تحب من نساء العالمين إلا « أم صالح » فهى امرأة لها فى مملكة الجن مكانة ومقام . . .

* * *

وعادت بعد قليل بصاحبها ، وهو كهل فى استواء العمر له لحية كثة وعينان زرقاوان واسعتان تتحركان بسرعة وتختفيان

بسرعة أيضاً تحت جفنين متهدلين ينبئان عن طبيعة حذرة ماكرة . . .

وقامت نعيمة فقبلت يده ، وجلس هو على طرف الطراحة ، ثم تناول الطاقية التى تلبسها المريضة الغائبة عن الصواب ، فجعل يتمتم عليها ويحوقل ، وينشرها فى يده ثم يطويها ، ثم يقيس بالفتر حيناً وبالأصبع حيناً ، ثم تنحنح وهز رأسه كمن انتهى إلى كشف عظيم . . .

وتعلقت نعيمة بشفتيه ، وطال انتظارها لما يخرج منهما بضع لحظات بدت لها عمراً ، ثم عاد إلى القياس مرة أخرى مع التمتمة والحوقلة ، ثم رمى الطاقية من يده فى حنق وصاح بالمرأتين :

— الملك الشعرانى . . . الملك الشعرانى الأحمر صاحب مدينة النحاس ، لابس جثتها ، ولا يمكن يفوتها إذ لم يموتها . . . وما الفائدة من دعوتى الآن ؟

وقام كمن يريد الانصراف .

فقامت « أم صالح » على يده تقبلها ، وانحنت نعيمة على قدميه تمسحهما بخديها ، وهما تستشفعان بالأنبياء والأولياء

وملوك الجان أن يبقى وأن يحاول إنقاذ المريضة .

كادت نعيمة تجن ، فإن فى يده إنقاذ حياة ابنتها ، وإنقاذها هى من شماتة الضرة المرة . . . على السواء . . .

وأخيراً لان وجلس وهو يقول : « ولكن هذا عمل متعب ، وأنا رجل كثير الأشغال ، وعندى أعمال كثيرة لباشوات وناس كبار » .

فانحنت « أم صالح » على أذن نعيمة وهمست لها أن تسرع فتدس فى يده مقدار « نصف جنيه » تغريه به على العمل لإنقاذ ابنتها .

« نصف جنيه ؟ » ولكن ليس معها إلا أحد عشر قرشاً قرشاً ونصف هى كل ما تملك . . . فدارت « أم صالح » بعينها الخبيثة فى الغرفة وقالت لها :

ـــ أليس عندك نحاس كثير ؟ . . . أقوم أوصل الحلة الكبيرة وصينية القلل لغاية بيته ، وهو على كل حال رجل طيب وفى قلبه الرحمة بالناس الفقراء . . . »

وقامت فهمست فى أذن الشيخ ، وجعل هو يهمس لها أيضاً ويشير بيده كالغاضب المتمنع . وأخيراً قبل ، فقامت « أم

صالح » وغمزت نعيمة أن تشكر الشيخ وتقبل يده ، وهز هو رأسه كالمتنازل الذى يعرف فى نفسه هذا الضعف ولين الجانب للفقراء . . . ولكن ماذا يصنع وهكذا خلقه الله ؟ . .

وأخذت « أم صالح » الحلة وصينية القلل وخرجت بهما مسرعة الخطو إسراعاً لم يعهد فيها من قبل ، وهى التى تمشى فتتكفأ فى مشيتها تحت وقر الثمانين أو تزيد . . .

واستأذن الشيخ يمضى إلى داره للاستعداد لعمل الحجاب ، ولكتابة ثلاث ورقات تستحم الطفلة بمائها على ثلاثة أيام ، وسيرسل هذا كله مع « أم صالح » عند إشراق الصباح ، لأن الغاء السحر القوى وسلطان الملك الشعرانى الأحمر يستلزم عملا شاقا واستعانة بملوك أقوياء من الصعب استحضارهم دون وساطات وجهاد طويل . . . .

* * *

وأغفت وهى جالسة ، ثم أفاقت فجأة عند ابتلاج الفجر كالمذعورة ، وقد أحست كأن شيئاً يقبض قلبها قبضاً ، فإذا للفتاة المريضة شخير واهن مرعب . . . فتبلجت الحقيقة القاسية أمام عينيها ، وصرخت من أعماق قلبها الصريع وجعلت تشد

شعر رأسها فى عنف وثورة .

واقتحمت الجارات الباب ، واقتربت هى تقطر من ثديها قطرات فى فم المحتضرة الصغيرة ، تبلل بها حلقها لتهون عليها غصص الموت ، لأنها هى قد أحست فى حلقها غصة مرة لا تذهب بها قطرات ولا بحار . . .

وفتحت الطفلة عينيها ثم أقفلتهما ، وسكتت الحشرجة ، وانقطع ذلك الإرتفاع والهبوط اللذان كانا يتداولان صدر المحتضرة الصغيرة . . .

وأخذت الأم نوبة من الالتدام الهائج ، ثم انطرحت على الأرض بين النسوة بغير حس ولا حراك . . .

* * *

وأفاقت من اغمائها ، فوجدت ضوء النهار قد ملأ الغرفة ، والنسوة من حولها ، والميتة الصغيرة مسجاة فى جوارها على الطراحة وقد غطيت بملاءة بيضاء من قمة الرأس حتى القدم ، وقد انحنى فوقها رجل راكع إلى جوارها ، على رأسه قبعة حمراء ، وكسوة كالتى يلبسها رجال جمعية الاسعاف .

وابتسم الرجل فى وجهها ابتسامة المطمئن الودود .

- ربنا معوض مخلف يا ست ... لا تحزنى ربنا عوض عليك ... ربنا كبير صحيح ... أنت حامل فى شهرين !

وغابت مرة أخرى عن الصواب ! ...

١١

الوحدة...

فراغ كالعدم من كل جانب .

أمانى الصبا تراود هذه الوحدة القاسية ، وما أكثر ما ترود الأمانى وادى العدم والحسرات . . . فإذا بلمعاتها المشرقة الجميلة عيون صلال سود تحف فى كل سبيل بمواطئ الأقدام ، وإن كانت أنيابها الناهشة تُحس فى القلب المحترق الذى نخره دود الزمن، فإذا الرسوم الجميلة التى رسمتها يد الربيع الغض قد غدت كلها كلوماً محترقة كوشم من نار لا تهدأ لذعته ولا تغسل مرارته الأيام . . .

فراغ يسلم إلى فراغ ، وعدم ينتهى إلى عدم . . .

تلك أيامها ، ظللها الموت بجناح من فوقها وهاوية تحت قدميها ، وحفتها الخيبة بقروح وأوجاع فى حناياها ، وبأخوات لها تتراءى عن يمين وعن شمال تترقب مكمناً جديداً تستقر فيه بين الضلوع . . .

وماذا بقى لها فى هذا التيه المظلم من ظل وادى الموت ؟ لم يبق لها ركن من قلبها تستقر فيه الجذوة السماوية التى تدفع الناس إلى

الأمام ، حتى عند ما لا يكون هناك أمام . . .

ولم يَعُدْ هناك ساعد ولو صغير كساعد الطفلة الرضيع يلوح لها كعود مورق يبشر يوماً بالربيع ، فتتخذ من غضارته الواعدة سنداً وأملا ولو إلى حين . . .

بل إن هذا الساعد كان هو البقية الباقية لها ، ولكنه الآن يبدو لها من بعيد بين أنياب الصلال السود ، تلوّح لها به كلما تلفتت لتذكرها المصير المحتوم ، ولتقول لها أن لا سبيل بعد للخلاص . . . وأنه لا شيء ينتظرها غير العدم والحسرة ، وأنه لا ربيع بعد خريف الحياة . . .

إنها تنتظر ساعداً آخر صغيراً ، ولكنها ترى فى عروقه بدل الدم صديداً من دمل صغير ، هو العلامة الصارخة لحكم القدر الذى يرتسم هنا على الجبين فى خطوط غير مقروءة ، ولكنها تتكشف فجأة فى ضربة قاضية من القضاء المحتوم . . .

لا سبيل ولا مهرب . . .

وهذا الميلاد الجديد تنتظره تلك الأنياب ، بل هو لها ، إنها هى التى خلقته ، وأولدتها إياه . . .

أليس هذا الرجل « قدرها المقدور » صُوِّر إنساناً ، وسلط

عليها منذ البداية ليتم عن طريقه ذلك المكتوب على جبينها منذ الأزل ؟ . . .

هو الذى تراءى فى أفقها لترسم حول شخصه تلك الرسوم العذبة فى قلبها ، ليتسنى للقدر أن يحول تلك الرسوم — فى قسوة وسخرية — وشما محرقا من نار وجحيم . . .

وهو الذى أولدها تلك الذراع الرقيقة الواعدة فإذا وعوده سخرية وألم ، وإنذار لا يفتر صوته النافذ الرنان منذراً بالنهاية المحتومة التى لا مهرب منها من أى سبيل . . .

وهو أيضاً الذى جاءها — فى قسوة القدر وسخريته — قبل أن يرسل إليها ورقة طلاقها بيومين ليعيد إليها ذكرات من أمسها المورق الظليل ، وليتركها بعد فى وادى العدم ، وفى أحشائها هدية جديدة للقدر ، هى طعام جديد تنتظره أنياب الصلال فى ترقب حول قدميها ، لتتلقفه عند ما يكمل الأيام ويخرج من أحشائها ليدرج فى النور ، فتدلجه هى فى واديها السحيق الذى يتراءى هنا إلى جانبها ، ومن خلفها ، بل من فوق رأسها أيضاً . . . أيحسب الناس زرقة الجو عرشاً للرحمة ومسارب للنور ؟ إنهم إذن لواهمون ! إنها لمعات عيون الصلال ، صلال العدم والحسرات ،

وليست نجوماً تهدى الأفلاك فى إدلاجها وسراها . . .

عدم وفراغ حولها فى كل مكان . . .

بل إنها لتحمل الفراغ والعدم فى أحشائها، وما هذه الحركات التى تضطرب بها إلا إمعان القدر فى سخريته وأذاه . . .

إنه لثعبان ذلك الذى يتلوى فى أحشائها . . . ثعبان كتلك الثعابين التى تبصرها حولها فى كل مكان ، ثعبان يريد أن يخرج من أحشائها فى صورة طفل ، حتى إذا أحبته وأخذت بذراعه الواهنة لتؤنسها وتتنسم فيها ربيعاً بعد الشتاء . . . عاد الطفل ثعباناً ولدغها فى صدرها ، هنا عند مفرق الثدى ، وإذا الطفل ، والأمل ، والربيع قد ماتت كلها ، وإذا بها تجد من جديد نفسها فى وادى العدم والحسرات . . . ، وقد صارت الحسرات فيه أمر وأقسى ! . . .

١٢

صديقة «أم صالح» . . .

وحدة قاتمة . . .

حتى أم صالح ، تلك العجوز الماكرة الخبيثة ، هى الأخرى ثعبان من تلك الثعابين التى سخرها القدر لسخريته ، كما سخر متبولى ، وكما سخر ابنتها حياة ، وكما يسخر الآن هذا الذى يضطرب فى أحشائها ويتلوى .

هذه الخبيثة . . . إن لها الآن صاحبة جديدة ، لم تكن تطرق الحارة من قبل ، هى « رتيبة » بائعة اللادن ، زوج متبولى الجديدة ، تأتيها مغرب كل يوم وتجمع حولها الماجنات من نساء الحارة ، توزع عليهن اللادن والكحل ، وتمسك لهن الطبل ، وتدق عليه دقط متقناً سريعاً ماجناً كسباق الشياطين وهن من حولها يرقصن رقصاً هائجاً ، ويغنين أغانى الزفاف ذاكرات محاسن « العريس » بكلمات مكشوفة ثم يضحكن ضحكات عالية ممطوطة تحس أصداءها فى صدرها الذى برزت عظامه فتأخذها رعدة كرعدة المحموم ، وتحسبه ضحك الشيطان والأفاعى التى ما فتئت منذ البداية تلاحقها فى صور مختلفة لا سبيل إلى

إدراك كنهها ، فهى تارة متبولى والستار وابن الجيران ، ثم هى ابنتها، ثم هى أم صالح ، ثم هى هذه الرتيبة الماجنة وصواحبها، بل هى تلك المضغة من قذيفة الثعبان فى أحشائها . . .

وخرجت فى الظلام ذات ليلة هرباً من هذا الجحيم ، هائمة على وجهها بين طرقات الحى ، ثم فى الشارع الكبير وعند الميدان حيث يموج الناس ويلتقون ويفترقون فى غير ترتيب ولا نظام منغوم .

ووقفت تحت مصباح من المصابيح تنظر فى الغادين والرائحين وتأتنس بهم ، فإنها تستطيع هنا أن تطمئن على الأقل أنه لا ثعابين ترود حيث لا ينقطع الناس عن سحق وجه الأرض بنعالهم وعجلاتهم وبحوافر الدواب . . .

ولكن هذه الثعابين الشيطانية لا يعيبها أن تظهر لها ساخرة فى صورة مبتكرة . . . فهذا هو ابن الجيران الموعود الذى انتظرته طيلة صباها وحلمت به وعاش فى طوايا ضميرها دهراً طويلا ، هذا هو بشعره المصفف وعينه الخضراء ، وطراوته وبزة أبناء المدارس المترفين . ها هو يقترب منها مُتَثَنِّياً فى مشيته فى دلال ومجون . . .

يا للعنة ! إنه يحدق فيها ثم يضحك . . . إنها بعينها ضحكة الشياطين التي تسمعها من أفواه الثعابين كل مرة سخرت منها هذه الثعابين أو لدغتها . . .

إنه يضحك ضحكة ساخرة ماجنة رعناء ، ويلوى شفتيه ، ثم يدير لها كتفه وهو يقول :

— يا « سبارس » !

وتمضى على وجهها من شارع إلى شارع ، وضحكة ترن فى أذنها « يا سبارس ! »

نعم ! إنها لكذلك ! بل إنها كانت دائماً كذلك ولكنها لم تكن تدرى . . .

أليس هذا قدرها منذ البداية ؟ ألم يكن مكتوباً دائماً على جبينها . . . فهى لم تكن فى إشراق صباها إلا تمهيداً لذلك المصير المحتوم . . . أليست السيجارة الفاخرة السوية لازمة لكى تتخلف عنها السبارس والأعقاب . . .

أجل إنها كانت دائماً سبارس ، ولم تكن إلا سبارس حتى وهى امرأة تشتهى وتملأ صدرها الآمال . . .

سبارس وزحام وأقدام . . .

ثعابين فى كل صورة وفى كل مكان . . .

وتنتهى عند الفجر إلى غرفتها فترتمى على الطراحة حتى الصباح ، ثم تقوم مذعورة لترى الثعابين من حولها فى كل شيء وفى كل مكان . . .

تستقبل عملها ، وتنظر إلى الناس نظرة غريبة مذهولة فى سخرية وتوجس وتبلد فى آن واحد . . .

فإن هؤلاء الناس لا يرون الثعابين ، أما هى فتراها رأى العين . أفيظنون أنها غير موجودة ؟ إنهم لحمقى ! . . . إنها هى تعرفها . . . بل من أدراها أنهم ليسوا هم أيضاً ثعابين . . . إنها لتتوقع أن ينقلب أى شيء ثعباناً ، وأن تسمع الضحكة الساخرة القاسية من الكرسى ، أو الموقد أو كومة الغسيل . . .

وماذا يرون فيها ! أغاسلة بالكراء . . .

ألا ساء ما يتوهمون ! . . .

إنها تعلم الحقيقة المخبوءة من أمر نفسها كما تعرف الحقيقة من أمرهم . . .

إنها سبارس . . .

ولكن الناس حمقى لا يبصرون ولا يفهمون . . .

أما هى فتعرفهم ، وتعرف أنهم ألعوبة الشيطان الخبيث ، وصور يتخذها لنفسه ليلهو بهذا وذاك حيناً ، وليسمعها فجأة ، ومن حيث لا تنتظر ، من أحشائها مثلا ، صوت ضحكته . . . فإنه يبدو أن هذه هى لعبته المفضلة معها .

١٣

صرعة الداء . . .

وبرز بطنها بروزاً شائهاً ، فلم يكن أكبر من هذا البطن على أنحف من هذا الجسد الهزيل المتداعى . . .

وقد تعودت الصمت ، فلا تحدث أحداً ، ولا تنظر إلى أحدٍ إلا شذراً . . . وإنها لتتوجس من الجميع توجساً مصدره عرفانها لبواطنهم المطوية عن الأنظار . . . إنهم جميعاً أفاع تتخذ من الصور ما تشاء بفعل قدرة شيطانية يسخرها القدر ليسخر منها حيثما أمنت واطمأنت إلى مطابقة البواطن لحقائق الأعيان . .

صمت مضطرب وحذر هائج لا يفتر ولا يُسلم إلى طمأنينة أو هدوء ، فحياتها انطواء على ذكريات « وداد كل ما فيه رياء ، وعداء كل ما فيه افتراء ، وسكون كل ما فيه اضطراب . . . »(1)

هذه النظرة المحمومة التى تنبئ عن عالم معزول عن عوالم المرئيات والظواهر والأوضاع والمواضعات ، وهذا الصمت المضطرب اضطراباً يفوق الضجيج والاعوال وهياج من بهم مس من شيطان أو من خبال . . ، كان ينأى بالناس عنها كما نأى بها عن

(1) العقاد : رثاء مى .

الناس ، فهم يحسون بها شبحاً من عالم غير عالمهم لا ينظر إليهم أهله نظرة مودة أو إعزاز . . .

ووهنت يدها عن الغسل الجيد الذى عرفت به فى أيام صباها ، ووهن صدرها عن احتمال رطوبة البكور عند إقبال الشتاء ، بعد أن وهنت نفسها دون تقبل الحياة . . .

وبدأ السعال ينهكها ، وبدأ إعياء النفس يدفع بإعياء الجسد إلى رقدة طويلة تحت وطأة الداء ، تقطعها يوماً كل بضعة أيام لتدور فى الطرقات على غير هدى ، باحثة عن شىء تجهله ولا يعنيها أن تعرف ما هو ، أو لتبيع شيئاً من النذر الذى بقى لها ، وأخيراً ، عند ما فرغ كل شىء ، باعت الستار وأكلت بثمنها ، ثم مدت يدها لسؤال الناس كلما وجدت فى ساقيها قدرة على حملها إلى الطريق . . .

* * *

وكملت أيامها ، فراحت فى غيبوبة طويلة لا تنقطع إلا قليلا ، وقد أخذت تفتح عليها الباب فى اليوم بعد اليوم صبية فى العاشرة أو نحوها ، عرفتها فى الميدان الكبير حيث كانت تجلس أحياناً لسؤال المارة أو للتحديق فيهم ، وكانت هذه الفتاة تجلس

دائماً فى ذلك الموضع لتبيع أقراصاً من العسلية لصبيان الشارع ، ولتتقبل بعض المليمات أحياناً من زائرة تقية لضريح « أم هاشم » .

لقد كانت هذه الفتاة تأتيها عصر كل يوم فتعطيها قليلا من اللبن وتمضى . . .

وكانت هى تنظر إليها نظرتها الحاذرة المائجة بالذحول والخوف ، وتترك اللبن فى الكوز الصدىء إلى جانب رأسها لا تقربه .

وتنصرف الفتاة . . . وعند إقبال الليل ترى نواصى صبيان الحارة تتطاول لتنظر إليها من الشباك ، وهم يصيحون : « العفرية هه . هه ! » .

وتنظر إلى كوز اللبن ، وإليهم ، وهى خائفة مذعورة ، ثم تتناول الكوز كمن يهم بأمر عظيم عقد العزم على المخاطرة فيه ، وتشربه جرعة واحدة ثم تستلقى كمن ينتظر الموت ، ولكنها تستيقظ ثانية فى الصباح . . .

١٤

الحادث المنتظر السعيد

وجاءها المخاض ، فحضرتها داية عجوز ، أحضرتها « حسيبة » بائعة العسلية الصغيرة . . . حضرتها يوماً وبعض يوم ، لا تجد من نفسها قوة لإخراج ما فى أحشائها ، ولا تجد فى نفسها رغبة فى ذلك . . .

وأخيراً ، خرجت إلى النور « فتاة » أخرى ، دمية لا تزن رطلين ، زرقاء ، عجفاء ، لا يكاد يتردد لها نفس أو يسمع لها حس إلا مواء كمواء الهريرة العمياء . . .

أما الأم فكانت فى غيبوبة متصلة .

وانصرفت الداية العجوز بعد أن استوفت حقها ضرباً فى الفتاة الصغيرة « حسيبة » التى نقدتها ثلاثة قروش وهى تحسبها فوق الكفاية . . . وقد تجمع النسوة الساخرات وصبيان الحارة أمام النافذة والباب .

وجلست الفتاة الصغيرة فى ركن الغرفة البعيد ترقب « نعيمة » المجنونة ووليدتها ، وأخيراً ، عند ما تفرق النساء والصبيان ، تسللت إلى الخارج فى صمت .

وظلت الفتاة تمر بالغرفة كل يوم تحمل اللبن ، وتقطر منه للرضيع التى لم يدر ثدى أمها لبناً من أجلها بعد . . .

وفى اليوم الثالث حدثت حسيبة النفساء حديثاً لم تلق بالها إليه ، عن ذلك الشرطى الذى جعل يضايقها أخيراً ويطاردها ويضيق عليها الخناق فى كل مكان . . .

وفى اليوم الرابع حضرت شعثاء الشعر ممزقة الثياب خالية الوفاض ، وجلست فى الركن البعيد من الغرفة وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها وأسندت رأسها إليهما ، ثم رفعت وجهها الحزيل ونظرت إلى النفساء وطفلتها التى تموء . . . فإذا النفساء تحدق فيها فى ذهول وصمت نظرة بعثت فى نفسها غير قليل من الاضطراب ، فأشاحت بوجهها ثم قامت وخرجت فى سكون . . .

وفى اليوم الخامس لم تحضر . . .

وخفت مواء الوليدة ، وانقطع إغماء النفساء الذى كان ينتابها حيناً بعد حين ، وإن يكن قد زاد إعياؤها كثيراً . . .

١٥

نداء البئر . . .

ظلت طيلة يومها تنظر إلى الطفلة التى يرتفع مواؤها الخافت القصير قليلا ثم يسكت ، وهى لا تحرك رجلا ولا يداً ، وتنصت لثغاء النسوة فى الحارة يتعاركن ثم يستأنفن تبادل الأسرار وأحـوال الرجال معهن وأخبار الطعـام والشراب وماء الحمّام . . .

وكأنما قد نسيها الصبيان فلم يقذفوا خشب النافذة بالحجارة والطين ، ولم يسبوها أو يذكروا شياطينها وخبالها المزعوم ، ولعل الصبية بائعة العسلية هى التى كانت تذكرهم بها فى دخولها وخروجها .

ودارت فى رأسها أفكار مضطربة باهتة ، فهذه أمها تلقمها الطعام فى يدها وهى بعد طفلة صغيرة ، وهذا متبولى يطعنها بسكين ، ولكن الدم لا ينبثق من الجرح ، بل ينبثق منه لبن ومع اللبن صديد كريه الرائحة مائل إلى الاخضرار ، وتكون بجانب الجرح دمل صغير جعل يكبر ويكبر ، ثم انفتح وبرز منه ثعبان كبير جعل يمسح بلسانه الملتهب بطنها وثدييها .

ثم تنتبه من الحلم على مواء الصغيرة مواء ضعيفاً جداً لا يكاد يسمع .

لعلها جائعة ، أو لعلها فى حاجة إلى تغيير ملابسها ، ولكنها لم تتحرك لشيء من ذلك .

وتقول لنفسها أن شد ما تكره هذه الصغيرة الفضولية الشوهاء ، فإنها أحبولة أخرى من أحابيل ذلك الثعبان الشيطانى الموكل بها . . . وكم تود لو ماتت هذه الصغيرة جوعاً . . .

ولكن يدها تمتد دون أن تشعر إلى ثديها فتعصره ، ولكن الثدى لم يدر شيئاً . . . أو لعل يدها لم تعصر الثدى عصراً كافياً . . . فمن أين لها قوة فى أصابعها للعصر ، بل من أين لها لبن فى ثديها وهى لم تذق طعاماً منذ يومين ؟

وسمعت دعاء دجاجة فى الطريق تستعد للبيض . . . فتصلبت أصابع يدها تغرسها فى وركها المتهدل الهزيل . . . وحاولت رفع نفسها ولكنها لم تستطع ، فألقت رأسها ثانية على الوسادة القذرة فى استسلام قانط وهى زائغة العين . . .

* * *

وعند انسدال الليل عادت الطفلة إلى المواء الضعيف ،

أضعف من ذى قبل ، فنظرت إليها بجنون . . .

انها تكرهها . . . وتكره فيها عجزها مجسما عن مواجهة الحياة ومقاومة قدرها المكتوب .

وفى خنق وثورة وجدت فى نفسها قدرة على القيام ، والخروج إلى الطريق . . .

ودلفت من حارة إلى حارة تستند إلى الجدران ، وتستريح عند كل عتبة لتبتعد عن هذه الطفلة . . . عن صورة أيامها وعجزها ونصيبها المتجدد من حولها فراغاً وعدماً . . .

وانتهت إلى دار خربة مهجورة جلست على عتبتها . . . ولكنها سمعت وقع خطوات حارس الليل ، فدخلت تختبىء فيها ، وجلست هناك بين الأحجار والأطلال فى ضوء القمر الساطع ، على حافة بئر قديمة . . . وسمعت فى البئر أصواتاً ، أصواتاً خافتة خشنة . . . لعله دوى الريح يغوص فيها . . . فإن الريح لشديدة فى هذا الليل بحيث تعصف ببنيتها الواهنة عصفاً .

لقد تبينت أخيراً هذه الأصوات المبهمة المجهولة . . .

إنه نداء الشياطين . . . لقد تبعتها إلى هنا ، بل لعلها هى التى دفعتها إلى هذا المكان لكى تلتقى بها هنا .

إنه نداء قدرها ، يذكرها أن لا مفر لها من المحتوم .

فراغ وسخرية وعدم . . .

وقامت مذعورة تجرى ، أو تحسب أنها تجرى ، وهى تتكفأ وتقوم ، حتى عادت بعد انتصاف الليل إلى حجرتها التى يملؤها ضوء القمر .

وارتمت على الطراحة ، وسمعت أنين الطفلة . . . ضعيفاً خائراً ، كأنه احتضار . . . يا لله ! بل إنه لاحتضار ، وأقبلت كالمجنونة تعصر ثدييها كليهما وتضع الواحد منهما بعد الآخر فى فم الفتاة الوليد ، ولكن فى هذه المرة . . . بغير جدوى .

وزمجرت الريح بين سعف نخلة قريبة فى العراء ، فكأن صوتها هو فحيح الثعابين المعهود ، وأعوال الشياطين . .

وتملكها الرعب . . .

ورن فى أذنيها وبين أضلاعها نداء البئر . . . إنه هو نداء البئر ، نداء المحتوم . . . قد تبعها إلى هنا ليؤكد لها أن لا مفر من المكتوب . . .

ونظرت إلى الطفلة ، فاذا صدرها يعلو ويهبط فى سرعة ، فحملتها فى جنون ومضت بها لا تلوى على شىء . . .

وعند البئر وقفت تنصت فى ضوء القمر بين الخرائب والأطلال ، ثم نظرت حولها ، ثم تطلعت إلى القمر الساطع فى كبد السماء . . . فاذا به هو الآخر . . . يضحك ! . .

نعم إنه كان يضحك . . . إنه هو أيضاً صورة أخرى لذلك الشيطان الموكل بها ، يسخر منها أيان نظرت وأيان تكون . . .

وارتفعت الأصوات مرة أخرى من جوف البئر خشنة قاسية فى سخرية وزمجرة وضحك مكتوم .

وألقت الصبية إلى قدرها الذى أولدها إياها وانطلقت مبتعدة لا تلوى على شىء . . .

لقد حسبت أنها تجرى . . .

ولكنها لم تبلغ إلا عتبة الدار ، وهناك تعثرت وانكفأت على وجهها وأسلمها الإعياء إلى الاغماء .

وهكذا وجدها المارة عند طلوع النهار . . .

١٦

المدالة الساهرة تقتص . . .

وفتحت سيارة السجن عن باب منخفض يؤدى إلى مسرب تحت الأرض تجلس فيه طرائد القانون فى انتظار كلمة العدالة الساهرة ، معصوبة العينين (يا للسخرية !) وفى يسارها سيف وفى يمينها قسطاس !

ودخلت مع الداخلين والداخلات فاتخذت لها مستقراً على « الدكة » الخشبية ، وقد دلت ساقيها ووضعت يديها المصفدتين فى حجرها ، وأخذت تنظر إلى الفضاء من كوة صغيرة فى البنيان . . .

لم يكن مرآها ينم عن اهتمام بشىء مما يدور حولها أو مما ينتظرها بعد قليل .

ولقد تنظر أحياناً جنبتيها لتتأمل هذه المرأة الماجنة العابثة فى مظهرها وحركاتها ، ثم ترد بصرها إلى هذه العجوز التى تبدو عليها السذاجة والتقوى . . . وتهم بتحريك يدها لتهرش فى ظهرها ، فإنها تحس فيه أكلاناً لاذعاً شديداً ، ولكن يردها عن ذلك قيد الحديد ، فتعود ببصرها إلى التحديق فى الفضاء

خلال قضبان النافذة ، وقد بدت لها القضبان فى هذه اللحظة أضخم مما كانت من قبل .

ودفعوها من سلم آخر مع غيرها من رجال ونساء إلى وجه الأرض ، فإذا بها فى قفص من حديد فى قاعة من قاعات محكمة الإستئناف . . .

وإذا القاعة ملأى بأخلاط من الناس بين محترف وصاحب مصلحة ومتفرج خلىّ .

وأقبل أقرباء المتهمين والمتهمات يطمئنونهم أو يتزودون منهم فى أسى وتوجس ، وأقبل المحامون على موكليهم يبثون فيهم الرجاء . . .

وأخيراً أقبل شاب أنيق مرتفع الصدر على قصر فى قامته ، منتفخ الأوداج فى كبر ظاهر ، أبيض مشرب بحمرة ، كأنه بطربوشه القانى أحد تلك الشخوص الجميلة المنمقة التى ترى فى واجهات المتاجر الكبرى تعرض على الناس أحدث الأزياء . . .

وجلس إلى جوار القفص فى مقاعد المحامين ، بعد أن رفع بعض سرواله ، ووضع حافظة أوراقه الجديدة اللامعة على

القمطر الممدود أمامه فى زاوية أنيقة ، ثم التفت ناحيتها وأشار إليها أن تقترب .

وكانت هى ترقب حركاته فى اهتمام لا داعى له أبداً إلا أن تشغل فراغها بحركات الكائنات من حولها،لأنها لا ترى شاغلا يشغلها من أمر نفسها بعد . . .

وتذكرت غدواته وروحاته فى السجن ، يفحص قضيتها التى ندبته المحكمة بالمجان للدفاع عنها فيها . . .

وانه لينظر إليها نظرته إلى شىء قذر لا يمت بصلة إلى دنياه ، وانه ليسخر منها ومن غبائها وتبلدها ، بل يسخر أكثر من ذلك من فقرها الشديد الذى لا يسمح لكائن غبى أن يعيش ، فإن الفقر لا يغتفر إلا للنابهين . . . أما الأغبياء ، فلماذا يعيشون إذا كانوا فقراء أيضاً إلى غبائهم الأصيل ؟ . . .

ولقد أحست منه رغبة عن مهمته فى هذه القضية التى لا يرى نفسه يشرف بالدفاع فيها . . . بل لعله ينفس على ممثل الاتهام تلك الفرصة المواتية للتجلية فى حلبة البلاغة والبيان ، والتشدق : بالعواطف الغريزية وبالعدالة والضمير والمثل الخلقى و « بالإنسانية تنتظر كلمتكم يا حضرات المستشارين » . . .

يا لله ! كم يبدو جميلا أن يقول الإنسان هذا الكلام على ملأ من الناس ، وأن يشير بيده هكذا فى وقار ورشاقة . . .

ولقد سألها مرة أخرى ، لعلها الأخيرة ، ألا تزال عند رأيها . . .

وثبتت فيه بصرها برهة ، ثم هزت رأسها بالإيجاب . . .

وهز هو رأسه كمن يتأسى ويرثى لحال نفسه كيف زُج به فى هذه القضية مع هذه البلهاء التى تأبى أن تنقذ نفسها أو أن تتيح له أن يحاول انقاذها . . .

واضطرب فى القاعة صوت الحاجب ذى الشارب المفتول والقامة المديدة والصوت المسموع ، ينادى فى الناس بالسكوت . ثم فتح باب عن يمين قفص الاتهام وخرجت منه هيئة المحكمة ، فاتخذت مكانها على المنصة العالية تحت لافتة كتب عليها بخط غليظ : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

ولم تكن هى تعرف القراءة ، ولم يكن غيرها ممن معها فى القفص يعرفها كذلك ، لهذا لم يحدث فيهم التأثير المطلوب ، فلم يأخذهم الخشوع ولا الطمأنينة المفروضة عند ما وقع بصرهم على هذا المكتوب فوق رؤوس قضاتهم المسربلين بالسواد . . .

أما هي فكانت تنظر إلى هذا المكتوب فوق رؤوس القضاة ، وإلى القضاة أنفسهم ، وإلى ممثل الاتهام والكاتب عن يمين وعن يسار ، وإلى المحامين والشهود والحاجب الصائح على الناس هنا وهناك ، نظرتها إلى عناصر من قضائها وقضاء الناس كافة ، لا تفهم منه شيئاً ولا يجول بخاطرها أنه شيء يمكن أن يفهم بحال . . . ، ولكنه يُستقبل كرهاً أو طواعية أو عن يأس واستسلام دون فهم أو توقع أو دفاع . . . . .

ونوديت قضية هذا وقضية ذاك ممن معها في القفص ، ترى بعضهم يناضل ويحاول ، وهذا الشاب ذو الوشاح الأحمر يعصره عصراً ويحاوره كأنما يريد أن ينشب أظافره في عنقه حتى يورده موارد الهلاك ، تنفرج عنه شفتا هذا الكهل الوقور الذي يتوسط زميليه في ثقة وهدوء .

لم تفهم ، وإن كانت قد توجست وتأكد لديها أن الأمر كله قدر مقدور منذ البداية ، رسمه هؤلاء الناس أو رسمه لهم أحد غيرهم ، واقتسموا هم أداءه ، ولا يد لها يدفع ذلك أو التدخل فيـــه . . .

وجعلت تنظر إلى كل محكوم عليه ، وقد انحط على المقعد

متداعياً كئيباً ، ثم لفت نظرها عصفور مرح فى ذلك الصباح المنتعش من أيام الربيع ، يغدو ويروح عند أعلى النافذة الكبيرة ، حيث بنى عشاً فى ركن من السقف يدخله ويخرج منه فى خفة ومرح وإقبال على الحياة . . . فاستأثر ذلك العصفور بانتباهها دون جميع ما يجرى حولها من تصرف فى مقادير الناس كافة ، فذلك كله أمر مكتوب لا يفهم ، يسير على نمط واحد قديم إلى ختام معلوم . . .

ولكن هذا العصفور الصغير شىء جديد حقاً ، وهذه الشمس المشرقة الضحوك شىء جميل حقاً ، وكل هذا قابل لأن يُدرك بالحس وأن يُفهم بمشاركة الشعور . . . أما هذا الذى يضطرب حولها ، فلا تفهمه ولا تشارك فيه بفهم ولا إحساس . . .

وانتبهت إلى الحاجب ينادى اسمها . . .

ووقفت كما أشار إليها حارسها الذى يجذب فى إصرار طرف شاربه الخفيف كأنما يريد أن يستحثه على الطول والنماء . . .

وأجابت على الأسئلة المعتادة .

وسئلت عن الجريمة ، اتعترف باقترافها ، فأجابت بالإيجاب . . .

ثم سئلت لماذا فعلت هذا . . .

وهنا سكتت برهة لا تجيب .

ألعلها هي تعرف لماذا فعلت هذا ؟ أفيظن هؤلاء الناس الأذكياء أن هذا شيء يعرفه الفاعل ؟ قد يكون هناك سبب ، ولكن لم يخطر ببالها أبداً أن الفاعل هو الذي يُسأل عن ذلك السبب ، فأن يفعل الإنسان شيئاً ما مختلف جداً عن عرفانه لسبب هذا الذي يفعله . . .

وعجبت لهؤلاء الناس الذين يسألونها هذا السؤال العجيب غير المعقول . . .

ولكن أمر هؤلاء الناس كله غير مفهوم ولا معقول فيما ترى . . .

ونظرت إليهم نظرة عدم اكتراث ، نظرة العارف الذي يرشد إلى حقيقة كبرى ما كان ينبغي بأية حال أن يغفل عنها السائل :

— شيء مكتوب !

كانت مؤمنة بما تقول ، وترى فيه الكفاية وفوق الكفاية لكي يوضح كل شيء ، وخصوصاً لهؤلاء الذين لا ترى فيهم أيضاً إلا عناصر وسطور من المكتوب . . .

ونظر المحامى إلى المحكمة والنيابة وهز رأسه . . .

ووقف ممثل الاتهام ، فأصلح من عقدة رباط رقبته المعتنى بها ، وأصلح من وشاحه الأحمر ، وأخذ يتكلم بلغة تفهم بعض ألفاظها ولا تفهم بعضها الآخر ، ويلوح بيديه بحماسة وزهو ، ومحاميها يستخزى لذلك الكلام ويبدو عليه كما لو كان يحب أن يقول عين هذا الكلام بلا زيادة ولا نقصان بدلا من الدفاع عن هذه البليدة البلهاء . . .

وانصرفت هى عن كل هذا إلى العصفور المزقزق فى ركن من سقف البناء عند النافذة الكبيرة . . .

ولكنها انتبهت فجأة ، فإذا المدعى يناديها بالمجرمة ويشير بذراعه إليها وينبه المحكمة إلى أنها خطر على المجتمع ، وخطر على العالم ، خطر داهم كبير ، وأنه ينبغى أن تجرد العدالة المقدسة وأن يجرد المجتمع قوته اليقظة الباسلة لكى يقضى عليها . . . هى المرأة الهزيلة التى لا تفهم من كل هذا شيئاً ، ولكنها تنظر فى اهتمام إلى الشمس والعصفور ، وتؤمن بالنصيب المكتوب . . .

وهز القضاة رؤوسهم فى اتزان .

وجلس النائب راضياً عن نفسه وحسن بلائه .

ووقف المحامى فتمتم كلاماً لم تتبينه . . .

لقد عرض عليها أن يحتج بفقرها وحاجتها . . .

ولكنها رفضت . . . وهل الفقر عذر؟ . . . أليس الفقر نفسه شيئاً مكتوباً على بعض الناس ؟ . . .

لقد قالت له ان سبب جريمتها . . . هو هذا المكتوب ، وأنه لا حاجة بها إلى الاحتجاج بالفقر . . .

وعرض عليها أن يقول إنها كانت فى حالة شاذة . . . آه ! لقد فهمت إنه أراد أن يقول إنها مجنونة . . . كما كان يقول عنها صبيان الحارة الملاعين . . .

إنه أحمق كبقية هؤلاء الحمقى الذين لا يرون وراء الصور المتباينة حقيقة المكتوب ، ولا يعترفون للثعابين والشياطين الموكلة بالناس بوجود

إنه واحد آخر من سائر من يحسبون أنهم عقلاء أذكياء ، وهم لا يرون ولا يحسون . . .

إنه لن يفهم لو حدثته بقصتها ، ولن يستطيع إدراك ما هو نداء البئر . . . وضحكة القمر ، والثعابين السود . . .

ورفعت رجلها عن الأرض بحركة سريعة لا إرادية كمن

يبعدها عن عقرب أو ثعبان . . .

وهؤلاء الناس ، المتشحون بالسواد ، الحبيسون فى وقارهم ومعتقداتهم لن يفهموا هم أيضاً ما ليس من عالمهم . . .

لا جدوى من الكلام . . . فهذا الغباء المحيط بها ، وقلة الفهم والمشاركة بالوجدان إنما هو أيضاً شيء مكتوب .

وعادت إلى الاهتمام بالشمس والعصفور . . .

ما أجمل شمس هذا اليوم ، وما أعظم الفرق بين صحو الجو فى الخارج وبين عتمة السجن والرطوبة . . .

وسئلت مرة أخرى ألا تقول شيئاً . . .

وهزت رأسها سلباً .

وخلت المحكمة للمداولة ، فإن العدالة « المعصوبة العينين » يلزم لها كما ترى بعض الوقت كى تنصب موازينها وتصدر أحكامها بكل ثقة وراحة ضمير . . .

ويظهر أن العدالة انتهت أخيراً إلى قرار من هذا النوع . . .

إذ صاح الحاجب مرة أخرى « محكمة . . . »

ونادى الرئيس متهماً وراء متهم ، ثم ناداها وأعلنها بصوت هادىء لم تفتها عذوبته ، أن العدالة الساهرة قد خصتها

بثلاث سنين مع الشغل والنفاذ . . .

وحدقت فى القاضى لحظة وهو يتابع قراءة الأحكام ، فإنها لم تفهم جيداً ، ولكنها تذكرت أن هذه الأمور لا سبيل إلى فهمها ، وإنما هى كلها نصيب مكتوب . . . ، فأشاحت بوجهها إلى النافذة والشمس الضاحكة والعصفور الصغير .

ولكنهم لم يمهلوها إلا قليلا ، ثم أخذها الحراس مع من أخذوا ذلك النهار ، إلى حيث ينفذون فيهم ما « رأت » العدالة « المعصوبة العينين » فى شأنهم على ضوء العقل والقانون .

* * *

وهذه هى الجريمة ! . . .

اقرأ

١٩٤٣ ١٩٤٨

صدر منها ٦٣ كتابا فى مختلف ألوان الفكر تداول كتابتها أعلام الكتّاب فى مصر والشرق العربى وقد رضى عنها جمهور القراء فى جميع البلاد العربية .

ثمن النسخة

فى مصر	٥٠ مليما	فى سوريا ولبنان	٦٠ غ ل س
فى السودان	٥٠ مليما	فى العراق	٦٠ فلسا

فى فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهى ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

أولادنا

١ عمرون شاه
٢ مملكة السحر
٣ كريم الدين البغدادى
٤ آلة الزمان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجلوها في جميع مراحل النمو
عناصر المتعة والثقافة وسمو النفس

المجموعة التي تحبب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرا ويتعلق به كبيرا
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة



تصدرها
دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

اقرأ

حسن عبد السلام

الأغنية الشعبيّة

دار المعارف بمصر

الأغنية الشعبية

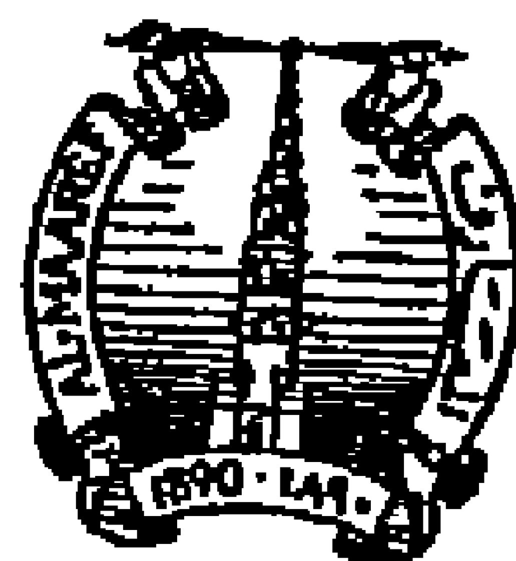
حسن عبد السلام

الأغنية الشعبية

اقرأ ٦٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٤ – ١٥ أبريل سنة ١٩٥٦



الفصل الأول

تمهيد :

سوء التغذية — غذاء الفقير فى مصر — مؤسسة دولية للتغذية — وزارة الشئون — غذاء العمال — غذاء الفلاح — غذاء المدارس بالمرحلة الأولى .

الفصل الثانى

الطعام :

وظائف الطعام — أنواع الطعام — كميات الطعام — أثر الطهى فى الطعام — قابلية الطعام للهضم — تنويع الطعام — جدول تركيب الأطعمة .

الفصل الثالث

الأغذية الشعبية فى مصر :

الخبز — الفول المدمس — الفلافل — العدس — البصارة — المش والجبن — الزيتون — الفسيخ — الكباب — الملوخية — المحشى — السقط والكرشة والكوارع — الدقة — البصل — الفجل والكرات والجرجير — البليلة — الذرة — الكشك — الفريك —

البطاطس — العسل والطحينة — الحلوى الطحينية — الكنافة والقطائف — قمر الدين — عصير القصب — البلح والتمر — البطيخ والشمام — القهوة — كعك العيد — البوظة .

الفصل الرابع

خاتمة :

تقرير هارفى عن التغذية فى بريطانيا — تقرير بيفردج عن التأمين الاجتماعى وتغذية العمال — مساوئ الغذاء الشعبي الحاضر فى مصر ، وما يجب أن يكون عليه .

١ – تمهيد

سوء التغذية :

لا ريب فى أن أشد ما تعانيه طبقات الفقراء والعمال والفلاحين فى مصر هو سوء التغذية ، وما يترتب عليه من ضعف عام فى الصحة يعرض الأفراد للإصابة بشتى الأمراض .

فأغلبية الشعب عندنا لا تحصل على المقدار الكافى من بعض الأغذية الجيدة الضرورية للجسم ، وقد يتوافر فى غذائها المقدار المناسب من المأكولات النشوية ، لأن الخبز المصنوع من دقيق القمح أو الذرة يكاد يكون فى متناول الجميع ، بيد أن النقص الشديد الذى يعانيه الفقير فى مصر هو فى الأغذية البروتينية والدهنية .

فالأغذية البروتينية مثل اللحوم والطيور والأسماك والبيض والجبن واللبن لا يأكل منها الفقراء إلا لماماً ، وكذلك الأغذية الدهنية مثل القشدة والزبد والسمن والزيوت التى من نوع جيد ، فهى بعيدة عن متناول أغلبية الفقراء وصغار العمال والفلاحين .

ومن المؤلم حقاً أن يكون من أوسع الأغذية الشعبية انتشاراً فى مصر أطعمة مثل المش والفلافل والفول النابت والطورشى

والحبيصة (البصارة) ، فهذه المأكولات فقيرة جداً فى مادتها البروتينية وفقيرة أيضاً فى مادتها الدهنية ، والبروتين كما هومعلوم لازم لبناء الأنسجة وتجديد ما تهدم من خلايا الجسم ، أما الدهن فيمد المرء بالطاقة والحرارة ويساعد العضلات والأعصاب على أداء الأعمال . ويقبل الفقراء على أكل الأطعمة المتقدمة لرخص ثمنها أولا ، ولأن بها عادة كمية زائدة من الملح أو التوابل الحريفة التى تثير عندهم شهية عظيمة للأكل .

غذاء الفقير فى مصر :

وغنى عن البيان أن الفقير يغالط نفسه عندما يأكل وجبة مكونة من رغيف أو رغيفين من الخبز مع مقدار تافه من المش أو الطورشى أو الفلافل ، لأنه يحس بالشبع والامتلاء ويظن أنه قد أدى واجبه نحو تغذية جسمه ، والحقيقة أنه لا يحصل من مثل هذه الوجبة إلا على مقدار كبير من المادة النشوية ، أما المواد البروتينية والدهنية وأملاح الكالسيوم والحديد والفيتامينات فلا يحصل جسمه منها على الكفاف .

وكثير من المواد البروتينية والدهنية ينتجه الفلاح فى مزرعته أو فى قريته ، ولكنه يضن بالمنتجات الجيدة على نفسه وأسرته ، ويبيعها لكى يحصل على مبلغ من المال . ولأن الفلاح عندنا

جاهل أو أمى ، لا يدرك أنه عندما يقتصر على أكل النفاية مما ينتجه يعرض نفسه لأشد الأضرار بسبب سوء التغذية ، وأن المال الذى يحصل عليه إنما هو ثمن لصحته ، ولكن الصحة لا تقدر بمال ، فهو الخاسر فى هذه الصفقة غير الرابحة .

أثر الغذاء فى الوقاية من المرض :

ومن الثابت أن الغذاء الجيد له أثر فعال فى تقوية الجسم وتحصينه من الإصابة بالأمراض ، فما دام الغذاء الذى يتناوله المرء كميته حسنة ومستوف لشروط التغذية الصحيحة الكاملة ، فإنه يساعد الجسم على مقاومة بعض الجراثيم المحيطة به والتى تغير عليه من حين لآخر عن طريق المسالك الهوائية وتلوث الطعام أو مياه الشرب ونحو ذلك من وسائل نقل العدوى .

ومما يبرهن على أن عامل التغذية له أثر قوى فى وقاية الجسم من المرض أن بعض الأوبئة التى تنتشر فى البلاد فى بعض الأحيان تفتك بالطبقات الفقيرة بشدة ولا تصيب إلا عدداً قيلا من ذوى الرخاء واليسر . وقد لمس كل واحد منا أثر التغذية فى مقاومة الأمراض لمساً واضحاً عندما تفشى مرض الملاريا بين سكان مديريتى قنا وأسوان سنة ١٩٤٤ ، وكذلك عند تفشى الحمى الراجعة بين الطبقات الفقيرة فى مصر سنة ١٩٤٦ ، وكان

من أهم وسائل مقاومة المرض فى كلتا الحالتين مبادرة الحكومة إلى تحسين الحالة الغذائية لسكان المناطق التى نكبت بالمرض.

وفى السنين الأخيرة عنيت الحكومات فى كثير من الأمم المتمدنة بموضوع الطب الوقائى وارتباطه بمشكلات الغذاء. وبذلت مجهودات كبيرة لتحسين مستوى التغذية بين الطبقات الفقيرة والعاملة ، وأصبح من المقرر أن التغذية الجيدة من أقوى عناصر الطب الوقائى وأفضل الوسائل لمنع الأمراض والمساعدة على شفائها وتقليل نسبة الوفيات بين الأفراد .

ونحن فى مصر أحوج ما نكون لزيادة إنتاج الفرد ونشاطه ، ولا يتم هذا إلا بجعل الأطعمة الجيدة فى متناول الشعب بأسره ، فالطبقات الفقيرة عندنا تكد وتكدح طول النهار معظم أيام السنة دون أن تنال حظها كاملا من الأغذية البروتينية والمنتجات الحيوانية الهامة مثل اللحوم والطيور والأسماك والبيض واللبن والجبن والزبد . وإن شعباً لا ينال نصيبه من التغذية الصحيحة الجيدة لن يقدر على مواصلة الكفاح لبناء مجد الأمة ، وسيصيبه مركب النقص ويحيا خاملا فى كنف الذلة والضعف والمسكنة .

ثقافة غذائية :

ومن الأمور الضرورية لرفع مستوى التغذية بين الفقراء نشر

التعليم وإزالة الجهل والأمية بين جميع أفراد الشعب، وتعليم الناس بعض الشيء عن عناصر الطعام والقواعد الصحيحة للتغذية .

وفى أمريكا أصبحت المدارس الأولية والابتدائية تعنى بتعليم الصغار المبادئ الأساسية الهامة فى موضوع التغذية ، وأصبحت بعض الموضوعات مثل « الطعام والجسم »، « الطعام والاقتصاد المنزلى» من المواد الأصلية التى تدرس للتلميذ بمجرد إلمامه بشيء من القراءة والحساب . وذلك لكى تثبت فى ذهنه ، ويشب وقد تكونت عنده عادة اختيار المأكولات الجيدة ، فلا تقف العادات السيئة حائلا بينه وبين ما يراه صالحاً لجسمه من ألوان الطعام .

مؤسسة دولية للتغذية :

وقد أنشئت مؤسسة دولية للتغذية فى أكتوبر عام ١٩٤٥ ، وكانت أولى المؤسسات الدائمة التى أنشأتها هيئة الأمم المتحدة عقب انتهاء الحرب العالمية الأخيرة، والغرض من هذه المؤسسة توحيد العمل بين الحكومات المنضمة إلى الهيئة لرفع مستوى التغذية والعمل على زيادة إنتاج الحاصلات الزراعية وتوفير المنتجات الغذائية للطبقات الفقيرة والعمال وسكان الريف . وإذا

تعذر على بعض الحكومات المشتركة فى هذه المؤسسة الاضطلاع بالمشروعات الإصلاحية التى تتعلق بشئون التغذية وأعوزها المال لذلك ففى وسعها أن تلجأ إلى البنك الدولى ليقرضها ما تحتاج إليه . وكان الملحوظ فى الماضى أن الدول الصناعية تتعسف مع البلاد المنتجة فتحرص على الحصول على منتجاتها بأبخس الأثمان ، أما الاتجاه الحالى فهو رفع مستوى الأمم الضعيفة وضمان فائدة المنتج والمستهلك على السواء . والمؤسسة المذكورة ليست أداة دولية وقتية للتغلب على أزمة الغذاء الطارئة عن حالة الحرب والنظر فى التدابير التى يجب اتخاذها لتفريج أزمة المجاعة فى بعض البلاد فحسب ، بل المرجو أن يتكون منها مجلس دائم يتخذ صفة الاستقرار فى الإنتاج والتصريف والتوزيع والاقتصاد والإحصاء والتسعير ، وأن تكون من مهامه الأساسية الحض على الإكثار من الإنتاج الزراعى فى مختلف الأمم وتجويده ورفع مستوى المعيشة للفلاحين وتحسين حالة التغذية فى العالم بأجمعه . وتقع على عاتق هذا المجلس تهيئة جميع الوسائل التى تمكننا من الحصول على الغايات النفعية المتقدمة .

وقد استطاعت مصر بانضمامها إلى هذه المنظمة الغذائية الدولية أن تحصل فى التسعة الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٧ على مائة وأربعة وثلاثين ألف طن من القمح مقابل تصدير كمية

مماثلة من الأرز تنتفع بها الشعوب الأسيوية التى تتخذ الأرز غذاء أساسياً لها ، ووضعت تحت تصرف المنظمة ستة وستين ألف طن أخرى من الأرز على أساس مقايضتها ببعض المنتجات الغذائية التى تحتاج إليها مصر .

وزارة الصحة :

وقد أعدت وزارة الصحة فى مصر مذكرة بطلب فتح اعتماد بمبلغ مائتين وخمسين ألف جنيه لمعالجة المصابين بالأمراض المتوطنة بطريق التغذية ، غير أن هذا المشروع لا يعد حلا لمشكلة تغذية الطبقات الفقيرة فى القطر لأن نفعه مقصور على المرضى الذين يقعون تحت إشراف الوزارة المذكورة ، أما الملايين من العمال والفقراء من بقية أفراد الشعب فلا يشملهم شىء من النفع من هذا المشروع .

مؤسسة النافى :

وأرى أن أفضل وسائل تحسين مستوى التغذية بين العمال والطبقات التى تقوم بأعمال جسدية شاقة طول النهار ، اتباع النظام الذى كانت تعمل به مؤسسة النافى (N.A.A.F.I) بوزارة الحرب البريطانية لإطعام الجنود والعمال ، وهى مؤسسة أشبه ما يكون بجمعية تعاونية كبيرة ، اتبعت نظام المطاعم

المتنقلة فكانت ترسل بسيارات كبيرة (لوريات) محملة بأصناف المأكولات الجيدة إلى الأماكن التى يجتمع فيها عدد كبير من الجنود والعمال ، فيشترى منها العامل ما يحتاج إليه من الطعام بسعر أقل كثيراً من السعر الذى يباع به فى السوق العادى ، كما أنها أنشأت عدداً كبيراً من المقاصف فى أماكن الجنود والعمال لتزويدهم بالأطعمة الجيدة بأثمان زهيدة .

وهذه المؤسسة وإن كانت تابعة لوزارة الحرب ولها صبغة شبه حكومية ، إلا أنها كانت شركة تجارية قبل كل شيء آخر ، ولم تكن تعتمد على الحكومة إلا فى بعض التسهيلات البسيطة العادية ولم تستمد منها أو من الهيئات الأخرى شيئاً من المال ، بل كانت مستقلة فى ميزانيتها وكانت تعتمد كل الاعتماد على عمليات الشراء والبيع لتغطية مصروفاتها ، ومع أنها كانت تبيع المنتجات الغذائية بأبخس الأثمان ، إلا أنها لم تخسر ، بل حققت شيئاً من الربح الذى كانت تنفقه فى مشروعاتها النفعية الجليلة ، وكان رائدها الأول أن تقف حائلا بين جشع التجار وبين المستهلكين من الجنود والعمال والطبقات الفقيرة ، فبدلا من أن تكدس الأرباح الباهظة فى جيوب تجار الجملة وتجار التجزئة والقطاعى وغيرهم من الوسطاء العديدين الذين تتألف منهم حلقة الاتصال المتشعبة بين المنتج والمستهلك ، أصبح

المستهلك يأخذ مباشرة من المنتج .

وقد لمست هذا الأمر بنفسى عندما كنت أقضى بعض أيام الإجازات فى الريف ، فكنت ألاحظ الفلاح يبيع ما ينتجه من البيض بسعر ثلاثة مليمات للتجار الذين يجوبون القرى ويجمعون خيراتها ثم يذهبون بها إلى المدن ، وهناك يباع البيض بسعر سبعة أو ثمانية مليمات للبيضة الواحدة ، فلا يقدر على شرائه إلا ذووا اليسر ومتوسطو الحال من الناس ، أما الفقراء وهم الأغلبية ، فلا ينتفعون بالمنتجات الغذائية الجيدة التى تسلب من إخوانهم الفقراء فى الريف ، لأنها تعرض فى الأسواق بأسعار بعيدة عن متناولهم .

وأشد ما يكون ألمى عندما أمر على إحدى العمارات الكبيرة وهى فى طور البناء والإنشاء ، فألاحظ عشرات الشغالة والعمال وقد جلسوا على الأرض يتناولون غذاء تافهاً حقيراً فى وجبة الظهر ، وهذا الغذاء قوامه فى الغالب مقدار من خبز الذرة الجاف وكمية قليلة جداً من الجبن الردىء (القريش) مع بعض الكرات أو الفجل ، وهو غذاء لا يتناسب مع ما يبذلونه من مجهود جثمانى طيلة ساعات النهار ، ولا يمكن أن يعوض ما يتهدم من أنسجة أجسامهم فى تلك الأعمال الشاقة المضنية .

غذاء العمال فى المدن :

ومنذ بضعة أسابيع كنت فى المطبعة الأميرية بحى بولاق ، واتفق خروجى منها وقت الظهيرة ، فشاهدت مئات العمال يتزاحمون على طبالى وعربات صغيرة يشترون منها الخبز والفلافل والممبار ، فهالنى ما رأيت وهو أن غذاء العامل الذى فى مقتبل العمر والذى يقوم بأعمال شاقة طول النهار مقصور على رغيف الخبز ومقدار صغير من الفلافل والطورشى ، ومثل هذا الغذاء غير مستكمل لعناصر التغذية الأساسية ، وبه نقص شديد فى مادتيه البروتينية والدهنية .

والحى المذكور ، به عدد كبير من المصانع والورش التى يشتغل بها بضعة آلاف من العمال ، وكان من الواجب أن تتنبه الجهات المختصة إلى مسألة إمدادهم بالغذاء الجيد الذى يتناسب مع ما يبذلونه من المجهود فى أداء الأعمال ، وأن تتولى وزارة الشئون إعداد مطاعم متعددة فى الأحياء التى يشتغل بها عدد كبير من العمال ، على أن تباع المأكولات الجيدة فيها بأسعار فى متناول أجورهم ، وفى الغالب لن تحتاج الحكومة إلى تغطية نفقات مثل هذا المشروع ، لأن المنتجات الغذائية فى مصر متوافرة ، ولكن سوء التوزيع وجشع التجار يحولان بين

العامل الفقير وهذه المنتجات .

وثمة اقتراح آخر يمكن أن تعمل به الجهات المسئولة ، وهو إلزام أصحاب المصانع ، ومديرو الورش حكومية كانت أم أهلية ، ومقاولو العمارات الكبيرة ، وكل من يشرف على عمل يشتغل به عدد كبير من العمال ، بإعداد مقاصف تباع فيها المأكولات الجيدة بأسعار رخيصة فى حدود ما يتقاضاه العامل من أجر ، وتغطى نفقات هذه المقاصف من أرباح المصنع أو تكاليف بناء العمارة ونحو ذلك .

ورب معترض يقول : أليس أولى بنا أن نزيد أجر العامل وندعه يدبر لنفسه شراء ما يحتاج إليه من الغذاء ، والرد على هذا الاعتراض أن العامل غالباً ما يسىء التصرف فى إنفاق ما يحصل عليه من دخل محدود وقد ينفق الجانب الأكبر منه فى شراء السجائر وتعاطى المكيفات أو ما شابه ذلك ، فيحرم نفسه من الغذاء الجيد ، فإلى أن ينتشر التعليم ويعلو مستوى الثقافة بين العمال والطبقات الفقيرة فى مصر ، أرى من الأوفق أن يدبر المسئولون أمر إمداد العمال بوجبة غذائية جيدة مرة أو مرتين فى كل يوم .

غذاء الفلاح فى الريف :

هذا فى المدن ، أما فى الريف والقرى ، فإن انحطاط مستوى المعيشة يجعل من المتعذر على الفقير الحصول على قسط كاف من الأغذية الجيدة التى يحتاج إليها جسمه ، فغذاء الفلاح قوامه فى الغالب خبز الذرة و بعض المش وقليل من الخضر ، ومثل هذا الغذاء ليست له خاصة الوقاية من الأمراض أو أن خاصته الوقائية ضعيفة إلى حد كبير ، و يترتب على ذلك أن عدداً كبيراً من الفلاحين يصاب بالهزال وسوء التغذية وفقر الدم والبلاجرا والإنكلستوما وقرح الفرنية و بعض أمراض الرئة والأمعاء .

ونحن نأمل أن يكون من نتائج تعميم إنشاء المراكز الاجتماعية بالقرى والبلاد الصغيرة رفع مستوى المعيشة بين الفلاحين وإتاحة نظام يكفل حسن توزيع الغذاء الجيد بينهم . ونرجو أن يكون من أخص وظائف هذه المراكز العمل على تحسين إنتاج المناطق التى تشرف عليها ومراقبة تصريف المنتجات الغذائية مراقبة دقيقة لمنع التجار من أن يستحوذوا على خيرات البلدة بأسعار بخسة وتصديرها إلى المدن الكبيرة ، الأمر الذى يحدث الآن فى معظم قرى القطر ويتسبب عنه حرمان الفلاحين من قوتهم الضرورى. ومن الواجب أن يخول لهذه المراكز أو المجالس القروية

سلطة كافية لمنع بيع منتجات القرية إلا بنظام مخصوص ومعدل معين لكى يحفظ جانب منها للاستهلاك المحلى ، وبذلك يضمن حصول الفقراء والفلاحين على مقدار من الأغذية الجيدة .

غذاء التلاميذ بالمرحلة الأولى من التعليم :

وقد عمدت وزارة التربية والتعليم فى السنين الأخيرة إلى التوسع فى إطعام تلاميذ مدارس المرحلة الأولى ، غير أنها وكلت أمر تقديم الغذاء لهذه المدارس إلى عدد من التجار والمتعهدين الذين لا يقنعون بربح معتدل مقابل مباشرتهم لهذه العملية ، فالهدف الأول لهؤلاء المتعهدين الخروج من صفقاتهم بمغنم مادى كبير ، غير مراعين لصحة التلاميذ وحاجتهم الشديدة للغذاء الجيد .

وقد لاحظت عند زيارتى لعدد كبير من هذه المدارس أن الغذاء الذى يقدم للتلميذ تافه حقير ، فهو مقدار من الخبز ومعه قليل من الفلافل فى أحد الأيام ، ومقدار من الخبز وقطعة صغيرة من الحلوى الطحينية فى اليوم الذى يليه ، وهكذا دواليك .

وبديهى أن التلاميذ الصغار فى أشد الحاجة إلى الغذاء الجيد وهم فى طور النمو ، خاصة وأنهم يقضون جانباً كبيراً من حياتهم فى الجرى واللعب ، بالإضافة إلى ما يؤدونه من الأعمال فى الدرس والتحصيل ، والواجب أن يقدم لهؤلاء الصغار اللبن بوفرة ،

والبيض والكبد والجبن والزبد والعسل ومنتجات الألبان والفاكهة ، بجانب ما يقدم لهم الآن من المأكولات . ولو أن الوزارة وضعت المبالغ التى رصدتها لتغذية التلاميذ تحت تصرف النظار مباشرة ، لكان الغذاء الذى يقدم فى المدارس على جانب حسن من الجودة ومستكملا لمعظم عناصر التغذية . أضف إلى ما تقدم أن المتعهدين الذين يوكل إليهم تقديم الطعام للمدارس يلجأون عادة إلى الأغذية الرديئة وغير الطازجة وكل ما يقع تحت أيديهم من الطعام الرخيص لتقديمه إلى تلك المدارس . وقد حدثت عدة حوادث تسمم فى بعض المدارس بسبب ما كان يقدمه بعض المتعهدين من المأكولات غير الطازجة للتلاميذ ، وما حادث التسمم الذى حدث فى مدينة الفيوم وأصيب فيه ما ينيف على ثلاثمائة تلميذ بالتسمم ، ببعيد عن أذهان العارفين .

إصدار المنتجات الغذائية :

ولا جدال فى أن تشجيع التصدير لمما يعزز الحالة الاقتصادية للبلاد ، بيد أن هذا التصدير لا يجوز أن يكون على حساب الفقراء من أفراد الشعب ، فغالبية من يستفيد من عمليات التصدير فى مصرهم أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة ومنهم عدد كبير من الأجانب ، والواجب أن يقصر التصدير على المنتجات

التى تفيض عن حاجة القطر ، والتى لا تمس حاجات الشعب الغذائية ، فمن المفيد أن تصدر البلاد كميات كبيرة من السكر المكرر لأن مصر تنتج هذه المادة بوفرة عظيمة ، ولأن الضرر الذى ينجم عن إقلال الفرد لما يتناوله من السكر ضئيل ، بل قد يفيده هذا الإقلال . ونوافق أيضاً على تصدير جانب مما تنتجه البلاد من الأرز والذرة ، لأن الأغذية النشوية يحصل عليها الفقير بسهولة وتكاد تكون فى متناول الجميع . أما المنتجات البروتينية والأغذية الدهنية فلا يجوز أن يفكر أولوا الشأن فى تصدير شىء منها إلا بعد أن يزيد إنتاجنا للحاصلات الزراعية والحيوانية زيادة كبيرة عما هو عليه الآن . ومع أن الفول والعدس من الأغذية البروتينية ، فإنا نشجع تصديرهما أو إعطاءهما للماشية والبهائم ، لأننا نريد أن يستبدل بهما الفقير أغذية من المنتجات الحيوانية كالبيض واللبن والجبن واللحوم والأسماك وما إليها من الأغذية البروتينية الجيدة .

وثمة وسيلة أخرى بجعل بعض المنتجات الحيوانية الضرورية للتغذية مثل البيض واللبن فى متناول الفقير ، وهى أن تشتريها الحكومة من المنتج بسعر معين وتبيعها للمستهلك بسعر أقل ، على أن تدفع الفرق بين السعرين من خزانة الدولة . بيد أن تنفيذ هذه الطريقة يحتاج إلى يقظة ودقة شديدتين من جانب الحكومة

لكى لايتلاعب بها ذوو الأغراض عند تطبيقها ، كما حدث عند شراء الحكومة لمحصول القمح من الزارع وبيعه للمطاحن فى العهود الماضية ، فقد أدرت هذه العملية أموالا طائلة على أصحاب المطاحن والمخابز والوسطاء والبنوك .

سوء التغذية بين الأغنياء :

وكان من الأمور المسلم بها إلى عهد قريب ، أن رداءة نوع الطعام ونقص كميته هما السببان الوحيدان لسوء التغذية ، وكان الرأى السائد أن أعراض سوء التغذية لا تظهر إلا بين الفقراء ومن تعوزهم القدرة على شراء كميات كافية من الأطعمة الجيدة ، بيد أن الأبحاث الحديثة تدل على أن سوء التغذية يصاب به أيضاً عدد غير قليل من ذوى الرخاء واليسر ، لأنهم يأكلون ثلاث وجبات ثقيلة فى كل يوم ، ويسرفون فى أكل الأغذية الزلالية والدهنية المركزة ، وهذا يحمل جهازهم الهضمى فوق طاقته ، فتضطرب عمليات الهضم والتمثيل عندهم ، ويؤدى ذلك إلى أسوأ النتائج لصحتهم .

والحقيقة أن العدالة غير ممثلة فى توزيع الطعام على أفراد الشعب فى مصر ، فبينما تسرف الأقلية منهم فى تناول الأطعمة البروتينية والدهنية إلى حد التخمة والإضرار بصحتهم نجد الأغلبية

محرومة من كثير من المأكولات الضرورية للصحة والنمو .

ومن الأمور الملاحظة فى مصر خاصة التفاوت العظيم بين أجسام أفراد الشعب ، فالفلاحون والعمال تميل أجسامهم إلى النحافة إن لم نقل الهزال الشديد ، أما الموظفون والتجار وطبقة الموسرين فيميلون إلى البدانة بوجه عام . وإنك إذا لقيت نظرة على السيدات المصريات بالمدن وقارنت أجسامهن البدينة بأجسام القرويات النحيلات للمست الفرق شاسعاً ، وكلا العيبين يمكن تلافيهما إذا روعى النظام وشيء من الحق فى توزيع الطعام على الأفراد .

والبدانة سببها الأول الإفراط فى الأكل ، فالبدين يتناول من الطعام أكثر مما يحتاج إليه جسمه ، ولو أنه غالباً ما ينكر ذلك ، ويتهم غدده الداخلية وينسب إليها الخلل وعدم إفراز العصارات اللازمة لحرق ما يأكله من الغذاء ولكن الحقيقة أن الجشع هو العامل الأساسى فى إحداث البدانة ، ولو استطاع البدين أن يملك زمام نفسه عند الأكل لتضاءلت كمية الشحم المترسب فى جسمه ، وتحسنت صحته العامة من جميع الوجوه ، لأن الدهن الزائد عن الحاجة يحمل القلب والشرايين الدموية والكلى وبقية أجهزة الجسم عبئاً إضافياً وقد يؤدى إلى إصابة أحدها بالخلل أو المرض .

وبالإضافة إلى البدانة ، يصاب الموسرون من الناس بشتى الأمراض التى تنشأ عن سوء التغذية ، وعدم تجانس ما يتناولونه من ألوان الطعام ، وكثرة ما تحويه من المواد الدسمة المركزة ، ومن هذه الأمراض الديابيطس السكرى وتضخم الكبد والنقرس والروماتزم وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم .

ومن المؤلم حقاً أن عدداً كبيراً من المثقفين يأكلون ما يقدم لهم خادم المائدة ثلاث مرات فى اليوم وهم لا يدرون شيئاً عما يأكلون ، وإذا تحدثت إليهم فى موضوع المواد الغذائية وجدتهم لا يحيطون بشيء منه ما عدا بعض المعلومات المشتتة عن الفيتامينات ، أما المواد الكربوايدراتية والبروتينية والأملاح المعدنية والخمائر والأنزيمات والألياف السليلوزية وتمثيل الطعام وما يولده من الوحدات الحرارية فهى بالنسبة إليهم من الألغاز ، وقد يكون البعض منهم مصاباً بالحموضة أو الإمساك أو اضطراب الهضم أو البول السكرى ، ومع ذلك لا يعنى بدرس غذائه وما يرتبط به من أمور تمس الصحة فى الصميم .

توزيع الثروات :

وإجمال القول أن المنتجات الحيوانية والمواد الغذائية البروتينية والدهنية لا يحصل الفقير منها على كمية كافية ، وعدد كبير من

الفلاحين والعمال والصبية الفقراء في مصر محرومًا منها للأسباب الآتية :

١ — هبوط مستوى المعيشة فى القطر وتأخر البلاد فى نهضتها الصناعية فى الماضى .

٢ — انعدام التجانس فى توزيع الثروات بين أفراد الشعب وتحكم الطبقات الرأسمالية القليلة العدد فى الطبقات العاملة الكثيرة العدد .

٣ — عدم وجود سياسة غذائية رشيدة فى الماضى تعمل على توفير الغذاء الصالح للفقراء ذوى الدخل البسيط المحدود .

٤ — بطء الإجراءات المتخذة لمحو الأمية وما يترتب عليه من جهل الناس بالمعلومات الأولية فى الصحة والتغذية وعدم إدراكهم لحقوقهم المادية والديمقراطية فى الحياة .

فإذا أردنا أن ننهض بالمستوى الصحى للبلاد ونضمن للشعب صحة جيدة وأجساماً قوية ، وجب علينا أن نبادر إلى تحسين غذاء الفقراء والفلاحين والطبقات العاملة ، وأن نعنى عناية خاصة بغذاء الصغار بمدارس المرحلة الأولى والريفية ، وأن نتأكد من أن الوجبات التى تقدم لهم مستكملة لشروط التغذية الجيدة .

ونحن إذ ننادى بوجوب تحسين الغذاء للطبقات العاملة وضرورة حصولها على مقدار كاف من الأطعمة الدسمة المركزة ، فإنا فى الوقت نفسه نطلب من ذوى الرخاء واليسر ومتوسطى الحالة

من أفراد الشعب أن يقللوا ما أمكن من هذه الأطعمة المركزة ، وأن يدربوا أنفسهم على تجنب الوجبات الثقيلة والإفراط فى الأكل ، فإن فى ذلك أعظم الفوائد لصحتهم ، ويؤدون فى الوقت نفسه واجباً إنسانياً نحو إخوانهم الفقراء والمحرومين .

٢ ـ وظائف الطعام

قبل أن نخوض فى حديث الأغذية التى يقبل على أكلها الناس فى مصر ، يجب أن نعرض للنقط الأساسية التى يتركب منها موضوع الغذاء ، وأن نشير إلى القواعد الثابتة التى بنى عليها علم التغذية الحديث ، وعلينا أيضاً أن نلم بالمواد الغذائية اللازمة لنمو الجسم وصحته ، والعناصر والمركبات الكيميائية التى يتركب منها الأنواع المختلفة للغذاء ، وذلك لكى نعرف تماماً مدى صلاحية كل من الأطعمة الشعبية للصحة والتغذية .

وعلى ذلك سيتناول كلامنا على الغذاء بوجه عام ، الموضوعات الأساسية الآتية :

(أولا) وظائف الطعام .

(ثانياً) أنواع الطعام .

(ثالثاً) هضم الطعام .

(رابعاً) الطعام والطاقة أو كميات الطعام .

وظائف الطعام :

يمكن القول بأن جسم الإنسان فى شغل مستمر ، حتى فى الأوات التى يكون فيها فى سبات عميق ، فمع ما يظهر عليه عندئذ من علامات السكون التام ، فإن بعض أعضائه الداخلية لا تقف عن العمل لحظة واحدة . فالقلب ضرباته مستمرة ، والرئتان فى حركة دائمة ، والدم يجرى من القلب إلى كل عضو وكل خلية فى الجسم .

وعندما يكون المرء يقظاً ، يؤدى جسمه بعض الأعمال الإضافية الأخرى ، كالحركة والمشى والتفكير والقيام بالواجبات الأخرى التى تتطلبها الحياة . وبديهى أن جميع هذه الأعمال الجسدية والفكرية تستنفد فى أدائها مقداراً من الطاقة ، والغذاء الذى يتناوله المرء هو المصدر الوحيد لهذه الطاقة .

والطاقة التى يولدها الغذاء ، لا تنصرف جميعها فى أداء الأعمال ، بل يستنفد جزء منها فى توليد الحرارة اللازمة لحفظ درجة الجسم عند معدل معين ، فمن المعلوم أن درجة حرارة الإنسان هى ٣٧° مئوية ، وتظل هذه الدرجة ثابتة مهما تغيرت الظروف المحيطة به ، وحيث أن درجة حرارة الجو أقل من الدرجة المذكورة فى غالب الأحيان ، فمعنى ذلك أن الجسم يفقد بالإشعاع جزءاً من حرارته طلة ساعات النهار والليل ، فمن

وظائف الغذاء إذن توليد الحرارة لتعويض الجسم ما يفقد منه من الحرارة ، لكى تبقى درجته عند المعدل المذكور .

ومن المعلوم أيضاً أن خلايا الجسم يتهدم جزء منها فى تأدية وظائف الحياة المتنوعة ، وأن الأطفال والصغار تنمو أجسامهم نمواً مطرداً وذلك يتطلب بناء أنسجة جديدة ، فمن وظائف الغذاء إذن تجديد ما تهدم من أنسجة الجسم وخلاياه ، وبناء أنسجة أخرى جديدة فى حالة النمو .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن الجسم تلزمه بعض العناصر الكيميائية مثل الفوسفور والكالسيوم والحديد واليود والكلور والكبريت والماغنسيوم ، وهذه العناصر تدخل فى كثير من العمليات البيولوجية التى تحدث باستمرار فى الجسم ، ولما كان جزء منها يفقد على الدوام فى البول والعرق والبراز ، كان من الضرورى أن يحصل الجسم عليها من حين لآخر بواسطة الغذاء .

ومما تقدم ، نستنتج أن الوظائف الأساسية للغذاء هى الآتى :

١ - توليد الحرارة اللازمة لحفظ درجة الجسم فى معدل ثابت ، وتوليد الطاقة التى تستخدم لأداء العمليات البيولوجية والفسيولوجية داخل الجسم ، والأعمال الجسدية والفكرية خارجه .

٢ - إصلاح ما تهدم من خلايا الجسم ، وبناء أنسجة جديدة فى حالة النمو .

٣ - إمداد الجسم بالعناصر الكيميائية والأملاح المعدنية

اللازمة لتأدية كل عضو وظائفه الخاصة به .

أنواع الطعام :

يحدثنا علماء الكيمياء الحيوية بأن ثمة خمس مواد غذائية ، بالإضافة إلى الماء ، يجب أن تتوافر فى طعام الإنسان لكى يحصل منه على جميع العناصر والمركبات اللازمة لنمو الجسم وتأديته للأعمال الجسدية والفكرية وجميع وظائف الحياة ، وهذه المواد الخمس هى الآتى :

١ ــ المواد الكربوايدراتية .
٢ ــ المواد البروتينية .
٣ ــ المواد الدهنية .
٤ ــ الأملاح المعدنية .
٥ ــ الفيتامينات .

أولا : المواد الكربوايدراتية ، وهى تشتمل على جميع الأغذية السكرية والنشوية ، ومثل الأغذية السكرية سكر القصب المعتاد والعسل بنوعيه والمربى والحلوى وما إليها ، ومثل الأغذية النشوية الخبز والأرز والمكرونة والبطاطس وأنواع الكعك والبسكويت والفطائر . ووظيفة المواد السكرية والنشوية فى الغذاء أنها تولد الحرارة والطاقة فى الجسم .

ثانياً : المواد البروتينية ، وتوجد فى جميع أنواع اللحوم والأسماك

والطيور والكبد والكلى والبيض والجبن ، وتوجد أيضاً فى بعض الأغذية النباتية مثل العدس والفول والفاصوليا والحمص والبندق والجوز واللوز . ووظيفة المواد البروتينية فى الغذاء أنها تولد أيضاً مقداراً من الطاقة والحرارة فى الجسم ، مثل المواد الكربوايدراتية غير أن لها بجانب ذلك وظيفة هامة أخرى وهى تجديد ما يتهدم من خلايا الجسم وأنسجته وبناء أنسجة إضافية أخرى عند النمو.

ثالثاً : المواد الدهنية ، وهى تشمل شحم الحيوان والزبدة والقشدة والزيوت النباتية المتنوعية ، ووظيفتها فى الغذاء مثل المواد الكربوايدراتية ، أى أنها تولد الحرارة والطاقة .

رابعاً : الأملاح المعدنية : مثل أملاح الكالسيوم والحديد والماغنسيوم والفوسفور واليود والكلور والكبريت ، وهذه الأملاح لا ندحة للجسم عنها لكى تؤدى وظائفه البيولوجية المتنوعة ، فمركبات الكالسيوم والفوسفور لازمة لتكوين العظام والأسنان والغضاريف ، والحديد لازم لتكوين مادة الهموجلوبين التى تدخل فى تركيب الكرات الحمراء فى الدم ، وكلوريد الصوديوم لازم لتحضير حامض الإيدروكلوريك الذى يكون جزءاً أساسياً من العصارة المعدية الهاضمة ، واليود لتحضير إفرازات الغدة الدرقية ، والكبريت لازم لتكوين خلايا الجلد والشعر والأظافر ، ونحو ذلك ، وتوجد الأملاح المعدنية فى كثير من الأغذية

لطبيعية مثل اللحوم والحبوب والبقول واللبن ، وفى معظم الخضر كالكرنب والاسبانخ والبسلة والقرنبيط ، وتوجد أيضاً فى الفاكهة .
والجدول الآتى به نسبة وجود الأملاح المعدنية فى الأطعمة المختلفة مع العلم بأن أوزان الأطعمة المأخوذة متساوية فى جميع الحالات .

أغذية غنية بالحديد

كبد البقر	٨٠٠	الزبيب	٥٠٠
صفار البيض	٧٥٠	الحمص	٤٠٠
العسل الأسود	٧٥٠	السبانخ	٤٠٠
البنكرياس	٦٠٠	القراصيا	٣٠٠
كبد الغنم	٥٠٠	البندق واللوز	٣٠٠
المشمش	٥٠٠		

أغذية غنية بالفوسفور

الجبن الجاف	٨٠٠	الطيور	٢٥٠
الكاكاو	٤٠٠	الجبن الطرى	٢٥٠
البندق واللوز	٤٠٠	البيض	٢٢٠
السمك	٣٠٠	الكبد	٢٠٠
اللحوم	٢٧٥		

أغذية غنية بالكالسيوم

الجبن الجاف	١٠٠٠	اللبن	١٢٠
البندق واللوز	٣٠٠	الجبن الطرى	٨٠
العسل الأسود	٢٥٠	البيض	٦٠
الفاصوليا الجافة	١٥٠	الخضروات	٥٠ — ١٥٠

أغذية غنية بالكبريت

أجنة الحبوب	٣٠٠	البصل	١٥٠
العدس	٢٥٠	الثوم	١٥٠
الجبن	٢٥٠	الكرنب	١٥٠
بياض البيض	٢٠٠	الكرات	١٥٠
اللحوم	٢٠٠		

أغذية غنية باليود

زيت كبد الحوت	١٠٠٠	الخس	١٠٠
سمك الهلبوت	٥٠٠	الجزر	١٠٠
سمك السلمون	٥٠٠	الجرجير	١٠٠
الأسماك	٢٠٠	اللبن	١٠٠
الكرنب	١٥٠		

خامساً : الفيتامينات ، وهى طائفة من المركبات الكيميائية لم يدرك كنهها وأثرها العظيم فى التغذية إلا منذ نصف قرن تقريباً ، وهى توجد فى كثير من الأغذية الطازجة مثل اللبن ومنتجاته والكبد والبيض والخضر والفاكهة . وقد وجد أن عمليات التنقية والتكرير والحفظ والتجفيف التى تجرى على الأغذية ، وكذلك عمليات الطهى الطويلة المعقدة ، تتلف جانباً كبيراً مما تحويه الأطعمة من الفتيامنيات .

وعدد الفيتامينات التى اكتشفت حتى الآن بضعة عشر فيتاميناً ، سنذكر أربعة منها فى هذا المقام على سبيل المثال :

فيتامين ا : يوجد هذا الفيتامين فى كثير من الأغذية الدهنية الحيوانية مثل زيت كبد الحوت والزبد الطبيعى والقشدة واللبن ، كما يوجد فى الكبد وصفار البيض ، وفى الأغذية النباتية ذات الصبغة الصفراء مثل الجزر والمشمش والخوخ والطماطم والمانجة والبطيخ .

ونقص هذا الفتيامين فى الغذاء يؤدى إلى الإصابة ببعض أمراض البصر ، ويضعف القدرة على الإبصار فى الظلام ، كما أنه لازم لحفظ الأغشية المخاطية بالجسم فى حالة صحية جيدة .

مجموعة فيتامين ب : تتركب هذه المجموعة عن عدد من الفيتامينات المتشابهة فى التركيب تعرف بفيتامين ب١ ، ب٢ ، ب٣ . الخ ، وهى توجد فى الخميرة واللبن والكبد وصفار البيض

ونخالة الحبوب ، ووجودها فى الغذاء لازم لحفظ الأعصاب فى حالة جيدة ، وتساعد على تحصين الجسم وتقيه من بعض الأمراض مثل البرى برى والبلاجرا .

فيتامين ج : يكثر وجوده فى الفاكهة الطازجة وخاصة فى البرتقال والليمون والشليك ومعظم الفاكهة الحامضية ، كما يوجد بوفرة فى الطماطم والجزر والكبريت والخس وكثير من الخضر الطازجة . وهذا الفتيامين ضرورى لحفظ صحة الجسم بوجه عام ووقايته من داء الحفر أو الأسقربوط بوجه خاص .

فيتامين د : يوجد فى معظم الأغذية التى يتوافر فيها فيتامين ا وخاصة المنتجات الحيوانية الدهنية مثل زيت كبد الحوت والزبدة والقشدة واللبن وصفار البيض . ووجود فيتامين د فى الغذاء هام جداً للصغار الذين فى طور النمو ، ونقصه يؤدى إلى إصابتهم بالكساحة ولين العظام .

وهناك عدا ما تقدم عدد من الفيتامينات الأخرى ، بعضها مضاد للعقم والبعض مضاد لسرعة نزيف الدم ، والبعض يقى الجسم من الأمراض الجلدية .

هذا وعدد من الأغذية التى نأكلها يحتوى على جميع العناصر الغذائية مجتمعة ، فاللبن مثلا يحتوى على كل من المادة الكربوايدراتية (سكر اللبن) ، والمادة الدهنية (القشدة) ،

والمادة البروتينية (كازين اللبن) ، وبه أيضاً أملاح الكالسيوم والماغنسيوم والفوسفات بمقادير مناسبة لاحتياج الجسم ، كما أن به عدداً من الفيتامينات (ا ، ب ، د) .

والبعض الآخر من الأغذية قد يحتوى على واحد أو اثنين من هذه العناصر الغذائية ، فاللحم ليس به إلا البروتين وبعض الأملاح المعدنية ، وقد يعلق به شيء من الدهن . والسكر يكاد يكون مادة كربوايدراتية نقية ، وكذلك كل من الدقيق والأرز ، والسمن مادة دهنية خالصة ، والفاكهة تحتوى على السكر والفيتامينات وبعض الأملاح المعدنية .

لذلك كان من الضرورى تنويع المأكولات بقدر الاستطاعة ، وأن يكثر المرء من أكل الأغذية الطبيعية الطازجة ، لكى يضمن حصوله على كل من العناصر العذائية اللازمة لجسمه وصحته .

سادساً : الماء : يوجد الماء فى جسم الإنسان بنسبة أكبر من مجموع المواد الأخرى ، فثلاثة أرباع وزن الجسم تقريباً عبارة عن الماء ، وتختلف هذه النسبة باختلاف أجزاء الجسم ، فبينما هى ٢٢٪ فى العظام ، نجدها نحو ٨٥٪ فى الكلى وبعض الأنسجة الرخوة الأخرى . والماء لازم لحدوث جميع العمليات الحيوية بالجسم ، فهو الواسطة التى ينتقل بها الطعام من القناة الهضمية إلى الدم ثم إلى جميع أنسجة الجسم ، كما أنه ينقل

النفايات وبعض المواد التالفة التى تتولد من تمثيل الطعام إلى الكلى لطردها فى البول . ويكون الماء الجزء الأكبر من الدم والعصارات الهاضمة ، وتقدر الكمية التى تخرج منه من الجسم فى كل أربع وعشرين ساعة بنحو لترين ونصف ، منها ١٥٠٠ سم٣ تخرج عن طريق الكلى فى البول ، ونحو ٦٠٠ سم٣ تخرج فى العرق الذى يتبخر من سطح الجسم ، ونحو ٣٠٠ سم٣ تفقد فى عمليات الزفير ، ونحو ١٠٠ سم٣ تخرج مع البراز ، وحيث أن معظم المأكولات التى يتناولها المرء بها كمية كبيرة من الماء ، فإن الجسم يحصل منها على جانب مما يحتاج إليه من هذا السائل ، ويحصل على الجانب الآخر من الماء والسوائل الأخرى التى يشربها المرء فى كل يوم مثل الحساء والشاى وعصير الفاكهة والسوائل المرطبة .

كميات الطعام :

تتفاوت كميات الطعام اللازمة للأفراد تبعاً للسن والجنس ونوع العمل الذى يقوم به الفرد والجو الذى يعيش فيه ، فحاجة الطفل الصغير إلى الطعام أقل من حاجة الصبى النامى ، وتحتاج المرأة إلى كمية من الطعام أقل مما يحتاجها الرجل ، والذى يقوم بأعمال فكرية أو جالساً على مكتبه معظم ساعات النهار أقل من العامل

أو الفلاح الذى يقوم بأعمال جسدية شاقة ، وحاجة المرء إلى الطعام فى الصيف أقل منها فى الشتاء ، وهكذا .

ويقدر علماء الأغذية كمية الطعام اللازمة للمرء بما تولده فى جسمه من الحرارة ، وقد وجد أن الشخص العادى يحتاج من الطعام فى فترة أربع وعشرين ساعة ما يولد فى جسمه ٣٠٠٠ وحدة من وحدات الحرارة ، ووجد أن الرطل الواحد من المادة الكربوايدراتية النقية يولد نحو ١٨٦٠ وحدة حرارية ، وكذلك الرطل من البروتين ، أما الرطل من المادة الدهنية النقية فيولد نحو ٤٢٠٠ وحدة حرارية ، أى أن رطلا من الدهن يكافئ فى قيمته الغذائية ٢$\frac{1}{4}$ رطلا من كل من المواد الكربوايدراتية أو البروتينية .

وتحتوى معظم الأغذية التى نأكلها على كميات متفاوتة من الماء ، فبعضها مثل اللبن والفاكهة يحتوى على كمية كبيرة من الماء ، والبعض مثل اللحوم يحتوى على كمية متوسطة ، والبعض مثل الدهن والمواد السكرية والنشوية يحتوى على كمية صغيرة من الماء ، لذلك تختلف كمية الغذاء اللازمة لتوليد مجموع الطاقة اليومية (٣٠٠٠ وحدة) باختلاف نوعه ، فثلاثة أرباع رطل من الدهن تكفى لتوليد الطاقة المذكورة ، وكذلك ١$\frac{3}{4}$ رطلا من السكر ، ونحو ثلاثة أرطال من اللحم .

وبديهى أنه لا يمكن أن يقتصر المرء على نوع واحد من هذه المواد الثلاث ، لأن الجسم يحتاج فى تأدية وظائفه المتعددة إلى أنواع مختلفة من العناصر الغذائية ، فيجب إذن أن نختار من المواد الثلاث المذكورة المقادير المناسبة ، بحيث يكون مجموع ما تولده من الطاقة ٣٠٠٠ وحدة .

ومن الضرورى أن نبدأ بالمواد البروتينية ، لأنها الوحيدة بين أنواع الغذاء الثلاثة التى ترمم أنسجة الجسم وتبنى خلايا جديدة فيه ، بيد أن تحديد المقدار اللازم منها ليس بالأمر الهين ، وقد اختلف الباحثون فى تحديد هذا المقدار اختلافاً كبيراً ، وذلك لأن إجراء التجارب على الشخص بإعطائه كميات معينة من البروتين ، لا تظهر نتائجها إلا بعد عدة سنين تكون فى خلالها عوامل أخرى قد لعبت دورها فأثرت على هذه النتائج . ويعتبر شيرمان أن ١٠٠ جم من البروتين تكفى الشخص العادى فى كل يوم ، وحيث أن اللحم يحوى فى المتوسط ٢٠٪ من وزنه من البروتين ، فمعنى ذلك أن الشخص يلزمه نصف كيلوجرام من اللحم فى كل يوم . ولما كان البروتين يوجد فى كثير من الأغذية الأخرى غير اللحوم ، مثل اللبن والجبن والبيض وبعض البقول ، كان من المستحسن أن يقتصر المرء على نحو ربع كيلوجرام من اللحم فى اليوم ، على أن يتناول المقدار المتبقى من البروتين من

أغذية أخرى تحتوى عليه (بيضتان وقدح من اللبن وقطعة حسنة من الجبن فى كل يوم) .

والمائة جرام المذكورة من البروتين تولد فقط ٤١٠ وحدة حرارية ، فالمقدار الباقى من الطاقة اليومية (نحو ٢٦٠٠ وحدة) ، يجب أن تولده مواد دهنية كربوايدراتية ، والأولى تولد كمية كبيرة من الطاقة ، ولكنها تستغرق وقتاً طويلا فى هضمها ، ولسبب غير مفهوم تماماً لا تهضم على وجه كامل إلا إذا وجدت معها المادة الكربوايدراتية ، لذلك كان من المستحسن أن تزيد كمية الأخيرة عن الأولى فى الغذاء ، إلا إذا كان الجو شديد البرودة ، وفى هذه الحالة لا بأس من أن تزيد كمية المادة الدهنيةِ عن المادة الكربوايدراتية فى الغذاء .

ويقدر العلماء كمية المادة الكربوايدراتية اللازمة للمرء فى اليوم بنحو ٤٠٠ جرام فى المتوسط ، وهذه تولد ١٦٥٠ وحدة حرارية ، وبذلك يبقى من المقرر اليومى للطاقة ٩٥٠ وحدة وهذه تتولد من مائة جرام من الدهن ، أى أن مجموع الوجبات الثلاث فى اليوم يجب أن تحتوي على ٤٠٠ جم من المادة الكربوايدراتية ومائة جرام من كل من الدهن والبروتين .

ومن المناسب أن يأخذ المرء ثلاثة أرباع المادة الكربوايدراتية فى صورة مواد نشوية والباقى مواد سكرية ، وحيث أن المادة

الكربوايدراتية تستطيع أن تتمثل إلى دهن فى داخل الجسم ، أمكن الاستغناء عن مقدار من الدهن إذا أكل المرء كمية كافية من المادة الأولى ، والدليل على ذلك أن فقراء الصينين واليابانيين يعيشون على الأرز ، بينما يأكل قبائل الإسكيمو قليلا من المواد الكربوايدراتية فى الشتاء وكثيراً من المواد الدهنية ، حيث أن الأخيرة تولد كمية كبيرة من الحرارة تساعد على إحداث الدفء فى تلك الأقطار الباردة .

وغنى عن البيان أن الأرقام المتقدمة تمثل المواد النقية ، وحيث أن معظم الأطعمة التى نأكلها تتحوى على نسبة كبيرة من الماء (انظر جدول تركيب الأغذية) كان من الضرورى مراعاة ذلك عند تعيين أوزان المأكولات اللازمة للإنسان ، ويمكن القول بوجه عام أن الشخص المعتاد يكفيه فى اليوم الواحد نصف كيلو جرام من الأغذية النشوية والسكرية ، ونصف كيلوجرام من الأغذية التى تحتوى على بروتين ومائة جرام فقط من الدهن ، لأن الدهن سواء كان مصدره حيوان أو نبات فإنه لا يحتوى إلا على قليل جداً من الماء أى أن مجموع الثلاث وجبات التى يتناولها المرء فى اليوم يجب أن تحتوى على ٤٠٠ جم من الخبز ، ١٠٠جم من السكر أو الحلوى (مواد كربوايدراتية) ، $\frac{١}{٤}$ كيلوجرام من اللحم وبيضتان وقطعة من الجبن وقدح من

اللبن (مواد بروتينية) ، ونحو أربع أوقيات من السمن أوالزبدة أوأحد الزيوت. وبديهى أن السمك أوالكبد يغنيان عن اللحوم ، والبطاطس أو الأرز يغنيان عن الخبز ونحو ذلك .

وقد يتوهم البعض أنه ما دام الغذاء يولد ٣٠٠٠ وحدة حرارية فى اليوم فهو كاف ومستكمل لشروط التغذية ، بيد أن مثل هذا الغذاء رغماً عن كونه يولد المقدار اللازم من الطاقة والحرارة اللجسم ، قد يكون خالياً من بعض الفيتامينات الهامة التى تكسب الإنسان الصحة وتقيه من كثير من الاضطرابات الصحية والأمراض ، وقد يكون خالياً من الأملاح المعدنية اللازمة لبعض العمليات الحيوية التى تحدث باستمرار فى الجسم ، وقد يكون خالياً من الخمائر والأنزيمات التى تنشط الهضم ، والألياف السليولوزية التى تنبه الحركة الدودية للأمعاء وتمنع الإمساك ، فهذه العناصر الغذائية وإن لم يكن لها قيمة غذائية حرارية تذكر إلا أنها ضرورية للجسم ويجب أن تتوافر فى طعام الإنسان .

اللحوم ووظيفتها فى التغذية :

تعد اللحوم أكبر مصدر للبروتينات فى غذا الإنسان ، لأن البقول وإن كانت تحوى بعض المركبات البروتينية ، إلا أن نسبتها فيها صغيرة ، كما أن البروتينات التى تحتوى عليها البقول

أقل جودة من بروتين اللحم ، ومعنى ذلك أنها أقل موافقة وصلاحية لبناء الخلايا والأنسجة التى يتركب منها جسم الإنسان، ويمتاز بروتين اللحوم أيضاً بأنه أسرع هضما وامتصاصاً وتمثيلا من بروتين البقول .

وتتكون اللحوم بجميع أنواعها من ألياف خيطية رفيعة وطويلة وكلما قصرت هذه الألياف كان اللحم ليناً غضيراً سهل الهضم ، فالألياف التى يتكون منها صدر الدجاجة مثلا أقصر كثيراً من ألياف لحم البقر ، ولذا كانت الأولى رخيصة وأسهل هضما من الثانية . ويتخلل الألياف راسب من الدهن ، وكلما زاد مقداره قلت قابلية اللحم للهضم ، ولذا كانت لحوم البط والأوز والضأن السمين والخنزير صعبة الهضم إلى حد ما .

وتتركب اللحوم من ماء وبروتين ودهن وأملاح معدنية ، فالماء يكون نحو ثلثى وزن اللحم (قبل الطهى) ، وكلما صغر سن الحيوان زادت نسبة الماء فيه وقلت تبعاً لذلك قيمته الغذائية .

ويتراوح مقدار ما باللحم من البروتين بين ٨٪ ، ٢٣٪ (انظر جدول تركيب اللحوم) ، ويعد الميوسين أهم البروتينات التى يحتوى عليها اللحم ، وبه أيضاً كمية من الجلاتين الذى يكثر على الأخص فى لحوم الحيوانات الصغيرة السن . وبالإضافة إلى ما ذكر ، يحتوى اللحم على مقدار حسن من الألبومين

والهموجلوبين وبعض المواد المعدنية مثل حامض الفوسفوريك وكربونات البوتاسيوم وأملاح الكالسيوم والحديد ، وعلى كمية من الدهن وقليل جداً من المواد الكربوايدراتية (سكر ونشا حيوانى) ، وعلى بعض المواد العضوية التى تكون مستخلصات اللحوم وتكسبها ذلك الطعم الشهى المعهود ، ولذا فإن اللحوم التى تغلى مدة طويلة فى الماء يخرج منها بعض مستخلصاتها وتفقد طعمها .

واللحوم بوجه عام غنية بفيتامينى ا ، ب ، ولما كان اللحم يتخلله عادة كمية من الدهن ، فإنه به أيضاً فيتامين د .

وتعد الكلى أهم أجزاء الحيوان فى قيمتها الغذائية ، ويليها فى ذلك الكبد ، وهما يمدان الجسم بمقدار حسن من الحرارة الغذائية والفيتامينات ، ويمتاز الكبد بارتفاع نسبة الحديد فيه ، ويمتاز المخ باحتوائه على نسبة كبيرة من مركبات الفوسفور والكالسيوم والبوتاسيوم . والجدول الآتى يبين على وجه التقريب متوسط تركيب بعض أنواع اللحوم .

وتتوقف التفاعلات الكيميائية التى تحدث عند طهى اللحم على الطريقة التى تتبع فى إعداده للأكل ، فإذا أريد المحافظة على جميع المستخلصات العضوية التى باللحم وأملاحه المعدنية ، فيجب طهيه بطريقة تجلط البروتين الذى على سطحه بسرعة ،

وبذلك يمتنع تسرب العصارات والمستخلصات منه ، وأحسن وسيلة لذلك عملية الشي .

	لحم البقر	الضأن	البتلو	الخنزير	الدجاج	السمك
ماء	٦٣,٧	٦٥,٢	٧١	٦٠,٩	٦٦,٨	٧٦,٧
بروتين وجلاتين	٢٠	١٤,٥	١٧	١٢,٣	٢١	٢٠,٦
دهن	١٥	١٩,٥	١١	٢٦,٢	١١	١,٧
أملاح معدنية	١,٣	٠,٨	١	٠,٦	١,٢	١,١
الحرارة التى يولدها رطل واحد	١٠٠٥	١٠٩٢	٧٨٠	١٣٣٣	٧٨٠	٨٦٥

وأهم التغيرات الكيميائية التى تحدث عند طهى اللحم تحلل ما به من الكولاجن ، وهو مركب غير قابل للذوبان إلى مادة قابلة للذوبان ، وبذلك يزول النسيج الجامد الذى يربط ألياف العضلات بعضها ببعض ويصبح اللحم غضاً سهل المضغ وتزيد سرعة تأثره بالعصارات الهاضمة فى المعدة . والقول بأن اللحم يفقده كثيراً من محتوياته الغذائية عند غليه فى الماء لا يطابق الحقيقة ، لأنه لا يفقد فى هذه العملية أكثر من ١٪ مما به من البروتين ونحو $\frac{١}{٣}$ ما به من المستخلصات القابلة للذوبان ، ونصف أملاحه المعدنية ، وقليل جداً مما به من الدهن .

أثر الطهى فى الطعام :

طهى الطعام له كثير من المزايا فيما يتعلق بهضمه وتمثيله واستساغة أكله ، وله بجانب ذلك بعض المساوئ . وما قدمته هو تأثير الطهى فى اللحوم ، أما تأثير الطهى فى جميع الأغذية بوجه عام فهو الآتى :

المزايا ١ ــ يساعد الطهى على تصديع الألياف السليولوزية التى تتكون منها كثير من الأغذية النباتية مثل القرنبيط والكوسة والبادنجان وبعض البقول ، فهذه الألياف إن أكلت نيئة سببت عسراً فى الهضم وصعب على الجسم تمثيلها ، وتطرية الألياف بالطهى يساعد تأثير العصارات الهاضمة عليها .

٢ ــ يساعد الطهى على إنضاج المادة النشوية التى توجد فى بعض المأكولات مثل الأرز والبطاطس ويمكن أنزيمات اللعاب والأمعاء من هضمها .

٣ ــ إذا أكلت بعض المواد الزلالية ، مثل بياض البيض والبومين اللحوم وهى نيئة ، فإنها لا تمكث فى المعدة مدة تكفى لإتمام هضمها على وجه صحيح ، ومثل هذه المواد تتجلط بالحرارة فتمكث مدة أطول فى المعدة وتستطيع العصارات المعدية الهاضمة التأثير عليها .

٤ — قد يكون الحيوان الذى يؤخذ لحمه للأكل مصاباً بالتدرن ، وقد تكون الخضر ملوثة ببعض الطفيليات ، وقد ينقل الذباب بعض الجراثيم إلى اللبن ، فالحرارة تعمل على قتل الجراثيم وتعقيم الطعام .

٥ — يعمل الطهى على إظهار نكهة الطعام وطعمه ورائحته وهذه من شأنها أن تثير حاسة الذوق عند المرء فيشتهى الأكل ، كما أن الطعام الساخن ينبه بعض أجزاء الجهاز الهضمى ويزيد من إفراز العصارات الهاضمة .

على أن طهى الطعام له بعض المساوئ ، منها ما يأتى :

١ — يتلف الطهى جزءاً غير قليل مما تحتوى عليه الأغذية من الفيتامينات الهامة ، وخاصة إذا أضيف إلى الطعام قلوى مثل بيكربونات الصوديوم .

٢ — إذا غليت اللحوم والخضروات مدة طويلة فى الماء فإنها تفقد جزءاً مما بها من المستخلصات العضوية والأملاح المعدنية المفيدة للجسم .

قابلية الطعام للهضم :

تتفاوت الأغذية المتنوعة كثيراً فى قابليتها للهضم والامتصاص والتمثيل بالجسم ، فالبروتينات التى تتكون منها اللحوم مثلا أسرع

هضما من بروتين البقول ، وهى تمتص فى الدم بعد تجزئتها بالعصارة الهاضمة امتصاصاً يكاد يكون كاملا ويتخلف منها جزء صغير من النفاية الغذائية ، كما أن اللحوم تحتوى على مستخلصات عضوية منبهة (مثل الكرياتين والزانثين) تنشط الجهاز الهضمى .

ويمكن القول بوجه عام أن المنتجات الغذائية الحيوانية أسهل هضما وأسرع امتصاصاً وتمثيلا فى الجسم من المنتجات النباتية ، فقد وجد مثلا أن جميع ما باللحم من البروتين (أى ١٠٠ ٪) قابل للامتصاص فى الدورة الدموية ، فى حين أن ٧٥—٨٥ ٪ فقط من بروتين البقول قابل للامتصاص وأن ٩٥ ٪ من الدهن الحيوانى قابل للهضم يقابل ذلك ٨٠ ٪ من الزيوت والمواد الدهنية النباتية . وأن ١٠٠ ٪ من كربوايدرات اللبن والبيض يمتص بالدم يقابلها ٩٠ ٪ من الكربوايدارتات النباتية .

وأسهل أنواع اللحوم هضما صدور الطيور ويليها السمك ولحم الضأن ولحم البقر ، أما لحم العجل (البتلو) فهو بطىء التأثر بالعصارة الهاضمة ، ولحم الخنزير من أصعب أنواع اللحوم قابلية للهضم ، وذلك لما يتخلل أنسجته من الدهن . كما تختلف أجزاء الحيوان الواحد فى قابليتها للهضم ، فالمخ والبنكرياس (الحلويات) والكرشة أسهل هضما من الأجزاء الأخرى ،

واللحوم التى تطهى فى الدهن (عملية القلى أو التحمير) أصعب كثيراً فى هضمها من اللحوم التى تطهى بدونه (السلق والشى) .

ومن أسهل الأطعمة هضما الأرز واللبن المغلى والحساء والبيض المسلوق سلقاً خفيفاً والتفاح المطهى ، فهى تستغرق فى هضمها ساعة أو اثنين على الأكثر ، والجدول الآتى يبين المدة التى يستغرقها هضم عدد من الأغذية الشائعة :

	دقيقة	ساعة		دقيقة	ساعة
الأرز المسلوق		١	بطاطس بالصلصة	٣٠	٣
البيض المسلوق	٣٠	١	ضأن مشوى		٣
التفاح المطهى	٣٠	١	ضأن محمر أو بصلصة		٤
اللبن المغلى		٢	زبد	٣٠	٣
خبز (قديم)		٢	جبن	٣٠	٣
خبز طازج		٣	أوز وبط	٣٠	٤
دجاج مسلوق	٣٠	٢	الخضر الغضة		
دجاج محمر		٤	(سبانخ وقرنبيط)	٣٠	٣
سمك مشوى	٣٠	٢	الفول والكرنب والجزر	٣٠	٤
سمك مقلى	٣٠	٣	لحم الخنزير	١٥	٥
بطاطس مشوى	٣٠	٣	العجل الصغير البتلو	١٥	٥

واللحوم وإن كانت سهلة الهضم ومفيدة جداً للجسم ، إلا أن الإسراف فى أكلها قد يضر بالصحة ، وخاصة للمتقدمين فى السن ومن عندهم ضغط الدم وتصلب الشرايين . والمواد الناتجة من هضمها (الأحماض الأمينية) أغلبها حامضى التأثير ، وهذا قد يولد حموضه فى الجسم أو على الأصح يقلل من قلوية الدم . كما أن الإسراف فى أكلها قد يؤذى الكبد والكليتين لاضطرارهما إلى ترشيح النفايات المتولدة من احتراقها وتمثيلها (البولينا وحامض البوليك) . والمفهوم الآن أن تجمع بعض هذه النفايات فى الجسم قد يكون سبباً فى الإصابة ببعض الاضطرابات الصحية مثل الروماتزم وأمراض المفاصل وتصلب الشرايين وبعض الأمراض المشابهة .

الأغذية النباتية :

أهم ميزة للأغذية النباتية أنها غنية بالأملاح المعدنية التى أهمها أملاح الكالسيوم والبوتاسيوم وأملاح الأحماض العضوية ، ووجودها فى الطعام لازم للمحافظة على قلوية الدم ، وتفيد على الأخص الذين يميلون إلى البدانة والمتقدمين فى السن والمعرضين للإصابة بداء النقرس والحموضة وللتوكسيميا أو تسمم الدم .

وتقدم لك أن جميع أنواع الغذاء يجب أن تتحول إلى سوائل

فى الجسم قبل أن تمتص بالدم خلال الجدر المخاطية للأمعاء ، والعمليات التى تمهد لهذا التحويل هى الطهى والمضغ وتأثير العصارات الهاضمة التى يفرزها كل من الفم والمعدة والأمعاء والغدد المتصلة بها ، بيد أن بعض أجزاء الطعام لا تتحول إلى سوائل بتأثير العمليات المتقدمة ، مثل الألياف السليلوزية التى تتكون منها بعض أجزاء الخضر والفاكهة . وهذه الألياف غير قابلة للهضم ، ومع ذلك يعد وجودها ضرورياً فى الغذاء لأنها تنبه الأمعاء وتساعد على قذف البراز خارجها وتحول دون الإمساك . وقد تسبب هذه الألياف عسراً فى الهضم عند بعض الأشخاص ، وخاصة إذا كانت من النوع الجامد أو الخشن ، مثل ألياف الخيار والجزر والبندق ونحوها .

الفاكهة :

وبالإضافة إلى ما تحويه الفاكهة من الألياف السليولوزية فإن وجودها فى الغذاء ضرورى لما تحتوى عليه من الأحماض النباتية والأملاح المعدنية ، وهذه الأحماض قد توجد منفردة أو متحدة مع البوتاسيوم ، وأهمها حامض ستريك أو الليمونيك ويوجد فى الليمون والبرتقال واليوسفى وما إليها ، وحامض الطرطريك الذى يوجد فى العنب ، وحامض الماليك الذى يوجد فى

التفاح . وهذه الأحماض النباتية تتحول إلى كربونات قلوية داخل الجسم ، فهى تحافظ على قلوية الدم ، كما أنها تساعد على إدرار البول وتنشط عمل الأمعاء .

وأهم ما تمتاز به الفاكهة احتواؤها على مقدار كبير من بعض الفيتامينات الضرورية لصحة الجسم مثل فيتامين ج الذى يوجد فى أغلب الفاكهة الحامضية ، وفيتامين ا الذى يكثر فى المشمش والبطيخ والمانجة ، والجدول الآتى يبين نوع الفيتامين والأملاح المعدنية التى تتميز بها بعض الفاكهة :

فيتامين ا	فيتامين ج	مركبات الكالسيوم	مركبات الحديد
المشمش	الليمون	العنب	المشمش
البطيخ	البرتقال	الشمام	التمر
المانجة	اليوسفى	الكمثرى	القصب
البرقوق	الشليك	الموز	التين
القرع العسل	الجوافة	الجوافة	المانجة
السنطاوى	التفاح	الموالح	الرمان

وقد تسبب الفاكهة الطازجة عسراً فى الهضم عند بعض الأشخاص لما تحويه من الألياف السليولوزية ، وعندئذ يفضل

الاقتصار على عصير الفاكهة ، وعلى الفاكهة المطهية مثل التفاح والخوخ المطبوخين .

ومن أسهل الفواكه قابلية للهضم العنب والليمون والبرتقال والتين ، والتفاح والخوخ المطبوخين ، وأقل منها قابلية للهضم المشمش والكمثرى والقراصيا والأناناس والموز .

تنويع الطعام :

تقدم لك أن العناصر الغذائية التى يجب أن تتوافر فى طعام الإنسان كثيرة متنوعة ، فهناك البروتينات والمواد النشوية والسكرية ، وهناك الدهنيات والأملاح المعدنية والفيتامينات والخمائر والألياف السليولوزية والأنزيمات ، وكل من هذه المواد الأساسية يوجد على أنواع عدة يجب أن يحصل الجسم ولو من حين لآخر على كل نوع منها ، فالبروتينات الحيوانية والنباتية يبلغ عددها بضع عشرات ، والفيتامينات يربو عددها على بضعة عشر فيتاميناً لكل منها وظيفة خاصة فى الجسم . وثمة عدد كبير جداً من العناصر والأملاح المعدنية والخمائر والأنزيمات التى لا ندحة للجسم عن كل منها لكى يؤدى وظائفه البيولوجية على أتم وجه .

فإذا اقتصر الإنسان على أنواع قليلة أو محددة من الطعام

طول أيام السنة فإنه لا يضمن الحصول على جميع العناصر الغذائية المذكورة ، وقد يترتب على نقص بعضها من الغذاء إصابة الجسم ببعض الاضطرابات الصحية الجسمية .

ولذا كان من الضرورى أن يعمل المرء على تنويع أصناف المأكولات التى يتناولها فى الوجبة الواحدة بقدر الإمكان ، وألا يأكل وجبتين متشابهتين فى يوم واحد ، وأن يشتمل الجدول الأسبوعى لوجبات الغذاء على أكبر عدد ممكن من ألوان الطعام .

ومن المفيد جداً أن يتناول الإنسان بعض وجباته فى أحد المطاعم خارج المنزل من حين إلى حين ، وأن يقضى أجازة نهاية الأسبوع فى الريف مرة أو مرتين فى كل شهر ، لأن ذلك يتيح له الحصول على ألوان جديدة من الطعام قد يكون جسمه فى أشد الاحتياج إليها ، فضلا عن أن تغيير الظروف التى يتناول المرء فيها طعامه يبعث فيه سروراً وانشراحاً ويجدد شهيته ويزيد استمتاعه بطيبات الحياة .

وكان المعتقد فى الماضى أنه ما دام المرء يتناول كميات كافية من الطعام فإنه يكون فى مأمن من سوء التغذية ، وكان العلماء يقدرون جودة الطعام بما يولده من الطاقة الحرارية فى الجسم ، فما دام الغذاء يولد ثلاثة آلاف وحدة حرارية (سعر) فإن تغذية المرء تكون صحيحة كاملة . بيد أن الأبحاث العلمية التى

أجراها المختصون فى شئون التغذية فى غضون الأربعين سنة الأخيرة ، أثبتت أنه إذا لم يراع المرء تنويع أصناف المأكولات التى يعيش عليها ، فقد يأكل ضعف الكمية اللازمة لجسمه ويظل فى الوقت نفسه محروماً من بعض العناصر والمواد الغذائية اللازمة للحياة ، فتظهر عليه علامات سوء التغذية .

وإذا كان المرء من ذوى الرخاء واليسر فإنه لا يعانى عادة شيئاً من الحرمان ويحصل فى الغالب على جميع العناصر الغذائية الصالحة ، لأن خادم مائدته يقدم له عدة ألوان من صحون الطعام فى كل وجبة ، وهذا الخادم — أو الطاهى — قد لا يكون ملماً بشئ من أصول علم التغذية ، ولكنه يجيد بحكم مهنته فن تنويع المأكولات ويدرك مقدار السرور الذى يبعثه هذا التنويع فى نفوس الآكلين .

أما الفقير ، فإن موارده المحدودة لا تمكنه من الحصول على المنتجات الحيوانية مثل اللحوم والأسماك والطيور والكبد والمخ والكلى واللبن والجبن والقشدة والأصناف الممتازة من الفاكهة الكثيرة المتنوعة ، وهو لا يستطيع أن يشترى لنفسه أو لأولاده إلا عدداً قليلا من أصناف الأطعمة المحدودة ، فالتنويع فى غذائه متعذر كثيراً فى أغلب الأحيان ، وقد يترتب على ذلك حرمانه من بعض الحاجيات الغذائية الضرورية لصحة الجسم .

ونحن إذا تأملنا فى غذاء الفقير فى مصر وجدناه على وتيرة واحدة فى معظم أيام السنة ويعوزه الشيء الكثير من التنويع والتغيير . فالفول المدمس يكاد يكون طعام الإفطار فى جميع أيام السنة ، وقد يأكله العامل مرتين فى اليوم الواحد وذلك لعدم مقدرته الحصول على أطعمة مغذية بثمن فى متناول ما يحصل على الأجر ، وقد يأكل الفلافل فى وجبة أخرى ، وهى تصنع أيضاً من الفول ، ثم يأكل الفول النابت أو البصارة فى بعض الوجبات الأخرى خلال الأسبوع ، ومعنى ذلك أنه لا يحصل إلا على نوع واحد من البروتينات وهو بروتين الفول ، فيحرم جسمه من البروتينات الأخرى المتنوعة .

وهو لا يأكل من المواد النشوية إلا الخبز فى معظم الأحوال ، وقليلا ما يأكل البطاطس والأرز والفطائر والعجائن المتنوعة ، وكذلك بالنسبة للدهنيات ، فهو محروم من الزبدة والقشدة والسمن ودهن الحيوان ، ولا يحصل من المواد الدهنية إلا على بعض الزيوت الرخيصة ، ولا يأكل من أصناف الفاكهة إلا عدداً محدوداً منها مثل القثاء والجميز والعجور طول أيام السنة .

وكنا نود أن يجمع الفقير فى وجبة الإفطار بين الفول والبيض وشيء من اللبن والفاكهة، ولكنا ندرك أن تحقيق مثل هذه الأمنية متعذر فى مصر بسبب رخص الأيدى العاملة وهبوط

مستوى المعيشة بوجه عام ، فلا أقل من أن ننادى بوجوب تمكين الفقير من الحصول على البيض فى بعض وجباته ، وعلى اللبن والزبد والجبن والفاكهة فى بعض الوجبات الأخرى . ويجب أن يكون غذاؤه مختلطاً من لحم ودهن ومواد نشوية ، وأن يشتمل جدول مأكولاته الأسبوعى على شىء من السمك أو الطيور ، وعلى ألوان متنوعة من الخضر المطهية والطازجة ، وعلى الأرز والبطاطس والحلوى والفاكهة ، لكى نضمن حصول جسمه على حاجته من كل من العناصر الغذائية المتنوعة .

جدول تركيب الأغذية :

ويمكن إجمال ما تقدم بشأن أصناف المأكولات الغنية بنوع خاص من عناصر التغذية فى الجداول الآتية :

أولا : الأغذية البروتينية والنشوية والدهنية .

أغذية بروتينية مركزة	أغذية نشوية مركزة	أغذية دهنية مركزة
الأسماك . اللحوم	الخبز . الأرز	السمن
الطيور . الكبد	الذرة . البطاطس	الزيوت النباتية
الكلى . المخ	المكرونة	الزبد . القشدة
زلال البيض . الجبن	الكعك والبسكوت	دهن الحيوان
العدس وبعض البقول	والفطائر	صفار البيض

ثانياً : الأملاح المعدنية .

أغذية غنية بالحديد	أغذية غنية بالفوسفور	أغذية غنية بالكالسيوم	أغذية غنية باليود
الكبد	السمك	اللبن	الأسماك وخاصة
القلب	الكبد	الجبن	الأسماك الصدفية
صفار البيض	الكلى	صفار البيض	اللوبياوالفاصوليا
الحمام	صفار البيض	العدس	والبقول الخضراء
الأسماك الصدفية	اللحوم	الخبز	
الفستق	الطيور	اللوز والجوز	
اللوز	العدس	الفول الأخضر	
العدس	البقول	النخالة	
اللوبيا والفاصوليا	اللوز	القرنبيط والملوخيا	
السبانخ	النخالة	وكثير من الخضر	
نخالة القمح	الجبن	والفاكهة	
والحبوب	الكاكاو		
التمر والتين			
والزبيب			

ثالثاً : الفيتامينات :

أغذية غنية بفيتامين ا	أغذية غنية بمجموعةفيتامين ب	أغذية غنية بفيتامين ج	أغذية غنية بفيتامين د
زيت السمك	الخميرة	الليمون	زيت السمك
الزبدة . القشدة	النخالة	البرتقال	الزبدة
اللبن	أجنة الحبوب	الشليك	القشدة
دهن الحيوان	اللحوم والسمك	الطماطم	اللبن
صفار البيض	الجبن واللبن	الكرنب	صفار البيض
الجبن	صفار البيض	السبانخ	البطارخ
الكبد	الفول السودانى	الملوخية	الكبد
البطارخ	العدس	الخس	الجبن
الفول السودانى	اللوز	وفى جميع الفاكهة	
الملوخية والخبيزة	البندق	والخضر الطازجة	
والسبانخ وأوراق	الحمص	والبطاطس	
الخضر	الشعير		
الجزر	الحلبة الخضراء		
المشمش والبطيخ	الفول النابت .		

والجدول التالى به موجز لأهم العناصر الغذائية التى تتوافر فى كثير من الأطعمة المعروفة ، علماً بأن العلامة + معناها أن الغذاء به مقدار مناسب من المادة المبينة فى أعلى النهر، والعلامة + + معناها أن الغذاء غنى بهذه المادة ، والعلامة + + + معناها أن الغذاء غنى جداً بهذه المادة .

٣ ـ الأغذية الشعبية

دعنا الآن نستعرض بعض الأطعمة الشعبية التى يقبل على أكلها الأفراد فى مصر فى معظم وجبات الطعام ، ودعنا نفحص كلا منها تحت ضوء المعلومات السابقة من حيث مطابقتها لقواعد الصحة وأصول التغذية ، وذلك لكى نقرر مدى صلاحية الغذاء الشعبى فى مصر ، وما يجب اتخاذه من الوسائل لتحسين مستوى التغذية بين العمال والفقراء والفلاحين ، ونزود الجمهور بقسط مناسب من الثقافة العلمية الغذائية يستعين به فى تقوية صحته واستكمال رفاهيته .

ويجب أن نراعى فى هذا المقام مسألة لها خطورتها فى تغذية الشعب ، ألا وهى أثر العادة والبيئة والوراثة فى استمراء الأفراد لما يأكلونه من ألوان الطعام ، فلا يجوز أن نحدث تغييرات فجائية فيما تعود الناس على أكله أو نجبرهم على أكل أطعمة جديدة لم يألفوها من قبل ، فيجب أن نسير فى الأمر برفق ونضيف إلى طعام الشعب بعض العناصر الغذائية الضرورية بدون أن نحرم الأفراد من طعامهم المحبوب ، وعلينا أن ننبه الأذهان إلى ضرر ما قد يسرفون فى أكله من بعض الأغذية الشائعة ونستبدل

الغذاء	البروتين	الدهن	الكربوايدرات	الكالسيوم	الفوسفور	الحديد	فيتامين ا	مجموعة فيتامين ب	فيتامين ج	فيتامين د
اللحوم	+++	+	—	—	++	++	—	+++	—	—
الكبد	+++	+	—	—	+++	+++	+++	+++	—	+++
الكلى	+++	+	—	—	++	++	++	+++	—	—
الطيور	+++	+	—	—	++	++	+	++	—	—
الأسماك	+++	+	—	—	+++	+	++	++	—	++
دهن اللحم	—	+++	—	—	—	—	+++	—	—	+++
زيت السمك	—	+++	—	—	—	—	+++	—	—	+++
البيض	+++	++	—	+	++	++	+++	++	—	++
اللبن	++	++	++	++	++	—	+++	++	+	+
القشدة	—	+++	—	—	—	—	++	—	—	++
الزبدة	—	+++	—	—	—	—	++	—	—	++
الجبن	+++	++	—	+++	++	—	++	+	—	++
البليلة	—	—	+++	+	++	++	—	+++	—	—
الفريك	—	—	+++	+	++	++	—	+++	+	—
الأرز	—	—	+++	—	—	—	—	—	—	—
الخبز الأسمر	—	—	++	+	++	++	—	+++	—	—
الخبز الأبيض	—	—	+++	—	—	—	—	—	—	—
الفطائر والكعك	—	+	+++	—	—	—	—	—	—	—
البندق والجوز واللوز	++	++	++	++	++	—	—	+++	—	—
الفول السوداني	++	++	—	—	++	—	++	++	—	—
البطاطس	—	—	++	—	—	—	—	++	++	—
الطماطم	—	—	—	—	—	—	++	++	+++	—
الخضر	—	—	—	++	—	++	++	++	+++	—
البسلة والفاصوليا الخضراء	—	—	+	—	++	++	++	++	++	—
الموز	—	—	+	+	—	—	+	—	+	—
الفاكهة الحامضة	—	—	+	—	—	++	+	+	+++	—
الخوخ والمشمش	—	—	++	—	—	+	++	++	++	—
العنب	—	—	++	—	—	++	++		+	—
عصير القصب	—	—	+++	+	+	—	—	—	+	—
السكر	—	—	++	—	—	++	—	—	—	—
العسل الأسود	—	—	++	+	—	—	—	+	—	—
المربى	—	—	++	—	—	—	—	+	+	—

بها تدريجاً أغذية أكثر مطابقة لشروط التغذية الصحيحة الكاملة .

ويكاد الفول المدمس ومعه الخبز ، يكونان طعام الإفطار لجميع أفراد الطبقة العاملة فى مصر . أما وجبة الغذاء فمتنوعة تنويعاً كثيراً ، فقد تتركب من الخبز والمش ، أو الخبز والفلافل وقد يأكل العامل بعض المنتجات الحيوانية الرخيصة فى وجبة الظهر مثل السقط والكرشة والكوارع والفسيخ أو السردين ، أو يأكل الخضر المطهية ومعها مقدار تافه من اللحم أو الدهن ، مثل البامية والكوسه والملوخية والباذنجان والقلقاس . وفى وجبة العشاء يأكل الخبز مع الفول النابت أو العدس أو البصارة ، وقد يأكل العسل والطحينة ، أو الحلوى الطحينية ، أو إحدى الخضر المطهية ، أو الجبن القديم أو الفول المدمس مرة ثانية ، وقد يأكل السمك المقلى الرخيص أو نفاية السلاخانات مثل الطحال والسجق أو الممبار ، وأحياناً يأكل البيض ونادراً ما يشرب اللبن أو يأكل الطيور .

ومن الخضر الطازجة يأكل الفجل والكرات والبصل والجرجير ، أما الفاكهة التى يتناولها الفقير فى مصر فلا تعدو أصنافاً قليلة محدودة ، منها القصب والعجور والقثاء والعجوة والجميز والجوافة والتين الشوكى ، تبعاً لمكانها ولوفرة كل منها فى فصول السنة . وسنتكلم

الآن عن كل من هذه الأطعمة الشعبية المتقدمة فى شىء من التفصيل .

الخبز :

من المفروغ منه ، ويعرفه كثير من الناس ، أن الخبز غذاء شعبى فى معظم الأقطار ومنها مصر . بيد أنه فى بعض البلاد قد يعتمد الأهالى على بعض الحاصلات الزراعية الأخرى أكثر مما يعتمدون على الخبز المصنوع من حبوب القمح أو الذرة . ففى اليابان يعتمد الناس فى التغذية على الأرز ، وفى الصين يعيش عدد كبير جداً من الأهالى على فول الصويا ، والبطاطس فى إنجلترا لها المكانة الأولى بين الأغذية النشوية التى يتغذى بها معظم الأفراد ، وفى بعض الأقطار الحارة ، مثل جاميكا ، يعيش الأهالى على الموز ويصنعون من دقيقه نوعاً من الخبز ، ويأكلون منه ومن بعض الثمار الأخرى كالجوز والمانجة أكثر مما يأكلون من الخبز المصنوع من الحبوب .

أنواع الخبز :

لكى نعرف أنواع الخبز المختلفة وقيمة كل منها فى الغذاء ، يجب أن نلم أولا بتركيب المواد التى تحتوى عليها حبوب القمح ، وهذا التركيب هو الآتى :

٦٧ ٪ نشا
٣,٥ « سكر
٢,٥ « دهن
١١,٥ « بروتين
٢ « دكسترين
٢ « أملاح معدنية
٢ « ألياف سليلوزية خشنة
٩ « ماء

وأهم الأملاح المعدنية فى حبوب القمح أملاح الكالسيوم والفوسفور والحديد ، ويوجد الجانب الأكبر منها فى الألياف السليلوزية التى تستبعد عن طحن القمح ويعرف مجموعها بالردة أو النخالة ، وهذه الألياف غنية أيضاً بفيتامين ا ، ب .

لذلك كان أفضل أنواع الخبز وأكثرها صلاحية للأكل والتغذية الخبز الأسمر المصنوع من كامل محتويات الحبوب بدون أن ينتزع منها شيء من الأجنة أو النخالة ،ويعرف هذا الخبز بخبز جراهام وهو يشتمل على ١٠٠٪ من محتويات القمح ، إلا أنه محدودِ التناول ولا يأكله إلا عدد قليل جداً من الأفراد .

والنوع الثانى من الحبوب يصنع من دقيق القمح بعد استبعاد نصف نخالته ويعرف بخبز الدقيق الكامل وهو تعبير اصطلاحى

لأنه لا يحتوى إلا على ٨٢٪ من محتويات الحبوب ، أى أن نسبة المادة النشوية فيه أكبر من نسبتها فى الحبوب الطبيعية ، وهذا الخبز محدود التناول أيضاً .

والنوع الثالث يصنع من دقيق القمح بعد استبعاد جميع ما تحتوى عليه الحبوب من أجنة ونخالة أو قشور ويكاد يكون مادة نشوية نقية إذ يحتوى على ٧٢٪ من محتويات القمح . ويعرف هذا الخبز بالخبز الأبيض وهو شائع التناول كثيراً فى معظم البلاد ويقبل الناس على أكله أيما إقبال ويفضلونه عما عداه لحسن منظره وسهولة هضمه ولذه مذاقه .

ويعد الخبز الأبيض غير مستوف لشروط التغذية الصحيحة للأسباب الآتية :

١ ــ الخبز الأبيض خال من الألياف السليلوزية ، وهذه الألياف لها وظيفة خاصة فى الأمعاء لأنها تنبه حركتها الدودية وتمنع حدوث الإمساك .

٢ ــ تفقد الحبوب عند استبعاد النخالة جزءاً غير يسير من أملاح الكالسيوم والحديد والفوسفور وهذه الأملاح لازمة لبناء العظام وتقوية الدم ولأداء بعض العمليات الحيوية فى الجسم .

٣ ــ ويفقد منها أيضاً جزء لا يستهان به من الأجنة والمادة

البروتينية التي تحتوي عليها ، وهذا الجزء له قيمة غذائية خاصة .

٤ ـ كما أن النجالة غنية بفيتامين ا اللازم للصحة والنمو وفيتامين ب الذى يقوى الأعصاب ويقى الجسم من بعض الأمراض .

عصب الحياة :

ومن الأقوال المأثورة أن الخبز عصب الحياة وعماد التغذية ، وربما كان هذا القول صحيحاً بالنسبة للخبز الذى كان يأكله أجدادنا الأقدمون ، لأن حبوب القمح كانت تطحن فى أيامهم بطواحين من الحجر ، وكان الدقيق المحضر بهذه الطريقة يحتفظ بكمية حسنة مما فى حبوب القمح من الأجنة والقشور ، والأملاح المعدنية والفيتامينات وبعض المادة البروتينية ، أما فى العصر الحاضر فكان من أثر التقدم الآلى والصناعى أن أصبح الدقيق لا يزيد وزنه على أكثر من ٧٠٪ من وزن الحبوب التى يستخلص منها ، ومنذ نصف قرن أو أكثر كانت الأجزاء التى تستبعد من الحبوب فى عمليات الطحن لا تزيد على ١٠ ٪ من وزنها ، وأصبح الدقيق يصفى بمناخل دقيقة جداً من السلك أو الحرير وتجرى عليه عمليات متعددة من التنقية والتكرير والتبييض ، حتى ليمكن القول بأن

الدقيق الذى يحضر منه الخبز فى وقتنا الحالى مادة كربوايدراتية نقية .

فحبوب القمح ، وهى فى حالتها الطبيعية ، بها كمية حسنة من الكالسيوم والفوسفور والحديد وبعض البروتين والألياف السليلوزية والأنزيمات والفيتامينات ، أما الدقيق الذى يحضر من هذه الحبوب فى العصر الحاضر فمادة نشوية تكاد تكون خلواً من جميع المركبات الثمينة المذكورة ، فلا عجب إذن أن ينتشر الإمساك بين الناس ويصيبهم البول السكرى والحموضة وارتفاع ضغط الدم والروماتزم ونحو ذلك من المتاعب الصحية التى زادت إصابة الأفراد بها إثر التقدم الصناعى والآلى فى عمليات طحن القمح وتضيير الدقيق .

أديرة الصحراء :

ومن يزور الأديرة المنعزلة فى الصحراء بعيداً عن المدن ، يلاحظ أن الرهبان هنالك يعيشون على نوع من الخبز الأسمر يصنعونه بأنفسهم من حبوب القمح بكامل أجزائها ، لأن وسائل الطحن لديهم بدائية ، وليست عندهم المناخل الميكانيكية الدقيقة التى تصفى الدقيق وتنقية . ومع أن أنواع المأكولات الأخرى التى يأكلونها قليلة ومحدودة لعدم توافر الخضر والفاكهة واللحوم والألبان

عندهم ، فإنك تجدهم فى صحة جيدة جداً والإمساك معدوم بينهم ونادراً ما يصابون بالأمراض التى تنتشر بين المتحضرين وسكان المدن الكبيرة :

ويصنع الخبز فى القاهرة والإسكندرية ومعظم العواصم والمدن الكبيرة فى مصر من دقيق القمح ، أما فى الريف والقرى الصغيرة فيعتمد الأهالى أكثر ما يكون على الخبز المصنوع من دقيق الذرة ، وهو أقل جودة وصلاحية للتغذية من دقيق القمح ، لأنه فقير فى مادته البروتينية ، ولذا يصاب الفلاحون بالأنيميا والبلاجرا لمداومتهم على أكل الخبز المصنوع من دقيق الذرة .

الخبز البلدى :

ويمكن القول بوجه عام أن الخبز البلدى الذى يباع فى البلاد المصرية يمتاز عن الخبز الأفرنجى من ناحية احتفاظه ببعض الأجزاء المفيدة التى فى أجنة القمح وقشوره ، ذلك لأنه يلصق بظهر الرغيف البلدى عادة كمية من النخالة ، ولكنها ليست كافية بالمرة ، وإذا لم نستطع أن نقدم للفقراء وسواد الشعب مواد غذائية دسمة بكميات حسنة بجانب الخبز ، فلا أقل من أن نراعى أن يكون خبزهم الذى يأكلون منه مقادير كبيرة فى كل يوم مستوفياً لشروط التغذية الصحيحة ، وألا يستبعد من دقيقه تلك

المواد الثمينة التى قدمت لك ذكرها ، حتى يكون هذا الخبز بحق عصب الحياة وعماد تغذية الجسم .

وفى سنين الحرب الماضية ، كانت السلطات المختصة فى مصر تفرض على مصانع الدقيق والخبز إضافة كمية معينة من النخالة إلى الدقيق ، وكان القصد الأساسى من هذه الإضافة طبعاً توفير فى كميات القمح المستهلكة ، غير أن الأفراد أفادوا فائدة محققة من عملية الإضافة ، لأن مقادير الأطعمة الأخرى التى حصلوا عليها فى تلك السنين الشديدة لم تكن كافية ومستوفية لعناصر التغذية بسبب النقص العام العظيم فى الأغذية ، فكان استبقاء النخالة فى الدقيق تعويض للأفراد لما أصابهم من الحرمان فى كثير من مواد التغذية .

وللاستدلال على مبلغ أهمية هذا الموضوع الحيوى سأعرض على القارئ بعض الفقرات التى جاءت فى كتاب الصحة ومشروعات إنجلترا لما بعد الحرب ، تأليف الدكتور ا . ها رفى وفيها يقول :

« قد أحدثت الحرب كثيراً من التغييرات فى إنجلترا ، ومن هذه التغييرات ما كان يطالب به الطب منذ أعوام فى السلم . فمنذ أعوام والأطباء المختصون يقولون للناس إن الخبز الأبيض ليس جيداً وإن الخبز الأسمر (السن) يفضله كثيراً لأن فيه أهم

الفيتامينات والأملاح المعدنية والألياف السليلوزية التى يفقدها الدقيق فى عملية التحويل إلى الدقيق الأبيض . ولكن التيار كان يتجه إلى تفضيل الخبز الأبيض ، والجمهور كما هو معروف لا يحفل بما يقوله له أطباؤه ، ولكن الجمهور البريطانى وجد نفسه الآن أمام أمرين : « إما أن يأكل الرغيف الأسمر أو لا يأكل خبزاً ، وهو لذلك يأكل الخبز الأسمر وهذا يفيد صحته العامة فائدة عظيمة » .

وجاء فى كتاب علم التغذية للدكتور « ألفرد مكان » بشأن نخالة القمح ما يأتى :

« لو وضعنا جميع الأدوية والعقاقير التى يتعاطاها العالم المتمدن فى كفة ميزان والنخالة التى تستبعد من الحبوب عند طحنها فى الكفة الأخرى لتعادلتا ، ومن قبيل وضع الأمور فى أضدادها أن ينبذ الإنسان النخالة وما تحتوى عليه من السليلوز والفيتامينات والأملاح المعدنية الثمينة ويقبل على تناول الأدوية ، ولو أنه أبقى على النخالة ولم يستعبدها عند صنع الخبز لما احتاج إلى تعاطى الأدوية » .

وقد أطلت فى موضوع الخبز لأسباب لا تخفى على الباحثين والمراقبين لغذاء الشعب فى مصر ، فالفقراء عندنا يتركب غذاؤهم فى معظم الوجبات من نحو ٩٠٪ من الخبز ومعه مقدار تافه

من البروتين والدهن والمواد الغذائية الأخرى ، فالاتزان الغذائى يكاد يكون معدوماً فى طعام أغلبية الأفراد ، وإذا كانت الطبيعة قد أودعت فى حبوب القمح مقداراً حسناً من عناصر التغذية الضرورية للصحة والنمو ، فلا أقل من أن نزود الفقراء بنوع من الخبز تتوافر فيه هذه العناصر ، وفى اعتقادى أن هذا الموضوع له من الأهمية بالنسبة إلى الصحة العامة للشعب مبلغاً يجعلنى أقرر أن توزيع الخبز الجيد للفقراء يجب أن يكون مسؤولية حكومية كمسؤولية توصيل الماء النقى إلى جميع المنازل فى المدن .

الفول المدمس :

ربما كان الفول المدمس أكثر الأغذية الشعبية انتشاراً فى مصر بعد الخبز ، ويعتمد عليه الفقراء وطبقات العمال والفلاحين اعتماداً كاملا فى وجبة الإفطار ، وقد يتناولون شيئاً منه مرة أخرى فى وجبة الغداء أو العشاء .

والسبب فى ذلك أنه غذاء بروتينى رخيص ، والأغذية البروتينية الأخرى كالأسماك واللحوم والبيض مرتفعة الأثمان فى معظم أيام السنة وبعيدة عن متناول الفقير .

ولما كان الفول المدمس يؤكل بقشوره غالباً ، فإنه يحدث إحساساً بالشبع والامتلاء الكاملين ، وفى استطاعة العامل أو

الفلاح أن يشترى مقداراً منه بنصف قرش يكفى لوجبة كاملة .

مسمار البطن :

ويتحدث البعض عن الفول بأنه « مسمار البطن » وفى هذا القول شىء كثير من الصحة ، فهو يبقى مدة طويلة فى المعدة ، لأن قشوره الجامدة بطيئة التأثر بالعصارة المعدية الهاضمة ، ولذلك لا يشعر العامل بخلو بطنه إلا بعد تناوله بعدة ساعات يستطيع أن يقوم فى خلالها بقسط كبير من العمل الجسدى الشاق ، بدون أن يعكر مزاجه الجوع ، أو يقطع عليه هناء باله وصفو راحته .

ويعد الفول المدمس من الأغذية البروتينية التى فى المرتبة الثانية ، أما الأغذية البروتينية الجيدة والتى تعد فى المرتبة الأولى بالنسبة لصلاحيتها للتغذية وقابليتها للهضم والامتصاص والتمثيل فهى اللحوم والأسماك والبيض والجبن واللبن . وقد تقدم لك فى موضع آخر من هذا الكتاب أن المنتجات الغذائية التى من أصل حيوانى أسرع تحولا بتأثير الببسين (فى العصارة المعدية) وتأثير التربسين (فى العصارة البنكرياسية) من البروتينيات التى من أصل نباتى ، فالأولى يتولد عنها مقدار من المركبات النتروجينية المتنوعة ، منها البروتيوزات والبيتونات والبوليبتيدات ، وتتحول

فى النهاية إلى عدد كبير من الأحماض الأمينية المتنوعة ، وهذه المركبات تتجانس تماماً مع المواد التى تبنى بها أنسجة الجسم وخلاياه ، ومن هنا كان خطر اعتماد الفقير فى مصر على الفول فى غذائه ، وتبينت لنا ضرورة احتواء طعامه على اللحوم والبيض والمنتجات الحيوانية الأخرى بضعة مرات فى كل أسبوع لكى يكون تموين الجسم بالمواد البروتينية من عدة مصادر متنوعة ، ولنضمن حصوله على جميع ما يلزمه من الأحماض الأمينية الضرورية لإحداث الاتزان النتروجينى فى الجسم ، وبناء كافة أنسجته وخلاياه .

تركيب الفول :

يتركب الفول المدمس من ٦٧,٤٪ بالوزن من الماء ، ٩,٢٪ بروتين ، ٠,٤٪ دهن ، ١٥,٦٪ مادة كربوايدراتية وآثار من بعض الأملاح المعدنية ، وتولد المائة جرام منه نحو ١٠٦ وحدة حرارية (سعراً كبيراً) . والفول به مقدار صغير من الفوسفاتيدات أهمها الليسيثين والسيفالين وهى مواد تحتوى على الفوسفور وبه قليل من الألبومين والجلوبيولين وهى التى تتوافر فى البيض ، وكمية ضئيلة جداً من الميوسين والهموجلوبين والجلاتين والنيوكلوبروتين ، وهى التى تتوافر فى اللحوم .

ويستطيع القارئ مقارنة الفول المدمس ببعض الأغذية البروتينية الأخرى مثل اللحم والكبد والسماك والدجاج والبن والبيض بالإطلاع على الجدول الآتى :

	بالجرام					بالملليجرام				
غذاء بروتينى	ماء	بروتين	دهن	كربوايدرات	طاقة حرارية	كالسيوم	حديد	فوسفور	فيتامين ا	فيتامين ب
الفول المدمس	٦٧,٤	٩,٢	٠,٤	١٥,٦	١٠٦	١١	٠,٥	٣٠	—	+
اللحم	٧٢	٢٠,٧	٥,٨	—	١٣٩	١٢	٢,٤	٢٢٢	—	++
الكبد	٧١	١٨,٤	٢,٥	٦,٥	١٢٥	١٢	٨,٣	٢٢٠	++	++
السمك	٧٩	١٨,٥	٠,٥	—	٨٠	٤١,٥	٠,٥	١٧٨	++	+
الدجاج	٧٢	٢١	٦,٤	—	١٩٠	١١	١	٢٠٠	+	++
الجبن	٣٣	٢٥	٣٤	٤	٢٢٠	١٠	٠,٢	١٨٠	++	+
البيض	٧٣	١٤	١٢	—	١٧٠	٤٠	٣,٦	٢٦٠	++	++

ويتضح من هذا الجدول أن الأغذية البروتينية التى من أصل حيوانى تحتوى على أكثر من ضعف ما يحتوى عليه الفول من البروتين ، كما أن مقدار ما بها من الدهن والأملاح المعدنية والفيتامينات أكبر كثيراً مما يحتوى عليه الفول من هذه المركبات .

على أنه من الممكن أن نجعل من الفول المدمس وجبة غذائية صالحة ، وذلك بأن تنزع قشوره ويؤكل معه قليل من الخبز وكمية حسنة من الزبد والبيض أو الجبن ، وإذا أضيف إليها أيضاً بعض الخضر الطازجة كالخس والطماطم والخيار وبعض الفاكهة ، أصبحت الوجبة متزنة اتزاناً غذائياً كاملا ومستوفية لجميع عناصر التغذية .

الفلافل :

تعد الفلافل من الأغذية الشعبية التى يقبل على أكلها الأفراد فى مصر ، ومنها تتكون وجبة الغداء أو العشاء لعدد كبير من العمال والطبقات الفقيرة فى بلاد القطر .

ويؤلمنى أن أقرر فى هذا المقام أن الفلافل لا تصلح للتغذية ، لأن مقدار ما بها من البروتين تافه حقير ، لا يتناسب مع ما يبذله العامل من مجهود جسدى شاق طول النهار .

وخطر اعتماد طبقات العمال والفقراء على الفلافل فى بعض وجباتهم الأساسية عظيم ، لأن الفلافل تشبع عند إعدادها بكمية

كبيرة من التوابل والأفاويه الحارة ، وهذه تثير فى العامل شهية كبيرة للأكل ، فيملأ معدته بمقدار كبير من الخبز ويظن أنه قد حصل على أكلة صحيحة كاملة ، والحقيقة أن مثل هذه الوجبة تعد فقيرة جداً فى كل من ماديتها البروتينية والدهنية ، وهما من أهم المواد الغذائية للجسم .

وإذا رجعت إلى ما تحدثت إليك عنه بشأن تركيب الفول ، أدركت أنه غذاء غير مستوف لعناصر التغذية ، فما بالك إذا علمت أن العجينة التى تصنع منها الفلافل يضاف إليها عادة مقدار غير صغير من فتات الخبز والخضروات وجميع ما يتبقى عند بائع الفلافل من نفاية غذائية وذلك لكى يزيد من حجم العجينة ، أى أن مقدار ما بها من بروتين الفول صغير ، كما أنها تقلى فى نوع من الزيت الرخيص ، وتكاد تكون خلواً من جميع أنواع الفيتامينات ، فيحرم العامل عند أكلها من مقدار لا يستهان به من العناصر الغذائية .

والطريقة المثلى لتناول الفلافل أن يؤكل معها الآتى :

١ — مقدار مناسب من الخبز بشرط أن يؤكل معه كمية حسنة من الزبدة ، وذلك لكى تتوافر المادة الدهنية مع المادة الكربوايدراتية فى هذه الوجبة .

٢ — بيضتان أو ثلاث ، أو كمية حسنة من الجبن الجيد

الدسم ، لكى تتوافر المادة البروتينية ويتوافر الفوسفور والحديد والأملاح المعدنية الأخرى .

٣ ــ سلاطة مصنوعة من اللبن الزبادى أو الطحينة لكى يتوافر فيها فيتامينا ا ، د .

٤ ــ كمية حسنة من الخضروات الطازجة كالخس والطماطم والخيار مع شئ من الزيت والليمون ، لكى يتوافر بها فيتامين ج وبعض الأملاح المعدنية والألياف السليلوزية اللازمة لحركة الأمعاء .

أما أن يقتصر العامل فى غذائه على مقدار كبير من الخبز وبعض الفلافل وقليل من السلاطة المصنوعة من الخل وكمية تافهه من فتات الخضروات ، ففى ذلك حرمان شديد له من الغذاء الجيد ، فهو إن كان يشعر بالامتلاء بعد هذه الوجبة ، فإن جسمه يظل جائعاً وفى حاجة ماسة إلى بعض العناصر الغذائية الضرورية لصحته .

الفول النابت والبصارة :

وقد يتناول الفقير الفول فى صور أخرى غير الفول المدمس والفلافل ، ومن هذه الصور الفول النابت والبصارة .

ويؤكل الفول النابت عادة ومعه قليل من المرق الذى يضاف

إليه شيء من الزيت ، وتؤكل البصارة ومعها كمية من الطورشي .

وقد يمتاز الفول النابت بعض الشيء عن بقية صور الفول الأخرى بأن به كمية حسنة من فيتامين ب ، لأن الحبوب التى فى حالة الإنبات جميعها غنية بهذا الفيتامين .

وفيما عدا ذلك يعد الفول النابت والبصارة فقيرين فى المادة البروتينية والدهنية والعناصر الغذائية الأخرى التى قدمت لك ذكرها عند شرح المضار التى تنشأ عن الاقتصار على أكل الفول بمفرده .

والبصارة أردأ الصور التى يؤكل عليها الفول ، لأنها تصنع من مدشوش الفول ، وبائع الفول الجاف لا يدشه إلا بعد أن يكون السوس نخره وأتى على جزء كبير من مادته الغذائية ، فييأس صاحبه من بيعه صحيحاً ، ويدشه لكى يأكل الفقراء منه النفاية التى تخلفت بعد استمراء السوس لما فيه من الغذاء .

ومما يؤسف له كثيراً أن الفقير قد يأكل أحياناً وجباته اليومية الثلاث من هذه الصور المختلفة للفول ، فقد يكون طعام إفطاره الفول المدمس ، ويتغذى بالفلافل ، ويكون عشاؤه فى المساء الفول النابت أو البصارة ، والفقراء عندنا قانعون بذلك ، وعلى لسانهم دائماً القول الشائع المعروف « من الفولات سبع

تشيكلات» ، بيد أن هذه القناعة منشؤها فى الغالب الفقر والجهل بقواعد التغذية وانخفاض مستوى المعيشة بين طبقات الشعب فى مصر . وإنا لفى انتظار اليوم الذى يرتفع فيه مستوى معيشة كل من العامل والفلاح فى مصر — فيقل اعتماد سواد الشعب على الفول كغذاء بروتينى رئيسى ويزيد مقدار ما يحصلون عليه من الأغذية البروتينية الحيوانية كاللبن والبيض والجبن والأسماك والطيور واللحوم .

العدس :

يعد العدس من أقدم الأغذية البروتينية النباتية التى عرفها الإنسان ، وهو يزرع بكثرة فى كثير من المناطق التى فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويقبل على أكله الفقراء فى هاته المناطق .

وهو أقل تناولا بين الطبقات الفقيرة فى مصر من الفول المدمس ، واو أن المؤسسات الكبيرة تعتمد عليه بكثرة فى إطعام الحشود الكبيرة من الأفراد ، مثل الجنود فى القشلاقات ، والتلاميذ بالمدارس ، والخدم والمرضى الفقراء بالمستشفيات ، والعمال فى المصانع ونحو ذلك ، أما فى المطاعم والمنازل فتناوله محدود إلى حد ما .

ونسبة ما بالعدس من البروتين تفوق نسبة ما بالفول من هذه المادة ، إذ يتركب العدس من ٨,٥٪ ماء ، ٢٧,٥ بروتين ٥٤,٨٪ كربوايدرات ١,٩٪ دهن ، وبه كمية حسنة من مركبات الحديد والكالسيوم والفوسفور ، ويعد غنياً بفيتامين ا ، وتولد المائة جرام منه ٣٧٠ وحدة حرارية ، وعند مقارنة تركيبه بتركيب الفول ، نلاحظ ما يأتى :

	بالجرام					بالملليجرام		
	ماء	بروتين	دهن	كربوايدرات	طاقة حرارية	كالسيوم	حديد	فوسفور
العدس	٨,٥	٢٧,٥	١,٩	٥٤,٨	٣٧٠	١٠٧	٨,٦	٤٢٨
الفول*	١٢,٥	٢٣	٠,٣	٤٦	٢٩٥	٦٠	٢,٥	١٤٠

ويتضح من هذا البيان أن العدس غذاء جيد ، ومع ذلك يعد من الأغذية البروتينية التى فى المرتبة الثانية ، وذلك لأن

(*) يلاحظ أن التركيب المذكور فى هذا الجدول هو للفول الجاف ، والتركيب الذى فى الجدول السابق للفول المدمس .

بروتينات الأغذية النباتية أقل جودة من بروتينات المنتجات الحيوانية بالنسبة لصلاحيتها للتغذية وقابليتها للامتصاص والتمثيل وما تولده من الأحماض الأمينية المتنوعة بالجسم .

والعدس به نسبة مرتفعة من المادة الكربوايدراتية ، لذلك كان من الخطأ أن يقتصر أكله مع كمية كبيرة من الخبز (فتة العدس) أو مع كمية كبيرة من الأرز (الكشرى) كما تفعل الطبقات الفقيرة فى مصر ، خصوصاً وأن العدس فقير جداً فى مادته الدهنية .

وأفضل طريقة لتناول العدس أن يؤخذ فى صورة حساء فى أول الأكل ، وأن يتبع بأكل منتجات غذائية متنوعية .

وإذا أضيف إلى حساء العدس كوب من اللبن ، أو قطعة حسنة من الزبد أصبح هذا الغذاء أكثر مطابقة لقواعد التغذية الكاملة .

اللبن ومنتجاته :

يعد اللبن غذاء كاملا من جميع الوجوه ، ويعده البعض أفضل المواد الغذائية على الإطلاق ، لأنه يضم جميع عناصر التغذية الضرورية للجسم ، فهو يحتوى على المادة الكربوايدراتية ، وكل من المادتين الدهنية والبروتينية ، وبه كمية حسنة من

الفيتامينات والأملاح المعدنية المتنوعة ، ويحتوى على هذه المواد بكميات مناسبة لاحتياج الجسم إليها وبصورة تسهل عليه الاستفادة منها ، كما أنه لا يترك بعد هضمه وتمثيله نفاية تجهد الكلى أو تسمم الجسم أو تزيد من حموضته ، ويمكن الاعتماد عليه وحده كغذاء أساسى أشهراً طويلة بدون أن يصيب الجسم أدنى اضطراب أو نقص فى التغذية .

ومن العجيب حقًّا أن تكون مصر بلاداً زراعية وفى استطاعتها إنتاج مقادير عظيمة من اللبن ، ومع ذلك يكاد هذا الغذاء الهام يكون مقصوراً على فئة خاصة من الطبقة المتوسطة وذوى الرخاء من الناس ، أما الفقراء وهم سواد الشعب فنادراً ما يتناولون اللبن ، وقد تشترى الأسرة المكونة من خمسة أفراد رطلا واحداً منه فى كل يوم ، أما الفلاحون فيضنون على أنفسهم به ويحولون جميع ما تنتجه مواشيهم منه إلى الزبد والجبن والسمن ويغريهم على ذلك ارتفاع أثمان هذه المنتجات فى الأسواق ، أى أن الفلاح لا يحصل من منتجات الألبان إلا على اللبن الفرز ، وهو ما يتخلف من اللبن الحليب بعد استخلاص جميع ما به من المادة الدهنية ، ولذا كانت قيمته الغذائية ضئيلة .

ولما كان اللبن من الأغذية الأساسية التى يجب توفيرها لعامة الشعب وخاصة للأطفال الصغار ، كان من الواجب على المسؤولين

أن يفكروا فى الاستفادة من مواردنا الزراعية وثروتنا الحيوانية إلى أقصى حد مستطاع والعمل على زيادة إنتاج اللبن لكى تستطيع جميع الأسر الفقيرة الحصول على مقدار كاف منه ، ومن واجب الحكومة اتخاذ الاجراءات التى يمكن بها تزويد الأطفال والحوامل والمرضعات من النساء باللبن طول مدة الحمل أو الرضاعة ، وقد اتبعت إنجلترا فى السنين الأخيرة نظاماً يكفل للأطفال وعدد كبير من النساء الحصول على اللبن بأجر زهيد جداً فى بعض الحالات وبدون أجر فى بعض الحالات الأخرى وذلك لضمان حصولهم على هذا الغذاء الأساسى .

وعند إجراء تجارب التحليل على اللبن وجد أن متوسط تركيبه ما يأتى :

٨٧,٤٪ بالوزن ماء ، ٤,٧٪ كوبوايدرات (لاكتوز وهو سكر اللبن) ، ٣,٧٪ دهن ، ٣,٥٪ بروتين ، ٠,٧٪ أملاح معدنية .

وأهم البروتينات التى فى اللبن الكازينوجين (فوسفو بروتين) ، واللاكتابومين (البومين) ، وكمية البروتين الأول نحو ستة أمثال الثانى ، وكلا النوعين من أفضل المواد البروتينية هضما وتمثيلا ويولدان جميع الأحماض الأمينية اللازمة لبناء الخلايا المتنوعة بالجسم ، كما أن دهن اللبن (القشدة أو الكريمة) من

أسهل المواد الدهنية هضما ، ويتركب من مخلوط من البيوترين والاستيارين والبالتين والأولين ، وتحتوى كرياته على مقدار حسن من كل من فيتامين ا ، د ، كما يحتوى اللبن على فيتامين ب وكمية ضئيلة من فيتامين ج .

وغلى اللبن يتلف معظم ما به من الفيتامينات ، ولذا يحسن أن يعقم اللبن بطريقة باستير ، وهى التسخين لدرجة ٧٠م ، ثم حفظه بعيداً عن الهواء .

ومن أهم خصائص اللبن احتواؤه على مقدار حسن من الأملاح المعدنية ، مثل أملاح الكالسيوم والماغنسيوم والفوسفور والكبريت والسليكون ، وأهمها أملاح الكالسيوم الضرورية لبناء العظام خصوصاً للأطفال وهم فى طور النمو ، ولذا كان من الواجب أن يكون اللبن جزءاً أساسياً من غذائهم ومن غذاء النساء فى أشهر الحمل والرضاعة ، وذلك لضمان إمداد الجنين أو الرضيع بما يحتاج إليه من هذا العنصر .

ويولد الرطل من اللبن الحليب فى الجسم من الطاقة ما يعادل ٣٢٠ وحدة حرارية (سعراً كبيراً) ، ولما كانت الطاقة اليومية اللازمة للمرء تبلغ ٣٠٠٠ سعراً ، وجب أن يشرب الإنسان نحو تسعة أرطال منه فى اليوم إذا أراد أن يقتصر عليه بمفرده فى التغذية ، بيد أن هذا متعذر فى أغلب الحالات ،

ولذا يفضل تناول الأغذية الصلبة بجانبه .

واللبن الزبادى مفيد أيضاً للجسم ، وله جميع المزايا التى للبن الحليب ، كما أن الخمائر التى به تفيد الأمعاء وتطهرها ، وعدد من الناس يقتصرون عليه فى وجبة المساء . غير أن ارتفاع سعره وقلة إنتاجه يجعلانه بعيداً عن متناول الفقراء .

ومع أن اللبن غذاء جيد . فهو فى الوقت نفسه مصدر خطر على صحة الإنسان فى بعض الأحيان ، وذلك لأنه مادة سائلة وصالحة لنمو بعض الجراثيم التى تنقل الأمراض مثل جراثيم التيفويد والتدرن الرئوى والدفتريا والحصبة والدوسنطاريا . ويختلف اللبن عن معظم الأغذية البروتينية فى أنه لا يمكن حفظه وخزنه مدة طويلة بدون أن يتطرق إليه الفساد .

وعندما يخرج اللبن من أثداء الجواميس والأبقار يكون نقياً فى أغلب الأحوال ، فالعجل الصغير عندما يرضع لبن أمه يحصل عليه خالياً من الجراثيم ، أما الإنسان فيحصل على اللبن بعد انقضاء عدة ساعات على حلبه ، وفى هذه الفترة تكون البكتريا قد وصلت إليه ، ويمكن القول بأن جودة اللبن وصلاحيته للتغذية تعتمد على عوامل ثلاث وهى : (١) بقرة صحية حلوب (٢) نظافة المكان الذى تعيش فيه والأيدى التى تحلبها والأوعية التى يحفظ فيها اللبن (٣) سرعة النقل وقصر المدة التى

تمضى بين حلب اللبن واستهلاكه فى التغذية .

وإذا لم يحفظ اللبن فى الثلاجات مباشرة بعد حلبه فإن الجراثيم تتكاثر فيه بسرعة فائقة حتى إن قطرة واحدة منه قد يصبح فيها ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جرثومة بعد مضى ١٢ ساعة على حلبه. وجراثيم التيفويد والدفتريا تصل إلى اللبن عادة عن طريق الإهمال والأيدى القذرة والأوعية غير النظيفة ، أما جراثيم التدرن فتصل إليه فى الغالب بسبب ثدى مصاب ، أو بواسطة دقائق صغيرة من الروث أو السماد الملوث بجراثيم المرض .

وقد تنبهت الدول الكبيرة مثل إنجلترا وأمريكا إلى الأخطار الشديدة التى تتعرض لها الصحة العامة بسبب الألبان الملوثة ، فعمدت إلى إنشاء محطات علمية على أحدث طراز لفحص اللبن وتعقيمه وتعبئته .

وقد انتشرت فى غضون السنين الأخيرة صناعة الألبان المجففة والمكثفة انتشاراً عظيماً ، وذلك بتخفيف اللبن بالبخار المضغوط أو الكهرباء وتحويله إلى مسحوق يعبأ فى العلب أو الزجاجات لمزجه بالماء عند الحاجة إليه ، كما يركز اللبن تركيزاً شديداً مع إضافة كميات كبيرة من سكر القصب إليه لتحضير الألبان المكثفة .

الزبدة والسمن :

يقال إن العرب هم أول من اهتدى إلى طريقة صنع الزبدة ، فقد اعتادوا نقل اللبن فى أكياس من الجلد فوق ظهور الجمال ، فأدت حركة الخض والاهتزاز التى حدثت أثناء سير الجمال إلى تجمد حبيبات الدهن التى فى اللبن وتحولها إلى قطع صغيرة من الزبدة .

والزبدة غذاء جيد ، وتعد أفضل المواد الغذائية الدهنية على وجه الإطلاق ، فهى أفضل كثيراً من السمن وأفضل من الزيوت النباتية ، لأن مادتها الدهنية من أصل حيوانى ، وهى سهلة الذوبان فى الأمعاء وسهلة الامتصاص والتمثيل بالجسم بالنسبة إلى بقية الدهنيات الأخرى. كما أن الزبدة غنية بفيتامينى ا ، د ، وبها مقدار حسن من الأملاح المعدنية .

ومن سوء الحظ أن الناس فى مصر لا يقبلون على أكل الزبدة الإقبال الكافى ، لارتفاع ثمنها أولا ، ولأن جو مصر الحار فى معظم شهور السنة يعوق حفظها فى منازل الأسر الفقيرة والمتوسطة . لذلك يعمد الناس إلى صهر الزبدة وتحويلها إلى المسلى أو السمن ، وهو أمر شائع جداً فى مصر ولو أنه ضار فى الوقت نفسه ، وسبب التجاء الناس إلى صهر الزبدة أن السمن لا يفسد بسرعة مثل الزبدة ويمكن حفظه وخزنه بالمنزل عدة شهور لاستخدامه

فى أغراض الطهى . أما وجه الضرر فى عملية الصهر فهو أن الزبدة تفقد بها معظم ما تحويه من الفيتامينات الثمينة ، وتفقد أيضاً جزءاً من مادتها البروتينية وبعض الأملاح المعدنية التى تستبعد فى المرتة عند تحضير السمن من الزبدة .

وحبذا لو أكثر الناس فى مصر من استخدام الزبدة الطبيعية الطازجة فى الأكل بدلا من السمن ، الأمر الذى يفعله الغربيون ، فالزبدة من المواد الأساسية التى توضع على مائدة الطعام فى معظم الوجبات ، وتكاد تكون غذاء شعبياً فى كثير من البلاد الأوروبية والأمريكية ، والقوم هنالك نادراً ما يأكلون الخبز دون أن يضعوا عليه شيئاً من الزبدة ، ولا يضيفون السمن أو الزبدة إلى المأكولات عند طهيها ، بل يسلق البطاطس والخضروات وما إليها ، ثم توضع الزبدة عليها عند تقديم الطعام للأكل ، وهذه الطريقة مفضلة كثيراً ، وبها تحتفظ الزبدة بجميع ما بها من عناصر التغذية ، خصوصاً وأن الأطعمة التى تطهى فى السمن تصبح عسرة الهضم وتتعب المعدة والكبد وتؤدى إلى البدانة وبعض الاضطرابات الصحية الأخرى .

الجبن والمش :

الجبن غذاء جيد ، ومن أفضل الأغذية البروتينية التى من

أصل حيوانى ، خصوصاً ما صنع من اللبن الكامل الذى لم ينزع منه شىء من قشدته والجبن على أنواع كثيرة جداً ، لكل منها طعمه الخاص ، وتتفاوت هذه الأنواع فى قيمتها الغذائية بسبب ما يحويه كل نوع من الماء ، وبالنسبة إلى جودة اللبن الذى تصنع منه .

ويصنع الجبن بإضافة المنفحة إلى اللبن ، فيتجلط ما به من البروتين والدهن ، ثم يصفى الشرش ، ويترك الجانب المتجلط مدة من الزمن فتؤثر فيه بعض أنواع البكتريا أو الفطر وتهضم ما به من البروتين وتحيله إلى جبن .

ويحتوى الجبن على معظم المواد التى يتركب منها اللبن ، فيما عدا جزء من البروتين القابل للذوبان (اللاكتابومين) وبعض الأملاح المعدنية واللاكتوز أو سكر اللبن ، فهى تفقد فى الشرش الذى يصفى من الجبن عند صنعه . ويمكن القول بأن تركيب الجبن هو الآتى على وجه التقريب : $\frac{1}{3}$ ماء $\frac{1}{4}$ دهن ، $\frac{1}{3}$ بروتين هذا إذا كان الجبن مصنوعاً من اللبن الكامل الجودة .

والقول بأن الجبن عسر الهضم لا أساس له من الصحة ، فهو سهل الهضم والامتصاص والتمثيل بالجسم ، شأنه فى ذلك شأن اللبن وبقية منتجاته ، والسبب فى هذا الاعتقاد أن الناس اعتادوا تناول الجبن مع بعض الوجبات الثقيلة المملوءة بشتى ألوان الطعام ، ولا شك فى أن أكل أى طعام فوق وجبة ثقيلة لمما

يتعب المعدة ويؤدى إلى ارتباك الهضم .

والجبن الجيد غنى بكل من المادتين البروتينية والدهنية ، وغنى بفيتامين ا ، د ، وبه أيضاً فيتامين ب ، وغنى جداً بالكالسيوم ، وبه مقدار حسن من الفوسفور وقليل من الحديد.

غير أن الفقراء فى مصر يجعلون من الجبن غذاءهم الأساسى فى بعض وجبات الطعام ، وهم يأكلون عادة كمية كبيرة من الخبز مع قطعة صغيرة من الجبن ، مما يؤدى إلى عدم اتزان الوجبة الغذائية وسوء التغذية . أما إذا أكل الجبن بمقدار كاف ومعه قليل من الخبز وكمية حسنة من الخس أو الخيار أو إحدى الخضروات الطازجة ، أو أكل الجبن ومعه كمية معتدلة من بعض المواد الغذائية الأخرى مثل اللبن أو البيض أو الزبد فإنه يكون عندئذ من أفضل المواد الغذائية للجسم .

ويقبل الفقراء والفلاحون فى مصر على أكل المش ، مع شىء من البصل أو الفجل أو السريس ، والمش فقير جداً فى كل من مادتيه الدهنية والبروتينية ، كما أنه مشبع بالملح مما يجعل الفرد يأكل معه مقداراً كبيراً من الخبز وهذا يؤدى إلى سوء التغذية .

البيض :

البيض غذاء صحى كامل الجودة ، وهو من الأغذية الجيدة

التى تنتجها بلادنا الزراعية بوفرة ، ويحتوى على نسبة مرتفعة من المواد البروتينية التى تعد فى المرتبة الأولى ومن أفضل أنواع البروتينات للجسم ، حيث إنها تولد معظم الأحماض الأمينية اللازمة لبناء الخلايا والأنسجة ، وذلك فى صورة سهلة الامتصاص والتمثيل .

وبديهى أن معظم المادة الغذائية التى تتركب منها البيضة يوجد فى الصفار ، لأن الصفار أعدته الطبيعة لتغذية الجنين ، شأنه فى ذلك شأن اللبن ، فجميع ما بالبيضة من دهن متجمع فى الصفار ، كذلك يحتوى الصفار على الجانب الأكبر مما يوجد فى البيضة من الأملاح المعدنية والفيتامينات ، أما البياض فيكاد يكون زلالا خالصاً .

ونسبة المواد التى يتركب منها البيض هى الآتى على وجه التقريب : ٧٣ بالوزن ماء ، ١٤ بروتين ، ١٢ دهن ، ١ أملاح معدنية أهمها مركبات الفوسفور والحديد والكبريت . ويوجد الدهن الذى يتركب منه الصفار فى صورة مستحلب أو حبيبات دقيقة جداً تشبه الحبيبات التى يتركب منها دهن اللبن ، وأهم البروتينات التى فى الصفار هو الفوسفور بروتين ، أما البياض فمعظمه البومين وجلوبيولين .

ويعد البيض من أغنى المنتجات الغذائية الحيوانية

بالفيتامينات ، فهو غنى بكل من فيتامين ا ، ب ، د .

والبيض من أشهى المأكولات طعماً ، ويمكن طهيه بطرق متعددة بحيث يستطيع المرء أن يتناول شيئاً منه فى كل يوم إن لم يكن فى كل وجبة بدون أن يصيبه السأم ، فمن ذلك البيض المسلوق ، والمقلى فى الزبدة أو السمن والعجة أو الأومليت ، ويؤكل أيضاً مع الفول المدمس ومع اللحم المفروم ، كما يضاف إلى كثير من أنواع العجائن الغذائية والفطائر والبسكويت فيكسبها طعماً شهياً وفائدة غذائية محققة .

والطريقة التى يطهى بها البيض تؤثر فى قابليته للهضم ، ولكن ليس بالدرجة التى يزعمها البعض ، وتأثير الطهى خاص بالسرعة التى يهضم بها البيض ليس إلا ، فإذا ما أعطى البيض وقتاً كافياً للهضم فإنه يهضم هضماً تاماً جيداً ويمتص امتصاصاً كاملاً مهما كانت الطريقة التى طهى بها . وبياض البيض الجامد أو المقلى فى السمن أبطأ هضما من بياض البيض المسلوق لمدة وجيزة .

واللون الأخضر الذى يشاهد على سطح الصفار عند سلق البيض لمدة طويلة لا علاقة له البتة بحداثته وكونه طازجاً أو غير طازج ، ويتولد هذا اللون من اتحاد الحديد والكبريت اللذين يوجدان بكثرة فى صفار البيض .

ويكاد البيض يكون أقرب المأكولات شبهاً باللبن من حيث التركيب والجودة الغذائية وسهولة الهضم والتمثيل ، ولو أنهما يختلفان فى الوجوه الآتية :

١ – يحتوى اللبن على جميع العناصر الغذائية من كربوايدرات وبروتين ودهن وأملاح معدنية وفيتامينات ، أما البيض فليس به شيء من الكربوايدرات غير أنه يحتوى على بقية العناصر الأخرى .

٢ – البيض غنى بالحديد ، أما اللبن فكمية ما به من الحديد قليلة جداً .

٣ – اللبن غنى بالكلسيوم ، وهذا العنصر يوجد بكمية صغيرة جداً فى البيض ، ولذا فإن البيض لا يغنى عن اللبن فى تغذية الأطفال الصغار لحاجتهم الشديدة للكالسيوم اللازم لبناء العظام .

٤ – يخلف البيض بعد هضمه مواد حامضية فى الجسم ، أما اللبن فله تأثير قلوى لأن المواد الناتجة من هضمه وتمثيله غنية بأملاح الكالسيوم والماغنسيوم والبوتاسيوم .

وفى الجدول التالى مقارنة بين اللبن والبيض والجبن من حيث التركيب الغذائى لكل منها .

	بالجرام				بالملليجرام					
نوع الغذاء	بروتين	دهن	كربوايدرات	طاقة حرارية	كالسيوم	حديد	فوسفور	فيتامين ا	فيتامين ب	فيتامين د
اللبن	٣,٥	٣,٧	٤,٧	٧٥	١٤٠	—	١٢٠	+++	++	+
الجبن	٢٥	٣٤	٤	٢٢٠	٩٠	٠,١	٢٣٠	++	+	++
البيض	١٤	١٢	—	١٧٠	٤٠	٣,٦	٢٦٠	++	++	++

ويمكن القول بأن الفلاح فى مصر لا يأكل البيض ، ولا يعطى أولاده شيئاً منه إلا نادراً ، والبيض كما تقدم غذاء عظيم الفائدة ، ولو أكل الفلاحون منه كميات كافية لقويت أجسامهم وتحسنت صحتهم كثيراً وقلت بينهم الإصابة بالبلاجرا (بسبب نقص البروتين فى الغذاء) ، والرمد الصامل (بسبب نقص فيتامين ا) وزادت مقاومتهم للانكلستوما والحمى الراجعة والأمراض الأخرى التى كثيراً ما تجتاح طبقات الفقراء بسبب ما يعانون من سوء التغذية .

السمك :

السمك غذاء جيد مفيد للجسم ، بشرط أن يؤكل طازجاً ،

وهو لا يحتاج لعمليات طويلة أو معقدة من الإعداد والطهى ، إذ يكفى أن تجرى عليه عملية الشى السريع أو القلى فى الزيت لكى يصبح صالحاً للأكل ، وهو من أفضل الأغذية البروتينية وأسهلها هضما وامتصاصاً وتمثيلا بالجسم ، وذلك لأن الألياف التى يتكون منها لحمه قصيرة مما يسهل تأثير العصارات الهاضمة عليها . وفضلا عن كونه غنى بالبروتين فإن بعض أنواعه به مقدار حسن من الدهن وفيتامينا ا ، د ولذا يعد من الأغذية الواقية .

ويختلف السمك عن أنواع اللحوم الأخرى فى أن كمية ما به من الحديد والعصارات (مستخلصات اللحوم) أقل منها فى الماشية والأغنام والطيور ، ولكنه يمتاز باحتوائه على نسبة مرتفعة من الفوسفور تكاد تساوى ما يحتوى عليه كل من اللبن وصفار البيض . والقول بأن السمك غذاء مفيد للمخ والأعصاب لا يدعمه أساس علمى ، وكذلك الزعم بأن أكله لا يتجانس مع اللبن ، و بما كان منشأ هذا الزعم الأخير بأن كلا منهما لا يمكن بقاؤه طازجاً مدة طويلة ، فسرعان ما يفسد السمك وسرعان ما يتلوث اللبن بالجراثيم ، فدرجة احتمال حدوث تخمر فى المعدة والأمعاء تزيد عندما يجمع المرء بين الطعامين .

ويتركب السمك من نحو ٧٩٪ بالوزن من الماء ، ١٧,٥٪ بروتين ، ٩,٥٪ دهن (قد يزيد الدهن عن ذلك كثيراً فى

بعض الأصناف الدهنية ، وليس به كربوايدرات ، وتولد المائة جرام منه ٨٠ سعرا ، وهو غنى بالفوسفور وبه مقدار متوسط من الكالسيوم وقليل من الحديد .

ويوجد السمك بوفرة فى مصر ، ويحصل من شواطئها على جانب كبير منه فى كل عام ، غير أن سوء التوزيع ونقص الرقابة عليه يجعلانه بعيداً عن متناول الفقير . ومن المؤلم حقاً أن نسمع أن مفتشى الأغذية بوزارة الصحة يأمرون بإتلاف كميات عظيمة منه من حين لآخر ، مع حاجة الشعب الشديدة إلى هذا الغذاء المفيد ، وذلك لأن التجار يحفظون السمك فى حوانيتهم ويرفضون بيعه بأسعار معتدلة ، والواجب على الحكومة أن تراقب أسعار الأصناف المتنوعة من الأسماك مع فتح عدد من المحلات لبيعه كما فعلت فى محال الجزارة الشعبية الحكومية ، فإن ذلك يؤدى إلى هبوط سعره وحسن توزيعه وجعله فى متناول جميع الطبقات وإن سرعة المواصلات فى الوقت الحاضر ، وتقدم وسائل الحفظ ووقاية المأكولات من الفساد وانتشار استخدام الثلاجات الكبيرة ومخازن التبريد فى القطر لمن الأسباب التى تسهل على الحكومة توفير هذا الغذاء المفيد لأفراد الشعب ، ولو أدى ذلك إلى أن تتحمل من جانبها بعض النفقات .

الفسيخ :

الفسيخ نوع من السمك المحفوظ فى كمية كبيرة من الملح ، ويقبل الشعب فى مصر على أكله فى مناسبات كثيرة ، وتركيبه هو تركيب السمك طبعاً ، أى أنه غذاء بروتينى دهنى ، وقد يمتاز عنه بعض الشىء فى أنه يحتفظ بما فيه من الفيتامين أكثر من السمك ، لأنه يؤكل نيئاً بدون أن تجرى عليه عمليات القلى أو الطهى .

ويجب التأكد من عدم فساد الفسيخ وتلوثه بالجراثيم قبل أكله ، لأن بعض أصنافه قد تباع قبل أن يتم إنضاجها بالملح إنضاجاً كاملا ، وذلك عندما يشتد الطلب عليه فى بعض المواسم والمناسبات ، وقد حدثت عدة حوادث تسمم بسبب أكل أصناف رديئة أو فاسدة من الفسيخ .

والإكثار من أكل الفسيخ ضار بالصحة ويؤدى إلى حدوث الحموضة لكثرة ما به من البروتين والملح ، ولذا يجب أن يؤكل معه بعض المواد التى تخلف رماداً قلوياً بالجسم مثل الليمون والخس والخيار والجرجير ، كما يجب أن يغسل الفسيخ بالخل المخفف أو عصير الليمون ثم يضاف إليه الزيت عند تقديمه للأكل ، ومن الضرر أيضاً أن يؤكل معه مقدار كبير من الخبز أو أية مادة نشوية مركزة .

الزيتون : .

يمكن أن نعد الزيتون إحدى الخضروات أو الفاكهة ، وكثير من الفقراء يجعلون منه مع الخبز غذاءهم الوحيد فى بعض وجبات الطعام الأساسية . ويشبع الزيتون عادة بمقدار كبير من الملح ، ويأكل الفقير مقداراً صغيراً منه مع كثير من الخبز ، فيؤدى ذلك إلى سوء التغذية ، شأنه فى ذلك شأن المش والفلافل والأغذية الأخرى الفقيرة فى مادتها الغذائية .

والزيتون به نسبة مرتفعة من الدهن ، وإذا أكل معه غذاء بروتينى جيد مثل البيض أو الجبن أو السمك أو اللحم ، فإنه يساعد على اتزان الوجبة الغذائية . ويتركب الزيتون من نحو ٦٧٪ بالوزن من الماء ، ٢٣٪ دهن (زيت الزيتون) ، ٤٪ كربوايدرات ، ١٪ أملاح معدنية أهمها أملاح الكالسيوم والحديد ، وبه مقدار ضئيل من البروتين .

والزيتون من الأغذية القليلة التى تحتوى على معظم الفيتامينات ، فلأنه يحتوى على نسبة مرتفعة من الدهن فهو يحتوى على مقدار حسن من فيتامينى ا ، د اللذين تتميز بهما الأغذية الدهنية ، ولأنه من الخضروات أو الفاكهة فهو يحتوى أيضاً على فيتامينى ب ، ج . والزيتون مقو للمعدة وفاتح للشهية ، وزيته مفيد للجسم وخاصة للكلى .

الكباب :

ومن الأطعمة المشهورة التى يقبل عليها المتوسطون فى الثراء وذوو اليسر من الناس فى مصر الكباب ، ولا نستطيع أن نعده شعبيًّا لأنه بعيد عن متناول الفقراء وهم سواد الشعب .

والكباب غذاء جيد جدًّا، ويكاد يكون أصلح أنواع اللحوم للأكل وأعظمها فائدة للجسم ، وذلك لأن طريقة إعداده لا يترتب عليها إتلاف شيء مما به من العصارات ، فى أثناء الشيء يتجلط سطح اللحم بسرعة ويحول دون فقد ما به من المستخلصات المفيدة ، كما أن سرعة إنضاجه تساعد على إكسابه نكهة لذيذة خاصة وطعمًّا شهياً .

والكباب سريع الهضم والامتصاص بالجسم ، وبه مقدار حسن من الحديد ولكنه فقير فى الكالسيوم والفيتامينات ، ولذا يجب أن يؤكل معه كمية مناسبة من السلاطة الطازجة مثل الخس والطماطم والخيار والجرجير لأنها غنية بالكالسيوم والألياف السايلوزية والفيتامينات .

ولأن الكباب غذاء بروتينى مركز ، فإنه يؤدى إلى تولد مقدار من الحامض البولى فى الجسم ، وخاصة إذا احتوى على الكبد والكلى كما هو المعتاد ، ولذا فإن المداومة على أكل الكباب

قد تؤدى إلى الإصابة بالحموضة وترسب الأملاح والنقرس وأوجاع المفاصل وبعض الآلام الروماتزمية الأخرى، شأنه فى ذلك شأن الإسراف فى أكل أى نوع من اللحوم والأغذية البروتينية المركزة. ولذا يجب أن تكون الوجبة التالية للوجبة التى يؤكل فيها الكباب مملؤة بالأغذية التى تزيد من قلوية الجسم مثل اللبن والخضروات الطازجة والفاكهة ، أو يؤكل مع الكباب شىء من اللبن الزبادى والليمون والفاكهة (غير الموز) . ولأن الكباب يؤكل عادة مع الخبز فقط ، ولا يؤكل معه شىء من الخضروات المطهية فإنه كثيراً ما يؤدى إلى حدوث تخمر فى الأمعاء .

الخضروات المطهية :

ومن الأطعمة الشائعة الأكل فى مصر الخضروات المطهية مثل البامية والكوسه والباذنجان والفاصوليا ونحوها . وطريقة إعداد الخضروات المطهية فى مصر ممتازة فى بعض الوجوه وتفضل طريقة طهيها عند الغربيين ، ذلك لأن الطريقة المتبعة فى الأمم الغربية تستلزم سلق الخضروات فى الماء ، ثم تقدم للأكل بعد استبعاد جميع الماء أو المرق الذى سلقت فيه ، وفى هذه الطريقة تفقد الخضروات جزءاً لا يستهان به مما تحويه من الأملاح المعدنية والفيتامينات . أما طريقة الطهى المصرية فيحتفظ فيها

بهذا المرق مع إضافة شيء من اللحم والبصل والدهن إليه عند الطهى ، ويترتب على ذلك أن صحن الخضروات الذى يقدم للأكل يظل محتفظاً بجميع ما فيها من الأملاح المعدنية ، ومعظم ما تحويه من الفيتامينات . وإذا أكل هذا الصحن مع شيء من الخبز أو الأرز ، فإنه يصبح كاملا من جميع وجوهه الغذائية غير أن الفقراء لا يضيفون عند إعداده مقداراً كافياً من اللحم ، ويكتفون بوضع شيء من العظام وشحم الحيوان وبعض نفاية اللحوم، ويترتب على ذلك أن تكون الوجبه الغذائية فقيرة فى مادتها البروتينية .

وتمتاز طريقة إعداد الخضروات عند الغربيين بأن السمن لا يضاف إليها فى عملية الطهى ، بل توضع الزبدة عليها عند تقديمها للأكل، وبهذه الطريقة تكون الخضروات أسهل هضما وتحتفظ الوجبة الغذائية بجميع الفيتامينات التى فى الزبدة .

الملوخية :

الملوخية غذاء شعبي يقبل على أكله جميع أفراد الشعب فى الموسم الخاص بها، وقد تطهى الملوخية المجففة أيضاً فى الشتاء . وتمتاز الملوخية باحتوائها على عدة فيتامينات، وهى ا ، ب ، ج ، ولأن طريقة طهيها لا تستغرق أكثر من دقيقتين فإنها لا تفقد

إلا قليلا من هذه الفيتامينات فى عملية الطهى ، كما أن جميع ما بها من الأملاح المعدنية يبقى فى المرق الذى تطهى فيه .

وتتركب أوراق الملوخية من ٧٤,٢ ٪ بالوزن من الماء ، ٤,٥ ٪ بروتين ، ٠,٥ ٪ دهن ، ١٣,٨ : كربوايدرات ، وتولد المائة جرام منها ٨٠ سعرا ، وبها مقدار حسن من كل من الكالسيوم والفوسفور .

ويأكل الفقراء صحن الملوخية ومعه مقدار كبير من الخبز وشىء من الأرز ، وتعد مثل هذه الوجبة فقيرة فى مادتها البروتينية ، أما إذا أكل معها مقدار حسن من اللحم أو بعض الطيور ، فإن الوجبة تصبح عندئذ مستكملة لكافة عناصر التغذية

المحشى :

يعد صحن المحشى صحناً شرقياً فريداً فى نوعه ، فالغربيون لا يطهون المحشى إلا نادراً ، أما الأقطار الشرقية فيغرم الناس فيها بأكل المحشى ، وخاصة فى تركيا وسوريا ومصر .

ومن أصناف المحشى التى يقبل على أكلها الناس فى مصر : الكرنب والخس وورق العنب والكوسة والفلفل والطماطم والباذنجان . ويعد المحشى غذاء كاملا من جميع نواحيه ، لأنه يحتوى على العناصر الغذائية الأساسية وهى المواد النشوية والدهنية

والبروتينية ، كما أنه غنى بالفيتامينات التى تحتوى عليها الخضروات المذكورة ، وبه أيضاً مقدار حسن من أملاح الكالسيوم والحديد والفوسفور.

ويتركب الحشو الذى تملأ به هذه الخضروات من الأرز مع شيء من اللحم المفروم والدهن وفتات بعض الخضروات الأخرى مثل البصل والشبت والبقدونس ، وقد يضاف إليه الصنوبر والزبيب فى بعض الأحيان .

وجميع أصناف المحشى مغذية ومفيدة للجسم وتتفق وقواعد التغذية الصحيحة، ما عدا الطماطم لأنها حامضية التأثير إلى حد ما ، وقد تعطل هضم ما تحشى به من المادة النشوية وهى الأرز، أما إذا تركب الحشو من اللحم المفروم والصنوبر وفتات الخضروات بدون شيء من الأرز ، فإنها تعد فى هذه الحالة غذاء صالحاً من جميع الوجوه .

والمحشى الذى يحضره الفقراء فقير عادة فى مادته البروتينية ، لأنه يحشى بالأرز وفتات الخضروات وقليلا ما يوضع فيه اللحم المفروم ، كما أن كمية ما به من الدهن قليلة .

السقط والكرشة والكوارع :

يعد المسمط من المطاعم الشعبية التى تمتاز بها الأحياء

الوطنية فى مصر ، وفيه يستطيع العامل أو الفقير أن يتناول وجبة غذائية بثمن زهيد ، وتتركب هذه الوجبة فى المعتاد من نفاية السلاخانات ، مثل الكوارع والكرشة ورأس الخروف والممبار ، وهذه الأغذية بها مقدار حسن من المادة البروتينية ، وحيث إن الفقير ليس فى مقدوره شراء اللحوم والطيور والأسماك ، فهى خير ما يستعاض به عن تلك الأغذية ، ومن سوء الحظ أن المخ ينزع عادة من الرأس ويرسل به إلى مطاعم الطبقات الغنية والمتوسطة ، فلا يحصل الفقير على شىء منه مع أنه أجود ما فى الرأس من الغذاء البروتينى .

ويتناول العامل إحدى النفايات البروتينية المتقدمة مع شىء من المرق ومقدار كبير من الخبز (فى صورة فتة) والطورشى ، وقد يتناول أيضاً شيئاً من الأرز ، وتعد مثل هذه الوجبة فقيرة فى مادتها الدهنية ، وقد تكون فقيرة أيضاً فى مادتها البروتينية ، وخاصة إذا اقتصر العامل على أكل الممبار الذى يحشى بالأرز أو لم يتناول مقداراً كافياً من الكرشة أو الطحال فى تلك الوجبة. والطورشى يفتح شهيته للأكل مما يدعوه إلى تناول كمية كبيرة من الخبز ، فتصبح الوجبة الغذائية غير متزنة . والواجب أن يؤكل بجانب الوجبة المذكورة صنف من الخضروات المطهية فى الزبدة أو السمن ، وشىء من الخضروات الطازجة مثل الخس والخيار

والطماطم والجرجير مع إضافة الزيت والليمون إليها ، كما يجب تناول كمية من الحساء أو المرق الذى تطهى فيه النفايات المتقدمة ، لأنه يحتوى عادة على مقدار حسن من دهن الحيوان ، ويجب أيضاً أن تكون كمية الكرشة أو الكرارع التى تؤكل كافية حيث إن مادتها البروتينية ليست مركزة .

الدقة :

الدقة على أنواع ، فمنها دقة الكزبرة ودقة النعناع ودقة الكمون ونوى المشمش ولب الشمام ، وتتركب الدقة فى كل من هذه الأنواع من مطحون الملح مع قليل من السمسم والفلفل الأسود وشىء من البهارات ، ثم يضاف إليها النعناع أو الكمون أو نوى المشمش أو لب الشمام بعد تحميصها .

ولا يجوز أن نعد الدقة غذاء، فليس بها من مواد التغذية غير السمسم، وهو يحتوى على كمية ضئيلة جداً من كل من المادتين الدهنية والبروتينية، فعندما يأكل المرء خبزاً بدقة فكأنه يأكل الخبز بمفرده أو مع شىء من الملح .

ويؤلمنى أن أقرر فى هذه المناسبة أن كثيراً من الفقراء فى مصر يتناولون الدقة على أنها طعام أساسى ، وعدد غير قليل من الخدم فى الأسر المتوسطة تقدم لهم الدقة كغذاء رئيسى فى وجبة الإفطار

بل وفى بعض الوجبات الرئيسية الأخرى مع أنها تكاد تكون خلواً من جميع عناصر التغذية كما قدمت لك .

وخطر تناول الدقة أنها تحتوى على كمية غير قليلة من التوابل والبهارات الحارة ، وهذه التوابل تلهب الشهية بالسوط ، فيلتهم المرء معها مقداراً كبيراً من الخبز يملأ به جوفه ، فتصبح الوجبة الغذائية غير متزنة وغير مستوفية لشروط التغذية الصحيحة الكاملة .

ويستنتج مما تقدم أنه إذا أريد أخذ الدقة مع الطعام فيجب اعتبارها بديلا عن الملح لا زيادة ولا أقل ، وأفضل طريقة لتناول الدقة أن تؤكل مع الفطير المصنوع بالسمن ، أو مع الخبز وشىء من الزبدة والبيض ، فمثل هذه الوجبة تحتوى على العناصر الرئيسية للتغذية وهى المواد الكربوايدراتية والدهنية والبروتينية .

البصل :

يعد البصل من أقدم الخضروات التى عرفها الإنسان واستخدمها فى طعامه ، وقد جاء ذكره فى بعض نقوش قدماء المصريين .

ويقبل الناس فى مصر على أكل البصل فى كثير من الوجبات وخاصة سكان الريف ، وذلك لسهولة حفظه بالمنازل وعدم تعرضه للفساد بسرعة ، ولأنه رخيص جداً فهو فى متناول

عامة الشعب معظم أيام السنة .

والبصل من أجود الخضروات التى يستطيع المرء أن يكمل بها غذاءه ، بشرط ألا يؤكل منه مقدار كبير فى الوجبة الواحدة . لأن ذلك يؤدى إلى حدوث ارتباك فى الهضم ، وخاصة إذا كان نيئاً ، أما إذا أكل مقدار قليل منه فإنه ينشط الجهاز الهضمى ، كما أن طعمه الحريف يفتح الشهية .

والبصل معظمه ألياف سليلوزية مشبعة بزيت كبريتى طيار ، ويحتوى على مواد كربوايدراتية وغروية ومقدار من حامض الفوسفوريك وكمية حسنة من كل من فيتامينى ب ، ج ، وتركيبه ما يأتى :

٨٦,٨٪ بالوزن من الماء ، ١,٣٪ بروتين ، ٠,١٪ دهن ، ١٠/٣ كربوايدرات ، وبه مقدار حسن من كل من الفوسفور والكالسيوم والحديد ، وتولد المائة جرام منه ٤٨ سعراً حرارياً .

ولأن البصل معروف من عهد بعيد ، فإن كثيراً من الأوهام لا تزال عالقة بأذهان الناس بشأن فوائد البصل ومزاياه ، وكان الناس فى الماضى يكثرون من أكل البصل عند انتشار الكوليرا والطاعون وأنواع الوباء الأخرى على زعم أنه يحصنهم من الإصابة بهذه الأمراض ، والحقيقة أن البصل ليست له مزية خاصة ، بل تشترك معه معظم الخضروات فى خاصتها الوقائية من الأمراض ،

وذلك بسبب احتوائها على مقدار وافر من الفيتامينات ، ولأنها غنية بأملاح الكالسيوم والبوتاسيوم فهى تزيد من قلوية الدم عند هضمها وتمثيلها بالجسم .

الفجل والكرات والجرجير :

من حسن حظ الفقراء فى مصر أن الخضروات الطازجة رخيصة جداً وفى متناول الجميع ويستطيع الفقير أن يشترى كمية مناسبة منها ببضعة مليمات . ومن هذه الخضروات الطازجة الفجل والكرات والخيار والخس والبصل الأخضر والفلفل الرومى والبقدونس والكرفس والحلبة الخضراء والجرجير . وجميع هذه الخضروات غنية بفيتامين ج وهو المضاد لتورم اللثة وسرعة النزيف منها ويقى المرء من الإصابة بداء الحفر ويفيد الصحة بوجه عام . وجميعها غنية أيضاً بالأملاح المعدنية اللازمة لصحة الجسم مثل أملاح الكالسيوم والبوتاسيوم والحديد واليود .

كما أن الفجل والجرجير يحتويان على مادة حريفة الطعم حارة المذاق لها تأثير منبه على أغشية الجهاز الهضمى فتنشط إفراز العصارات الهاضمة . ولأنهما غنيان بالألياف السليلوزية الخشنة فإنهما يشغلان حجماً كبيراً فى الأمعاء وهذا يساعد على انزلاق الكتلة البرازية ومنع الإمساك .

والحلبة الخضراء والبقدونس غنيان بفيتامين ا الذى يقى العينين من الإصابة بالرمد الصامل أو الجاف وعدم القدرة على الإبصار فى الظلام .

البطاطس :

لم يكن البطاطس معروفاً فى مصر فى القرن الماضى ، أما الآن وقد جادت زراعته بالأراضى المصرية ، فقد انتشر استخدامه فى الأكل فى جميع الطبقات .

والبطاطس غذاء جيد مفيد للجسم ، ويمكن أن يؤكل فى صور متعددة منها المقلى والمشوى والمسلوق والبيوريه والمطهى فى الصلصة وكفتة البطاطس ونحو ذلك .

ويعد البطاطس غذاء نشويا ، ويتركب من ٧٦,٢٪ بالوزن من الماء ، ١,٩ ٪ بروتين ، ٢٠,١ ٪ كربوايدرات ، ويكاد يكون خالياً من المادة الدهنية ، وتولد المائة جرام منه ٩٠ سعرا ، وبه مقدار متوسط من كل من الفوسفور والكالسيوم والحديد .

ولأن البطاطس غنى بالمادة الكربوايدراتية وفقير فى مادته البروتينية ، لا يجوز أن يؤكل معه كثير من الخبز أو الأرز ، بل يؤكل معه مقدار حسن من الأغذية البروتينية مثل البيض والسمك واللحوم .

والبطاطس مصدر حسن لكل من فيتاميني ب ، ج ، وميزته أنه يهضم فى ساعتين تقريباً ، كما أنه سهل الامتصاص والتمثيل فى الجسم ، ويفضل عدم تناول الليمون أو الخل أو الفاكهة الحامضية معه ، لأن الأنزيمات التى تهضمه تحتاج إلى وسط قلوى للتأثير عليه .

البليلة :

ليس من المبالغة فى شيء أن نقول إن البليلة أفضل المأكولات بعد اللبن ، فهى غذاء كامل من كافة نواحيه ، وخاصة إذا أضيف إليها شيء من الزبدة والسكر . وهى غنية بالمادة الكربوايدراتية ، وبها شيء من البروتين ، وغنية بالأملاح المعدنية والألياف السليلوزية والفيتامينات .

ولا أدرى لماذا انصرف الناس عن أكلها فى السنين الأخيرة مع أنها كانت من الأطعمة الشعبية التى يقبل على أكلها معظم الأفراد فى الصباح ، وقد يعزى ذلك إلى تعذر الحصول على حبوب القمح وارتفاع أثمانها فى سنين الحرب .

وتحدث البليلة عقب أكلها شيئاً من الانتفاخ والشعور بالامتلاء ولكن هذا الشعور يزول بسرعة ، وهى من أفضل الأطعمة لمعالجة الإمساك المزمن ، لأن قشورها الخشنة تنبه

الحركة الدودية للأمعاء .

وتتركب البليلة من ٤٨ ٪ بالوزن من الماء، ٧٪ بروتين ، ٤ ٪ دهن ، ٤٠ ٪ كربوايدرات، وهى من أجود المصادر الكالسيوم والحديد والفوسفور ، وقشورها غنية بفيتامينى ا ، ب. وأفضل طريقة لأكلها أن يضاف إليها شىء من اللبن الحليب والزبيب ، أو الزبدة والعسل .

الذرة المشوية :

الذرة المشوية غذاء نشوى لذيذ الطعم ، إلا أنها فقيرة فى مادتها البروتينية ، كما أن ما بها من الأملاح المعدنية والفيتامينات قليل بالنسبة لما تحتوى عليه حبوب القمح من هذه المواد . ويقبل الناس فى مصر على أكل الذرة المشوية فى جميع ساعات النهار، وكنا نود أن يزيد إقبالهم على أكل البليلة ، ويتركون الذرة للدواجن والطيور .

الفريك :

الفريك عبارة عن القمح الأخضر المدشوش، ويطهى عادة فى مرق اللحم مع إضافة شىء من البصل (تقلية) إليه ، وقد يحشى به الحمام والدجاج . وهو عظيم الفائدة فى التغذية ، وغنى بالأملاح المعدنية والفيتامينات، وله جميع المزايا التى تقدمت

عند الكلام على البليلة وحبوب القمح الكاملة .

ويأكل الفقراء الفريك مع شيء من دهن الحيوان ، وإذا أضيف إليه اللحم كان غذاء كاملا من جميع نواحيه .

الكشك :

يحضر الكشك من معجون الدقيق مع اللبن الزبادى أو الحليب ، ويضاف إليه السمن والبصل عند طهيه ، ويؤكل معه اللحم والطيور والكبيبة والصلصة ، فتجعله غذاء لذيذ الطعم. ولأن الكشك يحضر من الدقيق الأبيض ، فهو فقير جداً فى الأملاح المعدنية والفيتامينات ، خصوصاً إذا أضيف إليه الماء بدلا من اللبن ، الأمر الذى يفعله الفقراء ، وهم يأكلونه عادة بدون اللحم أو الطيور ، وعند ذلك يصبح فقيراً أيضاً فى مادته البروتينية .

عصير القصب :

انتشرت محال بيع عصير القصب انتشاراً عظيماً فى مصر فى السنين الأخيرة ، فأصبح فى كل شارع أو حارة حانوت لبيع هذا العصير فى حالة طازجة ، وهذه ظاهرة نسر لها كثيراً تدل على بدء فهم الشعب للأغذية المفيدة للصحة ، فهو مشروب مغذ ومنعش ومرطب ، وهو أفيد كثيراً من المشروبات الأخرى القليلة النفع مثل الكازوزة والخروب والعرق سوس ونحو

ذلك من المشروبات التى كان الناس يقبلون على شرابها فى الماضى .

وميزة عصير القصب أنه مأخوذ من القصب بأكمله ، ويحتوى على جميع ما تحويه العيدان من المادة الغذائية والأملاح المعدنية المفيدة (الكالسيوم والحديد والفوسفور) ، أما المشروبات الأخرى المتقدمة فتحضر من السكر النقى وليس بها شىء من الأملاح المعدنية أو الفيتامينات .

العسل الأسود :

للعسل الأسود قيمة غذائية فريدة ، فهو سهل الهضم إلى حد عظيم وسريع الامتصاص (١٠٠٪) ولذا يستفيد الجسم منه فائدة كاملة . وهو غنى بالمادة الكربوايدراتية فى صورة سكر القصب ، وغنى أيضاً بأملاح الكالسيوم والبوتاسيوم ولذا يفيد فى معادلة الحموضة بالجسم ، كما أنه يحتوى على مقدار غير قليل من كل من الفوسفور والكبريت ، وبه مقدار من فيتامين ب وقليل من فيتامين ج .

وأهم ميزة للعسل الأسود أن به نسبة مرتفعة من الحديد قد تعادل ما يحويه الكبد من هذا العنصر ، ولذا يعد العسل من الأغذية الاقتصادية والمفيدة للطبقات العاملة والفقيرة لأن المادة

السكرية مركزة به ولأنه يقى الجسم من فقر الدم لكثرة ما به من الحديد .

وليس العسل الأسود بالمولاس ، لأنه يحضر من القصب بأكمله ، أما المولاس فنفاية من مخلفات صناعة السكر من القصب .

ويضيف كثير من الناس الطحينة إلى العسل الأسود عند تناوله ، وبهذه الإضافة يصبح المزيج مستكملا لمعظم عناصر التغذية ، فالعسل خال من المادة الدهنية والفيتامينات ، أما الطحينة فمادة دهنية وبها بعض بروتين السمسم وفيتاميناته وأليافه السليلوزية ، فالعسل مع الطحينة يكونان غذاء من أجود المأكولات وأفيدها للجسم ، ولأن هذا المزيج رخيص الثمن فهو خير ما يستطيع الفقراء الاعتماد عليه لوقاية الجسم من أمراض سوء التغذية .

الحلاوى الطحينية :

الحلوى الطحينية غذاء شعبي مفيد ، فهى غنية بالمادة السكرية والمادة الدهنية (زيت السمسم) ، وبها أيضاً شيء من بروتين السمسم وبعض من فيتاميني ا ، ب .

ويأكل الفقراء الحلوى الطحينية مع الخبز فى وجبة الإفطار ، ويكملون بها غذاءهم فى كثير من وجبات الغداء

والعشاء ، وإذا أخذ اللبن الحليب أو الزبادى معها ، أصبحت الوجبة مستكملة لعناصر التغذية .

الكنافة والقطائف :

الكنافة والقطائف من الفطائر المحبوبة لدى الشعب فى مصر ، ويقبل الناس على أكلهما بوجه خاص فى شهر رمضان وذلك لقيمتهما الغذائية الكبيرة بسبب تركيز المواد النشوية والسكرية والدهنية بهما ، مما يساعد كثيراً على تحمل أعباء الصيام . ويحشى كل من الكنافة والقطائف بمقدار حسن من البندق والصنوبر والفستق والزبيب ، وهذه الأغذية مصدر جيد أيضاً للبروتين ، وإضافتها إلى الكنافة والقطائف يجعلانهما من أجود الأطعمة .

والكنافة والقطائف من الأغذية البطيئة الهضم ، ولا يجوز أكلهما مع وجبة ثقيلة أو مملوءة بأصناف المأكولات الأخرى ، بل يفضل كثيراً أكلهما على انفراد ، أو مع شىء من اللبن .

وتحتوى الكنافة والقطائف على شىء من الفيتامينات ، وهذه الفيتامينات مصدرها الزبيب والبندق والفستق والصنوبر التى يتركب منها الحشو ، كما أن القطائف يضاف إليها عند صنعها شىء من خميرة البيرة ، فهى لذلك تحتوى على فيتامين ب .

قمر الدين :

يقبل الشعب المصرى على تناول قمر الدين فى شهر رمضان ، لأن منقوعه يروى الجسم ويحول دون الشعور بالظمأ ، وهو فى الوقت نفسه مملوء بالمادة الغذائية التى تساعد المرء على تحمل أعباء الصيام .

والبلاد التى تصدر قمر الدين هى التى تجود بها زراعة المشمش مثل سوريا وفلسطين ، وهو يحضر بعصر الفاكهة ثم تبخير العصير على قماش مشدود وتركه حتى يجف ، ثم ترفع طبقات القمر الدين من القماش .

ومن أهم خصائص قمر الدين أنه غنى بالحديد ، لأن المشمش يحتوى على نسبة عالية من هذا العنصر ، ولذلك فإنه يساعد على تقوية الدم ويزيد عدد ما به من الكرات الحمرات .

ويعد قمر الدين من أغنى المصادر بفيتامين ا ، وبه أيضاً شىء من فيتامين ب ، ج ، كما أنه غنى أيضاً بالمادة السكرية والأملاح المعدنية القاوية ، وفى عملية العصير يتركز ما به من النشاء والبروتين ، فيجعلانه غذاء كاملا ، ولذا كان قمر الدين خير ما يقوى الجسم بعد الإنهاك الذى يحدثه الصيام .

البلح :

يعد البلح من الأغذية الشعبية الاقتصادية ، وتنتج مصر منه مقادير وافرة من مختلف الصور والأنواع ، يستهلك الجانب الأكبر منها فى الأكل داخل القطر ويصدر الباقى إلى الخارج . ومن حسن حظ الفقراء أنه صالح للحفظ والتجفيف فوق أنه رخيص ، لذلك كان فى متناول أيديهم معظم أيام السنة .

والبلح من أجود الأغذية وأفيدها للجسم ، ويستطيع أن يعيش الإنسان عليه بمفرده مدة طويلة من الزمن ، فهو غنى بالمادة السكرية ، إذ تبلغ نسبتها فيه نحو ٧٠٪ وبه نحو ٢٪ من البروتين ، ٣ ٪من المادة الدهنية ، وإذا أخذ معه اللبن كان غذاء كاملا من جميع الوجوه .

والبلح غنى بالأملاح المعدنية القلوية مثل أملاح الكالسيوم والبوتاسيوم ، فهو خير ما يؤكل لمعادلة الحموضة بالجسم ، كما أنه من أغنى المصادر الغذائية بالحديد .

ومن أجود أصناف البلح وأكثرها شيوعاً فى الأكل التمر المجفف المعروف بالبلح الأبريمى ، فهو من الأغذية الشعبية الرخيصة التى فى متناول جميع الطبقات ، وهو طعام مفيد لأنه غذاء طبيعى وغنى بالمادة السكرية فى صورة سهلة الهضم

والامتصاص والتمثيل بالجسم ، وبه أيضاً قليل من البروتين وكمية مناسبة من كل من فيتاميني ب ، ج ، ويفيد على الأخص فى منع الإمساك .

غير أن البلح الأبريمى فقير فى مادته الدهنية ، وكذلك فى مادته البروتينية ، ولذا فإن الاقتصار عليه فى التغذية يؤدى إلى النحافة ، أما إذا تناول المرء معه قدحاً من اللبن فإنهما يكونان معاً غذاء كاملا من جميع الوجوه ، لأن اللبن به مقدار حسن من كل من المادتين البروتينية والدهنية .

وكان العرب فيما مضى يعيشون على التمر المجفف ولبن الماعز ، فكانت صحتهم أجود ما يكون ، ولم تشاهد البدانة بين أفرادهم ، ونادراً ما أصيبوا بالأمراض الخبيثة أو المزمنة .

ومن مزايا الأبريمى أنه لا يتطرق إليه الفساد بسرعة ، ويمكن حفظه وخزنه طيلة العام ، فيمكن الاعتماد عليه فى الطوارئ وعند حدوث أزمات فى الطعام ، وإذا شحت الفاكهة الطازجة أو تعذر الحصول عليها وجد المرء خير بديل عنها فى البلح الأبريمى .

الفول السودانى :

والفول السودانى غذاء مفيد أيضاً ، وهو رخيص وفى متناول

الطبقات الفقيرة والعاملة ، ويمتاز عن الأبريمى بأن به معظم العناصر الرئيسية للتغذية ، فهو يحتوى على كمية حسنة من كل من المواد النشوية والدهنية والزلالية ، وبه مقدار لا بأس به من فيتامين ب وبعض الأملاح المعدنية ، ويمكن حفظه وخزنه عدة أشهر بدون أن يفسد .

ويباع السودانى عادة مع البلح الأبريمى فى المقلاة وفى كثير من الحوانيت ، فيستطيع الفقير أن يبتاع بقرش كمية حسنة من كل منهما ، فيتمم أحدهما الآخر لأن الأول غنى بالمادتين البروتينية والدهنية ، والثانى غنى بالمادة السكرية ، فيغنيانه بعض الشيء عن تناول اللحم والبيض والدهن ونحوها من المأكولات الغالية التى لا يستطيع شراءها ويمدانه بمقدار كبير من الطاقة والحرارة ومعظم عناصر التغذية .

البطيخ والشمام :

البطيخ فاكهة لذيذة الطعم محبوبة لدى الشعب فى مصر ، وهو يوجد على أصناف كثيرة مما يجعله فى متناول الجميع .

ومن أهم مزايا البطيخ أن أليافه تحتوى على كمية كبيرة من الماء ، ولذا فهو مرطب ومنعش ويروى الإنسان من الظمأ فى أشهر الصيف ، وهو غنى بالأملاح المعدنية وفيتامين ا ،

وبه مقدار صغير من فيتامين ج .

وغالبية البطيخ ألياف سليلوزية ، وبه نحو ٩٢ ٪ بالوزن من الماء ونحو ٧ ٪ من المادة الكربوايدراتية فى صورة أنواع مختلفة من السكر .

ويفضل عدم تناول البطيخ مع الطعام أو عقبه مباشرة لأن كثرة ما به من الماء تعوق الهضم وتربك عمل المعدة إلى حد ما .

وتركيب الشمام مماثل لتركيب البطيخ ، ما عدا أنه فقير فى فيتامين ا وغنى بفيتامين ج ، أى أنه عكس البطيخ فى هاتين الناحيتين ، كما أن كمية ما به من الأحماض النباتية العضوية أقل منها فى البطيخ ، ولذا فإن البطيخ يفوقه فى لذة الطعم .

الليمون :

ومن الثمار التى يقبل عليها الشعب بكثرة فى مصر الليمون البلدى أو البنزهير ، فأغلبية الأفراد شغوفة بعصره على كثير من أصناف المأكولات مثل الفول والسمك واللحوم والعدس والحساء ومعظم الخضروات المطهية ، كما يتناوله الأفراد مع الماء والسكر بين وجبات الطعام ، ويؤخذ مرطباً ومنعشاً فى كثير من الأوقات وخاصة فى فصل الصيف .

وإضافة عصير الليمون إلى الأكل عادة محمودة جداً فى

مصر ، لأن جوها حار والذباب فيها كثير وخاصة فى الأحياء الفقيرة وغير النظيفة ، ومن المعلوم أن الذباب كثيراً ما يحمل ميكروبات بعض الأمراض الخطرة مثل التيفود والكوليرا وينقلها إلى الطعام ، وأن هذه الميكروبات لا تستطيع أن تحيا أو تتكاثر فى وسط حامضى ، فإضافة عصير الليمون إلى الطعام من أفضل الوسائل لمنع تلوثه بالميكروبات التى ينقلها الذباب . ومزج الماء بشىء من عصير الليمون أمر مستحب عند الشرب ، وخاصة إذا لم يكن المرء واثقاً من نظافة الماء الذى يشربه ، كما يحدث عند إقامة الإنسان فى بعض أنحاء الريف فى مصر .

ومع أن عصير الليمون حامضى التأثير ويبيد عدداً غير قليل من الكائنات الفطرية الحية ، فإنه لا يضر جسم الإنسان ولا يزيد من حموضة الدم عند الإكثار من تناوله ، بل على العكس من ذلك ، لأن الأحماض العضوية التى يتركب منها تتمثل فى الجسم ويتخلف من تمثيلها أملاح البوتاسيوم والكالسيوم التى تزيد من قلوية الجسم وتصلح الحموضة الناشئة من الإسراف فى تناول اللحوم والسمك والبيض والأغذية الزلالية والنشوية المركزة . ولذا فإن بعض الأطباء ينصح بالمداومة على تناول عصير الليمون مع الأكل أو مع ماء الشرب ، وخاصة للأشخاص المعرضين للإصابة بالأمراض التى تتولد عن الحموضة

مثل الروماتزم والنقرس والبول السكرى وغيرها من الاضطرابات الصحية التى تنشأ عن الإفراط فى الأكل .

وثمار الليمون من أغنى المصادر بفيتامين ج المضاد لداء الحفر أو الأسقربوط ، والليمون البنزهير أفضل من الليمون المسمى بالأضاليا فى جميع المزايا المتقدمة .

ومن سوء الحظ أن عصير الليمون يفسد بسرعة ، وهو من أصعب أنواع العصير قابلية للحفظ والخزن والتعبئة ، ومع أنه يوجد بوفرة عظيمة جداً فى بعض فصول السنة ، فإن ثماره يتعذر الحصول عليها فى بقية أيام السنة .

على أنه يمكن حفظ العصير إذا اتبع فى ذلك بعض الإرشادات الدقيقة مثل تعقيم الأوانى التى يعبأ فيها وإحكام قفلها وإضافة ملح بنزوات الصوديوم إلى العصير وتجنب عصر الثمار التى أصابها شىء من العطب أو الذبول .

العرق سوس :

يعد منقوع العرق سوس من المشروبات الشعبية التى يقبل الناس على شربها فى مصر ، ومن مزاياه أنه منفث وواق للأغشية المخاطية ، كما أنه ملين غير عنيف ويفضل تناوله عندما يخشى من المسهلات الأخرى الشديدة .

ويحتوى العرق سوس على قليل من الجلوكوز والسكر والنشا ، أى أن مادته الغذائية ليست بذات قيمة ، ولكنه مفيد للجسم كمرطب وملين وملطف للبلغم والأمراض الصدرية . كما أنه غنى بأملاح الكالسيوم والبوتاسيوم التى تزيد من قلوية الدم .

البوظة :

البوظة مشروب شعبى ، يقبل عدد كبير من النوبيين والعامة وأهل الريف فى مصر على شربه معظم أيام السنة ، ويوجد فى القاهرة وحدها عدد غير قليل من محال بيع البوظة وشربها ، وهى شبيهة بالمقاهى البلدية ، يجلس فيها العمال والنوبيون وأفراد الطبقات الفقيرة يحتسون هذا المشروب الشعبى للإنعاش بين ساعات العمل أثناء النهار ، أو فى المساء لتمضية جانب من الليل فى جو ملؤه الانشراح والمتعة والتسلية .

وتركيب البوظة شبيه بتركيب المشروب المعروف بالجعة أو البيرة ، والفرق بينهما أن البوظة تصنع من الخبز وحبوب القمح ، فى حين أن مشروب البيرة يحضر من الشعير ، كما أن نسبة الكحول فى المشروب الأول تزيد قليلاً عن نسبته فى المشروب الأخير . ويمكن اعتبار البوظة غذاء ، لأنها

تتأكسد فى أنسجة الجسم مولدة بعض الحرارة والطاقة ، ولأن ما بها من المادة النشوية والسكرية قليل ، فهى لا تستغرق فى هضمها إلا وقتاً قصيراً . وتشير بعض الآثار والقرائن التاريخية القديمة إلى أن المشروب المتخمر الذى كان شربه شائعاً بين قدماء المصريين كان تركيبه أقرب شبهاً بالبوظة منه بالجعة أو البيرة ، وكانوا يضيفون إليه بعض المواد المرة ذات النكهة الخاصة مثل الترمس المزرع وقشور اللارنج والعصفر والقرطم وبعض الراتنج ، وذلك لنفس الغرض الذى تضاف من أجله حشيشة الدينار إلى البيرة فى الوقت الحاضر .

والبوظة سائل سميك القوام ، أشبه ما يكون بالحساء أو السميد الرفيع ، وطعمها لاسع قليلا مع شىء من الحموضة ، ورائحتها متخمرة ، وتتراوح نسبة ما بها من الكحول بين ٦٪ و ٨٪ ، وتتلخص طريقة صنعها فى العمليات الآتية :

١ — يؤخذ مقدار من القمح ويندى بالماء للمساعدة على عملية الإنبات ، ثم يترك معرضاً للهواء ، وبعدها تجرشر الحبوب النابتة وتندى مرة أخرى بالماء .

٢ — يؤخذ مقدار من الخبز (نحو ثلاثة أمثال مقدار القمح) ، ويقطع إلى قطع صغيرة ويغطى بالماء ويضاف إليا القمح المجروش ، فيتخمر المزيج بفعل الخمائر والأنزيمات

التى فى الخبز ، ولو أنه فى المعتاد يضاف إليه قليل من البوظة المحضرة فى مرة سابقة ، وذلك لإسراع عمليات التخمير .

٣ ـ وبعد ذلك يصفى المزيج فى مصفاة مع عصر العجينة جيداً بالأيدى ، وقد يصفى السائل بعد نفاذه من المصفاة مرة أخرى بقطعة من القماش الرقيق أو بمنخل دقيق الثقوب .

والقيمة الغذائية للبوظة ضئيلة ، لأن ما بها من المادة الكربوايدراتية قليل ، ولكنها تمتاز بأنها مرطبة منعشة ، وبها بعض الكالسيوم والأملاح المعدنية التى كانت فى حبوب القمح ، وبعض فيتامين ب الذى فى الخميرة .

والسائد بين عامة الشعب فى مصر أن البوظة غير محرمة شرعاً ، فالعرف والتقاليد والهيئة الاجتماعية الشعبية لاتعدها من المشروبات المحرمة ، وهذه التقاليد ذاتها تحرم شرب البيرة ، مع أن البيرة كما هو معلوم أخف من البوظة ، أى أن نسبة الكحول أقل فى البيرة منها فى البوظة ، وقد يرجع السبب فى هذا إلى أن مشروب البوظة به مقدار من المادتين النشوية والسكرية ، فهو مشروب مغذ ، ومن الثابت أن تناول الطعام مع المشروب الكحولى يخفف من تأثيره على الدماغ . فالبوظة مع أنها أقوى من الجعة بالنسبة لما تحتويه من الكحول ، إلا أنها لا تحدث النشوة أو حالة السكر التى قد يحدثها مشروب الجعة ، ومن

ثم استطاع الناس أن يقربوا الصلاة بعد شربهم البوظة ، فقالوا إن تناولها لا يتنافى مع الدين فى شىء .

القهوة :

ليس للقهوة قيمة غذائية تذكر ، فيما عدا ما يضاف إليها عادة من السكر ، ولكن كثيراً من الناس اعتاد شربها عقب الانتهاء من الأكل ، فهى تعد من مكملات الغذاء .

والقهوة مشروب محبوب لدى معظم الأفراد فى مصر ، يدلك على ذلك كثرة المقاهى فى الأحياء الوطنية ، ويقبل الناس على شربها معظم ساعات النهار ، لتأثيرها المنبه على الأعصاب ، ولأنها تساعدهم على تحمل أعباء ما يقومون به من الأعمال .

وتحتوى القهوة على قليل من السكيروز والبروتين ، وآثار من الدهن ونحو ١,٥ ٪ من قلويد الكافين ، وهو المركب الذى يؤثر على المخ ويحدث التنبيه . ومن مزايا القهوة أنها مدرة للبول فهى تنشط الكلى وتساعدها على الإفراز .

وقد أصبح تناول القهوة من لوازم الحياة العادية فى مصر ، وهى لا ضرورة لها لتأدية الجسم وظائفه المعتادة ، ولكنها تساعد على الاستمرار فى أداء بعض الأعمال الفكرية مدة طويلة ، ولا يمكن وضع قواعد حاسمة بشأن نفعها أو ضررها للجسم ،

فالأشخاص يتأثرون بها بدرجات متفاوتة ، ولكن يفضل تجنبها في حالات الأرق والارتجاف وسوء الهضم واضطراب الأعصاب. ولا يجوز إعطاء القهوة للأطفال ، لأنها تؤدى بهم إلى سوء التغذية .

كعك العيد :

كعك العيد غذاء عظيم حقاً ، ولا نستطيع أن نعده غذاء شعبياً لأنه بعيد عن متناول أغلبية الفقراء والفلاحين فى مصر ، ولا يقدر على صنعه أو شرائه إلا ذوو الرخاء وبعض متوسطى الحالة من الأفراد .

وهو غنى بالمادتين النشوية والسكرية ، وغنى أيضاً بالمادة الدهنية لأن عجينته يضاف إليها مقدار حسن من السمن . ويحشى الكعك عادة بمقدار مناسب من العجمية أو السمسم والتمر . وتتركب العجمية فى الغالب من مزيج من عسل النحل والدقيق والسمسم والسمن ورائحة الكعك ، ورائحة الكعك هذه مخلوط من عدة عطارات مفيدة للجسم ومنشطة للجهاز الهضمى وهى القرفة والقرنفل وخميرة العطار وزر الورد والزنجبيل والكركم والحبهان .

ويحتوى الكعك أيضاً على شىء من البروتين الذى فى

السمسم والتمر والدقيق والعسل والخميرة ، ومقدار من الأملاح المعدنية القلوية ، وعلى بعض الفيتامينات التي في السمسم والتمر وخميرة البيرة التي تضاف إلى الدقيق عند صنع الكعك .

ويولد الكعك مقداراً كبيراً من الحرارة في الجسم ، فهو يشد البدن ويمده بالطاقة ، لأن المادتين الكربوايدراتية والدهنية مركزتين به ، لذلك يفضل تناول الكعك بمفرده دائماً ، وعدم الجمع بينه وبين المأكولات الثقيلة في وجبات الطعام لكي لا يربك المعدة ويسيء إلى عمليات الهضم ، وخير ما يؤكل في وجبة الإفطار مع شيء من اللبن أو الشاي واللبن .

والغريبة مثل الكعك ، إلا أنها أعسر هضما وأقل فائدة للجسم ، وذلك لعدم احتوائها على الحشو المذكور . أما إذا احتوت على قليل من السكر والدقيق والسمن ، وكثير من الصنوبر واللوز، فإنها تصبح عند ذلك غذاء جيداً ومفيداً للجسم.

٤ ــ خاتمة

احتل علم التغذية فى السنين الأخيرة مكان الصدارة بين العلوم الحيوية التى تدرس فى كليات الطب والعلوم ومدارس الخدمة الاجتماعية ، وشغلت شئون التغذية أفكار الأطباء ورجال الصحة وعلماء الزراعة والاقتصاد والاجتماع فى معظم الأمم الراقية ، فأجمع هؤلاء على مسئولية حكوماتهم عن حسن توزيع الطعام على الفقراء والعمال والفلاحين ، وضرورة رسم سياسة غذائية مستقرة لإطعام الشعوب التى تحكمها وإمداد الطبقات الفقيرة والمحرومة بالغذاء الكافى .

وقد يذكر القارئ المثقف شيئاً عن تقرير بيفردج الذى نشر فى أواخر سنين الحرب العالمية الثانية بشأن التأمين الاجتماعى للعمال ، وما أثاره هذا التقرير من اهتمام عظيم فى مختلف الأمم واتجاه الرأى الدولى إلى ضرورة العمل به ووجوب اضطلاع الحكومات بإجراء ما يكفل للعامل معيشة صحية منظمة وإمداده بالغذاء الجيد والمسكن الصحى والإشراف على وقايته من الأمراض . وسيجد القارئ فى الفقرات الآتية ، وهى منقولة من تقرير الدكتور ا . هارفى عن « الغذاء والصحة » ضمن

مشروعات بريطانيا لما بعد الحرب ، ما يدله على خطورة الموضوع فى نظر الأمم الكبيرة المتحضرة :

« ظل الأطباء طويلا يدعون إلى الإيمان بالحاجة إلى الغذاء الجيد الكافى فى سبيل المحافظة على الصحة الكاملة ، ولكن وجد الكثيرون فى كل الأمم قبل الحرب مرضى بسبب قلة التغذية ، وكانت حالة سوء التغذية عامة بين الأفراد وما يتبع ذلك من تعرضهم للإصابة بالأمراض ، وفى الوقت نفسه كانت هذه الأمم تتلف كميات كبيرة من القمح والبطاطس والفاكهة وبعض المنتجات الغذائية الأخرى لأن فى بيعها بأثمان رخيصة خسارة مالية لبعض الشركات وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة .

« إن الأمة المحاربة تحتاج إلى كل رجل وكل طفل من أبنائها ، ولكنها تحتاج إليهم أصحاء ، ولهذا فإن الغذاء الذى يمكن إنتاجه يجب أن يوزع جميعه فى سبيل هذه الغاية ، وهى أن يكون أفراد الشعب كلهم أصحاء ، لأن الاهتمام الآن متجه نحو العناية بصحة المجموع ، أما حرية بعض الأفراد فى أن يربحوا مكاسب طائلة من المواد الغذائية على حساب الصحة العامة فإنها تأتى فى المرتبة الثانية ، بل إن الأمل معقود على ألا تعود إليها أهمية مرة ثانية . لقد بلغت بعض المواد الغذائية من الأهمية بالنسبة إلى الصحة العامة لأفراد الشعب مبلغاً يجعلنا

نقول إن توزيعها يجب أن يكون مسئولية قومية حكومية كمسئولية توزيع المياه النقية تماماً .

« والآن لأربع سنوات تعطى تجربة رقابة الأغذية فى جميع أنحاء بريطانيا العظمى آثارها وإنه لمن هذه الآثار ما قد اتضح بالفعل .

« ومكث الأطباء أعواماً يحثون الناس على الإكثار من شرب اللبن ، ولكن اللبن كان غالياً على الفقراء ، وما يقال عن اللبن فى هذا الصدد يقال عن الزبدة والبيض وما عداهما من الأغذية الهامة ، أما الآن فقد تبدل الحال بعد أن أصبحت الأغذية الأساسية كلها خاضعة لوزارة الطعام ، وإن تكن وزارة الصحة هى المسئولة عن الأطعمة من حيث الرقابة عليها ونظافة توزيعها وإبداء الرأى فى سياسة التغذية العامة .

« وبموجب النظام الحالى تعطى الحوامل والأطفال دون الخامسة وعددهم حوالى الثلاثة ملايين ونصف كل يوم $\frac{1}{8}$ جالون من اللبن بأجر زهيد أو دون أجر ، ويوزع على الأطفال دون السنة $\frac{1}{4}$ جالون من اللبن أيضاً ، ويعطى الأطفال أيضاً حقهم من البرتقال والبيض وزيت السمك ، مع مراعاة التفضيل الذى ينال بمقتضاه عدد منهم أنواعاً من العسل الغنية بالفيتامينات .

« وبعبارة أخرى نجد أن الحكومة لأول مرة ترسم سياسة غذائية تضحى بها لهؤلاء المحتاجين إلى التغذية أكثر من غيرهم كل ما يحتاجون إليه من غذاء . فالناس فى بريطانيا الآن يأكلون ما يفيدهم لا ما يلذ لهم أن يأكلوه ، وهم ينالون ما يكفيهم من الأغذية الأساسية بدل أن ينالوا ما يستطيعون شراءه ليس غير .

« ويرجع الفضل فى صحة الأمة إلى الإجراءات التى اتخذت فى تزويد الناس بالطعام اللازم لصحتهم بمقادير كافية . ولقد أعرب وزير الطعام حديثاً عن الأمل فى أن ترى الأمة صلاحية الاستمرار بعد الحرب فى هذه النظم التى قامت بها الوزارة أثناء الحرب وخاصة فيم يختص برعاية الطفل وحماية الأم ، وهذا أقل ما يمكن أن نطمع فيه لأن هذه مطالب أولية . وكان الشعب فى الماضى إما فقيراً فلا يستطيع شراء الغذاء أو جاهلا فلا يشترى الغذاء الصحى ، أما الآن فما سيطالب به الشعب هو أن تكون له سياسة غذائية تكفل كميات وافرة من الطعام الجيد — الطعام الذى لا يمكن للصحة أن تدوم إلا به — لا للحوامل والأطفال فحسب ولكن لأفراد الشعب أجمعين .

« ولقد رحب الشعب بالعناية المتزايدة لتحسين صحة العمال فى المصانع وهى عناية من آثار الحرب ، فالعمال يكونون الخط

الأمامى فى هذه الحرب ، لأن الجيش لا يستطيع القيام بأعباء العمل فى حرب حديثة بدون تموينه من المصانع ، والمصانع لا يمكن أن تعمل بدون عمال أصحاء ، وقد أصبح لزاماً على كل مصنع يشتغل فى عمل أساسى ويوظف أكثر من ٢٥٠ عاملا أن يعد مطعماً متنقلا ، ويزيد عدد هذه المطاعم الآن على ١٠,٠٠٠ مطعم يقابلها بضع مئات قبل الحرب .

« وليست الصحة التامة بفكرة جديدة ، ولكنها لقيت تأييداً عظيماً فى السنين الأخيرة ، لأن الوصول إليها أصبح قريب المنال . فلم يعد الناس يقنعون بأنهم غير مرضى ، بل يجب أن يشعروا بصحة تامة وافرة — صحة كافية تمكنهم من العمل واللعب والرياضة والتمتع بكل ما يحبون — صحة كافية ليواجهوا بثقة كل صعوبات العالم ومشاكله بعد الحرب .

« وينص تقرير بيفردج على أن المقصد الأعلى من التأمين الاجتماعى هو نظام يكفل الصحة التامة لكل مواطن دون استثناء ، ولقد قال برنارد شو نفس هذا الكلام من قبل بزمن طويل وردده الكثيرون من قبل ومن بعد ، ولكن المهم هو إخراج الفكرة إلى حيز التنفيذ .

« إن كل ما سنجده غير مستقر بعد الحرب مباشرة هو وسائل التنفيذ وصوره ، أما الغاية فواضحة وهى العمل على أن

يكون اقتراح بيفردج حقيقة واقعة لا مجرد افتراض ، فالحكومة والمفكرون والأطباء لا يزالون يتناقشون فى الطرق والوسائل والسبل ولكنهم متفقون على أنهم يريدون نظاماً ينفذ بعد الحرب يكفل للشعب كما يقول بفردج الصحة التامة والرفاهية لجميع أفراد الشعب » .

* * *

ونستطيع أن نجمل ما تقدم فى أن الغذاء الشعبى فى مصر غير مستوف لشروط التغذية الصحيحة الكاملة ، وعلى المسئولين والمشرفين على إطعام العمال والطبقات الفقيرة أن يعملوا بجد وإخلاص عظيمين على تحسين المستوى الغذائى لهذه الطبقات ، وأن يضيفوا إليه بعض المواد الغذائية الهامة التى لا تتوافر فيه ، ويحذفوا منه بعض ألوان المأكولات الضارة بالأفراد ، لكى يصبح الغذاء مقوياً للصحة وواقياً للجسم من الأمراض .

ولا يسعنا إلا أن نكرر ما جاء فى تقرير الدكتور ا. هارفى من أن أفراد الشعب يجب أن يقدم لهم من الغذاء ما يفيدهم لا ما يلذ لهم أن يأكلوه ، وأن ينالوا ما يكفيهم بدل أن ينالوا ما يستطيعون شراءه لا غير . وما جاء فى تقرير بفردج من أن الحكومة مطالبة بتهيئة النظام الذى يكفل غذاء صحياً شاملا كاملا ميسراً لأفراد الشعب أجمعين .

والجدول التالى صورة موجزة للغذاء الشعبى فى مصر ، مضاره ، وما يجب أن يكون عليه .

مساوئ الغذاء الشعبى الحاضر .

١ — يحتوى على كمية زائدة من الخبز ، مما يؤثر فى استهلاك الفرد للأطعمة الضرورية الأخرى .

٢ — يكاد أن يكون على وتيرة واحدة ويعوزه الكثير من التنويع ، مما يترتب عليه سأم الفرد من الطعام وعدم حصول الجسم على جميع عناصر التغذية .

٣ — تغلب فيه الأغذية الرخيصة ، مثل الفول والمش والفلافل والدقة ، وهى ليست بذات قيمة غذائية كبيرة .

٤ — الغذاء الشعبى الحاضر به كمية كبيرة من الملح والتوابل الحريفة والطورشى ، وهذه المواد تؤدى إلى سوء التغذية وإلى كثير من المتاعب الصحية .

٥ — الغذاء الشعبى الحاضر فقير جداً فى كل من مادتيه الدهنية والبروتينية ، وهما من ألزم العناصر الغذائية للجسم ، وخاصة للأطفال والحوامل والمرضعات والأفراد الذين تتطلب أعمالهم اليومية بذل مجهود جثمانى كبير .

٦ ـ الغذاء الشعبي الحاضر يعوزه الاتزان الغذائي ، والعناصر الغذائية الهامة غير ممثلة فيه تمثيلا حسناً ، فنسبة المواد التي يتركب منها مجموع الوجبات الثلاث التي يتناولها الفقير في اليوم هي الآتي :

٣/٥ خبز
١/٥ بقول مثل العدس والفول ومعها بعض الخضروات .
١/٢٠ مواد دهنية (زيت وشحم الحيوان)
١/٢٠ لحوم
١/٢٠ فاكهة
١/٢٠ منتجات الألبان (مش في الغالب) .

ما يجب أن يكون عليه الغذاء الشعبي :

١ ـ يجب ألا تكون الوجبة الغذائية قائمة على الخبز ، وأن تكون بعض الأغذية الأساسية مثل الجبن والبيض والزبدة في متناول الفقير ، لكي لا يكون قوام طعامه الخبز ، أو الخبز ومعه الطورشي والدقة والمش ونحوها من النفايات الغذائية التافهة .

٢ ـ يجب أن يتاح للفقراء أكل اللحم ثلاث مرات فى الأسبوع على الأقل ، وأن يعمل نظام يمكن بمقتضاه أن يحصل الفقير على شىء من السمك والكبد والجبن الجيد والبيض بضعة مرات فى كل شهر ، وذلك لكى لا يصيبه السأم من أكل الفول والعدس فى معظم وجبات الطعام .

٣ ـ يجب استبعاد بعض المواد الضارة بالصحة تدريجاً من غذاء الشعب أو تقليلها وذلك مثل الطورشى والفلافل والملوحة والتوابل الحريفة .

٤ ـ حبذا لو استعاض الفقير عن جزء مما يستهلكه من الخبز بأغذية نشوية أخرى مفيدة مثل الفريك والبليلة والبطاطس والبطاطا .

٥ ـ من الضرورى توفير شىء من اللبن لأفراد الأسر الفقيرة وخاصة للأطفال والحوامل والمرضعات ، كما يجب أن يشتمل غذاء الفقير على جانب من منتجات الألبان مثل الزبدة والسمن والقشدة والجبن .

٦ ـ يجب أن تكون المواد البروتينية والدهنية جزءاً أساسياً

من الغذاء فى كل وجبة ، ويجب أن يشتمل مجموع الوجبات الثلاث التى يتناولها الفقير فى كل يوم على المواد الغذائية بالنسب الآتية :

$\frac{٣}{١٠}$ خبز وأرز وبطاطس .

$\frac{١}{٥}$ بقول وخضروات .

$\frac{١}{١٠}$ مواد دهنية (زيت وسمن وزبدة وشحم الحيوان) .

$\frac{١}{١٠}$ لحوم وسمك وبيض .

$\frac{١}{٥}$ فاكهة .

$\frac{١}{١٠}$ لبن ومنتجات الألبان .

وأملنا ، بعد كتابة ما تقدم ، أن يصل جزء مما فى هذا الكتاب إلى آذان الفقير فى مصر فيعمل على تحسين طعامه الحاضر ، وأن تراقب الجهات المختصة غذاء الطبقات الفقيرة والعاملة ليتمشى مع قواعد التغذية الصحيحة .

فهرست

مجموعة

المكتبة الخضراء للأطفال

تحفة جديدة رائعة تعدّ الأولى
من نوعها فى مكتبة الطفل العربى .
يجد فيها ألواناً شائقة من القصص الخيالية العالمية
التى ينعم بها أطفال مختلف الشعوب .

صدر منها

١ ـــ أطفال الغابة .
٢ ـــ سندرلا .
٣ ـــ السلطان المسحور .
٤ ـــ القداحة العجيبة .
٥ ـــ البجعات المتوحشات .
٦ ـــ الأميرة البيضاء .

ثمن النسخة ١٥ قرشاً

دار المعارف

مجموعة

قصص وأساطير من الصين

هدية السنة الجديدة إلى القارئ العربى تحمل له فى تضاعيفها صوراً صادقة مما فى الصين من جمال وجلال وسمو وخيال وتطلعه على رواسم حضارة قديمة غنية بالتقاليد والعادات والحكمة والروحانية .

صدر منها

١ ــ شجرة الكرز العجيبة .
٢ ــ رأس من طين .
٣ ــ هدية التنّين .
٤ ــ حكم رادع .
٥ ــ الأصدقاء .
٦ ــ كلام بوذا .
٧ ــ الحماقات الثلاث .
٨ ــ الحرب المقوية .
٩ ــ الملك شقرا .

مزينة بلوحات ملونة .

ثمن النسخة ٥ قروش

دار المعارف

قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية .

فمثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

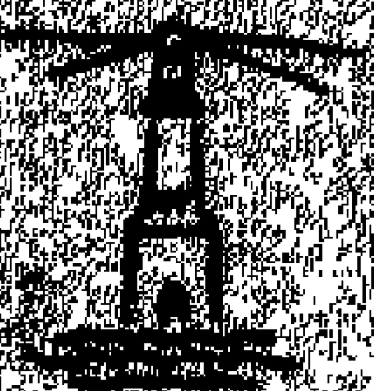
١ ــ شجرة الكرز العجيبة .
٢ ــ رأس من طين .
٣ ــ هدية التنين .
٤ ــ حكم رادع .
٥ ــ الأصدقاء .
٦ ــ كلام بوذا .
٧ ــ الحماقات الثلاث .
٨ ــ الحبوب المقوية .
٩ ــ الملك شقرا .

مزينة بلوحات ملونة ــ ثمن النسخة ٥ قروش

إقرأ

أحمد زكي صفوت

عمر بن عبد العزيز



دار المعارف بمصر

عمر بن عبد العزيز

احمد زكي صفوت

عمر بن عبد العزيز

اقرأ ٦٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٦٥ – أبريل ١٩٤٨
الطبعة الثانية – ١٩٦٣
الطبعة الثالثة – ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج٠ع٠م٠

نسبه

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ابن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وأمه ليلى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

وإذ كان سليل الفاروق رضي الله عنه من جهة أمه فقد ورث منه كثيراً من شمائله الشماء ، ومناقبه الغراء : من إيثار الحق ومناصرة العدل والعفة والورع والتقوى... مماسنفصل القول فيه بعد.

ولا بأس أن نورد لك أيضاً كلمة يسيرة عن جدته لأمه تتبين منها كرم عنصره وشرف محتده . ذكروا أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة يعس بالمدينة حتى أعيا فاتكأ على جانب جدار ، فإذا امرأة تقول لابنتها : يا بنتاه ، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها : يا أماه ، أوَما علمت بما كان من عَزْمة أمير المؤمنين اليوم؟ فقالت : وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت : إنه أمر منادياً فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها : يا بنتاه ، قد مَذَق الناس فامذُقي ، وإنك بموضع لا يراك عمر ، ولا منادي عمر ، وما يُدريه ؟ فقالت الصبية : إن كان عمر

لا يعلم فإله عمر يعلم ، والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ! وعمر يسمع كل ذلك ، وكان معه رجل يسمى أسلم ، فقال : يا أسلم ، علّم الباب واعرف الموضع ، ومضى فى عسسه ، فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض إلى ذلك الموضع فانظر أمرهما ، فنظر فإذا الجارية أيِّم ، وإذا تلك أمها ، وليس لهما رجل ، وهما من بنى هلال ، فأخبر عمر بخبرهما ، فدعا ابنه عاصماً فزوجه من الجارية ، فولدت له أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان فأتت بعمر بن عبد العزيز .

وكان يلقب بالأشج ، لأنه ركب وهو صغير دابة من دواب أبيه فسقط عنها فشُجَّ فلقب بذلك .

مولده

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١هـ وقيل سنة ٦٣هـ وكانت ولادته بالمدينة ، فلما شب وعقل – وهو بعد غلام صغير – كان يأتى عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه ، ثم يرجع إلى أمه فيقول : يا أمه ، أنا أحب أن أكون مثل خالى – يريد عبد الله بن عمر – فتؤفف به وتقول له : اعزُب ، أنت تكون مثل خالك ؟! فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها ، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقْدم عليه بولدها ، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها إليها ، فقال لها : يابنة أخى هو زوجك فالحَق به ، فلما أرادت الخروج قال لها : خلّفى هذا الغلام عندنا – يريد عمر – فإنه أشبهكم بنا أهل البيت ، فخلفته عنده ولم تخالفه ، فلما قدمت على عبد العزيز أخبرته بخبر عمر ، فسر بذلك وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بأمره ، فكتب عبد الملك أن يُجْرَى عليه ألف دينار فى كل شهر ، ثم قدم عمر على أبيه بعد ذلك مسلماً عليه فأقام عنده ما شاء الله .

هذه إحدى روايتين فى مولد عمر ، والثانية أنه ولد بحلوان – قرية فى مصر – وأبوه أمير عليها ، ثم بعث به إلى المدينة ليتأدب بها .

ونحن إلى ترجيح الرواية الأولى أميل ، لأن عبد العزيز ابن مروان سنة مولد ابنه عمر على كلا القولين لم يكن والياً على مصر ، وإنما كان الوالى على مصر سنة ٦١هـ هو مسلمة بن مخلد ، والوالى عليها سنة ٦٣ هـ هو سعيد بن يزيد ، أما عبد العزيز بن مروان فقد ولى إمرة مصر لأبيه مروان بن الحكم فى غرة رجب سنة ٦٥هـ ، وأقام بها منذئذ حتى وقع بها الطاعون سنة ٧٠هـ فخرج منها ونزل بحلوان ، فأعجبته فاشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار ، واتخذها سكناً وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها ، وظل على ولاية مصر عشرين سنة حتى مات سنة ٨٥ هـ .

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية ، فإنهما تتلاقيان فى نتيجتهما وهى أن عمر شب وترعرع بالمدينة .

نشأته وثقافته

وقد عُنى أبوه بتربيته واستصلاحه منذ نشأته ، فكتب إلى صالح بن كيسان بالمدينة أن يتعاهده ويرعاه ، وكان صالح يُلزمه الصلاة ، فأبطأ يوماً عنها ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مرجِّلتي تسكِّن شعرى ، فقال : بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة ! وكتب إلى أبيه بذلك ، فبعث إليه عبد العزيز رسولا فلم يبارحه حتى حلق شعره .

ولا يغيب عن بالك أن المدينة فى ذلك العهد كانت أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقد شرفت زمن النبوة بأن كانت مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها حدّث أكثر حديثه ، وشرّع جل شريعته ، وظلت من بعده مقر الخلافة الإسلامية أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، وموطناً لكبار الصحابة وأئمتهم الأعلام ، واشتهر بها كثير من علمائها الأجلاء منهم زيد بن ثابت وكان لا يقدّم عليه أحد فى القضاء والفتوى والفرائض (المواريث) والقراءة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وكان إماماً فى علم الحديث ، وتلقى العلم على هؤلاء العلماء من

الصحابة فى المدينة كثير من علماء التابعين ، من أشهرهم سعيد ابن المسيّب وعروة بن الزبير بن العوام ، من أجل ذلك كان طلبة العلم يقصدون إلى المدينة من شتّى البلاد لينهلوا من موارد علومها ، فلا غرو أن يبعث عبد العزيز بابنه عمر إليها ليتأدب بها .

فى هذه البيئة العلمية الزاكية نشأ عمر ، وعلى أساتذتها تثقف ، وقد روى الحديث وتلقى الفقه عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٠هـ وقد جاوز المائة ، رآه عمر وروى عنه وصلى أنس خلفه ، ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب المتوفى بسنة ٧٤هـ وهو عم أمه كما قدمنا ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب المتوفى سنة ٨٠هـ ، وعن جماعة من كبار التابعين منهم سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤هـ ، وهو رأس علماء التابعين وفردهم وفقيههم ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ ، وسالم ابن عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١٠٦هـ وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة ٩٩هـ وكان عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رويت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس » ، ويقول أيضاً : « لأن يكون لى مجلس من عبيد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها » ، ومحمد بن مسلم بن

شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٥ هـ ، وقد كتب عمر بعد إلى الآفاق : « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنّة الماضية منه » .

على هؤلاء العلماء الجهابذة وعلى غيرهم من علماء المدينة تخرج عمر فى علوم الدين حتى حذقها وصار فيها إماماً ضليعاً مبرّزاً ، وحتى يقول فيه ميمون بن مهران المتوفى سنة ١١٧ هـ : « ما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلاميذ »، ويقول : « عمر بن عبد العزيز معلم العلماء »، وستلمس أثر تلك الثقافة الفياضة جليّاً فيما نورده لك بعد فى مناظرته للخوارج والقدرية.

وكذلك كانت المدينة فى تلك الحقبة تزخر بالحياة الأدبية من قرض الشعر ورواية أشعار العرب وأخبارهم وأيامهم ، فأخذ عمر بحظه من الثقافة الأدبية وملأ منها سجْله، وقد حدّث عن نفسه فقال : « لقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم تاقت نفسى إلى العلم بالعربية والشعر فأصبت منه حاجتى »، وسترى أثر تلك الثقافة أيضاً فيما نورده لك بعد من حديثنا عنه مع الشعراء ، وأنت عليم أنه ابن الخلائف من قريش أفصح العرب وأرقها لهجة ، وأن اللسان العربى كان لا يزال إلى عصره قويماً سليماً لم تشُبه عجمة، ولم تشِنْه هجنة، اللهم إلا قليلا جدّاً من

اللحن لم يعد دائرة ضيقة محدودة ، ولئن أخذ على بعض الأمويين وقوع اللحن فى قولهم ، كالوليد ومحمد ابنى عبد الملك ، وبشر وعبد العزيز ابنى مروان ، وعبد الله بن يزيد بن معاوية ، إن عمر بن عبد العزيز لم يتعلق عليه أحد بلحن فى قول ، ومن فكهه ما يروى فى هذا الصدد أن بشر بن مروان قال يوماً لغلام له ، وكان عنده عمر بن عبد العزيز : ادع لى صالحاً ، فقال الغلام : يا صالحاً ، فقال له بشر ، ألق منها ألف ، فقال له عمر : وأنت فزد فى ألفك ألفاً .

ترفه قبل استخلافه

ولئن كان عمر قد استوفى حظه من الحياة الثقافية ، العلمية والأدبية ، فى المدينة ، إنه لم ينس نصيبه فى عنفوان شبابه من حياة الترف وترف الحياة ، فى حدود الاستمتاع الحلال المشروع ، حتى إذا ما حمل أعباء الخلافة نفض يده من الدنيا جملة ، وطلقها بائنة لا رجعة فيها .

وليس بغريب على مثل عمر أن يعيش عيش المترفين المرفهين فقد درج من بيت الخلافة ، ورتع فى بحبوحة الملك ، وتفيأ ظلال الإمارة ، ورُبِّى فى حجر النعيم ، كان جده مروان بن الحكم خليفة ، وكان عمه عبد الملك بن مروان خليفة ، وكان أبوه عبد العزيز بن مروان على مصر أميراً ، وقد أسلفنا لك أن عمه عبد الملك أجرى عليه وهو صغير بالمدينة ألف دينار كل شهر .

وهاك طرَفاً مما سطرته كتب التاريخ فى هذا الصدد :

ذكروا أن عمر كان أعظم أموى ترفهاً ، غُذِى بالملك ونشأ فيه ، لا يُعرف إلا وهو تعصِف ريحه ، فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى العمرية ، فكان الجوارى

يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، وأنه ترك كل شيء كان فيه لما استُخلف غير مشيته ، فإنه لم يستطع تركها ، فربما قال لمزاحم : ذكّرني إذا رأيتني أمشي ،فيذكره ، فيخلطها ، ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها ، وكان يطبع بخاتمه فيعلق العنبر بالطينة ، فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد فى الدنيا ورفضها .

وحدث رجل قال : رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخيل الناس فى مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان .

وأتاه رجل أيام خلافته فأمره أن يشترى له كساء بثمانية دراهم فاشتراه له وأتاه به فأعجبه ووضع يده عليه وقال : ما ألينه ، فضحك الرجل ، فقال له عمر : إنى لأحسبك أحمق ، أتضحك من غير شيء ! قال : ما ذاك بى ، ولكنك أمرتنى قبل ولايتك أن أشترى لك مطرف . خزّ ، فاشتريت لك مطرفاً بثمانمائة درهم ، ثم فوضعت يدك عليه فقلت : ما أخشنه ، وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم ، فعجبت من ذلك وأضحكني .

وحدث شيخ من قريش قال : كان عمر بن عبد العزيز يقول قبل الخلافة : لقد خفت أن يعجز ما قسم الله لى عن

كسوتى ، وما لبست ثوباً قط فرآه الناس علىّ إلا خيل لى أنه قد بلى ، فلما ولى خرج من ذلك كله .

وقال آخر : كان عمر يذيّل ثيابه ويسرف فى عطره ، فلقد كان يدخل فى طيبه حمل القرنفل ، ولقد رأيت العنبر على لحيته كالملح ، فلما أفضت إليه الخلافة ترك ذلك وتبذل .

وحدث شيخ كان فى حرس عمر قال : رأيته حين ولى فإذا به من حسن اللون وجودة الثياب والبزة ، ثم دخلت عليه بعدُ وقد ولى فإذا هو قد احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم .

وذكروا أنه ولى المدينة ، فسار أحسن سيرة ، وكان مع ذلك يعصف ريحه ، ويرخى شعره ، ويسبل إزاره ، ويتبختر فى مشيته ، وهو مع ذلك لا يغمص عليه فى بطن ولا فرج ولا حُكم .

ورووا أنه لما ولى الخلافة زهد فى الدنيا ، ورفض ما كان فيه ، وترك أن يخدم ، وترك ألوان الطعام ، فكان إذا صُنع له طعامه هيئ على شىء وغطى حتى إذا دخل اجتبذه فأكل .

كل هذا يصور لك بجلاء أنه لم ينس نصيبه من الدنيا فى شرخ صباه ، فلما أن ولى الخلافة خرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع .

عمر والغناء

قال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى :

« أول من دُونت له صنعة من الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، فإنه ذكر عنه أنه صَنع فى أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلها ، فبعضها عرفتُ الشاعر القائل له فذكرتُ خبره ، وبعضها لم أعرف قائله فأتيت به كما وقع إلىّ . .

ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ، ويقول إنها أصوات محكمة العمل ، لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة ، وحذق الغناء ، ومهر فيه ، وتمكّن منه ، ولم يوجد عمر بن عبد العزيز فى وقت من الأوقات ، ولا حال من الحالات ، اشتهر بالغناء ، ولا عرف به ، ولا بمعاشرة أهله ، ولا جالس من ينقل ذلك عنه ويؤديه ، وإنما هو شيء يحسن المغنون نسبته إليه .

ورُوى من غير وجه خلاف لذلك ، وإثبات لصنعته إياها ، وهو أصح القولين ، لأن الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجة أكثر من هذا الظن والدعوى ، ومخالفوهم قد أيدتهم أخبار رويت » .

وقال :

عن كردم بن معبد قال : طرح على عمر بن عبد العزيز لحنه :

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها أو نُهى عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

قال كردم : وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً ، وكان حسن القراءة للقرآن .

وعن محمد بن الحسين قال : قلت لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، صوت يزعم الناس أنك صنعته فى شعر جرير :

ألِمَّا صاحبيّ نزر سعادا لوشْك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد عنى لمصروف ، ونفعى عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذى رفع العمادا

فتبسم عمر ولم يرد علىّ شيئاً .

قال أبو الفرج : والشعر لجرير يمدح عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، والغناء لعمر بن عبد العزيز .

وقال :

ومن أصوات عمر فى سعاد :

ألا يادين قلبك من سليْمى   كما قد دين قلبك من سعادا
هما سبتا الفؤاد وأصبتاه   ولم يدرك بذلك ما أرادا
قفا نعرف منازل من سليمى   دوارس بين حومل أو عرادا
ذكرت بها الشباب وآل ليلى   فلم يرد الشباب بها مرادا
فإن تشب الذوابة أم زيد   فقد لاقيتُ أياماً شداداً

وقال :

لعمر بن عبد العزيز فى سعاد سبعة ألحان :

منها :

يا سعاد التى سبتْنى فؤادى   ورقادى ، هبى لعينى رقادى

ومنها :

حظ عينى من سعاد   أبداً طولُ السهاد

ومنها :

سبحان ربى برا سعادا   لا تعرف الوصل والودادا

ومنها :

لعمرى لئن كانت سعاد هى المنى
وجنة خلد لا يمل خلودها

ومنها :

أسعاد جودى (لا شقيت) سعادا
واجزى محبك رأفة ووداداً

ومنها :

ألما صاحبي نزر سعادا　　لوشْك فراقها وذرا البعادا

ومنها :

ألا يا دين قلبك من سليمى　　كما قد دين قلبك من سعادا

هذا ما أورده صاحب الأغانى فى ذلك الصدد ، ونحن نذهب فيه مذهبه، ونوافقه فيما رجحه ، ولسنا ممن ينكر أنه كان لعمر بن عبد العزيز – فى ميعة شبابه ، وقبل أن يتقلد الخلافة– هوى فى الغناء ، وصبوة إليه ، فإن أحداً لا يمارى فى أن الغناء فن جميل ، يتعشقه كل إنسان بفطرته ، وتهيم به كل نفس بطبيعتها ، يتوق إليه الملك فى قصره ، ويشتاقه الصعلوك فى كوخه ، وهو غذاء الأرواح ، وسلسبيل القلوب ، وصقال النفوس ، وروضة الأذهان ، وهو بعد متعة مشروعة ، لا يأباها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، ما دام لا يكتنفه رفث ولا فسوق ولا شراب ، دع عنك ما يتشدق به المتزمتون من أن الدين يحظره ، وأن الشرع لا يبيحه ، وحسبنا فى تفنيد زعمهم ما ورد فى الحديث الشريف : « عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ، ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو »

وفى رواية : « فهلا بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى » .

وقال صاحب العقد الفريد : « واحتجوا فى إباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت : نعم ، قال : فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت : لا ، قال : أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتينـــاكم أتيناكم فحيـــونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك ، وكان من أفضل رجال الزهرى ، قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بجارية فى ظل فارع وهى تغنى :

هل علىّ ويحكم إن لهوت من حرج ؟

فقال النبى : لا حرج إن شاء الله » .

فلا حرج إذن علىّ عمر أن يهوى الغناء ويصبو إليه ، ولا يغتمز ذلك فيه ، ولا ينقص من دينه وفضله .

وليس ببدع أن يهفو عمر إلى الغناء ، ويشرب فؤاده حبه ، وهو قد نشأ فى بيئة غنائية ، فياضة بالألحان والإيقاع ، مفعمة

بحذاق المغنين والمغنيات ، وهذا قول مجمل نفصله لك بعض التفصيل .

خلصت الخلافة لمعاوية بعد ما شجر بينه وبين على من خصام ، وما نشب من قتال ، فلم ينم عن توطيد عرشه ، وكان ذا حُنكة سياسية فائقة ، وبصر بأعقاب الأمور ثاقب ، وكان بالمدينة على عهده طائفة من الشباب المترف من أبناء المهاجرين والأنصار يخشى أن تشرئب أعناقهم إلى الخلافة ، ويسوّل لهم حب الملك أن يكيدوا له ، فقصرهم على سكنى الحجاز ، وحظر عليهم أن يغادروه إلا بإذنه ، ورأى من الحزم أن يقيدهم بالإحسان ، ويفيض عليهم جزيل العطاء ، ففرض لهم رواتب ضخمة فى بيت المال كانت تتدفق عليهم من خزائن الشام ، هذا إلى ما ورثوه من آبائهم الفاتحين من ثراء وافر ، ثم هم بعد فارغون من العمل متعطلون ، فصدق فيهم قول أبى العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده ... مفسدة للمرء أى مفسده

نشأ هؤلاء الشباب يتقلبون فى أعطاف النعمة والبطالة ، فجنحوا إلى الاستمتاع بلذائذ الحياة ومتعها، من طعام ونساء وسماع ،وطفقوا ينفقون الأموال فى الترف واللهو والقصف والغناء ،

ولهوا بذلك عن طلب الملك والإمارة ، وكانت مواد النعيم لديهم موفورة ، فقد كان من نصيبهم – وهم العنصر الفاتح – خير الجوارى من السبايا وأرفعهن نسباً ، ومنهن من تربى فى بيوت الملوك والأمراء ، فكثر التسرّى بالجميلات من الروميات والفارسيات ، وكان كثرة الموالى فى الحجاز رجالا ونساء من أهم العوامل فى نمو فن الغناء وتقدمه .

وقد سبقت المدينة سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء ، وشاع اللهو والقصف بين أهلها ، فإن سائب خاثر – وهو مولى بنى ليث ، وأصله من فئ كسرى ، واشتراه عبد الله بن جعفر الهاشمى – هو أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، واشترى عبد الله بن عامر إماء وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يغنين فيه ، وسمع الناس منهن فأخذوا عنهن ، ثم قدم رجل فارسى يسمى نشيطاً فغنى فأعجب عبد الله بن جعفر به ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ، ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد صنع :

لمن الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر

وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى المتقن الصنعة ، ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك ، فأخذ

عن سائب خاثر الغناء العربى ، وأخذ عنه ابن سرَيج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم .

ثم شاع الغناء وذاع ، ونبغ فيه كثير من المغنين والمغنيات ، وغصت بهم المدينة ومكة ، روى صاحب الأغانى قال : « حجت جميلة فخرج معها من المغنين مشيعين ، حتّى وافوا مكة ورجعوا معها ، من الرجال المشهورين الحذاق بالغناء : هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى وقند ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير ، ومن النساء المغنيات الفارهة : عزة الميلاء وحبابة وسلاّمة وخليدة وعتيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء . . . ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثيرة . . . وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم ، فلما قضت حجها وقدمت المدينة تلقاها أهلها فدخلت أحسن مما خرجت به منها . . »

وكانت جمهرة المغنين فى الحجاز أكثر منها فى العراق ، جاء فى ترجمة حنين الحيرى فى الأغانى : « كان فحلا من فحول المغنين ، وله صنعة فاضلة متقدمة ، وكان يسكن الحيرة ،

ثم قال : ولم يكن بالحيرة مذكور فى الغناء سوى حنين إلا نفر من السديريين يقال لهم عباديس وزيد بن الطليس وزيد بن كعب ومالك بن حُسمة . . »

وروى أيضاً صاحب الأغانى قال : « كان المغنون فى عصر حنين الحيرى أربعة نفر : ثلاثة بالحجاز وهم ابن سريج والغريض ومعبد ، وهو وحده بالعراق ، فكان يبلغهم أن حنيناً قد غنى فى هذا الشعر : "هلا بكيت على الشباب الذاهب" فاجتمعوا. فتذاكروا أمره وقالوا : ما فى الدنيا أهل صناعة شر منا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستزيره ! فكتبوا إليه ووجهوا له نفقة ، وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك ، فأنت أولى بزيارتنا ، فشخص إليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوم كان أكثر حشداً ولا جمعاً من يومئذ ، ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق ، قال لهم معبد : صيروا إلىّ ، فقال له ابن سريج : إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطفنا إليك ، فقال : مالى من ذلك شىء ، وعدلوا إلى منزل سكينة ، وأذنت للناس إذناً عامًّا ، فغصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة ، فأكلوا منها ، ثم سألوا حنيناً

أن يغنيهم صوته الذى أوله : "هلا بكيت على الشباب الذاهب" فغناهم إياه بعد أن قال لهم : ابدءوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ، ومات حنين تحت الهدم ، فقالت سكينة عليها السلام : لقد كدر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته » .

هذه شذرة تصور لك الحياة الغنائية بالمدينة فى ذلك العهد ، وتريك أن حياة المرح واللهو والطرب كانت تساير فيها حياة الفقه والحديث والورع والتقوى جنباً لجنب ، وأن أشرافها ما كانوا ليتحرجوا من سماع الأغانى أو يعيبوه ، وكيف وهذه السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه — وهى من تعلم ، فى شريف نسبها ، وسامى شرفها — يقام فى دارها هذا الحفل الغنائى ، وتأذن للناس فى حضوره إذناً عامًّا ، وتقدم لهم فيه الأطعمة ، ويتزاحمون ويتدافعون حتى يسقط بهم الرواق على من تحته !

وأكثر من ذلك أن بعض كبار الأئمة فى المدينة كان له مشاركة حسنة فى هذا الفن الجميل ، وهاك استمع لصاحب

الأغانى يحدثك عن الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى — وقد أدرك أواخر حياة عمر ، ولد سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة ١٧٩ هـ — قال حسين بن دحمان الأشقر : كنت بالمدينة فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى بصوت ، فإذا خوخة قد فتحت وإذا وجه قد بدا تتبعه لحية حمراء ، فقال : أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، ثم اندفع يغنيه فظننت أن طويسا قد نشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله ، من أين لك هذا الغناء؟ قال : نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عز وجل ما ترى ، فقلت له : فأعد جُعلت فداءك ، قال : لا ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ؟ وإذا هو مالك بن أنس ولم أعلم !

وملاك القول أن عمر بن عبد العزيز نشأ فى ظلال هذه الأريكة الفينانة ، وسمع بلابلها المغردة ، وأطيارها المرنّة ، ووهب الله له حنجرة موسيقية ، فشدا ولحن ، وتغنى وترنم !

ولايته على المدينة

وفى ربيع الأول سنة ٨٧هـ ولاه الوليد بن عبد الملك المدينة ، فقدمها ونزل دار جده مروان بن الحكم ، ودخل عليه الناس فسلموا ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة : عروة ابن الزبير وعبد الله بن عبيد الله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لى ظلامة ، فأحرج بالله على من بلغه ذلك إلا بلغنى » فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا .

فأنت تقرأ فى هذه الكلمة الوجيزة الدستور الذى سنه لحكمه والنهج القويم الذى رام أن ينتهجه فى ولايته ، وترى كيف اتخذ

من هؤلاء الأئمة الأعلام أعواناً له على الحق ، يجعل أمره شورى بينهم ، ولا ينفذ حكماً إلا باطلاعهم ، ثم ترى كيف ينشدهم الله أن لا يزووا عنه خبر شكاية أو ظلامة ، من أحد من عماله ، أو من عامة الناس ، فلا غرو أن يسطر المؤرخون فى صحيفة تاريخه : « ولى عمر المدينة فسار أحسن سيرة »

وولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وعرف للعلماء حقهم وفضلهم ، فأولاهم ما هم أهله من الإكبار والإجلال . ذكروا أنه أرسل إبان ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب — وهو من قدمنا لك فضله — يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتى أميراً ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك ، فقصد إليه ، فلما رآه عمر قال له : عزمتُ عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فإنا لم نرسله ليدعوك ، وإنما أرسلناه ليسألك ، ولكنه أخطأ » .

وبإزاء ما تراه فى هذا الخبر من عظيم احترامه وتقديره للعلماء ، تلمح من خلال ما ورد فيه من « أن سعيداً كان لا يأتى أميراً ولا خليفة » كيف كان ذلك العالم العيلم يحرص على الاحتفاظ بكرامته ، والاعتزاز بمقامه الجليل .

ومن أخباره أيام ولايته على المدينة أن الوليد بعث إليه سنة ٨٨هـ بكتاب يأمره بإدخال حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد رسول الله ، وأن يشترى ما فى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : قدّم القبلة إن قدرت — وأنت تقدر — لمكان أخوالك ، فإنهم لايخالفونك ، فمن أبى منهم فمر أهل المصر فليقوموا له قيمة عدل ، ثم اهدم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك فى ذلك سلف صدق ، عمر وعثمان ، فأقرأهم كتاب الوليد ، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه ، وأخذ فى هدم بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناء المسجد ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى قدم الفعلة ، بعث بهم الوليد .

وفى هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة ، وكتب إلى خالد بن عبد الله القسرى بذلك — وكان على مكة —

وفيها كتب إلى عمر أن يعمل الفوارة التى عند دار يزيد بن عبد الملك ، فعملها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها فنظر إلى بيت الماء والفوّارة فأعجبته وأمر لها بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل ذلك .

وفى هذه السنة حج عمر بن عبد العزيز بالناس ، قال صالح بن كيسان : خرج عمر بعدة من قريش أرسل إليهم بصلات ودواب للحمولة ، وأحرموا معه من ذى الحليفة وساق معه بُدُنا ، فلما كان بالتنعيم لقيهم نفر من قريش فأخبروه أن مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج العطش ، وذلك أن المطر قل ، فقال عمر : فالمطلب ها هنا بيّن ، تعالوا ندع الله ، فدعوا ودعا معهم فألحوا فى الدعاء ، قال صالح : فلا والله ، ما وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلا مع المطر حتّى كان مع الليل ، وسكبت السماء وجاء سيل الوادى ، فجاء أمر خافه أهل مكة ، ومطرت عرفة ومنى وجمع ، قال : ونبتت مكة تلك السنة للخصب .

وظل عمر على ولاية المدينة حتّى كانت سنة ٩١هـ فضمت إليه ولاية مكة ، ثم عزله الوليد سنة ٩٣ هـ ، وكان سبب ذلك أن عمر كتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق ، واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وبلغ ذلك الحجاج فاضطغنه على عمر وكتب إلى الوليد :

« إن من قبلى من مرّاق أهل العراق ، أهل الشقاق ، قد جلوا عن العراق ، ولجئوا إلى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن » .

فكتب الوليد إلى الحجاج أن أشر على برجلين ، فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله ، فولى خالدا مكة ، وعثمان المدينة ، وعزل عمر بن عبد العزيز ، فخرج من المدينة فأقام بالسويداء .

يصور لك هذا الخبر بجلاء كيف كان الوليد يصانع الحجاج ، وإلى أى حد كان ينزل على إرادته ، ويخضع لأمره ، فلا عجب أن يقول : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : إن الحجاج جلدة ما بين عينىّ ، وأنا أقول : إنه جلدة وجهى كله » ولقد حفظ وصية أبيه فيه ، إذ قال له ولإخوته فيما قال عند وفاته : « وأكرموا الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر » .

وقبل أن يغادر ركب عمر المدينة نرى أن نقف بالقارئ هنيهة نحدثه فيها عن حال الشعراء معه إبان إمارته فنقول :

عمر والشعراء أيام إمارته

كان المدح والهجاء أبرز الفنون الشعرية فى العصر الأموى ، وكثرها تناولا وذيوعاً ، فكان الشعراء يؤمون بمدحهم البليغة ساحة الخلفاء والأمراء والكبراء ، فيجزل هؤلاء لهم العطاء ، ويفيضون عليهم المنح ، كما ذكت بينهم نار الهجاء ، واستطار شره ، وجروا فى مضماره أشواطاً بعيدة المدى ، وكان الفرسان المبرزون فى هذين الميدانين جريراً والفرزدق والأخطل ، ونجتزئ فى هذا الباب بما يتصل بموضوعنا منه .

* * *

ذكروا أن الفرزدق قدم المدينة فى سنة مجدبة ، فمشى أهلها إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير ، إن الفرزدق قدم مدينتنا فى هذه السنة الجدبة التى قد أهلكت عامة أموالنا ، وليس عند أحد منا ما يعطيه شاعراً ، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق قدمت مدينتنا فى هذه السنة الجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك

بأربعة آلاف درهم ، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ، فأخذها الفرزدق ، ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس فى سقيفة داره ، عليه مطرف خز أحمر ، وجبة خز أحمر ، فوقف عليه ، ومدحه بأبيات من شعره ، فخلع عليه الجبة والعمامة والمطرف ، ودمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رحل — كن حضر عبد الله ، والفرزدق عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد — فدخل إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره ، فبعث إليه عمر : ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألاتعرض لأحد بمدح ولا هجاء ؟ اخرج فقد أجلتك ثلاثا ، فإن وجدتك بعد ثلاث نكلت بك ، فخرج وهو يقول :

فأجلنى وواعدنى ثلاثاً كما وُعدت لمهلكها ثمود

فقال جرير فيه :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ومثلك يُنفى من المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود فقالوا ضللت ولم تهتد

وقدم المدينة جرير أيضاً ومدح عمر بن عبد العزيز بقصيدة بليغة منها :

ألما صاحبى زر سعادا لوشك فراقها وذرا البعادا

لعمرك إن نفع سعاد عنى   لمصروف ونفعى عن سعادا
إليك رحلت يا عمر بن ليلى   على ثقة أزورك واعتمادا
تعود صالح الأعمال إنى   رأيت المرء يلزم ما استعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى   ومروان الذى رفع العمادا
تزود مثل زاد أبيك فينا   فنعم الزاد زاد أبيك زادا
فما كعب بن مامة وابن سعدى   بأجود منك يا عمر الجوادا
هنيئاً للمدينة إذ أهلت   بأهل الملك أبدأ ثم عادا
يعود الحلم منك على قريش   وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد لينت وحشهم برفق   ويعيي الناس وحشك أن يصادا
وتبنى المجد يا عمر بن ليلى   وتكفى الممحل السنة الجمادا
وأنت ابن الخضارم من قريش   همُ نصروا النبوة والجهادا
وقادوا المؤمنين ولم تعوّد   غداة الروع خيلهم القيادا

واستعرت نار الهجاء بين جرير وبين كثير من شعراء عصره، ورشقهم بسهام القدح ورشقوه، وكان ممن هاجاهم عمر بن لجأ التيمى، والحديث فى ذلك طويل، ولا يهمنا هنا إلا أن نقول: إن عمر بن عبد العزيز لم يمنعه مدح جرير إياه من أن ينزل به العقاب هو وابن لجأ لما تبادلا قصائد الهجو والسباب.

روى صاحب الأغانى قال:

حدث إبرهيم بن عبد الله قال : حضرت عمر بن لجأ التيمى وجريرا موقوفين للناس بسوق المدينة، لما تهاجيا وتقاذفا ، وقد أمر بهما عمر بن عبد العزيز ، فقرنا وأقيما ، وعمر بن لجأ شابٌ كأنه حصان، وجرير شيخ قد أسن وضعف، فيقول ابن لجأ :

رأوا قمرا بساحتهم منيراً وكيف يقارن القمر الحمارا

ثم ينزو به وهما مقرونان فى حبل فيسقطان إلى الأرض ، فأما ابن لجأ فيقع قائماً ، وأما جرير فيخر لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفض الغبار عنه ، فقال رجل من جلساء عمر له حين حضر غداؤه : لو دعا الأمير بأسيريه فغداهما معه ، ففعل ذلك عمر.

وكان جرير قد قال فى ابن لجأ قصيدته التى يقول فيها :

يا تيم تيم عدىّ لا أبا لكم لا يوقعنكم فى سوءة عمر

وحج أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، فقدم المدينة ، فدخل عليه الأحوص — أحد شعراء المدينة — وسأله أن يستصحبه معه إلى الشأم ، فوعده بذلك ، فلما خرج الأحوص قال له بعض من عنده : ما ذا تريد بنفسك ، تقدم بالأحوص الشأم وبها من ينافسك من بنى أبيك — وهو من الأفن والسفه على ما قد علمت — فيعيبونك به؟ ! فلما رجع أبو بكر من الحج دخل عليه الأحوص متنجزًا لما وعده ، فقال له : كرهت أن

أهجم بك على أمير المؤمنين (الوليد بن عبد الملك) من غير إذنه فيجبهك ، فيشمت بك عدوى من أهل بيتى ، ولكن خذ هذه الثياب والدنانير ، وأنا مستأذن لك أمير المؤمنين فإذا أذن لك كتبت إليك فقدمت علىّ ، فقال له الأحوص : لا ، ولكن قد سبقت عندك ، ولا حاجة لى بعطيتك ، ثم خرج من عنده.

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز – وهو يومئذ أمير المدينة – فأرسل إلى الأحوص ، فلما دخل عليه أعطاه مائة دينار وكساه ثياباً فأخذ ذلك ، ثم قال له : يا أخى هب لى عرض أبى بكر ، قال : هو لك ، وقد قال قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز ، وهى :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل
فصددت عنك وما صددت لبغضة أخشى مقالة كاشح لا يعقل
هل عيشنا بك فى زمانك راجع فلقد تفاحش بعدك المتعلل
إن الشباب وعيشنا اللذّ الذى كنا به زمناً نسر ونجذل
ولّت بشاشته وأصبح ذكره حزناً يعل به الفؤاد وينهل
إلا تذكر ما مضى وصبابة منيت لقلب متيم لا يذهل
أودى الشباب وأخلقت لذاته وأنا الحزين على الشباب المعول

يبكي لما قلب الزمان جديده		خلقاً وليس على الزمان معول
والرأس شامله البياض كأنه		بعد السواد به الثغام المحول
وسفيهة هبت عليّ بسحرة		جهلا تلوم على التواء وتعذل
فأجبتها أن قلت لست مطاعة		فذرى تنصحك الذى لا يقبل
إنى كفانى أن أعالج رحلة		« عمر » ونبوة من يضن ويبخل
بنوال ذى فجر تكون سجاله		عصاً إذا نزل الزمان الممحل
ماض على حدث الأمور كأنه		ذو رونق عضب جلاه الصيقل
تبدى الرجال (إذا بدا) إعظامه		حذر البغاث هوى بهن الأجدل
فيرون أن له عليهم سورة		وفضيلة سبقت له لا تجهل
متحمل ثقل الأمور، حوى له		سبق المكارم سابق متمهل
وله (إذا نسبت قريش) فيهمو		مجد الأرومة والفعال الأفضل
وله بمكة إذ أمية أهلها		إرث إذا عد القديم مؤثل
أعيت قرابته، وكان لزومه		أمراً أبان رشاده من يعقل
وسموت عن أخلاقهم. فتركتهم		لنداك، إن الحازم المتحول
ولقد بدأت أريد ود معاشر		وعدوا مواعد أخلفت إذ حصّلوا
حتى إذا رجع اليقين مطامعى		يأساً، وأخلفنى الذين أؤمل
زايلت ما صنعوا إليك برحلة		عجلى، وعندك عنهمو متحول
ووعدتنى فى حاجتى فصدقتنى		ووفيت إذ كذبوا الحديث وبدلوا

وشكوت غرماً فادحاً فحملته عنى ، وأنت لمثله متحمل
فلأشكرن لك الذى أوليتنى شكراً تحل له المطى وترحل
مدحاً تكون لكم غرائب شعرها مبذولة ، ولغيركم لا تبذل
وإذا تنخلت القريض فإنه لكم يكون خيار ما أتنخل
ولعمر من حج الحجيج لبيته تهوى بهم قلص المطى المرمل
إن امرأ قد نال منك وسيلة يبغى منافع غيرها لمضلل
تعفو إذا جهلوا بحلمك عنهمو وتنيل إن طلبوا النوال فتجزل
وتكون معقلهم إذا لم ينجهم من شر ما يخشون إلا المعقل
حتى كأنك يتقى بك دونهم من أسد بيشة خادر متبسل
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول مالا يفعل
وأرى المدينة حين صرت أميرها أمن البرىء بها ونام الأعزل

فقال عمر : ما أراك أعفيتنى مما استعفيت منه — لأنه مدح عمر وعرّض بأخيه —

وأظهر ما يستنبط من هذه القصة أن العظماء والرؤساء فى ذلك العهد كانوا يتحامون جانب الشعراء ويتحاشون لسانهم ، فقد رأيت عمر يمنح الأحوص منحته ، ويسأله أن يهب له عرض أخيه ، ويمسك عن القدح فيه ، لما أخلف من وعده إياه ، فيأبى الأحوص إلا أن يمزج مدحته لعمر بالتعريض بأبى بكر ،

فلا يسع عمر إلا أن يقول له : ما أراك أعفيتنى مما استعفيت منه ! وسنذكر لك بعد بقية أخباره معه إبان خلافته .

وكان بجانب ميدانى المدح والهجاء فى هذا العصر ميدان ثالث فسيح ، وهو ميدان الغزل والتشبيب ، وفارس حلبته عمر ابن أبى ربيعة ، وكان موطنه المدينة ، وقد وصفنا لك آنفاً حياة المرح والغناء التى كانت تموج بها إذ ذاك ، ولقد كان لتلك الحياة أثرها فى ازدياد الغزل والتشبيب بالنساء ، فكثر بالمدينة وبمكة الشعراء الغزلون ، وصوروا فى شعرهم عواطفهم وأهواءهم ، وبثوا ما اختلج فى نفوسهم من لواعج الصبابة والهيام ، وقصوا أنباء زياراتهم لحبيباتهم ، وما وقع لهم معهن من حادثات ، وما دار بينهم وبينهن من أحاديث ، فى شعر رقيق أنيق يشجى الصب ، ويأخذ بلب الولهان ، وكان زعيمهم ومقدمهم فى ذلك عمر بن أبى ربيعة ، وقد أكثر فى شعره من الرفث والفجور حتى قيل فيه : «ما عُصى الله بشىء كما عُصى بشعر عمر بن أبى ربيعة» وقيل فيه : «ما دخل على العواتق فى حجالهن شىء أضر عليهن من شعر عمر بن أبى ربيعة» وقيل فيه : «لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبى ربيعة لا يتورطن فى الخنا تورطا» وقد أكثر عمر من التعرض للمحصنات العفيفات من نساء قومه ومن غيرهن ،

وكان وفود النساء من الأقطار إلى مكة للحج مغرياً له بتتبعهن والتغزل بهن ، فكان إذا وافى موسم الحج خرج فى زينة حسنة وقد لبس الحلل الموشاة ، وركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ، ويرسل لمته ، ويلقى العراقيات والمدنيات والشاميات من حيث يقدمن ، ويتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ويرقب خروجهن للطواف والسعى ، ويصفهن وهن محرمات ، واستطار شره وتمادى فى غيه وشبب ببنات السادات والخلفاء ، حتى كانت عاقبة أمره أن غضب عليه عمر ابن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك .

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن ما جاء فى إحدى روايات الأغانى من أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم تكن له همة إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص ، فكتب إلى عامله بالمدينة : قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر ، فإذا أتاك كتابى هذا فاشددهما واحملهما إلىّ فحملهما إليه . . . رواية غير صحيحة بالنسبة إلى ابن أبى ربيعة ، لأنه توفى قبل أن يلى عمر الخلافة ، إذ أنه توفى سنة ٩٣هـ على حين أن عمر استخلف سنة ٩٩هـ ، فكيف حمل إليه ؟

استخلاف عمر

قدمنا أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦١ أو سنة ٦٣هـ أى زمن خلافة يزيد بن معاوية — وقد ولى الخلافة من سنة ٦٠ إلى سنة ٦٤هـ — ثم تتابعت بعده الخلفاء : معاوية الثانى ابن يزيد سنة ٦٤ ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر ، وقيل أربعين يوماً ، ثم مروان بن الحكم — من سنة ٦٤ إلى سنة ٦٥ — ثم عبد الملك بن مروان — من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٦ — ثم الوليد بن عبدالملك — من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ — ثم سليمان بن عبدالملك — من سنة ٩٦ إلى سنة ٩٩ — ثم عمر بن عبد العزيز — من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ هـ . فهو قد ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك .

وكان لسليمان ابن اسمه أيوب ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، ولكن أيوب توفى سنة ٩٩ فى حياة أبيه ، ولم يبق لسليمان إلا أولاد صغار ، ثم توفى سليمان وهو ابن تسع وثلاثين سنة .

ذكروا أنه لبس يوماً حلة خضراء وعمامة خضراء ، ونظر

فى المرآة — وكان حسن الوجه — فأعجبه ما رأى من جماله ؛ فقال : أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة له ، فرأى شفتيها تتحركان عند قوله ما قال ، فقال : ما قلت ؟ قالت : خيراً ، قال : فأخبريني ، وأعاد عليها ، قالت : قلت :

أنت نعم المتاعُ لو كنت تبقى   غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيبٌ   كان فى الناس غير أنك فانى

فما عاش بعد ذلك إلا أسبوعاً ، أصيب بحمى كانت موصولة بمنيته .

فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض علىّ ولدى فى القمُص والأردية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية ، يسحبونها سحباً ، فنظر إليهم وقال : يا رجاء

إن بنى صبية صغارُ   أفلح من كان له كبار

فقال له عمر : يا أمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » ثم قال سليمان : يا رجاء ، اعرض علىّ بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحملونها ، يجرونها جرًّا ، فنظر إليهم وقال :

إن بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

فأعاد عليه عمر ما قاله أولا ، فلما لم ير فى ولده ما يريد ، حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز ، لما كان يعرف من حاله ، فشاور رجاء فيمن يعقد له ، فأشار عليه رجاء بعمر ، وسدد له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب ، فلما اشتد به وجعه عهد عهداً كتبه بيده ولم يطلع عليه أحداً إلا رجاء بن حيوة ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم » .

وعاده عمر وبعض أهل بيته فرأوا به الموت ، فخلا عمر برجاء فقال له : يا رجاء إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيعهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صددته عنى ، وإن لم يذكرنى أن لا تذكرنى له فى شىء من ذلك ، فقال له رجاء : لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهبه ، أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم ؟ وقد كان

سليمان فرغ من ذلك ، ولكنه أراد إخفاءه عن عمر ، فلما قضى سليمان قام رجاء فأخذ له البيعة من الناس ، وسلم عليه بإمرة المؤمنين وهو يتنصل ويقول : أنشدك الله يا رجاء ، فقال رجاء : أنشدك الله أن يضطرب بالناس حبل ، فقد لقي سليمان ربه ، وقضى الله عليه الموت ، فقبل عمر .

عمر عقب استخلافه

ولما فرغ عمر من دفن سليمان بن عبد الملك سمع للأرض رجة فإذا مراكب الخلافة : البراذين والخيل والبغال ، ولكل دابة سائس ، فقال : ما هذه؟ قالوا : مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين ، قربت إليك لتركبها ، فقال : مالى ولها ؟ نحّوها عنى ، دابتى أوفق لى ، فقربوا إليه بغلته فركبها ، وصرفت تلك الدواب .

وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عنى ، مالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ثم أقبل سائراً فقيل : تنزل منزل الخلافة ؟ فقال : فيه عيال أبى أيوب — سليمان بن عبد الملك — وفى فسطاطى كفاية حتى يتحولوا ، فأقام فى منزله حتى فرغوه بعد .

وسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل أمرنا باليُمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، إن من لا يذكر من آبائه — فيما بينه وبين آدم عليه السلام — أباً حيًّا لمعْرِق فى الموت .

إن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل ، ولا فى نبيها صلى الله عليه سلم ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا ، ولا أمنع أحداً حقًّا ، إنى لست بخازن ، ولكنى إنما أضع حيث أمرت .

أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاة تجْتَرُّون مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا

طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

ثم نزل فدخل ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التى كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين .

ثم ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أى بنى أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال : أى بنى ، إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن منى أى بنى ، فدنا منه فالتزمه وقبل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى ، فخرج ولم يقل ، وأمر مناديه أن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فجعل لا يدع شيئاً مما كان فى يد سليمان وفى يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

فلما بلغت الخوارج سيرة عمر وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا : ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل .

نهجه فى حكمه

وقد نهج عمر فى حكمه نهج جده العظيم عمر الفاروق ، واحتذى مثاله ، فسلك بالرعية محجته البيضاء ، وأعاد فيهم سيرته الزاكية الطاهرة ، وهاك اقرأ كتابه إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبد الله

سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله تبارك اسمه ، وتعالى جده ، ابتلانى بما ابتلانى به من أمركم ، من غير مشورة منى فيه ولا طلب ، إلا قضاء من الرحمن الرحيم ، فأسأل الذى ابتلانى بما ابتلانى به من أمر عباده وبلاده أن يحسن عونى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمرهم ، وأن يرزقنى منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وأن يرزقهم منى الرأفة والمعدلة ، وقد رأيت أن أسير فى الناس بسيرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، إن قضى الله ذلك واستطعت إليه سبيلا ، فابعث إلىّ بكتب عمر وقضائه فى أهل القبلة وأهل العهد ، فإنى متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء الله ، وأسأل الله

التوفيق لما يحب ويرضى » .

* * *

وكتب أيضاً حين ولى الخلافة إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح

بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل

الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، ووقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم ، إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلُغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

رده المظالم

ومن مآثره التى تذكر له بالحمد والإكبار أنه بدأ عمله فى خلافته برد المظالم ، وبدأ فى ذلك بنفسه فقال : إنه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى ، فنظر إلى ما فى يديه من أرض أومتاع فخرج منه ،حتى نظر إلى فصّ خاتم كان فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حقه مما جاء من أرض المغرب ، فرده .

وخرج مما كان فى يده من القطائع ، وكان فى يده قطائع باليمامة ، والمكيدس وجبل الورس باليمن ، وفدك ، فخرج من ذلك كله ، ورده إلى المسلمين ، إلا أنه ترك عيناً بالسويداء ، وكان استنبطها بعطائه ، فكانت تأتيه غلّتها كل سنة ، مائة وخمسون ديناراً أو أقل أو أكثر .

ولما أزمع أن يرد ما لديه ، أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعدُ فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها ، وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ، وإن ذلك قد صار إلىّ ، ليس علىّ فيه دون الله محاسب ، ألا وإنى قد رددتّها ؛

وبدأت بنفسى وأهل بيتى» اقرأ يا مزاحم — وقد جىء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب — فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيأخذه عمر وبيده مقص فيقصه به ، حتى لم يبق فيه شىء إلا شقه .

ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم يُر مثله ، فقال لها : اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد ، قالت : لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى ، فأمر به فحُمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك ، قال لأخته فاطمة : إن شئت رددته عليك ، قالت : فإنى لا أشاؤه ، طبت عنه نفساً فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبداً ، فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده .

ولا بأس أن نسوق إليك كلمة نحدثك فيها عن « فدك » لما كان لها من عظيم القيمة فنقول :

فدك : قرية بخيبر فيها عين ونخل كثير ، بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة سبع

صلحاً ، فكانت خالصة له ينفق ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، فلما قُبض عليه السلام جاءت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر رضى الله عنه فطلبت ميراثها من أبيها ، وهو أرضه من فدك ، وسهمه من خيبر ، فقال لها أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته . فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت ، وروى أنه قال لها : سمعت رسول الله يقول : إنما هى طعمة أطعمنيها الله تعالى حياتى ، فإذا مت فهى بين المسلمين ، وروى أيضاً أنها قالت له : إن رسول الله جعل لى فدك فأعطنى إياها ، وشهد لها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فسألها شاهداً آخر ، فشهدتْ لها أم أيمن مولاة رسول الله ، فقال : قد علمتِ يا بنتَ رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين فانصرفت .

ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب ، لما ولى الخلافه وفُتحت الفتوح واتسعت على المسلمين ، أن يردها إلى ورثة رسول الله ، فكان على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، فكان علىّ يقول : إن رسول الله جعلها فى حياته لفاطمة ،

وكان العباس يأبى ذلك ويقول : هى ملك رسول الله وأنا وارثه ، فكانا يتخاصمان إلى عمر : فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما أعرف بشأنكما ، أما أنا فقد سلمتها إليكما ، وقيل إنه لما قبض عليه السلام فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى فدك مثل فعله من وضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل .

فلما ولى معاوية ولى مروان بن الحكم المدينة ، فكتب إلى معاوية يطلب فدك ، فأقطعه إياها . فكانت بيد مروان يبيع تمرها كل سنة بعشرة آلاف درهم ، ثم نزع مروان فنزع يده منها ، فكانت بيد وكيله بالمدينة ، فلما ولى مروان المدينة المرة الأخيرة ردها عليه ، فأعطى ابنه عبد الملك نصفها وابنه عبد العزيز نصفها ، ثم صارت إلى الوليد وسليمان ابنى عبد الملك وإلى عمر بن عبد العزيز ، وطلب عمر إلى الوليد حصته فوهبها له ، وسأل سليمان حصته فوهبها له أيضاً ، فاستجمعها عمر ، وولى الخلافة وما يقوم به وبعياله إلا هى ، تغل كل سنة عشرة آلاف أو أقل أو أكثر ، وما كان له مال أحب إليه منها ، فسأل عنها فأخبر بما كان من أمرها ، فخطب الناس وقص قصة فدك ثم قال : وإنى أشهدكم أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكتب إلى أبى بكر

ابن حزم عامله بالمدينة كتاباً يقول فيه :

« إنى نظرتُ فى أمر فدك فإذا هو لا يصلح ، فرأيت أن أردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان فاقبضها وولِّها رجلا يقوم فيها بالحق ، وسلام عليك ».

فكان يأخذ مالها فيخرجه فى أبناء السبيل .

وروى أن عمر لما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضى الله عنها ، فكانت فى أيديهم فى أيامه ، فلما ولى يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل فى أيدى بنى أمية ، حتى ولى أبو العباس السفاح الخلافة ، فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فكان هو القيِّم عليها يفرقها فى بنى على بن أبى طالب ، فلما ولى المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم ، فلما ولى المهدى الخلافة أعادها عليهم ، ثم قبضها منهم الهادى ومن بعده إلى أيام المأمون ، فجاءه رسول بنى على فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها ، فكتب السجل وقرئ على المأمون فقام دعبل الشاعر فأنشد :

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ... برد مأمون هاشم فدكا

فلما استخلف المتوكل ردها إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله .

ونعود إلى أصل البحث فنقول : إن عمر لم يكتف برد ما كان

فى يده من المظالم ، بل ذكروا أنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئاً ، ولا يجرى على نفسه من الفىء درهماً ، وكان عمر بن الخطاب يُجرى على نفسه من ذلك درهمين فى كل يوم ، فقيل لعمر بن عبد العزيز : لوأخذت ما كان يأخذعمر بن الخطاب ، فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .

وكذلك حمل بنى مروان على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق ، وردها إلى ذويها ، روى أنه جاءه رجل ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى — والعباس جالس — فقال له : يا عباس ما تقول؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لى بها سجلا ، فقال : ما تقول ياذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يُتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، يا عباس اردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، وكان نشأ فى البادية فكأنه أعرابى ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر يخاصمون روحا فى حوانيت بحمص — وكانت لهم ، أقطعه

إياها أبوه الوليد ــ فقال له عمر ؛ اردد عليهم حوانيتهم ، قال له رَوْح : إنها لى بسجل الوليد ، قال : ما يغنى عنك سجل الوليد ، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم ، فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين . فقال عمر لكعب بن حامد ــ وهو على حرسه ــ اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلّم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتنى برأسه ؛ فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخُلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً فقال له : قم فخل له حوانيته ، قال نعم نعم ، فخلى له حوانيته .

وتتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رُفعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره ، حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار إليهم ظلماً ، وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفى باليسير ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيقُ البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس ، وقد ذكروا أنه أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليها من الشأم .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن

العاص – من البيت الأموى – بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضُها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها ، وكان عنبسة صديقاً لعمر بن عبد العزيز ، فغدا يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بنى أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه ، فدخل عنبسة عليه فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان ، فقال له عمر : كم ذلك ؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمر : عشرون ألف دينار تغنى أربعه آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله ما لى إلى ذلك من سبيل ، قال عنبسة : فرميت بالكتاب الذى فيه الصك ، فقال لى عمر : لا عليك أن يكون معك ، فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال منى فيأمر لك به ، فأخذته وخرجت إلى بنى أمية فأعلمتهم ما كان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شىء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق

بالبُلدان ، فرجعت إليه فقلت : يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان من قبلك يُجرى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لى ، ومالى إلى ذلك من سبيل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، فيسألونك أن تأذن لهم يضربون فى البلدان ، قال : ما شاءوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قلت : وأنا أيضاً ، قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ، ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشترى منها ما يكون لك فى ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف ، فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمائتى ألف ، وحبست الصك فلما توفى عمر وولى يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ لى ما كان فيه .

وجمع عمر بنى مروان فقال لهم : يا بنى مروان ، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم . فأدوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون ، فلم يجبه أحد منهم ، فقال : أجيبونى ، فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونكفّر آباءنا ، حتى تُزايل رءوسنا أجسادنا ، فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا

علىّ بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلا ، ولكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله لأردنّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله .

وذكروا أنه لما منع قرابته ما كان يجرى عليهم من أرزاق الخاصة ، وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم ، شكوه إلى عمته أم عمر ، فدخلت عليه فقالت : إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك ، قال : ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم ، فقالت : إنى رأيتهم يتكلمون ، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً ، فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره .

فلما رجعت إلى بنى أمية قالت لهم : ذوقوا مغبة أمركم فى تزويجكم آل عمر بن الخطاب .

وضج بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز بهم ، فاجتمعوا إلى عمر بن الوليد بن عبد الملك — وكان كبيرهم وشيخهم — فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه لعله أن يرده عن مساءتهم ، فكتب إليه :

« إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، بغضاً لهم وشنآناً

لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوْراً وعدواناً ، يا بن عبد العزيز اتق الله وراقبه إن شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ، فوالذى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خصه به ، لقد ازددت من الله بعداً فى ولايتك هذه ، إذ زعمت أنها عليك بلاء ، فأقصر بعضَ ميلك ، واعلم أنك بعين جبار ، وفى قبضته ، ولن تُترك على هذا » .

فلما قرأ عمر كتابه كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد : السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، أما بعد : فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه :

أما أول شأنك يا بن الوليد فإن أمك بُنانة أمة السكون كانت تطوف فى أسواق حمص وتدخل فى حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً .

تزعم أنى من الظالمين ، لأنى حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز

وجل الذى هو حق القربة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيًّا سفيهاً على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما أكثر خصماءكما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيًّا جافياً على مصر ، وأذن له فى المعازف واللهو والشراب .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً فى الخمس .

فرويداً يا بن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ، وردّ الفيء إلى أهله ، لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتكم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم فى بنيات الطريق ؛ ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك حقًّا ، والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين » .

إبطاله لعن عليّ على المنابر

ومن مآثره أنه أمر بالكف عن لعن عليّ كرم الله وجهه على المنابر ، وهي سنة كان جرى عليها الأمويون منذ خلافة معاوية.

ذكروا أن معاوية كتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة (سنة ٤١ ﻫ) أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تُراب (عليّ) وأهل بيته ، فقامت الخطباء فى كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليًّا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته .

وكتب إلى عماله فى جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة ، ثم كتب إليهم : انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليًّا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكِّلوا به واهدموا داره . فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن على رضى الله عنه (سنة ٥٠ ﻫ) فازداد البلاء والفتنة .

وحج معاوية بعد موته فدخل المدينة وأراد أن يلعن عليًّا

على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : إن ها هنا سعد ابن أبي وقاص ، ولا تراه يرضى بهذا ، فابعث إليه وخذ رأيه ، فأرسل إليه وذكر له ذلك فقال : إن فعلت لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه ، فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد ، فلما مات (سنة ٥٥) لعنه على المنبر ، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ففعلوا ، فكتبت أم سلمة زوج رسول الله إلى معاوية : إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون على بن أبي طالب ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله ، فلم يلتفت إلى كلامها .

وغبر الخلفاء من بعده على هذا الحال حتى ولى عمر بن عبد العزيز ، فأمر بالإقلاع عن لعنه على المنابر ، وجعل مكانه : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » وقيل : بل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » وقيل بل جعلهما جميعاً ، فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة .

ولا يخفى ما فى اختيار الآية الأولى أو الثانية من إشارة لطيفة إلى ما يجب أن يكون بين المؤمنين من تناسى الأحقاد

والأضغان ، وتطهير قلوبهم من الغل ، وتذكير الأمويين بأن للقرابة التى تنتظمهم والهاشميين حقوقاً توجب عليهم أن يصونوا ألسنتهم عن سبهم والوقعية فيهم .

اختباره ممن يريد توليتهم

ولما ولى عمر الخلافة وفد عليه بلال بن أبى بُردة بن أبى موسى الأشعرى فهنأه فقال : من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرفته فقد شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وأنت والله كما قال مالك بن أسماء :

وتزيدين طيب الطيب طيباً　　إن تمسيه ، أين مثلك أينا
وإذا الدُّر زان حسن وجوه　　كان للدر حسن وجهك زينا

فجزاه عمر خيراً ، ولزم بلال المسجد يصلى ويقرأ ليله ونهاره ، فهمّ عمر أن يوليه العراق ، وقال للعلاء بن المغيرة : إن يكن سرُّ هذا كعلانيته فهو رجل العراق غير مدافع ، ودسه إليه ليأتيه بخبره ، فأتاه العلاء فقال له : قد عرفت حالى من أمير المؤمنين ، فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ قال : لك عمالتى سنة — وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم — قال : فاكتب لى بذلك ، فأسرع بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة ، فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فنفاه عمر وأخرجه وقال : يأهل العراق ، إن صاحبكم أعطى

مِقْولا ، ولم يعط معقولا ، وزادت بلاغته ، ونقصت زهادته .

وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والى الكوفة :

« أما بعد ، فإن بلالا غرّنا بالله ، فكدنا نغترّ ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله ، والسلام » .

عمر ويزيد بن المهلب

لما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة (سنة ٩٦هـ) ولى يزيد ابن المهلب أمر العراق ، ثم ولاه (سنة ٩٧) خراسان ، وفى سنة ٩٨ فتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب بالفتح إلى سليمان بن عبد الملك ، وقد جاء فى كتابه إليه : « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستةُ آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله» فقال له كاتبه المغيرة بن أبى قرّة مولى بنى سدوس : « لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين : إما استكثره فأمرك بحمله ، وإما سخت نفسه لك به فسوغكه ، فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شىء إلا استقله ، فكأنى بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعاً ، ويبقى المال الذى سميت مخلداً عندهم عليك فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم فتُشافهه بما أحببت مشافهة وتقصّر ، فإنك أن

تقصر عما أحببت أحرَى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب .

وقد صدق حدس المغيرة ، فإن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة بعد سليمان — وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم — دعا يزيد وسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان ، فقال له : كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ولا بأمرٍ أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأدّ ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ، وأمر به فحبس ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمى فسرحه إلى خراسان .

وأقبل مخلد بن يزيد بن المهلب من خراسان حتى قدم على عمر ، فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، وقد ابتلينا بك ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه ، فصالحنى على ما إياه تسأل ، فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بينة فخذ بها ، وإن لم تكن بينة فصدق

مقالة يزيد وإلا فاستخلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أخذه بجميع المال ، وخرج مخلد فلم يلبث إلا قليلا حتى مات .

فلما أبى يزيد أن يؤدى إلى عمر شيئاً ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل ثم قال : سيروا به إلى دهلك ، فلما أخرج فمر به على الناس أخذ يقول : ما لى عشيرة ! مالى يذهب بى إلى دهلك! إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب الخارب ، سبحان الله ، أمالى عشيرة ! فدخل على عمر سلامة بن نعيم فقال : يا أمير المؤمنين ، اردد يزيد إلى محبسه ، فإنى أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه ، فإنى قد رأيت قومه قد غضبوا له . فرده إلى محبسه ، فلم يزل فيه حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك من بعده ، لأنه كان قد عذب أصهاره آل أبى عقيل (آل الحجاج) — إذ كانت أم الحجاج بنت محمد ابن يوسف أخى الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له الوليد بن يزيد — وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقاً ، فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ هـ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ، ولحق يزيد بن المهلب بالبصرة ،

٧٢
وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها — وهو عدى بن أرطاة الفزارى — فحبسه وخلع يزيد ، فسيّر إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك لحربه ، فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ

دخلا قالا : السلام عليك ، ثم جلسا .

فقال لهما عمر : أخبرانى ، ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ابتززتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكر على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فتكلم عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعاناً ، وقال إبراهيم :

«فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم» وقال الله عز وجل : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذمًّا ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرنى : متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته ، قال : أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرّهم ، ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون ! قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرّم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء ، قال عاصم : فابرأ ممن خالف عملك ، ورد أحكامهم ، قال عمر : أخبرانى عن أبى بكر وعمر : أليسا من أسلافكما ، وممن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا : اللهم نعم ، قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذرارى ؟ قالا :

نعم ، قال : فهل علمتما أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا ، قال: فأخبراني عن أهل النهر ان ، أليسوا من صالحي أسلافكم ، وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى ، قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دماً ، ولم يخيفوا آمناً ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا حيًّا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الأقط وهى تفور؟ قالا : قد كان ذلك ، قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا : لا ، قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا ، قال : أرأيتم الدين واحد أم اثنين ؟ قالا : بل واحداً ، قال : فهل يسعكم فيه شي يعجز عني ؟ قالا : لا ، قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة

وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء : فى الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم! ويحكم! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده ، قالا : ما نحن كذلك ، قال عمر : بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه وأحرز ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين ؟ قالا نعم ، قال : أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه ؟ فقال اليشكرى : أرأيت رجلا ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا ، قال : أفتسلم هذا الأمر إلى « يزيد » من بعدك ، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه

بالحق ؟ قال : إنما ولاّه غيرى ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى ، قال : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقًّا ؟ فبكى عمر وقال : أنظرانى ثلاثا ، فخرجا من عنده ، ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر لليشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم .

فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فترفى بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول ؛ أهلكنى أمر يزيد ، وخصمت فيه فأستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ؛ فوضعوا على عمر من سقاه سمًّا ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

* * *

وكذلك كانت حجته قوية متينة فى محاربته طائفة القدرية ــ وهم الذين ينكرون قدر الله تعالى ، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ، وأنه لا يحتاج إلى معونة إلهية فى أعماله ــ وتتبين ذلك فى مناظرته غيلان الدمشقى فى القدر :

حكى ابن مهاجر قال : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان

وفلاناً نطقا فى القدر ، فأرسل إليهما وقال : ما الأمر الذى تنطقان به ؟ فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟ قالا : قال : «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ثم قال : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » ثم سكتا ، فقال عمر : اقرأا ، فقرأا حتى بلغا : « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . إلى آخر السورة » قال : كيف تريان . . . ؟ تأخذان الفروع ، وتدعان الأصول !

قال ابن مهاجر : ثم بلغ عمر بن عبد العزيز أنهما أسرفا ، فأرسل إليهما وهو مغضب ، فقام عمر وكنت خلفه قائماً حتى دخلا عليه ، وأنا مستقبلهما ، فقال لهما : ألم يكن فى سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال : فأومأت إليهما برأسى أن قولا نعم ، وإلا فهو الذبح ، فقالا : نعم ، فقال : أو لم يكن فى سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها ، فألهمهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت إليهما برأسى ، فقالا : نعم ، فأمر بإخراجهما وأمر بالكتاب

إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان، وأمسكا عن الكلام فلم يلبثا إلا يسيراً حتى مرض عمر ومات ولم يفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل .

وكان غيلان قد تاب على يد عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك ضالا فهديتني ، وأعمى فبصرتني ، وجاهلا فعلمتني ، والله لا أتكلم فى شيء من هذا الأمر أبداً ، فقال عمر : اللهم إن كان كاذباً فلا تمته حتى تذيقه حر السيف ، فقطعت يداه ورجلاه وصلب فى أيام هشام بن عبد الملك حين قال : ياغيلان ، ما هذه المقالة التى بلغتنى عنك فى القدر؟ فقال : يا أمير المؤمنين هو ما بلغك ، فأحضر من أحببت يحاجنى ، فإن غلبنى ضربت رقبتى ، فأحضر الأوزاعى ، فقال له الأوزاعى : يا غيلان إن شئت ألقيت عليك سبعاً ، وإن شئت خمساً ، وإن شئت ثلاثا ، فقال : ألق ثلاثا ، فقال له : أقضى الله على عبد ما نهى عنه ؟ قال : ما أدرى ما تقول ، قال : فأمر الله بأمر حال دونه ؟ قال : هذه أشد من الأولى ، قال : فحرم الله حراماً ثم أحله ؟ قال : ما أدرى ما تقول ، قال : فأمر به هشام فقطعت يداه ورجلاه فمات ، وقيل صُلب حيًّا على باب كيسان بدمشق .

ثم قال هشام للأوزاعى : يا أبا عمر ، فسّر لنا ما قلت ، قال : قضى الله على عبد ما نهى عنه : نهى آدم أن يأكل من الشجرة ، ثم قضى عليه فأكل منها ، وأمر إبليس أن يسجد لآدم ، وحال بين إبليس والسجود ، وقال : « حرمت عليكم الميتة » ثم قال : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » فأحلها بعد ما حرمها .

وقيل لغيلان : من كان أشد عليك ؟ قال : عمر بن عبد العزيز : كأنما كان يلقن من السماء .

* * *

وكتب إلى نفر كتبوا بالتكذيب بالقدر :

« أما بعد : فقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، وسينقص العلم نقصاً سريعاً ، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ : إنه لا عذر لأحد عبد الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا فى هدى تركه حسبه ضلالة ، فقد تبينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر ، فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب ، تقطعت من يده أسباب الهدى ، ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى .

وبلغكم أنى أقول : إن الله قد علم ما العباد عاملون ، فأنكرتم

ذلك ، وقد قال تعالى: « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » وقال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » وزعمتم فى قول الله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن المشيئة فى أى ذلك أحببتم : من ضلال أو هدى ، والله يقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً ، فما اهتدى إلا من هداه الله ، وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً ، فما ضل منهم إلا من كان فى علم الله ضالا ، وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحجرتموها عن المعصية بغير قوة من الله ، ومن زعم ذلك منكم فقد غلا فى القول ، لأن لو كان شيء لم يسبق فى علم الله وقدره ، لكان لله فى ملكه شريك تنفذ مشيئته فى الخلق دون الله ، والله يقول : « حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » وسميتم نفاذ الله فى الخلق حيفاً وقد جاء الخبر « إن الله عز وجل خلق آدم فنثر ذريته بين يديه ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

عمر والشعراء أيام خلافته

حدثناك من قبلُ عن عمر والشعراء أيام إمارته على المدينة ، ونحدثك الآن عن عمر والشعراء أيام خلافته فنقول :

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ، وكان فيمن حضر نُصيب وجرير والفرزدق والأحوص وكثيّر والحجاج القضاعى والأخطل ، فأقاموا ببابه شهراً لا يأذن لهم بالدخول — ولم يكن لعمر فيهم رأى ولا أرب ، وإنما كان رأيه وبطانته وأهل أربه القراء والفقهاء ومن وسم عنده بورع ، يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم — حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى ، وكان ورعاً فقيهاً مفوهاً فى المنطق ، فرآه جرير على باب عمر معتما بعمامة قد أرخى طرفيها ، فصاح به جرير :

يأيها القارئ المرخى عمامته هذا زمانك إنى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود فى قرن
وحش المكانة من أهلى ومن ولدى
نائى المحلة عن دارى وعن وطنى

قال : نعم ، أبا حزرة ، ونُعمى عين ، فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك ، وسهامهم مسمومة ، وأقوالهم نافذة باقية ، فقال : ويحك ! مالى وللشعراء ؟ قال أعز الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتُدح وأعطى ، وفى رسول الله أسوة لكل مسلم ، قال : : ومن مدحه ؟ قال : عباس بن مرداس ، فكساه حلة قطع بها لسلنه ، قال : وتروى من قوله شيئاً ؟ قال : نعم ، وأنشده :

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا
عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالتبيان أمراً مدمّساً وأطفأت بالبرهان ناراً تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمداً وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه
وكان وقديماً ركنه قد تهدما

قال : صدقت ، فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة ، قال : لاقرب الله قرابته ، ولاحيا وجهه ، أليس هو القائل :

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى
شممت الذى ما بين عينيك والفم

وليت طهورى كان ريقك كله
وليت حنوطى من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى
هنالك أو فى جنة أو جهنم

فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ويعمل عملا صالحاً ، والله لا دخل علىّ أبدا .

« وفى رواية أخرى أنه قال : أليس يقول :

ثم نبهتها فهبت كعاباً طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت ويلتا ! قد عجلت يا بن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى تتخطى إلىّ روس النيام ؟

فلوكان عدوُّ الله إذ فجر كتم على نفسه ! لا يدخل والله على أبدا » .

فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال : جميل بن معمر العذرى ، قال : أليس هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها ، ويلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها

اعزب به ، فوالله لا دخل على أبداً ، فمن غير من ذكرت؟ قال : كثير عزة : قال : هو الذى يقول :

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجودا

اعزب به ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأحوص الأنصارى ، قال : أبعده الله وسحقه ، أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جارية هربت منه :

الله بينى وبين سيدها يفر عنى بها وأتبع

اعزب به ، ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق ، قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :

هما دلتانى من ثمانين قامة
كما انقضّ باز أقتمُ الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا
أحىٌّ يرجّى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
ووليت فى أعقاب ليل أبادره

اعزب به ، لا يطأ والله بساطى ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبى ، قال : أليس هو الذى يقول :

فلستُ بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عنساً بُكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بقائم كالعَيْر أدعو قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

اعزب به فوالله لا وطئ لى بساطاً أبداً وهو كافر ، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال : جرير بن الخطفى ، قال : أليس هو القائل :

لولا مراقبة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشاً أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة ، فارجعى بسلام

فإن كان لا بد فهذا ، فأذن لجرير فدخل وهو يقول :

إن الذى بعث النبى محمداً جعل الخلافة فى إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه حتى ارعووا وأقام ميل المائل
والله أنزل فى القران فريضة لا بن السبيل وللفقير العائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل

فلما مثل بين يديه قال : ويحك يا جرير ، اتق الله ولا تقل إلا حقاً ، فأنشأ يقول :

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت
أم أكتفى بالذى نبئتَ من خبرى
كم باليمامة من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدك تكفى فقد والده
كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر

يدعوك دعوة ملهوف كأن به
خبْلا من الجن أو مسًّا من البشر

خليفة الله ماذا تأمرون بنا
لسنا إليكم ، ولا فى دار منتظر

ما زلت بعدك فى هم يؤرقنى
قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى

لا ينفع الحاضر المجهود بادينا
ولا يعود لنا بادٍ على حضر

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفة ما نرجو من المطر

نال الخلافة إذ كانت له قدراً
كما أتى ربه موسى على قدر

هذى الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم ، فمائة أخذها عبدالله (ابنه) ، ومائة أخذتها أم عبدالله ، يا غلام أعطه المائة الباقية ، فأخذها وقال : والله يا أمير المؤمنين

إنها لأحبّ مال كسبتهُ إلىّ .

وفى خبر ثان : أن عمر قال له : يابن الحطفى ، أمن أبناء
لمهاجرين أنت فنعرفَ لك حقهم ، أم من أبناء الأنصار
يجب لك ما يجب لهم ، أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب
صدَقات قومك فيصلك بمثل ما يصل به قومك ؟ فقال :
ا أمير المؤمنين ، وما أنا بواحد من هؤلاء ، وإنى لمن أكثر
ومى مالا ، وأحسنهم حالا ، ولكنى أسألك ما عوّدتنيه الخلفاء :
ربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان ، فقال له
مر : كل امرئ يلقى فعله ، وأما أنا فما أرى لك فى مال الله حقاً
كن انتظر يخرج عطائى ، فأنظر ما يكفى عيالى سنةً منه
أدّخره لهم ، ثم إن فضَل فضْلٌ صرفناه إليك ، فقال
رير : لا ، بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد ، وأخرج راضياً ،
ل : فذلك أحبّ إلى ، فخرج ، فلما ولى قال عمر :
ن شر هذا ليتقى ، رُدّوه إلىّ ، فردوه فقال : إن عندى
ربعين ديناراً وخلعتين ، إذا غسلتُ إحداهما لبست الأخرى ،
نا مقاسمك ذلك ، على أن الله جل وعز يعلم أن عمر
حوج إلى ذلك منك ، فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين ،
نا والله راض ، فقال : أما وقد حلفت فإن ما وفرته على ولم

تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح ، فامض مصاحباً .

وفي خبر ثالث : أن عمر لما سأله : أمن أبناء المهاجرين أنت . . . قال : يا أمير المؤمنين فإني ابن سبيل ، قال : لك ما لأبناء السبيل : زادك ونفقة تبلغك وتبدل براحلتك إن لم تحملك ، فألح عليه ، فقال له بنو أمية : يا أبا حزرة ، مهلا عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه ، فجمع له بنو أمية مالا عظيماً ، فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر .

فلما خرج من عنده قال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : ما يسوءكم ، خرجت من عند رجل يُعطي الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وأنا مع ذلك عنه راض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وأنت ترى مما قدمناه لك أن عمر كان بصيراً بشعر هؤلاء الشعراء الذين انتجعوه للعطاء ، عالماً بما يحويه من هنات ومثالب ، ناقداً لما يشوبه من انحراف عن الجادة ، وزيغ عن سنن الخلق الكريم ، والدين القويم ، وذلك يدلك بوضوح على مكانته الأدبية السامية ، وأنه كان يعنى بقراءة ما ينتجه شعراء عصره ، وأنه كان يحفظ من أشعارهم وينقدها ، وأنه كان لا يحب من الشعر إلا ما كان حقاً عفاً .

وإن فيما أورده لكل منهم من الأبيات التي أخذها عليهم ،

لدليلا على أنه كان يحفظ لهم غيرها مما يستجاد ولا يُعاب ، إذ لا يعقل أن يكون قد قصر علمه بشعرهم على تلك الأبيات المعدودة المشينة فحسب !

وشيء آخر تراه فى تلك القصة : وهو أن عمر كان لا يرى لشعراء فى بيت مال المسلمين حقًّا ، وأن تلك السنة التى استنها الخلفاء الأمويون قبله من إفاضة العطاء على المدّاح من الشعراء ، سنة غير محمودة ، وإسراف فى مال الله سوف يسألهم الله عنه ، واستمع إليه وهو يقول لجرير حين سأله ما عوده الخلفاء من الجوائز : كل امرئ يلقى فعله . وماذا يعمل وهو يرى أن جريراً يتقى شره ، ويخاف لسانه ؟ إنه لا مناص له من أن يرضيه يقطع لسانه بالعطاء ، ولكنه يأبى عليه دينه أن يرضيه على حساب الأمة ، ومن أموال الأمة ، فارتضى أن يعطيه من عطائه الخاص ، ويشاطره ماله الخاص ، على شدة افتقاره إليه .

* * *

وهذا موقف آخر له مع الشعراء يشبه الموقف السالف .

حدث كثير عزة قال :

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قدمت أنا ونصيب والأحوص ، وكل واحد منا يدل بسابقته عند عبد العزيز بن مروان ، وإخائه لعمر ، فكان أول من لقينا مسلمة بن

عبدالملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، وكل واحد منا ينظر فى عطفيه لا يشك أنه شريك الخليفة فى الخلافة ، فأحسن ضيافتنا ، وأكرم مثوانا ، ثم قال : أما علمتم أن إمامكم لا يعطى الشعراء شيئاً ! قلنا : قد جئنا الآن ، فوجه لنا فى هذا الأمر وجهاً ، فقال : إن كان ذو دين من آل مروان قد ولى الخلافة فقد بقى من ذوى دنياهم من يقضى حوائجكم ، ويفعل بكم ما أنتم له أهل ، لكم عندى ما تحبون ، فأقمنا على بابه أربعة أشهر لا نصل إليه ، وجعل مسلمة يستأذن لنا فلا يؤذن ، فقلت : لو أتيت المسجد يوم الجمعة فتحفظت من كلام عمر شيئاً فأتيت المسجد ، فسمعته يقول فى خطبة له :

« لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فعمل طلباً لهذا ، وخوفاً من هذا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة ، فأما من لا يداوى جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى ، فكيف يطمئن بالدنيا ، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسى عنه ، فتخسر صفقتى ، وتبدو علتى ، وتظهر مسكنتى ، فى يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق »

فارتجّ المسجد بالبكاء وبكى عمر ، حتى بلّ ثوبه ، حتى ظننا أنه قاض نحبه ، فبلغت إلى صاحبيّ فقلت : جددا لعمر من الشعر غير ما أعددناه ، فإن الرجل آخرِيّ ، وليس بدنيوى .

ثم إن مسلمة استأذن لنا يوم جمعة بعد ما أذن للعامة ، فدخلنا فسلمنا عليه بالخلافة ، فردعلينا ، فقلت له : ياأمير المؤمنين ، طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدثت بجفائك إياناوفود العرب ، فقال : يا كثير ، أما سمعت إلى قول الله عز وجل فى كتابه :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » أفمن هؤلاء أنت ؟ فقلت له وأنا ضاحك : أنا ابن سبيل ومنقطع به ، قال : أو لست ضيف أبى سعيد ؟ قلت : بلى ، قال : ما أحسب من كان ضيف أبى سعيد ابن سبيل ولا منقطعاً به ، ثم استأذنته فى الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقًّا ، فإن الله سائلك ، فقلت :

وليت فلم تشتم عليا ، ولم تخف
بريا ، ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى
فعلت ، فأضحى راضياً كل مسلم

ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه
من الأود الباقى ثقاف المقوِّم

لقد لبست لبس الهلوك ثيابها
وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم

وتومض أحياناً بعين مريضة
وتبسم عن مثل الجمان المنظم

فأعرضت عنها مشمئزّا كأنما
سقتك مدوفاً من سمام وعلقم

وقد كنتَ من أجبالها فى ممنع
ومن بحرها فى مزبد الموج مفعم

وما زلت سباقاً إلى كل غاية
صعدت بها أعلى البناء المقدم

فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن
لطالب دنيا بعده من تقدم

تركت الذى يفنى وإن كان مونقا
وآثرت ما يبقى برأى مصمم

فأضررت بالفانى وشمرت للذى
أمامك فى يوم من الهول مظلم

وماللك (أن كنت الخليفة) مانع
(سوى الله) من مال رعيت ولا دم
سما لك همّ فى الفؤاد مؤرّق
صعدت به أعلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمتنى
بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ ظالم له
ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون لقسموا
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب
مغذ مطيف بالمقام وزمزم
فأربح بها من صفقة لمبايع
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

فقال لى : يا كثير إن الله سائلك عن كل ماقلت ، ثم تقدم الأحوص فاستأذنه ، فقال : قل ولا تقل إلا حقًّا ، فإن الله سائلك ، فأنشده :

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف
بمنطق حقٍّ أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذى وافق الرضا
ولا ترجعنا كالنساء الأرامل
رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة
ولا يسرة فعل الظلوم المجادل
ولكن أخذت القصد جهدك كله
وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا (ولم نكذب) بما قد بدا لنا
ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه
على فوقه إذ عار من نبل نابل
ولولا الذى قد عودَتنا خلائف
غطاريف كانوا كالليوث البواسل
لما وخدت شهراً برحلى جسرة
تفل متون البيد بين الرواحل
ولكن رجونا منك مثل الذى به
حُبينا قديماً من ذويك الأفاضل

فإن لم يكن للشعر عندك موضع
وإن كان مثل الدر فى نظم قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه
سوى أنه يبنى بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة
وميراث آباءٍ مشوا بالمناصل
فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم
وأرسوا عمود الدين بعد تمايل
وقبلك ما أعطى المنيدة جلة
على الشعر « كعبا » من سديس وبازل
رسولُ الإله المستضاء بنوره
عليه سلام بالضحا والأصائل
فكل الذى عدّدت يكفيك بعضه
ونيلك خير من بحور السوائل

فقال له عمر : يا أحوص إن الله سائلك عن كل ما قلت. ثم تقدم إليه نصيب فاستأذن فى الإنشاد ، فأبى أن يأذن له وغضب غضباً شديداً وأمره باللحاق بدابق ، وقال لنا : ما عندى ما أعطيكم ، فانتظروا حتى يخرج عطائى فأواسيكم منه ، فانتظرناه

حتى خرج ، فأمر لى وللأحوص بثلثمائة درهم ، وأمر لنصيب بمائة وخمسين درهما . فما رأيت أعظم بركة من الثلاث المائة التى أعطانى ، ابتعت بها وصيفة فعلمتها الغناء فبعتها بألف دينار .

وهنا مسألة تستوقف الباحث وتسترعى نظره . فقد اضطربت الروايات بشأن الأحوص فى عهد خلافة عمر ، فالخبران السالفان ينبئاننا أنه وفد على عمر لما استخلف ، والأول ينبئ أنه لم يأذن له فى الدخول ، وقال فيه : أبعده الله وسحقه ، والثانى ينبئ أنه أذن له ، وأنه أنشده لاميته السابقة ، وهاك استمع خبراً ثالثاً ينبئ أنه كان بمنفاه فى دهلك إبان خلافة عمر !

ذكروا أن الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره معبد ومالك ، ويشيع ذلك فى الناس ، فنُهى فلم ينته ، فشكى إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسألوه الكتاب فيه إليه ، ففعل ذلك ، فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البلس للناس ، ثم يصيره إلى دهلك ففعل ذلك به ، فثوى هناك سلطان سليمان بن عبد الملك .

ثم ولى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه يستأذنه فى القدوم ويمدحه ، فأبى أن يأذن له ، وكان قد كتب إليه :

أيا راكباً إما عرضت فبلغن (هديت) أمير المؤمنين رسائلى
وقل لأبى حفص إذا ما لقيته لقد كنت نفاعاً قليل الغوائل
أفى الله أن تُدنوا « ابن حزم » وتقطعوا
قوى حرمات بيننا ووصائل
وكيف ترى للعيش طيباً ولذة وخالك أمسى موثقاً فى الحبائل
وما طمع الحزمى فى الجاه قبلها إلى أحد من آل مروان عادل
وشى وأطاعوه بنا وأعانه على أمرنا من ليس عنا بغافل
وكنت أرى أن القرابة لم تدع ولا الحرمات فى العصور الأوائل
إلى أحد من آل مروان ذى حجى بأمر كرهناه مقالاً لقائل
يُسر بما أنهى العدو وإنه كنافلة لى من خيار النوافل
فهل ينقصنى القوم أن كنت مسلماً
بريئاً بلائى فى ليال قلائل
ألا رب مسرور بنا سيغيظه
لدى غِبّ أمرٍ عضُّه بالأنامل
رجا الصلح منى آلُ حزم بن فرتنى
على دينهم جهلا ولستُ بفاعل
ألا قد يُرجّون الهوان فإنهم
بنو حُبتَقٍ ناءٍ عن الخير فائل

على حينَ حلَّ القول بى وتنظّرتْ
عقوبتهم منى رءوس القبائل
فمن يكُ أمسى سائلا بشماتة
بما حل بى أو شامتاً غير سائل
فقد عجمتْ منى العواجم ماجداً
صبوراً على عَضّات تلك التلاتل
إذا نال لم يَفرح ، وليس لنكبة
إذا حدثت بالخاضع المتضائل

فرحل رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يقدمه وقالوا له: قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه. وقد أخرج إلى أرض الشرك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ، فقال لهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هى إلا أن أراها فُجاءة فأُبهت حتى ما أكاد أجيب

قالوا : الأحوص : قال : فمن الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أمَّ جعفر بأبياتكم ما دُرتُ حيث أدور
وما كنت زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لا بد أن سيزور

قالوا : الأحوص ، قال : فمن الذى يقول :

كأن لبنى صبير غادية أو دمية زُيِّنت بها البيع

الله بيني وبين قيّمها يفرُّ مني بها وأتّبع

قالوا : الأحوص ، قال : بل الله بين قيمها وبينه ، فمن الذي يقول :

سيبقى لها في مُضْمر القلب والحشا
سريرة حبٍّ يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص ، قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أردُّه ما كان لي سلطان . فمكث هناك ولاية عمر وصدراً من ولاية يزيد بن عبد الملك ، ثم رده يزيد وخلى سبيله .

وذلك أن الأحوص دسَّ إلى حبَابة جارية يزيد فغنته قوله فيه :

كريمُ قريشٍ حين يُنسب ، والذى
أقرَّتْ له بالملك كهلا وأمردا

وليس وإن أعطاك في اليوم مانعاً
إذا عُدْت من أضعاف إعطائه غدا

أهان تِلادَ المال في الحمد ، إنه
إمامُ هدًى يجرى على ما تعوَّدا

تشرَّف مجداً من أبيه وجده
وقد ورِثا بنيان مجد تشيدا

فقال يزيد : ويلك يا حبابة ! من هذا من قريش ؟ قالت :

ومن يكون ؟ أنت هو يا أمير المؤمنين ، فقال : ومن قال هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، يمدح به أمير المؤمنين ، وكلّمته فيه ، فأمر به أن يقدم من دهلك ، وأمر له بمال وكسوة .

وروى أن عمر لما ولى الخلافة أدنى زيد بن أسلم وجفا الأحوص ، فقال له الأحوص :

ألستَ أبا حفص (هديت) مخبِّرى
أفى الحق أن أقصى ويُدنى ابن أسلما ؟
ألا صلةُ الأرحام أدنى إلى التقى
وأظهر فى أكفائه لو تكرما
وكنا ذوى قربى لديك فأصبحت
قرابتنا ثدياً أجدَّ مصرَّما
وكنتُ وما أمّلت فيك كبارق
لوى قطره من بعد ما كان غيّما
وقد كنت أرجى الناس عندى مودة
ليالى كان الظن غيباً مرجماً
أعدُّك حِرزاً إن خشيتُ ظلامةً
ومالا ثريًّا حين أحمل مغرما
تداركْ بعتبى عاتباً ذا قرابة
طوى الغيظ لم يَفتح بسُخطٍ له فما

وأكثر من ذلك ما يروى من أن عمر هو الذى نفاه إلى دهلك .
ذكروا أنه لما ولى الخلافة كتب إلى عامله على المدينة : قد عرفت الأحوص بالخبث والشر فإذا أتاك كتابى هذا ، فاشدده واحمله إلىّ ، فحمله إليه فأمر بنفيه إلى دهلك فنفى إليها فلم يزل بها . . إلى آخر الرواية المتقدمة .

ونحن بعد أن عرضنا للقارئ هذه الروايات المختلفة ، نرجح أن يكون الأحوص قد نفى قبل استخلاف عمر وأن عمر أبى أن يقدمه من منفاه ، أو أن يكون هو الذى نفاه ، لأن ذلك هو الأشبه بعمر ، والملائم لنهجه وخلقه ، وقد رأيت فيما قدمنا أنه إبان ولايته على المدينة نفى عمر بن أبى ربيعة إلى دهلك ، للسبب الذى من أجله نفى الأحوص إليها ، وهو الجنوح إلى هجر القول والإسفاف فى الغزل .

ونعود الآن إلى بقية أخبار الشعراء مع عمر فنقول :

ذكروا أنه لما مات سليمان بن عبد الملك وولى عمر الخلافة ، وفد إليه عويف القوافى ، وقال شعرًا رثى فيه سليمان ومدح عمر ، فلما دخل عليه أنشده إياه ، وفى مدحه يقول :

قد ابتلى الله بخير خلقه ألقى إلى خير قريش وَسْقه
يا عمر الخير الملقى وفقه سُمِّيت بالفاروق فافرق فَرْقه

وارزق عيال المسلمين رزقه واقصد إلى الجود ولا تَوَقَّهْ
بحرك عذبُ الماء ما أعقّه ربُّك، فالمحرومُ من لم يُسقهْ

فقال له عمر : لسنا من الشعر فى شىء ، ومالك فى بيت المال حق ، فألحّ عويف يسأله ، فقال : يا مزاحم انظر فيما بقى من أرزاقنا فشاطره إياه ، ولنصبر على الضيق إلى وقت العطاء ، فقال له عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك : بل توفر أمير المؤمنين ، وعلىّ رضا الرجل : فقال ، ما أولاك بذلك ، فأخذ بيده وانصرف به إلى منزله ، وأعطاه حتى رضى .

وحضر عمر جنازة فلما انصرف اعترضه عُوَيف القوافى على بعير له فصاح به :

أجبنى أبا حفص لقيتَ محمداً على حوضه مستبشراً ورآكا

فقال له عمر : لبيك ، ووقف ووقف الناس معه ثم قال له : فمهْ ؟ فقال :

فأنت امرؤ كلتا يديك مُفيدةٌ شمالك خير من يمين سواكا

قال : ثم مه ؟ فقال :

بلغتَ مدى المجرين قبلك إذ جروا ولم يبلغ المجرون بعدُ مداكا
فجداك لا جَدَّين أكرم منهما هناك تناهى المجدُ ثم هناكا

فقال له عمر : ألا ، أراك شاعرًا ، مالك عندى من حق .

قال : لا ، ولكني سائل وابن سبيل وذو سُهْمة ، فالتفت عمر إلى قهرمانه فقال : أعطه فضل نفقتى .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان محسناً إلى أعشى بنى تغلب ، فلما ولى عمر الخلافة وفد إليه ومدحه فلم يعطه شيئاً وقال : ما أرى للشعراء فى بيت المال حقًّا ، ولو كان لهم فيه حق لما كان لك لأنك امرؤ نصرانى ، فانصرف الأعشى وهو يقول :

لعمرى لقد عاش الوليد حياته إمام هُدًى لا مستزادٌ ولا نزر
كأن بنى مروان بعد وفاته جلاميدُ لا تَندى وإن بلَّها القطر

وقال أبو عمرو بن العلاء : أول ما حرك من القطامى ورفع من ذكره أنه قدم فى خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ، فقيل له : إنه بخيل لا يعطى الشعراء ، وقيل بل قدمها فى خلافة عمر بن عبد العزيز فقيل له : إن الشعر لا ينْفُق عند هذا ، ولا يعطى شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فامدحه ، فمدحه بقصيدته التى مطلعها :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بَليتَ وإن طالت بك الطِّوَل

فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يعطينى ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة مُوقَرة برًّا وتمراً وثياباً ثم أمر بدفع ذلك إليه .

أخلاقه

كان عمر بن عبد العزيز كريم الشمائل ، حميد السجايا ، رفيع الخلق فاضله ، ولا نغالى إذا قلنا إنه يعد فى عصره المثل الأعلى للرجل الكامل ، إذ اجتمع له من مكارم الأخلاق وشريف الآداب ما لم يعرف لأحد من معاصريه ، ولا غرو فقد كان يجرى فى ذلك على عرق ، ويحتذى مثال جدّه العبقرىّ العظيم عمر الفاروق رضى الله عنه ، وها نحن أولاء نورد لك طرفاً من أخباره تتبين منه فى جلاء أنه بلغ الذروة من شُمّ الشِّيم ، وعالى الهمم ، فنقول :

* * *

كان عمر لا ينكث وعده ، ولا ينقض عهده ، يعتقد الحق فيجاهر به ولا يتهيب فيه غضبة السلطان ونقمته ، فقد أراده الوليد بن عبد الملك إبان خلافته على أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك !

ودخل عمر على سليمان بن عبد الملك فى خلافته ، وعنده

أيوب ابنه وهو يومئذ ولى عهده ، قد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن فى العقار شيئاً ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ، وأين كتاب الله ! فقال سليمان : يا غلام اذهب فأتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فى ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ! قال أيوب بن سليمان : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتى يفارقه رأسه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يُخشى عليكم من هذا القول ، فقال سليمان لابنه أيوب : مَهْ ، لأبى حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جَهِل علينا يا أمير المؤمنين ما حَلُمنا عنه .

وكان عمر ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرُورية ويقول : ضمّنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة ، فأُتى سليمان بحرورى مستقتل ، فقال سليمان : علىّ بعمر بن عبد العزيز ، فلما أتى عمر عاود سليمان الحرورى فقال : ماذا تقول ؟ قال : ماذا أقول يا فاسق يا بن الفاسق ! فقال سليمان لعمر: ما ترى يا أبا حفص؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك لتخبرنّى ماذا ترى عليه ؟

فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك ، فقال سليمان ، ليس إلا ؟ قال : ليس إلا ، فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بالحروري فضرب عنقه .

فأنت ترى أن عمر قد أخذ فى حكمه بمبدأ المساواة المطلقة ، ولم يَفْرق فى موقف الخصومة بين الخليفة الأكبر — وهو ابن عمه وأمس الناس رحماً به — وبين الحرورى البادئ بجرمه ، المقذع فى شتمه ، ولعلك تعيب على عمر أنه سكت وأحجم عن الإدلاء برأيه حين سأله سليمان رأيه ، فلما عزم عليه أبدى به ، وجوابنا عن ذلك أن إحجامه لم يكن عن جبن ولا خشية ، وإنما تحرج من الإجابة لما يستيقنه من رأى سليمان فى الحرورية وهو القتل لا سواه — يدلك على ذلك صدر هذا الخبر وهو أن عمر كان ينهاه عن قتلهم — فرأى أنه مهما يُشِر عليه برأى فى أمر ذلك الحرورى فلن يستمع له ولن يعْدُو ما يُكِنه بين جوانحه له ولأمثاله من القتل والبوار ، فآثر الصمت ، حتى استحلفه فحكم بما يراه حقًّا وعدلا ، وقد تحقق ما كان عمر يتوقعه من سليمان إذ رفض حكمه ولم يُصِخ له ، بل رده مستقلا إياه ، مستنكراً له ، بقوله : « ليس إلا ؟ » ثم نفذ ما كان ينتويه فضرب عنق خصمه .

هذه نبذة يسيرة من أخلاقه قبل أن يلي الخلافة ، وكذلك كان بعد أن وليها ، فقد تمّ على ما ألفه من الأخلاق النبيلة والشمائل الغراء ، وكان أبرز ما فيه رعايته الحق وذوده عنه ، وإقراره العدل بين رعيته ، ورفعه المظالم عن كواهلهم ، وقد قدمنا لك فصلا مطولا فى هذا الصدد ، وفيه ترى كيف انتصف بنفسه من نفسه ومن زوجه ومن أهل بيته ! وقد بكى يوماً فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تلومنى أن أبكى ، ولو أن سَخْلة هلكت على شاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة ؟ وقد رووْا كثيراً من أخباره المنبئة بمبالغته فى التورع والتحرج من أن ينال شيئاً من غير حله ، من ذلك أنه حُمِل إليه سلتان من الرطب ، فقال : علامَ جئ بهما ؟ قيل : على دواب البريد ، قال : فما جعلنى الله أحقّ بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما فى علف دواب البريد ، فغمز ابنُ أخيه الرسول وقال له : اذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما لى ، فأُخرجتا إلى السوق فبلغتا أربعة عشر درهماً ، فجاء بهما إلى ابن أخيه ، فأعطاه ثمنهما ، وقال : اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه الأخرى ، فأتى عمرَ بها فقال : ما هذا ؟ فأخبره الخبر فقال : الآن طاب لى أكله ، وألقى ثمن السلتين فى بيت المال.

وجاءه تفاح من الفيء ، فجعل يقسمه بين المسلمين ، فجاء ابن له صغير فتناول تفاحة ، فانتزعها من فيه ، فسعى إلى أمه مستعبراً باكياً ، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً ، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال : يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا الفيء ؟ قالت : لا ، وقصت عليه القصة ، فقال : والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما انتزعتها من قلبي ، لكن كرهت أن أضيع نفسي من الله عز وجل بتفاحة من فيء المسلمين .

وقال يوماً : أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : ما عندنا حطب نوقده ، وذهبوا بالقمقم إلى مطبخ المسلمين وجاءوا به وهو يفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : ادعوا لي صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جمر لو تركته لخمد حتى يصير رمادا ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال : أدوا إليه ثمنه .

ووفد عليه بريد من بعض الآفاق فانتهى إلى بابه ليلا ، واستأذن عليه فأذن له ، ودعا بشمعة غليظة فأوقدت ، وجعل

يسأله فيحفى السؤال عن حال أهل البلد ومن به من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذى حق حقه ، وهل له شاك ؟ فأنبأه عن جميع ما سأل ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له : يا أمير المؤمنين ، كيف حالك فى نفسك وبدنك وكيف عيالك ؟ فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام علىّ بسراج ثم قال له : سل عما أحببت ، فسأله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد لإطفائه الشمعة وكلمه فى ذلك فقال : يا عبد الله ، إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقد بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

وكان لا يحابى فى الحق قريباً لقرابته ، ولا عظيماً لعظمته ، بل يحق الحق للحق ، ويسوى فى عدله بين الجميع ، وقد خاصم مسلمة بن عبد الملك عنده أهل دير إسحق ، فقال له عمر - وهو ابن عمه وصهره - : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدى ، ولكن وكّل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاث القوم بين

يدى ، فوكّل مولى له بخصومته ، فقضى عليه .

ومما يدل على تواضعه ما رواه رجاء بن حيوة قال : سمرت ليلة عنده فاعتل السراج ، فقمت لأصلحه ، فأقسم على لأقعدن ، وقام هو فأصلحه ، فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ! قال : وما ضرنى ؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وكان يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا له ويقول لهم : لا تبتدئونى بالسلام ، إنما السلام علينا لكم .

وقال يوماً لرجل : من سيد قومك ؟ قال أنا ، قال : لو أنك كذلك لم تقله .

وقال لجلسائه : من أراد أن يصحبنى فليصحبنى بخمس : يدلنى من العدل إلى ما لا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا به وإلا فهو خرج من صحبتى والدخول على .

وقد قدمنا لك أنه كان مترفاً قبل أن يلى الخلافة فلما وليها خرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع ،

وجعل شعاره الزهد فى الدنيا والإعراض عن متعها الزائلة ، قال مالك بن دينار : « الناس يقولون مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فتركها » ، وقد فاضت خطبه وكتبه بالوعظ والتزهيد فى الدنيا والاستعداد للحساب يوم المآب .

وقال له بعض إخوته : يا أمير المؤمنين ركبت فتروحت ! قال : كيف لى بعمل ذلك اليوم ؟ قال : يكون فى اليوم الذى يليه ، قال عمر : لقد فدحنى عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع علىّ عمل يومين ؟

وكان يقول لأصحابه : « إياكم والمزاح ، فإنه يُورث الضغينة وينبت الغل » .

أمره بتدوين الحديث

كان الناس منذ بدء الإسلام يعتمدون فى الحديث الشريف على الحفظ والاستظهار ، فلما كثرت الغزوات واتسعت الفتوح ومات من حملة الحديث من مات ، وتفرق باقيهم فى البلاد ، وكان عند كل منهم شيء من الحديث ، وقد ينفرد بعضهم منه بما لم يسمعه سواه ، وقل الضبط وكاد يلتبس الباطل بالحق ، مست الحاجة إلى تدوينه .

وكان أول من أمر بتدوين الحديث عمر بن عبد العزيز إبان خلافته ، إذ رأى أن فى تدوينه ضبطاً له وإبقاء عليه .

جاء فى فتح البارى فى باب كتابة العلم : « وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة ، بأمر عمر بن عبد العزيز ، ثم كثر التدوين والتصنيف ، وحصل بذلك خير كثير » .

وجاء فى متن البخارى على هامش الفتح فى باب كيف يقبض العلم : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم — وكان عامله على المدينة كما قدمنا — : « انظر ما كان

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

قال فى الفتح : وقد رويت هذه القصة بلفظ : « كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » .

وفاته

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك ، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ! أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقًّا هو لهم ولم أكن لأعطيهم حقًّا هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فسيجعل الله له من أمره يسرا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعوا لي بني — وهم يومئذ بضعة عشر ذكرا — فجعل يصعّد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، ثم قال : بنفسي

فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بنى إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بنى إنى ميّلت رأيى بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار ، قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

وتوفى رحمه الله فى رجب سنة ١٠١ ﻫ وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر .

مصادر الترجمة

تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر بن جرير الطبرى	الجزء الثالث — الثامن
تاريخ الكامل لعز الدين بن الأثير	الجزء الخامس
مروج الذهب للمسعودى	الجزء الثانى
الإمامة والسياسة لابن قتيبة	الجزء الثانى
البداية والنهاية لابن كثير	الجزء التاسع
الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى	الجزء الأول — الثانى — الرابع — السابع — الثامن العاشر — السابع عشر — الثامن عشر — التاسع عشر — العشرون
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى	
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم	
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد	المجلد الثالث — الرابع
خزانة الأدب للبغدادى	الجزء الثانى

العقد الفريد لابن عبد ربه — الجزء الأول—الثانى— الثالث
البيان والتبيين للجاحظ — الجزء الثانى — الثالث
صبح الأعشى للقلقشندى — الجزء التاسع
معجم البلدان لياقوت الحموى — الجزء السادس
فتوح البلدان للبلاذرى
العمدة لابن رشيق القيروانى — الجزء الأول
وفيات الأعيان لابن خلكان — الجزء الأول
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى — الجزء الأول
الكامل للمبرد — الجزء الأول
سرح العيون لابن نباتة
الشعر والشعراء لابن قتيبة
الفخرى لابن طباطبا
صحيح الإمام البخارى — الجزء الأول
فتح البارى لابن حجر — الجزء الأول
ديوان جرير
الحسن البصرى لابن الجوزى

فهرس

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة على مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج٠ع٠م٠

